جامعة محمد الخامس
كلية الآداب و العلوم الانسانية
الرباط

(أخلاق الوزيرين) بين الواقع والفن
دراسة تحليلية لكتاب التوحيدي
ومكانته في فن الهجاء في النثر العباسي

رسالة

لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب

قدمها

الحسن بن محمد بوتبيا

تحت اشراف

الدكتور عزة حسن

1402 هـ ـ 1982 م

بسم الله الرحمن الرحيم

* مقدمة *

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على محمد
وعلى آله وصحبه

يستند التفكير ثم العمل في هذا البحث الى فكرة أساسية هي أن التوحيدي، كما هو شائع عند أكثر الناظرين في أدبه من القدماء والمحدثين، وضاع مختلق، افترى في كتابه (أخلاق الوزيرين) على الصاحب بن عباد وأبي الفضل بن العميد كذبا كثيرا،ووضع عليهما قصصا وأخبارا متنوعة عديدة زور بها صورتيهما وحقائق حياتهما تزويرا فاضحا مكشوفا. وكان هدفه من ذلك هو الهجاء والانتقام لنفسه ومكانته الثقافية والأدبية التي لم يعترف بها الوزيران الكبيران ، ولم تلق منهما الا التنكر والاهمال والاحتقار ، فجرّ عليه ذلك متاعب الطرد والنفي والغربة والحرمان في شطر مهم من حياته .

وغرضنا الأول هو تحديد المعاني والصور والأخبار المزورة الموضوعة ،وتمييزها من الحقائق التاريخية الواقعية الثابتة فيما صور به أبوحيان صاحبيه الوزيرين،وذلك بمحاولة استخلاص صورة لشخصية كل واحد منهما من كتب التاريخ والأدب والنقد والأخبار والتراجم ، ثم مقارنتهما بصورتهما في كتاب (أخلاق الوزيرين) ، حتى يتميز الصحيح من الزائف ، والواقعي من الخيالي ، في سلوك المشهورين الوزيرين وسيرتهما . اذ أن صورة ابن عباد وابن العميد الحقيقية تكاد تضيع بين أكوام الثناء المفرط الذي نقرؤه عنهما في كتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي مثلا ، وبين هجاء التوحيدي لهما في كتاب (أخلاق الوزيرين) الذي وصف بالكذب والمبالغة والتحامل . ولذلك كان مقصدنا الأول تمييز الحدود الفاصلة بين الصدق والكذب ، أو بين الواقع والفن في كتاب (أخلاق الوزيرين) .

وقد جمعنا مصادر البحث ومراجعه ، ثم أخذنا في دراستها وتصنيفها وتقويمها . وسرعان ما تبين لنا من خلالها صعوبة الفصل النهائي ، في آثار أبي حيان المتهمة بالوضع والتزيد خاصة ، بين ما حدث فعلا ، وتم نقله وتصويره بأسلوب تقريري مباشر ، وبين ما تسرب اليه خيال الكاتب وذاته ومقدرته الفنية في التصوير والتعبير . وذلك لأن الرجل يتمتع بخصوبة في قواه الخيالية المبدعة،ويمتلك أسلوبا قويا متدفقا ، ويستطيع لذلك أن ينسج من حادثة صغيرة أو كلمة عابرة خبرا مستقلا أو قصة متكاملة .

غير أننا لاحظنا بعد ذلك أن كتاب (أخلاق الوزيرين) يختلف اختلافا بينا عن غيره من آثار أبي حيان المتهمة بالوضع والتزوير، فهو كتاب يتناول موضوعا متميزا له خصوصيته الفارقة بينه وبين ما عرض له في آثاره المشابهة، وهو حياة وزيرين كبيرين معاصرين له قد ملأ الدنيا وشغلا الناس في حياتهما وبعد وفاتهما. ولذلك يحتاج الحديث عن مساوئهما والطعن في سلوكهما وأخلاقهما الى حظ غير قليل من الجرأة، ومن دلائل الصدق وتوخي الصواب والحق، ومزج الصحيح بالمنحول، ولو على سبيل المغالطة والتمويه، حتى يتيسر بلوغ المراد من هجائهما والانتقام منهما. والى ذلك أشار أبو حيان فقال وهو يدفع عن نفسه تهمة الكذب والتزوير في كتابه: "وابن عباد - حفظك الله - ليس بصغير القدر، وابن العميد لم يكن خامل الذكر، وما فيهما الا من هو غرة زمانه، وتاريخ دهره، لنباهته وصيته، وطول أيامه، واستداد دولته، ومساعدة جبر اده، وطاعة الناس له، وتوجه الاطماع اليه، فكيف يجزف الحديث عنهما مجزف، ويلزق الكذب بهما ملزق، أو يدعي الباطل عليهما مدع؟ هذا ما لا يطمع فيه حصيف، ولا يحمل عليه عاقل ..."(1).

ووجدنا أيضا عددا من الباحثين يؤكدون أن أبا حيان، على الرغم من اتهامه بالوضع والتزيد والتصرف في المرويات التي ينقلها ويرويها، لا يتجاوز في ذلك كله حدود الصياغة والتعبير، أما المعاني والصور التي يصورها والأحداث التي يصفها فهي في غالب الأحيان صحيحة ثابتة، لا سبيل الى الشك فيها وردها(2). بل ان أحد الباحثين، وهو الدكتور طه الحاجري، ينظر الى المسألة من زاوية علمية دقيقة شاملة، فيقول في حديثه عن صورة أبي الفضل ابن العميد التي استخلصها من كتاب (أخلاق الوزيرين) ذاته:

"وليس معنى ذلك أن هذه الصورة هي التي تمثل ابن العميد على حقيقته، فليس هناك، في حقيقة الأمر، حقيقة مطلقة يمكن أن توسم بها صورة أي انسان، فالحقيقة لا تتعدد، وصورة أي انسان هي ما ينعكس عنه في عقل أي انسان آخر، ومن ذلك كان لكل انسان عدد من الصور بقدر من نظروا اليه واتصلوا به.

فأبو الفضل ابن العميد عند أبي حيان شخص يختلف، كثيرا أو قليلا، عنه عند مسكويه مثلا، وهو عند مسكويه غيره عند سائر معاصريه الذين يختلفون فيما

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 477.

(2) انظر (أبو حيان التوحيدي: سيرته وآثاره) لعبد الرزاق محيي الدين ص 78-83، ومقدمة (المقابسات) بقلم محمد توفيق حسين ص 14-15.

بينهم في تمثله ،فضلا عمن جاؤوا بعده ،واعتمدوا في رسم صورته على ما يؤثر عنه من هنا وهنا "(1).

وبذلك كله قوي الأمل في دراسة الكتاب ومحاولة تمييز صحيحه من زائفه ، وتأكد العزم على مواصلة العمل بعد أن اتضحت معالم الطريق، وقد لاحظنا أن كتاب (أخلاق الوزيرين) ، فضلا عن كونه تدوينا لسيرة وزيرين كبيرين من خلال قصص وأخبار وأوصاف موجهة في أغلبها لغرض الانتقام والهجاء ، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالسياسة والثقافة والأدب والاجتماع في عصر التوحيدي ، يشتمل أيضا على بعض القصص والصور والأوصاف الساخرة التي عبث فيها أبو حيان بالوزيرين ، ومنح فيها الحرية لحاسته الفنية وقدراته الخيالية في التصوير والتهكم والتشويه . وهي السبب المباشر في اتهام الرجل بالكذب والتزوير والوضع في كتابه فيما نرى، لأنها تنتمي الى الجانب الفني الخيالي فيه. وذلك ما جعل مسألة التصوير الهزلي الساخر في الكتاب ،ومقارنته بما يشبهه في الكتب والرسائل الهجائية المشهورة التي أنشأها كبار كتاب النثر العباسي ، قضية مهمة من قضايا البحث التي ينبغي لنا الوقوف عندها وتفصيل القول فيها.

ولاحظنا أيضا أن أباحيان كتب مقدمة مطولة للكتاب ، خصصها للحديث عن علاقته بالوزيرين ، وللدفاع عن موقفه منهما ، وعن فن الهجاء ، وفوائده الخلقية والاجتماعية والأدبية العامة. وأورد خلالها عددا من الرسائل والأقوال والأخبار الهجائية التي أنتجها أسلافه من الكتاب المشهورين كالجاحظ وأبي العيناء وغيرهما. واذا أضفنا الى ذلك كله ما ورد في صلب الكتاب من رسائل الكتاب والأدباء المعاصرين لأبي حيان، وبعض أخبارهم وأقوالهم في هجاء الوزيرين ، أو في هجاء غيرهما من أنصارهما وأتباعهما ، كان فن الهجاء في النثر العباسي هو الغرض الأدبي العام الذي يكون الاطار الأكبر لموضوعنا ،وهو الذي يحتضن قضاياه ومسائله التي يطرحها كتاب أبي حيان مهما بلغت من الخصوصية والتفرد في تصويرها لسلوك وزيرين كبيرين وأغلاقهما المذمومة ،وهو الذي يربطها ويوحدها مهما تشعبت والتصقت بالحياة السياسية والفكرية والأدبية والاجتماعية في القرن الرابع الهجري.

ولكي يتم الالتزام التام بحدود هذا الاطار وبمجاله الزمني لم يكن

---

(1) (أبوحيان التوحيدي بين ابن العميد الأب وابن العميد الابن) مقال في مجلة (العربي) العدد 179، أكتوبر 1973، ص 139 – 140.

د

بد من الوقوف عند بعض الرسائل والآثار النثرية الهجائية المشهورة التي كتبت في عصر أبي حيان وبعده بقليل كرسالة أبي بكر الخوارزمي (- 384 هـ) في هجاء أبي الحسن البديهي، و(رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري (- 449هـ)، ورسالة أبي الوليد ابن زيدون (- 463هـ) الهزلية، حتى يتبين موقع كتاب (أخلاق الوزيرين) في فن الهجاء النثري، وصلاته المحتملة بما سبقه ولحقه من الآثار الأدبية المشابهة.

وكل ذلك أدى بنا الى صياغة عنوان البحث على الشكل التالي:

(أخلاق الوزيرين) بين الواقع والفن

دراسة تحليلية لكتاب التوحيدي ومكانته في تطور فن الهجاء في النثر العربي

وتم تسجيله لنيل دبلوم الدراسات العليا باشراف أستاذنا الدكتور صالح الأشتر.

ولم تمض مدة طويلة حتى انتهت عقدة أستاذنا الدكتور صالح الأشتر وغادر المغرب، وتفضل أستاذنا الدكتور عزة حسن بقبول الاشراف على البحث ومواصلة العمل فيه. فلاحظ أن كلمة "تطور" الواردة في العنوان غير مناسبة، وأنها تقتضي منا متابعة دقيقة لفن الهجاء في النثر العربي من بداية نشأته الى ازدهاره ثم انحطاطه، فاستقر الرأي على تعديله على النحو التالي:

(أخلاق الوزيرين) بين الواقع والفن

دراسة تحليلية لكتاب التوحيدي ومكانته في فن الهجاء في النثر العباسي

ومما سبق يتضح أن جوانب البحث تتحدد في القضايا الكبرى التالية:

(1) - التعريف بأبي حيان ودراسة العلاقة القائمة بينه وبين الوزيرين ابن عباد وابن العميد، ثم التعريف بكتابه (أخلاق الوزيرين) وتحديد موضوعاته وأهدافه العامة.

(2) - الصورة العامة لشخصية الصاحب ابن عباد الخلقية والسياسية والفكرية، ومكانته في الثقافة والأدب في عصره، من خلال كتب التاريخ والأدب والأخبار، ومقارنتها بصورته عند أبي حيان في كتابه (أخلاق الوزيرين).

(3) - الصورة العامة لشخصية أبي الفضل ابن العميد الخلقية والسياسية والفكرية ومدرسته الأدبية، من خلال كتب التاريخ والأدب والأخبار، ومقارنتها بصورته عند أبي حيان في كتابه.

(4) - مكانة كتاب (أخلاق الوزيرين) وموقعه في فن الهجاء في النثر العباسي. وهذا يستدعي نوعا من المقارنة بينه وبين أشهر الآثار في هذا الفن قبل أبي حيان وبعده.

وقد اعترضنا في سبيل الوفاء بذلك كله، والالتزام به، وبلوغ الغاية المتوخاة منه، صعوبات جمة، تتمثل في كثرة المصادر والمراجع عن أبي حيان

و الوزيرين ، وفي وفرة الأعلام المذكورة في الكتاب ، وتنوع مذاهبها ومشاربها ،وفي كثرة الاشارات التاريخية ،وتعدد المسائل الفكرية والأدبية والثقافية التي أوردها أبو حيان لغرض الاستشهاد والطعن في ثقافة الوزيرين وسلوكهما وأخلاقهما وعلاقاتهما المختلفة . أضف الى ذلك ما يتطلبه فن الهجاء في النثر ،والصلة بين الواقع والفن ، من وقوف على مصادر ومراجع أخرى، لا بد من الاستعانة بها حتى تكون الدراسة منسجمة مع البيئة الثقافية والأدبية العامة التي ألف فيها الكتاب ،ومع المفاهيم الحديثة في الأدب والفن.

وسيطول بنا المطاف لو ذهبنا في عرض مصادر البحث ومراجعه ،وحاولنا احصاء ما وقفنا عليه منها وتقويمه بصورة مفصلة . وسيرد ذكر الكثير منها في ثنايا البحث ،وفي فهرس المصادر والمراجع الذي ألحقناه به.

وتأتي كتب أبي حيان ورسائله التي وصلت الينا ،وعلى رأسها كتاب (أخلاق الوزيرين)، الى جانب آثار الوزيرين الشعرية والنثرية ، في مقدمة مصادر البحث الأساسية . ولا تخفى قيمتها وأهميتها الكبرى باعتبارها الصوت المباشر والتعبير الحي الذي صور فيه التوحيدي وابن عباد وابن العميد بعض ما شغل عقولهم، وأثار نفوسهم واهتماماتهم.

أما الكتاب والمصنفون والأدباء الذين عاصروا هؤلاء الأعلام الثلاثة،وكذلك أكثر المتأخرين عنهم من القدماء ، فقد سكت أغلبهم عن أبي حيان وعن صلته بصاحبيه ،ولم يتعرض لذكره الا القليلون بالقياس الى من ترجموا للوزيرين،وأوردوا نتفا متنوعة من أخبارهما وأقوالهما وأشعارهما. فقد بلغ الرجلان درجة كبيرة من النفوذ والسلطان والشهرة ،وكان لهما صدى واسع في الحياة السياسية والثقافية والأدبية في عصرهما وبعده . فتردد ذكرهما في كتب التاريخ والأدب والتراجم والأخبار والطبقات بوفرة ملحوظة . وكلما مرت السنون والقرون كثر التكرار والنقل مما ورد في المصادر المدونة في القرنين الرابع والخامس الهجريين. ولذلك فضلنا الاعتماد على كتب أصيلة من أمثال(تجارب الأمم) لمسكويه (ـ 420هـ) و (يتيمة الدهر) للثعالبي (ـ 426هـ) و(معجم الأدباء) لياقوت (ـ 626هـ) أكثر من الاعتماد على الموسوعات وكتب التراجم والطبقات التي جمعت في القرون المتأخرة .

وفي العصر الحديث كتب عنهما كثير من الباحثين المحدثين ،كما كتبوا عن أبي حيان بعد ظهور بعض كتبه وطبعها ونشرها . فظهرت عدة مقالات وبحوث ودراسات ،بعضها مستقل ،وبعضها الآخر ورد ضمن الكتب والمؤلفات التي تؤرخ للنقد والأدب في العصر العباسي . وهي كلها ،على كثرتها وتنوعها ، تعرض بهؤلاء

الأعلام ، وتتناول جوانب مختلفة من حياتهم وأدبهم وثقافتهم . ولا يخلو أكثرها من حديث عن الخصومة بين أبي حيان والوزيرين ، ومحاولة تحليلها وتفسيرها ، والبحث عن أسبابها ونتائجها .

الا أن الملاحظ أن الكثرة مما وقفنا عليه من تلك الدراسات والبحوث لم يطلع أصحابها على كتاب (أخلاق الوزيرين) الذي ظهر سنة (1961م) ، وهو المصدر الأساس والشاهد الأول في هذه الخصومة الأدبية الخصبة . واعتمد أغلبهم على تلك النقول التي اختارها ياقوت من الكتاب ، وساقها في كتابه (معجم الأدباء) ، وهي نقول ومختارات مهمة ، تعطي فكرة عامة عن كتاب (أخلاق الوزيرين) ، وتلخص قصة أبي حيان مع ابن عباد وابن العميد ، وخاصة اذا ضم اليها ما ورد عن الكتاب في (الامتاع والمؤانسة) . ولكنها مع ذلك لا تفي بالمراد أبدا ، ولا تحيط بمضمون الكتاب من جميع جوانبه .

وعلى الرغم من ذلك فان بعض الباحثين الذين استعانوا بتلك النقول في الكتابة عن أبي حيان والوزيرين لا تخلو أبحاثهم من الحقائق الثابتة والأحكام الصحيحة . بل ان منها ما له قيمته وأهميته الأكيدة في موضوعه ، ككتاب الأستاذ عبد الرزاق محيي الدين (أبو حيان التوحيدي : سيرته وآثاره) (1) وهو رسالة جامعية ، وأول دراسة مفصلة عن حياة أبي حيان وثقافته في جوانبها المتعددة . وقد ظلت معتمد أكثر الباحثين الذين كتبوا بعد ذلك عن أبي حيان . وكتاب الدكتور احسان عباس (أبو حيان التوحيدي) (2) . وكتاب الشيخ محمد حسن آل ياسين عن الصاحب ابن عباد ، وهو بعنوان (الصاحب ابن عباد : حياته وأدبه) (3) ، وقد اعترف فيه مؤلفه ، بالرغم من مشاركته للصاحب في التشيع والانتصار لأهله ، بأهمية كتاب (أخلاق الوزيرين) في الترجمة لابن عباد وابن العميد باعتباره أول مصدر مفصل عنهما مكتوب في عصرهما . واستخلص مما ورد منه عند ياقوت وفي (الامتاع والمؤانسة) أحكاما صالحة ، واعتمد فيه اعتمادا يكاد يكون مطلقا على ما جمعه العاملي في (أعيان الشيعة) من أخبار الوزير المشهور .

وظهر أيضا قبل طبع كتاب (أخلاق الوزيرين) أبحاث ودراسات أخرى لا ترتقي الى مستوى الكتب المذكورة ، ولكن لها فضل السبق الى التعريف بأبي حيان والوزيرين والتنويه بمكانتهم الفكرية والأدبية . فقد خصص الأستاذ خليل مردم دراستين مستقلتين

---

(1) طبع في مصر سنة (1949) وأعيد طبعه في بيروت سنة (1979) .
(2) طبع في بيروت سنة (1956) وأعيد طبعه سنة (1963) .
(3) طبع في بغداد سنة (1957)

لكل من ابن عباد وابن العميد (1)، وناقش الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع) (2) خصوصية أبي حيان لهما من خلال تعريفه بهم جميعا، وكذلك فعل الأستاذ محمد كرد علي في كتابه (أمراء البيان) (3).

أما الدكتور ابراهيم الكيلاني فقد كتب بحثا بالفرنسية عن أبي حيان وقدمه الى السربون سنة (1950) لنيل درجة الدكتوراة (4)، وتبعه الدكتور أحمد محمد الحوفي فكتب كتابا مستقلا عن أبي حيان (5)، وكتب الدكتور بدوي طبانة كتابا آخر عن الصاحب ابن عباد (6).

وبعد أن اكتشف الكتاب وطبع سنة (1961) (7) ظهر عدد آخر من الكتب والدراسات تتناول جوانب مختلفة من سيرة أبي حيان وكتبه وعلاقته بالوزيرين. ولعل أهمها، فيما نرى، كتاب الدكتور زكريا ابراهيم (أبو حيان التوحيدي: أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء) (8)، وقد اهتم فيه مؤلفه بالجانب الفلسفي والنفسي من سيرة أبي حيان وفكره وأدبه. وكتاب الدكتور مارك بيرجيه:

(9) Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi

وهو أوسع دراسة علمية عن أبي حيان. وكتاب الدكتور عبد الأمير الأعسم الخاص بتحليل كتاب (المقابسات)، وهو بعنوان (أبو حيان التوحيدي في كتاب "المقابسات") (10). ويأتي بعد هذه الكتب الثلاثة في الأهمية كتاب الدكتور محمود ابراهيم (أبو حيان التوحيدي في قضايا الانسان واللغة والعلوم) (11)، وكتاب الأستاذ علي دب (الأديب المفكر أبو حيان التوحيدي) (12).

---

(1) طبع كتابه عن ابن العميد في دمشق سنة (1931) وطبع كتابه عن الصاحب في دمشق أيضا سنة (1932)
(2) صدر سنة (1931) وله عدة طبعات.
(3) طبع بالقاهرة سنة (1937) وظهرت له بعد ذلك عدة طبعات.
(4) ترجمه المؤلف الى العربية ثم اختصره سنة (1957) وطبع بالقاهرة في سلسلة (نوابغ الفكر العربي)
(5) طبع في القاهرة سنة (1957) وأعيد طبعه سنة (1964)
(6) طبع بمصر سنة (1963) في سلسلة (أعلام العرب)، ويلاحظ أن مؤلفه لم يطلع على كتاب (أخلاق الوزيرين) برغم صدور طبعة الكيلاني له قبل هذا التاريخ.
(7) للكتاب طبعتان: الأولى بتحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني وقد صدرت في التاريخ المذكور عن دار الفكر بدمشق بعنوان (مثالب الوزيرين). والثانية بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، وصدرت سنة (1965) في مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق تحت عنوان (أخلاق الوزيرين). ومعتمدنا في هذا البحث على هذه الطبعة الأخيرة لأنها أدق وأحكم، وأكثر اتباعا لقواعد التحقيق العلمي الصحيح. أما الأصل المخطوط للطبعتين فهو محفوظ في مكتبة أسعد أفندي بأستانبول برقم 3542 ضمن مجموع.
(8) طبع بمصر سنة (1964) وأعيد طبعه سنة (1974).
(9) هو رسالة دكتوراة نوقشت في السوربون سنة (1974) وطبعها المعهد الفرنسي في دمشق سنة (1979)
(10) طبع في بيروت سنة (1980)
(11) طبع في بيروت سنة (1974).
(12) طبع سنة (1976) بليبيا وأعيد طبعه في تونس سنة (1980).

ولما كان أبو حيان والوزيران ابن عباد وابن العميد شخصيات أدبية كبيرة يطرحون عددا كثيرا متنوعا من القضايا الأدبية والفكرية والاجتماعية ،وكانت مصادر ذلك كله ومراجعه متعددة ومتنوعة كما رأينا ،فقد جعلنا من كتاب(أخلاق الوزيرين) أساس البحث ،واتخذنا ما ورد فيه من أوصاف الوزيرين والموضوعات المختلفة قضايا رئيسية في المناقشة والتحليل . ولم نتجاوزها الى غيرها الا لضرورة من ضرورات المقارنة والاستدلال ،وربطناها بمجالاتها السياسية والفكرية والأدبية والأخلاقية، وهو ربط لا بد منه حتى يفهم الكتاب والموضوعات الواردة فيه فهما صحيحا .

ولم نعن كثيرا بالرد على الباحثين الذين سبقونا الى الكتابة عن أبي حيان والوزيرين ومناقشة آرائهم واستنتاجاتهم ،اعترافا بفضلهم قبل كل شيء ،وحرصا على الاختصار وتجنب فضول الكلام ،ولأن عذر الكثير منهم قائم واضح ،لأنهم لم يطلعوا على النص الأصلي الكامل لمصدر الخصومة الأول الذي هو كتاب (أخلاق الوزيرين) كما قلنا . ثم ان ما توصلنا اليه من النتائج وعرضناه من الآراء والأفكار على ضوء نص الكتاب ردود غير مباشرة عليهم ،سرعان ما يدرك القارئ الفروق بينها وبين ما أوردوه من آراء مناقضة . وهدفنا الأول على أية حال هو اقامة دراستنا على نص الكتاب واستنطاق أبي حيان قبل غيره.

أما الخطة التي سلكناها في تحليل الكتاب ومناقشة القضايا والموضوعات التي يثيرها ويتحدث عنها، فقد بنيناها على تقسيم البحث كله الى ثلاثة أبواب رئيسية ،يتميز كل منها عن الآخر ،وينفرد بدراسة جوانب متشابهة من جوانب الكتاب ،والقضايا الضرورية لتحليله وفهمه :

الباب الأول : وخصصناه للتعريف بالكتاب ،وبالعوامل الذاتية والموضوعية المؤثرة في تأليفه وتوجيه موضوعاته ومعانيه . وجعلناه في تمهيد وفصلين :

التمهيد : وصفنا فيه -بايجاز- الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية أثناء القرن الرابع الهجري ،وذلك لأن الوزيرين ابن عباد وابن العميد ساهما بحظ وافر في توجيه الحياة العامة في عصرهما ،ولأن الكشف عن هذه الظروف التي ألف فيها الكتاب يساهم في تحليله،وابراز صوره ومعانيه ،ويفسر الاشارات المتعددة الواردة فيه . وهي بذلك تعتبر شاهدة على موقف أبي حيان الخاص من مجتمعه ، وعلى رؤيته المتميزة لتناقضات عصره التي أدانها بسخط ومرارة.

الفصل الأول : خصصناه للتعريف بأبي حيان ومناقشة صلته بالوزيرين ابن عباد وابن العميد على ضوء ما يضيفه كتاب (أخلاق الوزيرين) من معلومات وحقائق الى ما كان معروفا عن هذه الصلة ،وأثرها في حياته بوجه عام . وحاولنا رسم منحنى لتطور حياته وفكره من خلال الحقائق الكبرى التي تنطق بها سيرته وكتبه.

ويلحق بالدراسات المذكورة مقالان قيمان: أحدهما للدكتور احسان عباس وهو بعنوان: (أبو حيان وعلم الكلام)[1] حدد فيه موقف الرجل من هذا العلم الذي بلغ غاية النضج في عصره. وثانيهما للأستاذ البشير المجذوب بعنوان: (النقد الأدبي عند أبي حيان التوحيدي)[2]، وله قيمة أكيدة في الكشف عن هذا الجانب من أدب كاتبنا الكبير. يضاف الى ذلك كله ما كتبه الدكتور احسان عباس عن النقد عند أبي حيان والصاحب ابن عباد في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، والمقدمات التي كتبت لبعض كتب أبي حيان كمقدمة (المقابسات) بقلم حسن السندوبي، ومقدمة (الامتاع والمؤانسة) ومقدمة (الهوامل والشوامل) وكلاهما بقلم أحمد أمين، ومقدمة (المقابسات) التي كتبها محمد توفيق حسين لطبعته المحققة من هذا الكتاب.

وكتب أيضا عن أبي حيان والوزيرين مقالات عديدة في المجلات المختلفة، وفصول في كتب تاريخ الأدب والنقد، أعرضنا عن ذكرها هنا وفي فهرس المصادر والمراجع أيضا، بسبب كثرتها وقلة قيمة الكثير منها، ولما فيها من تكرار لما ورد في الدراسات المهمة المذكورة.

ومن ذلك كله تتضح خصوصية بحثنا وتفرده في مناقشة الخصومة بين أبي حيان والوزيرين، ودراسة أثرها في سلوكه وانعكاساتها الاجتماعية والفكرية والأدبية في ذهنه وخياله، من خلال مصدرها الأصلي الذي هو كتاب (أخلاق الوزيرين). اذ أن طائفة كبيرة ممن درس أبا حيان وابن عباد وابن العميد من الباحثين المحدثين كتبوا بحوثهم ومقالاتهم قبل أن يكتشف هذا الكتاب ويطبع. والذين وقفوا منهم عليه لم يجعلوا تحليله ودراسته التفصيلية هدفهم وغايتهم، فلم نعثر بين البحوث والدراسات التي وقفنا عليها على أي بحث أو تحليل مفصل خاص بالكتاب، ولم نجد الا بعض المقالات السريعة التي أعجب أصحابها بالكتاب ومؤلفه فأشادوا بهما معا[3]. كذلك لم يحاول أحد ممن وقفنا على بحوثهم ومقالاتهم ابراز مكانة الكتاب في الأدب الهجائي النثري في العصر العباسي، ولا ربطه بما سبقه ولحقه من الآثار المشابهة. وهو شيء تستوجبه دراسة الكتاب كما رأينا، اذ لا يصح أن يكون نبتة غريبة شاذة لا أصل لها ولا فرع.

---

(1) مجلة (الأبحاث)، الجزء الثاني، السنة (19) حزيران سنة 1977، بيروت.

(2) مجلة (الدراسات)، العدد الثاني، نوفمبر سنة 1977، تونس.

(3) انظر مجلة (العلوم) العدد العاشر، السنة (12) أكتوبر 1967، مقال (التوحيدي والانسان) بقلم مهدي النبيدي، ومجلة (المعرفة) عدد (37) السنة الرابعة، مارس 1065 سوريا، مقال في باب عرض الكتب عن كتاب (مثالب الوزيرين) بقلم محمد عنبر.

الفصل الثاني : وفيه عرفنا بالكتاب ، وبأسباب تأليفه ومصادره وأهدافه، وحددنا الموضوعات المختلفة التي وردت فيه ،وناقشنا مسألة الهجاء فيه ، ومدى أثرها في اتهام أبي حيان بالزندقة ، وفي مصير كتابه ،ثم حددنا بعض المقاييس الخلقية والمبادئ الفكرية التي اهتدى بها المؤلف في هجاء الوزيرين وفي تدوين مظاهر سلوكهما وأخلاقهما.

وبذلك كله يتهيأ لنا تحليل مضامين الكتاب ،ومناقشة صوره وأساليبه، وتحديد مكانته في فن الهجاء في النثر العباسي.

الباب الثاني : وخصصناه لتحليل مضامين الكتاب ، وعرض المساوئ والمعاني الهجائية التي وصفه بها أبوحيان الوزيرين ، مع مقارنتها بما يثبتها أو ينفيها في الأخبار والقصص المشابهة التي وردت في المصادر والمراجع المختلفة التي أشرنا اليها. وقسمناه الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : درسنا فيه ما ورد في مقدمة أبي حيان لكتابه من دفاع عن فن الهجاء عامة ،وعن موقفه من الوزيرين خاصة ،واستماتته في سبيل اثبات شرعية هذا الفن وصلاحيته للممارسة والتداول ، بشواهد من القرآن والسنة وسير الأدباء والكتاب السابقين ،مع ايراد نماذج من أقوالهم وأشعارهم ورسائلهم. وهي مقدمة طويلة حقا ، لها أهميتها الخاصة في دراسة فن الهجاء من الناحية النظرية ،ومدى نجاح الكتاب المترسلين قبل أبي حيان في تطويع النثر الفني للتعبير عن هذا الغرض الأدبي.

ولذلك تتبعنا معنى الهجاء عند النقاد والأدباء القدماء،وتحديد أنواعه المشهورة المتداولة بينهم ،وناقشنا مدى صدق فن الهجاء والسخر في نقل الدقائق التاريخية والفنية، ودفاع أبي حيان عنهما. ثم حددنا الأسباب الأساسية التي تحمل الأدباء على الثلب والتهكم والانتقام ،وكذلك الأوصاف الخلقية التي يدور عليها هذا الفن ، وحاولنا بعد ذلك رسم صورة عامة لفن الهجاء لدى كتاب النثر العباسي قبل عصر أبي حيان . وكل ذلك أشاره أبو حيان في مقدمته.

الفصل الثاني : وفيه درسنا شخصية الصاحب ابن عباد الذي تناوله أبو حيان مباشرة بعد فراغه من مقدمته على الرغم من تأخره في الزمن عن أبي الفضل ابن العميد ، اذ أنه الشخصية الرئيسية في الكتاب ، والسبب الأكبر الدافع لأبي حيان الى كتابته . فقد قضى معه وقتا أطول مما قضاه مع أبي الفضل ،وكانت تجربته في قصره أقسى تجربة مرت به في حياته . ولذلك صرف أكثر كتابه الى الحديث عنه ، وقدمه على أبي الفضل ابن العميد .

وقد تمسكنا في دراسة هذه الشخصية المتميزة من خلال الكتاب بالمقاييس الأساسية التي بنى عليها أبو حيان كتابه، وهي أربعة أركان اعتبرها دعائم الوجود الانساني بكامله، وهي الخلق والدين والعلم والعقل. فدرسنا أولا الجانب الخلقي ثم الديني من شخصية الوزير الكبير، ثم الجانب الثقافي: الفكري والأدبي، ثم جانب السياسة والتدبير، وفي هذا الأخير تجلى جنون الرجل في أظهر صوره كما يدعي أبو حيان.

الفصل الثالث: خصصناه لدراسة شخصية أبي الفضل ابن العميد وابنه أبي الفتح بالطريقة نفسها التي درسنا بها شخصية الصاحب. وبه يتم عرض موضوعات الكتاب والكثرة المطلقة من مادته ومعانيه.

وفي كل ذلك نأتي بوصف أبي حيان لجانب من جوانب الشخصية المدروسة في سلوكها وأخلاقها وتفكيرها وأدبها، ثم نقارنه بما ورد من ذلك عند غيره من الأدباء والمؤرخين، متوخين الاقتصاد في الحكم، وعدم الاسراف في التشنيع على هذا أو ذاك.

الباب الثالث: تناولنا فيه بالدرس والتحليل جانب التصوير والتعبير في الكتاب، وحاولنا تحديد موقعه في فن الهجاء النثري في العصر العباسي، وجعلناه في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ناقشنا فيه مسألة الوضع والاختلاق في الكتاب، والصلة بين الواقع والفن، من منظور أبي حيان الأدبي والفني، وفهمه الخاص لهذه القضية الشائكة في الأدب العربي القديم. فعرضنا أولا تهمة الوضع في الكتاب كما أطلقها القدماء، ثم تتبعنا دلائل تجرد أبي حيان ونزاهته في تدوينه مساوئ الوزيرين ابن عباد وابن العميد، وأتبعناها بدلائل الوضع والاختلاق، حتى تصح المقارنة والاستنتاج، ويمكن ادراك العلاقة القائمة بين اتهام أبي حيان بالكذب والتزوير في كتابه وبين التصوير الفني والأدبي فيه، وحتى يمكن أيضا تمييز الأخبار التاريخية الواقعة فعلا من الأخبار والقصص التي تسرب اليها خيال الكاتب وفنه. وذلك ما أهمله القدماء فخلطوا بين الواقع والفن في الحكم على الكتاب وصاحبه.

وقد جعلنا هذا الفصل في مستهل الباب الثالث، لأنه يربط بين الجانب الواقعي من الكتاب الذي سبق وصفه وتحليله في الباب الثاني، وبين الجانب الفني الذي خصصنا له الباب الثالث.

الفصل الثاني: تحدثنا فيه عن الأشكال التصويرية والأساليب التعبيرية التي توسل بها أبو حيان الى تصوير شخصيتي الوزيرين ونقل موضوعات كتابه.

فبدأناه بتتبع الصور الهزلية الساخرة في الكتاب ومحاولة رصد أشكالها المختلفة، وميزنا بعض القصص الهزلية التي عبث فيها أبو حيان بصاحبيه فدرسنا من خلالها التصوير القصصي في الكتاب، لننتقل بعد ذلك الى الهجاء الفاحش المقذع الذي وصف فيه أبو حيان بعض مساوئ الوزيرين بطريقة تقريرية مباشرة، وذلك ما أسلمنا الى الحديث عن طريقته الخاصة في الكتابة والبيان، وهي الطريقة التي صور بها أغلب موضوعات كتابه ومعانيه، وأورد كثيرا من خصائصها في صلب الكتاب نفسه من خلال مآخذه على كتابة الصاحب وابن العميد،.وحاولنا أن نربط بين مزايا طريقته التعبيرية وبين مبادئه الفكرية والفلسفية،وأن نحدد التأثير البارز الذي كان لفكر أبي حيان على أدبه.

الفصل الثالث: وبه ختمنا البحث، وخصصناه لمقارنة بعض جوانب من الكتاب ببعض الآثار النثرية المشهورة المشابهة التي ألفت في عصر أبي حيان وبعده، تتميما لما بدأناه في الفصل الأول من الباب الثاني من البحث عن مكانة الكتاب في فن الهجاء في النثر العباسي.

فحددنا أولا بعض الموضوعات والصور التي اقتدى فيها المؤلف بمن سبقه من الكتاب والأدباء، وخاصة أبا عثمان الجاحظ وأبا العيناء، ثم حللنا الرسائل الهجائية الواردة في الكتاب منسوبة الى بعض الكتاب المعاصرين لأبي حيان في هجاء الوزيرين، أو في هجاء غيرهما من الكتاب والوزراء، وتتبعنا من خلالها المعاني والأوصاف الهجائية المشتركة بين أبي حيان والجاحظ وغيرهما من كتاب فن الهجاء في العصر العباسي، ثم انتقلنا الى الرسائل والآثار الهجائية المشهورة في عصر أبي حيان وبعده، فعرضنا رسائل بعض الكتاب الكبار كرسالة أبي بكر الخوارزمي في العبث بأبي الحسن البديهي، ورسالة أبي النصر العتبي في هجاء أحد منافسيه، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري في معابثة ابن القارح، ورسالة ابن زيدون الهزلية وغيرها.

وفي كل ذلك نتتبع المعاني والأوصاف المشتركة بين كتاب فن الهجاء، ونبحث عن أوجه التشابه والتقارب بينهم، وعن ملامح التأثر والتأثير، ونحاول من خلال ذلك تكوين صورة عامة عن هذا الغرض الأدبي في النثر العباسي، وعن مكانة الكتاب فيه.

وبذلك تتم الدورة ويبلغ تسلسل أبواب البحث وفصوله نهايته وغايته،ويتضح تناسقها وترابطها وانسجامها.

وقد عرفنا بمعظم الأعلام الواردة في البحث، واخترنا ايراد كل تعريف في الموضع الذي نناقش فيه قضية من القضايا المهمة

المتصلة بالشخصية المصرف بها ، ثم نحيل عليه عند الضرورة فيما اذا تقدم ذكر العلم قبل الترجمة له ، او تكرر ذكره بعدها . كما اعتمدنا في ترقيم الآيات القرآنية على قراءة ورش لرواية نافع المنتشرة في المصاحف المغربية . وذيلنا البحث بفهارس تفصيلية تسهل الوقوف على ما ورد فيه من موضوعات وقضايا وأعلام ، وتعين على الرجوع الى مواضع النصوص في المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها . ونحمد الله العلي القدير على ما يسره وهدى اليه .

وفي كل ما تقدم من خطوات البحث ومراحله كان لنا أستاذنا الدكتور عزة حسن خير رفيق ومعين ، بما عرف فيه من سعة الصدر وحسن الاقبال ، والحرص على التحقيق والتدقيق . فاليه أزجي خالص شكري وتقديري ، كما أشكر أستاذي الدكتور صالح الأشتر الذي رعى فكرة البحث الأولى ، وأفادني في اختيار الموضوع ومعرفة حدوده .

والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* تمهيد *

الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية في القرن الرابع الهجري

يتناول كتاب (أخلاق الوزيرين) حياة وزيرين كبيرين من وزراء الدولة البويهية (334-447)[1] ويبحث في سيرتهما وسلوكهما، وهما أبو الفضل أحمد بن الحسين ابن العميد (-360)[2] وأبو القاسم اسماعيل ابن عباد بن العباس الملقب بالصاحب (-385)[3]، وكان لهذين الوزيرين أثر ظاهر في الحياة السياسية والثقافية في زمنهما، ليس في مواطن حكمهما ونفوذهما فحسب، بل في أغلب المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية التي ارتبطت بالحكم البويهي بسبب أو بآخر كما سنرى. كما يؤرخ هذا الكتاب فترة مهمة من حياة أبي حيان، كان لها أبلغ الأثر وأعمقه، في تحديد وجهته وموقفه من عصره ومعاصريه. ولذلك ينبغي لنا استهلال هذا البحث بعرض مختصر للمعالم الكبرى السياسية والاجتماعية والثقافية، التي تميز الفترة التي ترتبط بها موضوعاته وقضاياه، وتجري فيها أحداثه وقصصه وأخباره، وذلك ما يوضح المناخ الفكري والاجتماعي الذي كتب فيه أبو حيان كتابه، ويبرز بعض المؤثرات العامة التي أثرت في نفسه وعقله أثناء كتابة الكتاب.

ولما كان القرن الهجري الرابع يضم أبا حيان وصاحبيه، ويمثل الفترة المزدهرة من حياتهم جميعا، ومن حياة الدولة البويهية التي عاشوا في ظلها، فسنقتصر في هذا التمهيد على الحديث عن المجتمع العباسي أثناء هذا القرن، الذي يعد بحق أزهى العصور الثقافية الاسلامية، ويبرز كثيرا من الظواهر السياسية والاجتماعية التي ساهمت القرون السابقة في نشأتها وتكوينها، وكان لها تأثيرها فيما تلاه من القرون.

* الحياة السياسية في القرن الرابع الهجري *

تميز الربع الأول من هذا القرن بالاضطرابات المتوالية والحروب المتصلة بسبب الصراع الذي احتدم حول السلطة والنفوذ منذ مقتل المتوكل على الله سنة (247)[4]. فقد ضعف الخلفاء من بعده، وصار أمرهم الى

173

(1) تجارب الأمم 1/ 295، 2/ 84، والمختصر في أخبار البشر 2/ 94، وتاريخ ابن خلدون 4/ 493.

(2) وفيات الأعيان 5/ 109.

(3) المصدر نفسه 1/ 131.

(4) الفخري ص 237.

الأمراء المتغلبين ،يتصرفون في توليتهم وعزلهم كما يشاؤون ،ولم يكد القرن الرابع يهل حتى "ظهر اختلال الدولة العباسية و غشيت الفتنة ببغداد" (1) .

وبرغم ظهور وزراء مقتدرين كآل الفرات ،وعلي بن عيسى (-334هـ) ،وحامد بن العباس (-311هـ) (2) ،حال سوء الوضع الاقتصادي و السياسي و الفساد الاداري بينهم وبين تدبير الأمور تدبيرا محكما . وهذا صاحب المختصر يصف ما آل اليه العالم الاسلامي سنة (324 هـ) من التمزق و التناحر ،وكأنه يضع حدودا فاصلة بين عهدين متميزين فقال :"في هذه السنة قبض الحجرية و المظفر بن ياقوت على الوزير ابن مقلة لما حضر دار الخليفة على العادة ،وأرسلوا أعلموا الخليفة (3) فاستحسن ذلك ،ثم اتفقوا على وزارة علي بن عيسى فامتنع ،فولوا الوزارة أخاه عبد الرحمن بن عيسى ،ثم قبض عليه ،وولوا الوزارة أبا جعفر محمد بن قاسم الكرخي . وفي هذه السنة قطع ابن رائق حمل واسط و البصرة ،وقطع البريدي حمل الأهواز و أعمالها ،فضاقت أموال بغداد ،وعجز أبو جعفر الوزير فعزلوه ، فراسل الخليفة محمد بن رائق وهو بواسط يستقدمه. ومن حين دخل ابن رائق بطلت الوزارة من بغداد ،وبقي ابن رائق هو الناظر في الأمور جميعها ، وتغلب عمال الأطراف عليها ،ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها و الحكم فيها لابن رائق ،وليس للخليفة فيها حكم ،وأما باقي الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق المذكور وخوزستان في يد البريدي ،وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ،وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس ،والري وأصفهان و الجبل في يد ركن الدولة بن بويه و يد وشمكير بن زيار أخي مرداويج يتنازعان عليها ،والموصل وديار بكر وربيعة في يد بني حمدان ،ومصر والشام في يد الاخشيد محمد بن طغج ،والمغرب وافريقية في يد القائم العلوي ابن المهدي ، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي الملقب بالناصر ،وطبرستان وجرجان في يد الديلم ،والبحرين و اليمامة في يد أبي طاهر القرمطي" (4).

واستمرت الفتنة و الحرب بين هؤلاء الأمراء و الرؤساء طيلة الفترة الموالية الى سنة (334هـ) ،وخاصة بين ابن رائق وبجكم وتوزون و الحمدانيين و البريدي ،وكل منهم يحاول السيطرة على الخلافة في بغداد وحكم العالم الاسلامي باسمها . ولم يحسم النزاع بينهم الا قدوم معز الدولة البويهي في السنة المذكورة ، ودخوله بغداد واستقراره بها ،واعتراف المستكفي بالله به أميرا للأمراء .

---

(1) مرآة الجنان 2/ 249.

(2) الفخري ص 265-269 ،وستأتي تراجم هؤلاء الوزراء في ص 10-11 .

(3) هو الراضي بالله ،بويع في سنة (322هـ) وتوفي سنة (329هـ) . انظر الفخري ص280.

(4) المختصر في أخبار البشر 2/ 83-84 ،وانظر تجارب الأمم 1/ 356.

فضعفت أطماع الاء تراك وغيرهم في عاصمة الخلافة وتحول عنها أغلبهم.(1)

ومن هذا التاريخ صارت بغداد غالبا في أيدي البويهيين ،يدافعون عنها هجمات الاتراك وأمراء الأطراف في أيام الضعف . أما في حالات القوة فيواصلون الزحف على ممالك هؤلاء الأمراء في محاولة اخضاعهم وتوحيدهم. أما الخلفاء فازداد أمرهم ادبارا ،ولم يبق لهم من الأمر شيء ،وتسلم نواب معز الدولة العراق بأسره.(2) ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه له معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته.

العهد البويهي

لم يكن آل بويه معروفين قبل التوسع المفاجئ الذي حققوه مع بداية الربع الثاني من القرن الرابع الهجري ، وكل ما يعرف عنهم أنهم من أصل فارسي ينتسبون لقوم يسمون الديلم،مشهورين بالجلد والخشونة.(3) وقد دخلوا الاسلام على يد الشيعة الزيدية الذين التجؤوا الى بلادهم اثر مضايقة العباسيين لهم في مناطق نفوذهم .وتبدأ أسرتهم بأبي شجاع بويه الذي كان فقيرا يعيش هو وأولاده الثلاثة على صيد السمك والاحتطاب ،ونظرا لفقره فقد دفع بأولاده جنودا مرتزقة لدى قواد الديلم.(4) وكان أكبرهم أبو الحسين علي بن بويه (عماد الدولة) ثم أبو علي الحسن بن بويه (ركن الدولة) ثم أبو الحسين أحمد بن بويه (معز الدولة) . وكان الأولان في بداية أمرهما قائدين من قواد ما كان بن كاكي الديلمي الذي كان يحكم بلدان فارس الى جانب كل من مرداويج وأسفار بن شيرويه. ولكن ما لبث مرداويج أن تغلب على ماكان وهزمه،فانحاز اليه القائدان البويهيان بعد ضعف صاحبهما فقبلهما مرداويج ،وخلع عليهما وقلد كلا منهما ناحية من نواحي الجبل ، فقصد علي بن بويه ناحيته بالكرج بمساعدة أبي عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد (والد أبي الفضل) وزير مرداويج .(5) فلما وصل اليهما ضبط أمرها أحسن ضبط، واستمال اليه الناس من الكبار والصغار ، فقوي شأنه ، وما لبث أن استولى على أصفهان،(6) واتفقت له اتفاقات حسنة أضيفت الى صفاته القيادية كالشجاعة والصبر والسخاء ،كانت كلها سببا في ثبات أمره ورسوخ دولته ،وكان ذلك كله في سنة (322هـ).(7)

---

(1) انظر تفصيل ذلك في تجارب الامم 2/ 84 - 85 والمختصر 2/ 94.
(2) المختصر 2/ 94 وانظر تجارب الأمم 1/ 366.
(3) انظر تحقيق نسبهم في تاريخ ابن خلدون 4/ 426 وانظر الفخري ص 277.
(4) الملل والنحل 1/ 156 وانظر قصة اسلامهم في مروج الذهب 4/ 373 فمابعدها.
(5) تجارب الأمم 1/ 295 وانظر الفخري ص 278.
(6) تجارب الأمم 1/ 295 فمابعدها.
(7) تاريخ ابن خلدون 4/ 427

وفي السنة التي تلتها هاجم بعض الغلمان الأتراك السلطان مرداويج في الحمام فقتلوه ، وكان في نفسه "أن يملك بغداد ويعقد التاج على رأسه،ويعيد ملك الفرس فعوجل بالقتل" وبقي أخوه وشمكير ينازعهم وأولاده البويهيين وغيرهم على جزء من مملكته طيلة القرن الرابع.(1)

وفي هذه الفترة كان الصراع قد بلغ أشده حول بغداد بين البريدي وابن رائق وتوزون والخليفة الراضي بالله،(2) واستمرت الحرب والفتن والخدع بينهم كما انتشرت المجاعة والاضطراب وأنواع اللصوصية ،الى أن تم لأبي الحسين أحمد بن بويه معز الدولة دخول بغداد والاستيلاء عليها والاستقرار بها في سنة (334) هـ كما سبق القول.(3)

أما أخواه ركن الدولة وعماد الدولة فقد واصلا الكفاح ضد السامانيين وغيرهم من القواد والحكام حتى استقر أمرهما وحكمهما في عاصمتين كبيرتين هما شيراز والري، وبذلك صارت القوى التي تتوزع السيطرة على البلاد الشرقية الاسلامية ثلاثا،هي بنو بويه في شيراز والري ، وآل سامان في خراسان وما وراء النهر، وآل وشمكير ينازعون بني بويه وآل سامان على بعض المدن والقرى المجاورة لمناطق نفوذهم.

وفي سنة (338) هـ أدرك الأجل عماد الدولة فتوفي في(4) قاعدة ملكه بشيراز بعد أن استخلف ابن أخيه عضد الدولة أبا شجاع فنا خسرو ابن ركن الدولة. وبينما كانت شيراز وبغداد تنعمان بالهدوء والاطمئنان كانت الري وأعمالها تتعرض لهجوم الخراسانيين والأتراك حتى كاد الامر ينتقض على ركن الدولة لولا حنكة وزيره أبي الفضل ابن العميد،(5) كما تعرضت أيضا لفتنة داخلية خطيرة قادها بعض قواد الديلم الذين كانوا ينافسون بني بويه على السلطنة وكادوا يهدمون ملكهم من أساسه.(6)

أما معز الدولة في بغداد فقد قام بمحاولات لفتح عمان واخضاع كافور الاخشيدي بمصر،(7) وما لبث أن وافته منيته ببغداد سنة (356هـ) ،بعد

---

(1) تجارب الأمم 1/ 310 وانظر المختصر 2/ 82

(2) المختصر 2/ 85-89.

(3) انظر ما سبق في ص3-4 وانظر تجارب الأمم 2/ 84-85 والمختصر 2/ 94.

(4) المختصر 2/ 99.

(5) تجارب الأمم 2/ 141، 159 وانظر الكامل 7/ 18.

(6) انظر تفصيل ذلك في تجارب الأمم 2/ 162-166.

(7) تجارب الأمم 2/ 172، 196.

أن عهد لابنه بختيار الملقب بعز الدولة (1)، وأوصاه عدة وصايا خالفها كلها "واشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء" (2) ففسدت علاقته بالجند وقواده من الأتراك والديلم، فعصوه وخرجوا على طاعته، فلم يجد بدا من مصادرة الأعيان وذوي الشأن واليسار في مملكته لارضاء طلبات الجند وتسكين شغبهم، ولكن آثار سياسته الفاسدة سرعان ما ظهرت في سنة (361هـ) في فتنة شاملة عمت بغداد وغيرها من المدن والقرى، حتى خربت عاصمة الخلافة "بكثرة الفتن واستطالة العامة وحدوث الحروب فيها واثارة بعضها على بعض، وكثرة رؤسائهم الناجمين فيهم، حتى حصل في كل محلة عدة رؤساء من العيارين، يحامون على محلتهم ويجبونهم الأموال، ويحاربون من يليهم، فهم لذلك متحاقدون يغزو بعضهم بعضا ليلا ونهارا، ويحرق بعضهم دور بعض، ويغير كل قوم على اخوانهم وجيرانهم" (3) كما اشتملت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة، وعجز بختيار عن تسكينها والقضاء عليها، بل زادها قوة وانتشارا بالاسراف في المصادرة، وتسليم وزارته لطباخه ابن بقية الذي كان "يقتل بالشك والظن كل من يصلح لمكانه من أهل الكفاية والكتابة" (4) وكل ذلك "لسوء نظر بختيار، حتى سقطت الهيبة، وانبسطت العامة، وأغار بعضها على بعض، وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية وفشا القتل" (5).

ولما ضاقت به الحيل في دفع الأتراك والقضاء على الفتنة "كتب الى الحضرتين بفارس والري يشكو ما نزل به، ويسأل أن يكشف عنه" (6) وكان ذلك في سنة (363هـ). فما كان من عمه ركن الدولة وهو بالري الا أن أمر ابنه عضد الدولة الذي كان بشيراز، بنجدته والمسير اليه، وأرسل معه وزيره أبا الفتح ابن العميد، ولم يصلا الى العراق حتى أشرفت على الهلاك، بسبب النهب والسلب وتوالي الفتن والحروب. وكان عضد الدولة حريصا على ذلك حتى يفسد أمر بختيار ويحصل العراق لنفسه (7). ولما دخل بغداد وقضى على الفتنة سنة (364هـ) احتال للبقاء بها والقضاء على بختيار، فزين لقواده الشورة عليه ومطالبته بالأموال، الأمر الذي أدى به الى التدخل والقبض على ابن عمه وايداعه السجن، ولكن والده

---

(1) تجارب الأمم 2/ 231، 234 وانظر المختصر 2/ 106.
(2) تجارب الأمم 2/ 234.
(3) المصدر نفسه 2/ 305.
(4) نفسه 2/ 321. وستأتي ترجمة الوزير ابن بقية في ص 11 حاشية رقم 2.
(5) نفسه 2/ 314.
(6) نفسه 2/ 329.
(7) الكامل 7/ 59 وانظر المختصر 2/ 114.

ركن الدولة استنكر فعله وعدده بالويل والثبور، كما عدد وزيره أبا الفتح ابن العميد، وذلك ما جعله يفرج عن بختيار ويسلم له السلطة في بغداد، ويعود الى شيراز في السنة نفسها.

ولما كانت سنة (366هـ) انتقل ركن الدولة الى جوار ربه بعد أن "عهد الى ولده عضد الدولة بالملك بعده، وبجعل لولده فخر الدولة أبي الحسين همذان وأعمال الجبل، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها، وجعلهما في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة"(1). وبذلك فتحت الطريق أمام عضد الدولة نحو العراق ليحقق آماله في السيطرة على عاصمة الخلافة، فاستعرت الحرب بينه وبين بختيار حتى أجلاه عنها وقتله سنة (368هـ)(2)، فانتهت عهود الفتنة والاضطراب، ودخل العراق في عهد من الطمأنينة والاستقرار "وخرست الألسن التي كانت تجبر الجرائر، وتشب النوائر، بما أظلها من السلطان القامع والتدبير الجامع"(3).

وانصرف عضد الدولة بعد ذلك الى عمارة بغداد، والانفاق على المصالح العمومية، وعلى الفقراء والعجزة، والأدباء والفلاسفة والشعراء وغيرهم من أرباب العلوم والفنون(4)، واهتم بتوسيع مملكته وتركيز سلطانه لدى أمراء الأطراف ودولها في الشرق والغرب "وكانت نفسه تنازعه الى مصر خاصة، والى ديار الكفر بعد ذلك من الروم وما والاهما"(5). وبذلك حصل له ما لم يحصل لأحد من السلاطين قبله من السيطرة والنفوذ والاستقرار والوحدة "وكان عاقلا لبيبا فاضلا، حسن السياسة، كثير الاصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأي محبا للفضائل وأهلها، باذلا في مواضع العطاء، مانعا في أماكن الحزم، ناظرا في عواقب الأمور"(6).

وبعد وفاته سنة (372هـ) تولى مملكته ابنه صمصام الدولة الذي نازعه عليها أخواه شرف الدولة ثم بهاء الدولة، فاستسلمت مملكته مرة أخرى في شيراز وبغداد للاضطرابات والفتن والحروب. فقد نصب صمصام الدولة مكان أبيه

---

(1) الكامل 7/ 80
(2) المصدر نفسه 7/ 81. وانظر المختصر 2/ 119.
(3) تجارب الأمم 2/ 409.
(4) نفسه 2/ 408. وفي ذيل تجارب الأمم لأبي شجاع ص39-53 فصل مطول عن شخصيته وصفاته.
(5) تجارب الأمم 2/ 409. وفي غزوه لمملكة فخر الدولة بهمدان تعرف على الصاحب ابن عباد. انظر أخلاق الوزيرين ص 94.
(6) الكامل 7/ 113. وانظر تجارب الأمم 2/ 408.

بالرغم من كونه أصغر سنا من شرف الدولة الذي كان منفيا في فارس ، فقام النزاع بينهما الى سنة (376هـ) حين استطاع شرف الدولة الانتصار على أخيه والقبض عليه واعتقاله ونفيه ، ثم كحله بعد ذلك[1]، الا أن عاصمة الخلافة العباسية لم تلبث أن خلصت لأخيهما الأصغر أبي نصر بهاء الدولة سنة (379هـ) اثر وفاة شرف الدولة وهو في عز الشباب.

أما البلدان الشرقية فلم يكن الأمر فيها يختلف كثيرا عما هو عليه في بغداد فقد كان الحكم في معظمها لمؤيد الدولة تحت امرة أخيه عضد الدولة وبعد وفاته سنة (379هـ) احتال وزيره الصاحب ابن عباد حتى استدعى فخر الدولة أخاهما الثالث الأصغر الذي كان ملتجئا الى قابوس بن وشمكير مطاردا من قبل أخويه[2]، فتولى مملكة أخيه في الري[3]. وكان كل من فخر الدولة ومؤيد الدولة تنازعهما آمالهما ورغباتهما، كعضد الدولة من قبلهما، الى بغداد للاستيلاء عليها وحكمها، غير أن أبناء عضد الدولة، بفضل تدبير والدهما وحنكته وبعد صيته وقوته، استطاعوا الحفاظ على ممالكه والاستمرار في ممارسة الحكم فيها، بالرغم من الخلاف بينهم وضعفهم وانقسامهم.

وتمتعت الري في هذه الفترة بالهدوء والاستقرار والمنعة بفضل خضوعها لفخر الدولة الذي كان أكبر من بقي من أبناء بويه، وبفضل حنكة وزيره الصاحب ابن عباد وحسن تدبيره.

أما شيراز فقد استطاع صمصام الدولة، بالرغم من عماه، أن يفلت من سجنه ويستولي عليها، وتمكن من أن يعقد صلحا بينه وبين بهاء الدولة سنة (368هـ)[5] ما لبث أن انتقض بسبب ضعف السلطة في بغداد بكثرة الفتن وضعفها ولأجل القتل والقبض، وتوالي الدسائس بين بهاء الدولة وأمير البطائح مهذب الدولة، ومع الأعيان والوزراء الذين لا يمكثون في الوزارة الا أياما ما أو أشهرا. ومع ذلك لم يلبث صمصام الدولة أن فسد أمره، بسبب خروج ولدين من أبناء بختيار عليه وتمكنهما من قتله سنة (388هـ)[6].

---

(1) ذيل تجارب الامم ص80 فما بعدها وانظر الكامل 7/ 125
(2) شرح اليميني 1/ 105، وستأتي ترجمة قابوس في ص 243 حاشية رقم 1
(3) ذيل تجارب الأمم ص93، وانظر الكامل 7/ 117
(4) ذيل تجارب الامم ص91 وانظر الكامل 7/ 139
(5) ذيل تجارب الأمم ص260 ، 265 ، 182 ـ 185.
(6) نفسه ص311 ، وانظر المختصر 2/ 134

../..

وبذلك صفا الجو لبهاء الدولة في بغداد بالرغم من الفتن المحيطة به وضعف نفوذه . فاجتمعت عليه الكلمة، وانضم اليه أعيان شيراز وقوادها فاستقرت دولته واستقامت أموره وأحواله، وذلك لأنه الابن الأكبر الباقي من أبناء عضد الدولة ،ولا يوجد أحد في هذا الوقت يستحق الملك غيره سوى عمه فخر الدولة ،وهو مشغول بشؤون مملكته في الري وما والاها . ولم يلبث أن توفي سنة (387هـ)(1) ،فازدادت بموته أمور بهاء الدولة اتساقا واطرادا ،وطالت أيامه ومدة حكمه واستمرت الى سنة (403هـ) حين وافاه أجله . ولم يساعده على ذلك كله الا تدبير والده وسمعته(2)، والا فان الأحوال في عهده لم تختلف عما كانت عليه في عهد أخويه صمصام الدولة وشرف الدولة من السوء والاضطراب . ولذلك قال أبو شجاع وهو يختم حديثه عنه :" فهل ترى في الجميع ما شرح من أخبار الدولة البهائية نظاما مستقيما يحمد سلوك مذاهبه ،وتدبيرا جيدا ينتفع بمعرفة تجاربه؟ كلا ،فجميعه واهي الأسباب ،وما يجري فيه من صواب فانما هو بالاتفاق"(3).

وعند ما توفي فخر الدولة تولى ابنه أبو طالب رستم الملقب بمجد الدولة وعمره أربع سنوات ،وهذا ما أدى بوالدته الى التصرف في شؤون الدولة ،وكان المرجع اليها " في تدبير الملك ،وعن رأيها يصدرون ..."(4) . وكانت تعتمد كثيرا على مشورة بدر بن حسنويه قائد الأكراد ،وبسبب ذلك كله قام الصراع على الحكم في الري وأعمالها ،وكانت نتيجته استحكام الضعف والاضطراب واستمرارهما الى سنة(420هـ) حين استنفد مجد الدولة جميع حيله في الاصلاح ولم ينجح ،فلم يجد بدا من الاستنجاد بالسلطان محمود الغزنوي الذي أسره وقضى على دولته (5) .

ومثل ذلك حصل في بغداد وشيراز الماصمتين الأخريين من عواصم البويهيين اللتين كانتا خاضعتين لأبناء عضد الدولة ،فقد استطاع بهاء الدولة برغم الصعوبات التي اعترضته ،الحفاظ عليها الى حين وفاته سنة (403هـ) كما عرفنا . فاختلف على الملك من بعده اثنان من أبنائه هما أبو شجاع سلطان الدولة ثم جلال الدولة الذي استمر في الحكم الى سنة (435هـ) ليخلفه أبو كاليجار ابن سلطان الدولة الى سنة (440هـ) حيث توفي تاركا أحد أبنائه في الحكم ،وهو الملك الرحيم الذي انقضت دولة البويهيين في عهده سنة(447هـ) على يد الأمير طغرلبك السلجوقي (6) الذي دخل بغداد .

---

(1) ذيل تجارب الأمم ص296
(2) المصدر نفسه ص77 ،وانظر الامتاع والمؤانسة 3/ 65 ،والكامل 7/ 113
(3) ذيل تجارب الأمم ص256
(4) الكامل 7/ 186 ، وانظر ذيل تجارب الأمم ص297 والمختصر 2/ 133
(5) شرح اليميني 2/ 193- 200 ،وانظر الكامل 7/ 237 ،والمختصر 2/ 157
(6) المختصر 2/ 173

وهكذا يلاحظ أن عاصمة الخلافة بغداد كانت عرضة للفتن والاضطرابات السياسية والحروب طيلة القرن الهجري الرابع أثناء الحكم البويهي، باستثناء فترتين قصيرتين من استيلاء معز الدولة وعضد الدولة عليها، ساد فيهما الهدوء والاستقرار الى حد ما، على عكس ما عليه الحال في شيراز أيام حكم ركن الدولة ووزارة أبي الفضل ابن العميد، وفي الري أثناء حكم فخر الدولة ووزارة الصاحب ابن عباد، اذ نعمت هاتان العاصمتان باستقرار طويل نسبيا، امتد على الاقل طيلة حياة الوزيرين المذكورين.

****

الوزراء المشهورون في القرن الرابع الهجري

يعرف ابن الطقطقي الوزير بأنه " وسيط بين الملك ورعيته "(1). وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام الوزارة منذ بداية أمرهم، واعتمدوا عليه في تنظيم شؤون الدولة. ففي العصر العباسي الأول شغل هذا المنصب وزراء اغلبهم من أصل فارسي، وكانوا أقوياء بقوة الخلافة، خاضعين للخلفاء العباسيين خضوعا تاما يأتمرون بأوامرهم ويتصرفون في حدود ارادتهم (2) أما في العهد الثاني فقد ضعف شأن الوزارة بضعف الخلفاء وقلة نفوذهم، حتى بلغ شأنها في بداية القرن الرابع درجة قصوى من سوء التصرف وضآلة النفوذ وحقارة المنزلة، بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية العامة، وتفشي الرشوة وايثار المصلحة الخاصة وغيرها، لذلك تعاقب على الوزارة في أيام المقتدر بالله (295 - 320 ه) (3) وزراء عديدون لا يكاد أحدهم يستقر على كرسي الوزارة حتى تضطره الظروف السياسية والتدخلات والرشاوى للتخلي عنها وتولية وزير آخر.

فمن وزرائه أبو الحسن ابن الفرات (4) الذي تولى وزارته ثلاث مرات (5)، وأبو علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان (6) وعلي بن عيسى (7) وحامد

---

(1) الفخري ص 152.
(2) تاريخ ابن خلدون (المقدمة)، 1/ 198 - 199
(3) الفخري ص 260 - 265.
(4) أبو الحسن علي بن محمد بن موسى، من أجل الناس وأعظمهم كرما وجودا وحسن تدبير، تولى وزارة المقتدر بالله ثلاث مرات متفاوتة الى أن نكب وقتل سنة (312 ه). ترجمته في مروج الذهب 4/ 304 - 305 والفخري ص 265 - 266 وتحفة الأمراء ص 11 فما بعدها.
(5) تحفة الأمراء ص 28 فما بعدها.
(6) من أسرة عريقة في الرئاسة والوزارة كان والده وزيرا للمتوكل ثم المعتمد ترجمته في مروج الذهب 4/ 304 - 305 وتحفة الأمراء ص 284 - 304 والفخري ص 266 - 267 والأعلام 8/ 3 - 4
(7) علي بن عيسى بن داود بن الجراح، من أفاضل الوزراء وزهادهم ومن أعيان وزراء المقتدر والقاهر ~~والمستظهر~~. توفي سنة (334 ه). انظر الفهرست ص 192، وتحفة الأمراء ص 305 فما بعدها والفخري ص 267 - 268.

../..

ابن العباس (1) ، وأبوعلي ابن مقلة (2) الذى " بذل فيها ما مبلغه خمسمائة ألف دينار " (3) ،و تولاها كذلك ثلاث مرات لكل من المقتدر بالله و القاهر والراضي بالله .كما تولاها آخرون للمقتدر بالله ولمن جاء بعده من الخلفاء سوى من ذكرنا هم ممن لاشأن لهم ولا شهرة ، يتقلدونها رغبة في النهب و جمع الأموال فاذا عجزوا عن اشباع أطماعهم و أطماع أوليائهم تخلوا عنها ،و كثيرا ما يمكثون فيها مدة قليلة لاتزيد أحيانا على الشهر . (4)

و هكذا " اضطربت أحوال الخلافة ولم يبق لها رونق . و تملك البويهيون وصارت الوزارة من جهتهم ، والأعمال اليهم ،وقرر للخلفاء شيء طفيف برسم اخراجاتهم " (5) ،وبذلك انفسح المجال أمام البويهيين و وزرائهم للتصرف المطلق في شؤون الامة ومصالحها وخيراتها بكل الطرق الممكنة .فمن هم أشهر الوزراء البويهيين ؟ .

عندما دخل معز الدولة البويهي بغداد سنة (334 ه) كان معه أبو جعفر الصيمري كاتبا له ووزيرا .ولما انتقل هذا الى جوار ربه سنة (339 ه) استكتب معز الدولة من بعده أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي (6) ، ولكنه لم يخاطبه باسم الوزارة الا في سنة (345 ه) . وكان مهيبا فصيحا تشهد أخباره بقوة شخصيته وسعة ثقافته وخبرته ،و هو القائل " والله لاأكونن في دولة الديلم أول من يذكر ،ان فاتني أن كنت في دولة بني العباس آخر من يذكر " (7) .

ولما توفي سنة (352 ه) في طريقه لفتح عمان صودرت أملاكه شر مصادرة

---

(1) من مشاهير وزراء المقتدر بالله ،كان كريما مفضالا متجملا وفي عهده قتل الحلاج انظر مروج الذهب 132 ، 305 ج 4 ،والفخرى ص 268 .

(2) أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة ،وزير شاعر أديب عرف بجودة الخط نقم عليه الراضي فقطع يده اليمنى ولسانه وسجنه الى أن مات سنة 328 ه ترجمته في المنتظم 6/ 309، ووفيات الأعيان 5/ 113 - 118 ، والفخري ص286 وشذرات الذهب 2/ 310 .

(3) الفخري ص272 و 280 .

(4) الفخري ص 285

(5) المصدر نفسه ص288

(6) من ولد قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ،كان جامعا لأدوات الرئاسة من فصاحة وشجاعة وسخاء ومعرفة برسوم الكتابة وقواعد التدبير ،و كان له مع شعراء عصره وأدبائه مجالس وأخبار وقصص . انظر تجارب الامم 2/ 124، واليتيمة 2/ 223 - 240 ،ووفيات الأعيان 2/ 124 - 127 ،فوات الوفيات 1/ 353-354

(7) الامتاع والمؤانسة 3/ 213 .

استنكرها الخاص والعام (1) . وتولى وزارة معز الدولة بعده وزراء لم تكن لهم خصاله وشهرته . ثم استطاع ابن بقية(2) أن يفوز بثقة بختيار ويتولى الوزارة ، "فتعجب الناس من وزارته" (3) لأنه كان قبل ذلك طباخ بختيار "يقدم الطعام اليه، ويحمل الغضائر بيده ، ويتشح بمنا ديل الغمر ، ويذوق الألوان عند تقديمه اياها" (4) فلم تزدد أيام حكم بختيار في وزارته وبسببه الا سوءا وتدهورا . وكان هو السبب في اشعال نار العداوة بين بختيار وعضد الدولة الذى قتل بختيار كما سبق القول (5) ، وأسر وزيره سنة (367هـ) وصلبه (6) .

ولم يشتهر أحد من الوزراء في أيام عضد الدولة لكونه يعتمد على كفاءته وتدبيره أكثر من تفويضه لغيره ، وذلك على الرغم من أنه استوزر وزيرين في وقت واحد وهما : المطهر بن عبد الله ونصر بن هارون (7) ، ولكن لم يؤثر عنهما شيء لكونهما خاضعين له في أغلب تصرفاتهما وأفعالهما .

أما ابنه صمصام الدولة فقد استوزر رجالا مشهورا بالكرم والفضل واتساع الثقافة والمعرفة ، وله صلة وثيقة بموضوعنا ، هو أبو عبد الله العارض الحسين بن أحمد ابن سعدان (8) ، اذ كان الوحيد الذى نجح أبو حيان في النيل من بره والنفاق عنده بواسطة صديقه أبي الوفاء المهندس كما سنرى . وشهرته ترجع قبل أي شيء الى هذه الصلة ، فقد أفاض أبو حيان في الثناء عليه والاشادة به وبأصحابه وحاشيته (9) .

---

(1) تجارب الأمم 2/ 196 فما بعدها

(2) أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية بن علي الملقب نصير الدولة ، كان من جلة الرؤساء وأعيان الكرماء ، قبض عليه عضد الدولة بعد وصوله الى بختيار وسمل عينيه ، ثم ألقاه عضد الدولة تحت أرجل الفيلة الى أن قتل فصلبه سنة (367هـ) ترجمته في تجارب الأمم 2/ 313 ، ووفيات الأعيان 5/ 118 – 124 وشذرات الذهب 3/ 63 والعبر 2/ 346 .

(3) تجارب الأمم 2/ 313 وانظر المختصر 2/ 113 .

(4) تجارب الأمم 2/ 313 ، وانظر المختصر 2/ 113

(5) انظر ما سبق في صفحة 6 – 7 .

(6) المختصر 2/ 119 ، وانظر شذرات الذهب 3/ 63 والامتاع والمؤانسة 1/ 41– 42

(7) تجارب الأمم 2/ 412 .

(8) ذيل تجارب الأمم ص 85 وستأتي ترجمته في ص 62 حاشية رقم 1 .

(9) الصداقة والصديق ص 77 – 84

ولكنه لم يلبث في الوزارة الا نحو ا من ثلاث سنوات (373 ـ 375 هـ) فقد نجح خصمه اللدود أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف في الكيد له والايقاع به وتولى الوزارة بعده (1) . الا انه سرعان ما فسد أمره كذلك ، بسبب سوء الاحوال العامة في عهد بهاء الدولة ، فقد شاعت سياسة الغدر والحيلة والدسائس مرة أخرى فانحطت الوزارة واتضع شأنها في بغداد (2) ، فلم يظهر وزير مقتدر طيلة فترة حكمه سوى أبي نصر سابور بن أردشير(3) الذي كان وزير شرف الدولة قبله ، وكان كريما فاضلا محبا للعلم وأهله ، وأسس خزانة عظيمة للكتب سماها دار العلم (4) .

ومن أشهر وزراء آل بويه في العراق أيضا أبو غالب(5) فخر الملك الذي ولاه سلطان الدولة ابن بهاء الدولة شؤون بغداد ، "وكان من أعظم وزراء آل بويه على الاطلاق بعد أبي الفضل محمد بن العميد والصاحب بن عباد ... وكان واسع النعمة فسيح مجال الهمة ، جم الفضائل والافضال ، جزيل العطايا والنوال ... " (6) وقتله صاحبه مظلوما سنة (407 هـ) .

وأشهر وزراء بني بويه هو أبو الفضل محمد بن الحسين ابن العميد الذي تولى الوزارة لركن الدولة طيلة حياته الى أن توفي سنة (360 هـ) ثم تولاها من بعده ابنه أبو الفتح ذو الكفايتين ، فاستمر فيها الى أن توفي ركن الدولة سنة (366 هـ) ، فتولى مملكة الري من بعده ابنه مؤيد الدولة الذي كان سندا قويا لاعداء أبي الفتح وعلى رأسهم الصاحب بن عباد وعضد الدولة ، فتمكنوا من الايقاع به وقتله في السنة المذكورة ، فتولى الوزارة من بعده الصاحب بن عباد لمؤيد الدولة الى سنة (385 هـ) سنة وفاته ، وهؤلاء الوزراء الثلاثة هم

---

(1) ذيل تجارب الامم ص 102 و 106 ، وستأتي ترجمة ابن يوسف في ص 64
(2) المصدر نفسه ص 255 ، 265 .
(3) أبو نصر سابور بن اردشير الملقب بهاء الدولة ، كان من أكابر الوزراء في عصره خبيرا بشؤون السياسة والحرب والتدبير . توفي سنة (416 هـ) . انظر اليتيمة 3/ 124 فما بعدها ، وفيات الاعيان 2/ 354 ـ 356 وشذرات الذهب 3/ 104 .
(4) ذيل تجارب الامم ص 137 ، 240 ، 252 ، وانظر الكامل 7/ 162
(5) أبو غالب محمد بن علي بن خلف الملقب فخر الملك . انظر ترجمته في وفيات الاعيان 5/ 124 ـ 127 ، والعبر 3/ 97 ، والمختصر 2/ 147 ، ومرآة الجنان 3/ 10 .
(6) وفيات الاعيان 5/ 124

الوزراء الفارسيون الكبار الذين استهدفهم أبوحيان في كتابه (أخلاق الوزرين) وسيكونون موضوع العد يثفي معظم جوانب هذا البحث بحول الله (1)

أما الخلفاء العباسيون الذين عاصرهم أبوحيان والوزيران ابن العميد وابن عباد والبويهيون، فلم يكن لهم تأثير في الحياة السياسية خلال القرن الرابع الهجري . ومن الحديث بالمصادر الخوض في صنوف الهوان والعذاب والذل والمصادرة التي تعرضوا لها من الأمراء والسلاطين الذين عاصروهم . وسنكتفي بذكر أسمائهم بالترتيب، وهم المقتدر بالله (295 – 320 هـ) (2) والقاهر بالله (320 – 322 هـ) (3) والراضي بالله (322 – 329 هـ) (4) والمتقي لله (329هـ – 333 هـ) (5) والمستكفي بالله (333 – 334 هـ) (6) والمطيع لله (334 – 363هـ) (7) والطائع لله (363 – 381 هـ) (8) والقادر بالله (381 – 422 هـ) (9) والقائم بأمر الله (422 – 467 هـ) (10) وفي عهده انتهى أمر الدولة البويهية .

ويلاحظ على العموم ،عند ما نقارن بين وزراء الخلفاء والوزراء البويهيين في القرن الرابع ،أن وزراء بني بويه سواء في فارس أو في العراق أقوى وأكثر نفوذا وحرية تصرف ،من وزراء الخلفاء ،بل هم لايكادون يختلفون عن مشاهير الوزراء في العهد الذهبي للدولة العباسية كما سيتضح في ثنايا هذا البحث بحول الله .

---

(1) انظر ما سبق في صفحة 2 .
(2) الفخري ص 260 ، 265
(3) نفسه ص 276، 280
(4) نفسه ص 280
(5) نفسه ص 284
(6) نفسه ص287
(7) نفسه ص 289
(8) نفسه ص 290
(9) نفسه ص 291
(10) نفسه ص 291

* الحالة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري *

لاشك أن الظروف السياسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة الاجتماعية وبينهما تأثر وتأثير متبادلان، وذلك بسبب ارتباط المصالح الفردية بالمصالح الجماعية ولأن المجتمع في حاجة مستمرة الى سلطة قوية تنظم شؤونه وعلاقات أفراده فيما بينهم، وذلك لأن " العلاقة التي بين السلطان وبين الرعية قوية لأنها الهيئة " (1)، ولأن " الملك لايكون ملكا الا بالرعية، كما أن الرعية لاتكون رعية الا لملك، وهذا من الأحوال المتضايفة والأسماء المتناصفة، وبسبب هذه العلاقة المحكمة والوصلة الوشيجة، صار لهجت العامة بتصرف حال سائسها، والناظر في أمرها، والمالك لزمامها، حتى تكون على بيان من رفاهة عيشها، وطيب حياتها ودرور مواردها، بالأمن الفاشي فيها والعدل الفائض عليها، والخير المجلوب اليها. وهذا أمر جار على نظام الطبيعة، ومندوب اليه أيضا في أحكام الشريعة " (2).

وهذا الارتباط أدركه علماء الاجتماع والفلاسفة القدماء، وقدم كل منهم حسب تصوره وفلسفته "المدنية" حلولا مختلفة واقتراحات متعددة لعلاج مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع، كما أسهمت الديانات أيضا في حلها، وذلك " لأن الشريعة سياسة الله في الخلق، والملك سياسة الناس للناس، على أن الشريعة متى خلت من السياسة كانت ناقصة، والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة" (3) فالاجتماع اذا ضروري، كما أن تنظيم المجتمع أكثر ضرورة، فلابد من وازع يدفع بعض البشر عن بعض" لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم " (4) كما يقول ابن خلدون.

والمجتمع الاسلامي ليس بدعا في المجتمعات الانسانية، فهو كذلك عانى هذه المشكلة وعرف فوائد القيادة ومضارها، كما أدرك ضرورة الخضوع لسياسة ونظام ينظمان حياة أفراده حسب منهج الشريعة الاسلامية في الحكم والتدبير. ولقد شهد خلال تطوره كثيرا من التجارب والأساليب في السياسة والحكم، فانتشر العدل والسلام في بعضها الى درجة تقرب من المثالية والكمال، كما هو الحال في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وتميز بعضها الآخر بالاضطراب وعدم الانضباط والخضوع لأية سلطة بشرية أو دينية، وذلك بفعل

---

(1) الامتاع والمؤانسة 3/ 87
(2) المصدر نفسه 3/ 87
(3) نفسه 2/ 33
(4) تاريخ ابن خلدون (المقدمة) 1/ 36

التطور وتقدم الزمن ، وطرؤ العناصر الأجنبية البشرية والفكرية على الحياة الاجتماعية الاسلامية فلم يكد القرن الهجري الرابع يبدأ حتى كانت الظروف والأحداث تميل بالمجتمع الاسلامي نحو الاضطراب والاختلال . فبعد القوة والتماسك اللذين شاهدهما العصر العباسي الأول ،بفضل قوة خلفائه،وقوة الانطلاقة الحضارية الشاملة لكل شؤون الحياة والانسان ، أخذ المجتمع يميل نحو الضعف السياسي والانحلال الخلقي في القرن الهجري الرابع . وبعد البحث النظري عن الحلول العقلية والشرعية للمعضلات النفسية والفكرية والاجتماعية والاخلاقية التي جابهها الانسان المسلم في ظل ظروف جديدة ،تختلف تمام الاختلاف عن ماضيه المترسب في أعماقه ،ذلك البحث النظري الجدي الشامل الذي أنتج انتاجا ثقافيا وفكريا مهما ،تجلى في التشريع ونشأة المذاهب،والتدوين والترجمة ،وجمع التراث الأدبي والخلقي ،تحول هذا الانسان في القرن الرابع ،بعد التأثر والاحتكاك والتجربة ،الى انسان آخر امتزج في نفسه وتفكيره،وأخلاقه ماضيه وحاضره ،فاختلف بذلك تمام الاختلاف عما كان عليه آباؤه وأجداده الأقربون .(1)

وهذا التغير هو الذي لاحظه الكتاب والمفكرون وسايروه وعبروا عنه منذ بدايته في القرن الثالث الى أن استفحل وطغى في القرن الهجري الرابع . وأقرب مثال على ذلك بعض رسائل الجاحظ وكتبه التي تصور ظاهر الشذوذ في سلوك معاصريهم وأخلاقهم، ورسائل اخوان الصفاء التي حاول فيها أصحابها تطهير المجتمع والشريعة والدين بالفلسفة والمنطق(2) وبعض كتب أبي حيان ورسائله التي تصور الأزمة تصويرا مؤثرا وتحللها بجرأة وعنف. فقد جاء في (رسالة التربيع والتدوير) قول أبي عثمان الجاحظ : " اعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحذافيرها ، وسلخها من جميع معانيها ،ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين قردة أوكما مسخ بعض الأمم خنازير لكان قد بقي بعض أمورها ،وحبس عليها بعض أعراضها ،كبقية ما مع القرد في ظاهره من شبه الآدمي ،وبقية ما مع الخنزير في باطنه من شبه البشري ،لكنه جل ذكره مسخ الدنيا مسخا متبعا ،ومستقصى مستفرغا ،فبين حاليهما جميع التضاد وبين معنييهما غاية الخلاف"(3). وقال أبو حيان وهو يصف زمانه على لسان بعض

---

(1) انظر الأدب في ظل بني بويه ص 36 فما بعدها .

(2) الامتاع والمؤانسة 2/ 4 وانظر تاريخ الفلسفة في الاسلام لدي بور ص159 .

(3) رسائل الجاحظ تحقيق حسن السندوبي ص 240

معاصريه : " يا هذا ، خلت الدنيا من الكرم والكرام ، واصطلح الناس على قلة المباعاة بالفضائل ، وكان هذا كله منوطا بالخلافة فانقضت أيام الصدر الأول بالدين الخالص ، وأيام بني مروان بالرياء والسمعة ، وأيام بني العباس بالمروءات والتوسع في الشهوات ، ولم يبق بعد هذا شيء (1) " . وقال أيضا : " ان الزمان قد استحال عن المعهود ، وجفا عن القيام بوظائف الديانات ، وعادات أهل المروءات ، لأمور شرحها يطول ... فلا جرم أعضل الداء ، وأشكل الدواء ، وغلبت الحيرة ، وفقد المرشد ، وقل المسترشد ، والله المستعان (2) " . وبذلك تكون الصفة الغالبة المشتركة بين جميع فئات الأمة في القرن الرابع الهجري هي الاضطراب الشامل وتدهور الحياة الاجتماعية وترديها في الفوضى والتمزق والانحلال والفساد . وذلك ما يفصلها فصلا ظاهرا عن الماضي المشرق في القرنين الأول والثاني الذي لم يبق منه الآن الا أخباره وذكرياته .

والسبب في ذلك كله يرجع الى عاملين أساسيين كبيرين :

أولهما الافتقار الى نظام سياسي قار ، وسلطة مركزية قوية ، تنظم شؤون الافراد والجماعات ، وتسهر على مصلحة الأمة الداخلية والخارجية ، ويكون صوتها مسموعا مهيبا . فقد سقطت هذه السلطة وضعف نظامها السياسي والاداري بضعف الخلفاء العباسيين واستسلامهم للأمراء والسلاطين المتغلبين كما سبق القول ، وذلك ما أدى الى توالي الفتن والحروب وعدم انقطاعها الا في فترات قليلة (3) .

وثانيهما أن هذه الحروب المتوالية التي شهدها القرن الرابع الهجري والفتن الداخلية المصحوبة بالنهب والاستيلاء ، كانت كلها في حاجة الى نفقات وأموال عظيمة لتمويلها ، وسد حاجات الجنود ورغباتهم المادية ، التي صعب التحكم فيها وضبطها ، في غياب السلطة السياسية والادارية القوية القادرة على تنظيم علاقات طبيعية بين أفراد الأمة وفئاتها ، وذلك كله خلق أزمة اقتصادية عميقة أسهمت اسهاما كبيرا في التدهور والاضطراب في المجتمع العباسي أثناء هذا القرن .

لقد كانت مصادر بيت المال التقليدية من خراج وجزية وما أشبههما غير كافية في هذا العصر لسد الحاجات المتزايدة للخلفاء والوزراء وأمراء في العيش المترف ، والحفاظ على السلطة التي تهتز بين وقت وآخر ، لذلك كثرت مصادرات ذوي اليسار من أغنياء وأعيان وأمراء وكتاب دواوين ووزراء . (4) كما أن المناصب

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 487 .

(2) الامتاع والمؤانسة 2/ 21

(3) تجارب الأمم 2/ 303 ، وانظر الامتاع 3/ 150 والكامل 7/ 44 ، 167 ومرآة الجنان 2/ 408 ، وظهور الاسلام 1/ 90

(4) في تحفة الأمراء ص 245 فما بعدها ، ثبت مطول بأسماء من صادرهم المحسن ابن الفرات ، وفي ص 60 — 71 من المصدر المذكور تفصيل لمأساة آل الفرات .

الكبرى كالوزارة والقضاء والامارة والولاية كانت تشترى بالأموال الباهظة (1) تدفع للوزراء الذين يشترون أيضا مناصبهم ، أو للخلفاء والأمراء . ولم تقتصر المصادرة على هؤلاء وحدهم ، بل كانت تمتد الى الخلفاء أنفسهم وخاصة على عهد البويهيين الذين استمروا في السياسة نفسها ، وكانوا أحوج ممن سبقهم الى الأموال بسبب اتساع الممالك التي يشرفون عليها ، بل ان دولتهم قامت منذ بدايتها على النهب وكثرة المنايبة بجمع الأموال (2) ولذلك صادر معز الدولة وزيره أبا محمد المهلبي بعد وفاته شر مصادرة (3) ، كما صادر بهاء الدولة الخليفة الطائع لله (4) ، وصودر الصاحب ابن عباد بعد وفاته بالرغم من وفرة أموال فخر الدولة الذي صادره (5) .

ولم تكن الاضطرابات السياسية هي وحدها سبب الأزمة الاقتصادية ، بل كان لها سبب آخر يتمثل في الاسراف في النفقات (6) ، في المآكل والملابس وبناء القصور وإقامة الحفلات في المواسم والأعياد ، ومحاولة الظهور في كل الأحوال بمظهر الأبهة والملك . وكل ذلك أدى الى التغيير الشامل الذي لاحظه الأدباء والمفكرون وعلى رأسهم أبو حيان كما سبق القول ، وأنهك ميزانية الدولة وأفقر الشعب .

وتحملت الطبقات الدنيا نتائج الاضطراب السياسي الذي أدى الى خراب الاقتصاد وفساد الأخلاق وتغيير القيم واهتزازها . فالفلاحون وأصحاب الأراضي تعرضوا لصنوف الضرائب والمصادرات حتى كانوا يضطرون الى هجرة أراضيهم وممتلكاتهم (7) وكذلك الأمر بالنسبة لأرباب الحرف والصناعة .

ولم تنج الحياة الدينية والعقائدية أيضا من الاضطراب والفتن ، فقد بلغت المذاهب والفرق الدينية والفكرية ، التي نشأت وانتشرت في القرون الثلاثة

---

(1) الفخرى ص 272 ، 280 ، 267 .
(2) تجارب الأمم 1/ 278 فما بعدها .
(3) قال ابن الأثير يصف ذلك " وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وكل ما كان له ، وأخذ أهله وأصحابه وحواشيه حتى ملاحه ومن خدمه يوما واحدا ... فاستعظم الناس ذلك " الكامل 7/ 6 .
(4) ذيل تجارب الأمم ص 201 فما بعدها .
(5) ذيل تجارب الأمم ص262 ، 296 .
(6) انظر تاريخ ابن خلدون (المقدمة) 1/ 234 .
(7) تجارب الأمم 2/ 96 ـ 100

السابقة، طور نضجها واكتمالها في القرن الرابع الهجري، وذلك ما جعل أثرها يظهر في سلوك الأفراد والجماعات المناصرة لكل منها، وجعل التعصب والغلو يبلغان مداهما، وجعل الصراع يتخذ أشكالا عطية للتعبير عن نفسه. "فكانت ثورة الزنج، وقامت دولة القرامطة اللتان تشكل فيهما شذوذ التفكير الشيعي (1). وظهرت الدولة البويهية التي حققت الآمال المكظومة منذ زمان للجنس الفارسي في السيطرة والنفوذ (2) متسلحة في الظاهر بالنظرية الشيعية نفسها (3). وحدثت بين الشيعة وأهل السنة عدة فتن في بغداد نفسها بعد أن اكتفوا في الماضي بإثارة الفتن في النواحي والأطراف ففي سنة (349 هـ) "تمت وقعة هائلة ببغداد بين السنة والرافضة، وقويت الرافضة ببني هاشم وبمعز الدولة، وعطلت الصلوات في الجوامع، ثم رأى معز الدولة المصلحة في القبض على جماعة من الهاشميين فسكنت الفتنة" (4)، ولكنه سكون ظاهري فحسب، فالمذهبان كانا قويين في هذه الفترة، ولم يزدد الصراع بينهما مع مرور الوقت إلا قوة وشراسة. ولقد تجرأ معز الدولة كثيرا في تحدي شعور أهل السنة، فنراه في يوم عاشوراء سنة (352 هـ) يلزم "أهل بغداد بالنوح والمآتم على الحسين رضي الله عنه وأمر بغلق الأسواق، وعلقت عليها المسوح، ومنع الطباخين من عمل الأطعمة، وخرجت نساء الرافضة منشرات الشعور مضخمات الوجوه، يلطمن ويفتن الناس، وهذا أول ما نيح عليه" (5). وأغلب الظواهر والحركات الاجتماعية كانت تأخذ لونا شيعيا أو سنيا، فنجد أن الفتنة الكبرى التي حدثت سنة (361 هـ) ببغداد في عهد بختيار (6)، والتي أتت على الحرث والنسل، وكثر فيها الشغب والفوضى، تلبس هي أيضا لباس الصراع بين السنة والشيعة، فقد احتشد الناس واختلطوا "فتولد من بينهم أصناف من البنوية والفتيان والسنية والشيعة والعيارين" (7).

وعلى العموم استمر الصراع بين أهل السنة والشيعة على أشده ولم ينقطع قط، قبل القرن الرابع وأثناءه وبعده، واتخذ أشكالا وألوانا، ولكنه الآن استطاع أن ينفذ إلى عاصمة الخلافة، وأن يهدد الخلفاء في عقر ديارهم بسبب وجود البويهيين في العراق والحمدانيين في الشام، والفاطميين بمصر، وكان هؤلاء جميعا يأملون القضاء على الخلافة العباسية. فأثاروا ضدها الفتن سرا وعلنا. ولكنها كانت عميقة الجذور في نفوس المسلمين فلم يستطع الشيعة أن يقضوا عليها برغم قوتهم وكثرة

(1) انظر مغزى هذا الشذوذ في الفهرست ص 278 .
(2) الفهرست ص281 ، 494 وانظر البيان والتبيين 3/ 30
(3) الفهرست ص282
(4) شذرات الذهب 2/ 379
(5) المصدر نفسه 3/ 9
(6) انظر ما سبق في صفحة 6
(7) الكامل 7/ 44 وانظر المختصر 2/ 106

عددهم ، وبالرغم من تأييد العامة وتعصبها لهم في بغداد نفسها ،حتى تعجب بعض الدولة من ذلك التعصب (1) . وذلك كله جعل العلويين يفقدون أملهم شيئا فشيئا في البويهيين ،كما كرهوا الخلافة نفسها في ظلهم . فهذا أبوعبدالله محمد بن الحسين المعروف بابن الداعي يخرج من بغداد سرا الى بلد الديلم ،ويقود ثورة هناك ضد الدولة الحاكمة بعد وفاة معز الدولة مباشرة (2) وهذا الشريف الرضي يحضر مأساة خلع الطائع لله على يد بهاء الدولة سنة (381 هـ) ،فتتقزز نفسه ويكره السلطة ويقول :

أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني

هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين (3)

وقد امتد هذا الصراع المذهبي وانتشر حتى شمل كافة الأقطار الاسلامية تقريبا كما نرى على عهد الطانيين بخراسان والغزنويين من بعدهم (4) . أما الشام وافريقية ومصر ، فهي أقطار خضعت لحكم الشيعة بالفعل .

وهناك لون آخر من ألوان الفتن المذهبية ،وهي فتنة الحنابلة الذين قويت شوكتهم في القرن الرابع أيضا ،وكانوا اعنوانا على تعصب العامة للجزئيات الفقهية ،وعلى شذوذ تفكيرهم وتكفير الفقهاء الذين يتزعمونهم ،وكان من بينهم الفقيه أبو محمد الحسن بن علي البربهاري (ــ 329 هـ) (5) . وقد ذهب بهم التعصب الى أن "ينسوا مسجدا ضرارا ،وجعلوه سببا للفتن والبلاء" . فتظلم منه الى علي بن عيسى (6) . فوقع في ظهر القصة :"أحق بناء بهدم ،وتعفية رسم ،بناء أسس على غير تقوى من الله ، فليلحق بقواعده ان شاء الله تعالى" (7) .

---

(1) ذيل تجارب الأمم ص 14 حاشية رقم 1.

(2) تجارب الأمم 2/ 207 وانظر عمدة الطالب ص 83 فما بعدها

(3) اليتيمة 3/ 136 ــ 137 .

(4) انظر الصراع بين الباطنية والمعتزلة في بخارى في شرح اليميني 2/ 238،10 3

(5) انظر ترجمته في العبر 2/ 216 وشذرات الذهب 2/ 319 . وقال صاحب تاريخ الخميس في أنفس نفيس 2/ 392 "وعظم في أيامه (الراضي بالله) أمر الحنابلة ببغداد حتى صاروا يكبسون دور الأمراء والقواد ،فان وجدوا نبيذا أراقوه ،أو قينة كسروها ،ثم اعترضوا على الناس في البيع والشراء" .

(6) تقدمت ترجمته في ص 10 حاشية رقم 7 .

(7) نشوار المحاضرة 2/ 134

ومن ألوان الصراع المذهبي المحتدم في هذا العصر أيضا ما كان بين رجال الفكر والفقهاء من أرباب الفرق الاسلامية الذين كانوا جميعا يبحثون عن الأنصار من المثقفين والعوام ورجال السياسة، رجاء تحويل مذاهبهم وآرائهم من حالة النظر الى التطبيق والعمل. وذلك كان هدف الشيعة، كما كان هدف المعتزلة والأشاعرة.
وسنرى فيما بعد كيف استطاع الصاحب ابن عباد أن يساهم في نشر مذهب الاعتزال وبتزعمه في نواحي فارس، كما تزعم آل البيت وتعصب لهم تعصبا قويا، وكيف قاوم التوحيدي هذين الشيئين وغيرهما من ألوان التعصب الضيق، بالنقد والهزل، وجعلهما موضوعا للتندر والفكاهة والضحك، بالقوة نفسها التي استنكر بها الوضع السياسي والاجتماعي وأثرهما في انقسام الأمة وتناحرها.

وذلك كله يفسر موقف عدم الرضى والاستهجان الذي وقفه من عصره ومعاصريه، فقد قال مثلا وكأنه يلخص حالة المجتمع العباسي في نظره أثناء القرن الهجري الرابع "... ولما كانت أوائل الأمور على ما شرحت، وأواسطها على ما وصفت، كان من نتائجها هذه الفتن والمذاهب والتعصب والافراط، وما تفاقم منها وزاد ونما وعلا وترقى وضاقت الحيل عن تداركه واصلاحه، وصارت العامة مع جهلها تجد قوة من خاصتها مع علمها. فسفكت الدماء، واستبيح الحريم، وشنت الغارات، وخربت الديارات، وكثر الجدال، وطال القيل والقال، وفشا الكذب والمحال، وأصبح طالب الحق حيران، وصار السلامة مقصودا بكل لسان وسنان، وصار الناس أحزابا في النحل والأديان ...".(1)

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

* الحياة الثقافية في القرن الرابع الهجري *

هذه الصورة القاتمة لاضطراب الحياة السياسية والاجتماعية في القرن الرابع الهجري التي عرضنا ما تقابلها وتناقضها صورة الحياة الثقافية التي وصلت في هذا القرن قمة تطورها وازدهارها وبلغت الأوج في النضج والانتشار. فلقد كان من نتائج التفكك الذي أصيبت به الدولة الاسلامية في هذا العصر أن انتقل الازدهار المادي الى عواصم الأطراف، وانقطعت مواردها تقريبا عن العاصمة بغداد. وهي عواصم حاول أصحابها أن يوفروا لها كل شروط الملك والأبهة، ومنها العناية بالأدب والأدباء والعلم والعلماء، فكانوا ينفقون عليهم ويشجعونهم بالجوائز والعطايا. فاتجهت اليها آمال الكتاب والشعراء والعلماء، وكثرت الرحلة اليها، كما فعل الكثيرون من أدباء القرن الرابع ومنهم التوحيدي كما سنرى. وذلك في الواقع أسلوب عربي قديم يستجيب لمطامح العرب في الكرم والمجد والرغبة في خلود الذكر الحسن، كما يحقق آمال رجال العلم والأدب في كسب العيش، ويكون موردا من موارد رزقهم المتعددة.

---

(1) الامتاع والمؤانسة 2/ 76 – 77

وقد اشتد التنافس بين أمراء الأطراف وزرائهم في احتضان أكبر عدد ممكن من الأدباء والعلماء، وفي عقد اللقاءات والمناظرات الأدبية والعلمية (1). وسنرى صورا متعددة من هذا التنافس عند تحليلنا لتصوير التوحيدي لشخصيتي الوزيرين.

ولم يكتف هؤلاء الأمراء بذلك وحده، وانما صرفوا عنايتهم أيضا الى جمع الكتب وتأليفها وتأسيس الخزائن العامة والخاصة. فقد ألفت كتب كثيرة بأسماء الوزراء والملوك البويهيين وغيرهم، ومن أمثلة ذلك كتاب الصاحبي في فقه اللغة الذي ألفه ابن فارس (– 377 هـ) لخزانة الصاحب (2)، وكتاب الايضاح وتكملته اللذان ألفهما أبو علي الفارسي (– 395 هـ) لعضد الدولة (3)، وكتاب التمهيد للباقلاني (– 403هـ) الذي ألفه أيضا لعضد الدولة، وكتاب التاجي في أخبار بني بويه (4)، وكتاب الأغاني الذي أهداه مؤلفه أبو الفرج الأصفهاني لسيف الدولة الحمداني (5).

أما خزائن الكتب فأشهرها خزانة ابن العميد (– 360 هـ) التي كان مسكويه (– 421هـ) خازنها (6)، وخزانة الصاحب التي سار بذكرها الركبان (7)، ومنها خزانة الحبشي ابن معز الدولة (8)، وخزانة الوزير سابور بن أردشير ببغداد التي أسسها منافسة للصاحب (9).

وكان الصراع المذهبي بين الفرق الاسلامية كالمعتزلة والأشاعرة وأهل السنة والشيعة لونا آخر من ألوان النشاط الثقافي في هذا العصر. ففي القرن الرابع تميز الأشاعرة باعتبارهم فرقة اسلامية تدافع عن السنة والجماعة (10)، ولقد شجعها عضد الدولة البويهي في شخص امامها في وقته أبي بكر الباقلاني (11).

(1) انظر الامتاع والمؤانسة 1/ 107 – 109 وأخلاق الوزيرين ص202–207
(2) الصاحبي ص29 وستأتي ترجمة ابن فارس في ص 25 حاشية رقم 7.
(3) معجم الأدباء 7/ 238 فما بعدها، وستأتي ترجمة أبي علي الفارسي في ص25
(4) انظر ثناء التوحيدي على هذا الكتاب في الامتاع والمؤانسة 1/ 68. وقال ابن الأثير في عضد الدولة "وكان محبا للعلوم وأهلها مقربا لهم محسنا اليهم، وكان يجلس معهم ويعارضهم في المسائل فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب" الكامل 7/ 113.
(5) وفيات الأعيان 3/ 307
(6) تجارب الأمم 2/ 224. وستأتي ترجمة مسكويه في ص249 حاشية رقم1.
(7) انظر اليتيمة 3/ 193 ومعجم الادباء 6/ 259.
(8) تجارب الأمم 2/ 246.
(9) شذرات الذهب 3/ 104، وقد تقدمت ترجمة سابور في ص 13 حاشية رقم 3.
(10) الملل والنحل 1/ 94.
(11) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر البصري المالكي الأصولي صاحب المصنفات في علم الكلام وامام الأشاعرة في زمانه، اختص بصحبة عضد الدولة الذي أرسله في سفارة الى بيزنطة. ترجمته في وفيات الأعيان 4/ 269–270، وتبيين كذب المفتري ص217، والعبر 3/ 86، والوافي بالوفيات 3/ 177

فبعثه في سفارة الى بيزنطة ، وجعله أستاذ ولده رجاء أن يكسب عطف أهل السنة (1) على الرغم من أن عضد الدولة شيعي متعصب ، كما أن الخليفة القادر بالله (381 - 422هـ) له مصنف في السنة وذم المعتزلة والروافض . وصنف كتابا في الأصول ذكر فيه فضل الصحابة وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن . وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ، بحضرة الناس مدة خلافته وهي احدى وأربعون سنة (2) .

أما المعتزلة فقد تمزج أنبهم وكثر نشاطهم في البلدان الشرقية خاصة ، لما وجدوه من سند قوي في الصاحب بن عباد الذي تعصب لمذهب الاعتزال تعصبا مفرطا كما سنرى في تصوير التوحيدي لشدة تعلقه به . كما أن الشيعة شملهم التيار الاعتزالي أيضا ، وخاصة طائفة الزيدية منهم ، فاستخدموا مبادئه وطرقه في تأييد مذهبهم (3) . وكل ذلك دليل على أثر السياسة القوي في النشاط الثقافي والفكري في القرن الرابع الهجري ، ودليل أيضا على أن الفرق الاسلامية ساهمت في اذكاء الصراع السياسي ما دام الأمراء والوزراء البويهيون يتبنون المذاهب المختلفة ويتعصبون لها ، كل حسب ثقافته وهواه .

ومن الجدير بالذكر أن أغلب ملوك بني بويه كانوا مثقفين يحبون العلم والأدب وبعضهم يتعاطى الشعر (4) ، فعرفوا للثقافة حقها وللمثقفين أقدارهم ، وأقبلوا عليهم وخصصوا لهم الجوائز والصلات ، وذلك ما ساعد على ازدهار الحركة العلمية في هذا العصر .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ليس من السهل وصف الحركة الثقافية في القرن الهجري الرابع بجميع نواحيها ، وذلك لأنها ثقافة متعددة الجوانب والفروع ، ولأن كل العلوم المعروفة بلغت فيه قصة ازدهارها ونضجها . فقد دون المسلمون التراث العربي وتدارسوه واستنبطوا منه القواعد والأحكام ، كما درسوا القرآن الكريم وفسروه (5) ودونوا حديث الرسول ص

---

(1) اعجاز القرآن ص 20 - 24 من مقدمة المحقق .

(2) تاريخ التمييس في أنفس نفيس 2/ 397

(3) البويهيون أسلموا على يد الزيدية الذين كانوا معتزلة ، ولذلك نشط الاتجاه الشيعي الاعتزالي في العهد البويهي ، وخير من يعبر عن ذلك الصاحب بن عباد والشريف المرتضى . انظر الملل والنحل 1/ 155 - 156 وفلسفة المعتزلة صفحة 151 ، وانظر ما سبق في صفحة 4 .

(4) في اليتيمة 2 / 216 باب خاص للملوك الأدباء منهم .

(5) انظر الكتب المصنفة في القرآن وقراءاته في الفهرست ص 56 - 63

فنشأت مذاهب في الفقه والتفسير، ووضعت الكتب الصحيحة في الحديث، كما ترجمت الآثار الأجنبية[1] وتدارسها القوم، ولم يكد القرن الرابع يصل حتى بلغت هذه العلوم والمعارف غاية النضج والنمو، واتجهت العناية الى تصنيفها وفهرستها ووضع طبقات أصحابها، وذلك دليل على كثرتها وتنوعها، ودليل أيضا على الحرية الفكرية التي أتاحها الاسلام للمسلمين وغير المسلمين في ظله، وسنكتفي هنا بكلمة موجزة عن أشهر فنون المعرفة والثقافة وبعض من يمثلها في هذا العصر.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

استطاع أجيال النحاة واللغويين في القرنين الثاني والثالث أن يوفروا مادة ضخمة من الكتب والمدونات والقواعد والنظريات في اللغة والنحو[2]، وأن يسلموها لتلاميذهم في القرن الرابع الهجري، وكانت أساسا متينا وسندا قويا فيما ابتكره هؤلاء من جديد في هذين الفرعين من فروع العلم والمعرفة، ولقد شهدت بداية هذا القرن عددا من الشيوخ كأبي بكر ابن السراج (316هـ)[3] وابن دريد (321هـ)[4] وغيرهما، ويشهد لذلك ما قاله ياقوت عن ابن السراج، قال: "... ويقال: ما زال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله، وكان أحد العلماء المذكورين وأئمة النحو المشهورين، واليه انتهت الرئاسة في النحو بعد المبرد[5]، وأخذ عنه أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي[6]، وأبو سعيد

---

(1) انظر حركة الترجمة في الفهرست ص 345-356.

(2) انظر أنباء بعضهم في الفهرست ص 102 فما بعدها.

(3) أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج، تتلمذ على المبرد واشتهر بكتابه الأصول. مات سنة (316هـ). ترجمته في نزهة الألباء ص249-250 وبغية الوعاة 1/ 109-110.

(4) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، أقام بالبصرة ثم مضى الى عمان ثم الى فارس فبغداد، وكان عالما باللغة وأشعار العرب وله كتب أشهرها الجمهرة وأشهر شعره قصيدته المقصورة. ترجمته في الفهرست ص97 ونزهة الألباء ص256 وبغية الوعاة 1/ 76-81، وانباه الرواة 3/ 92-100.

(5) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي المعروف بالمبرد، شيخ اللغويين والنحاة في عصره كان فصيحا بليغا مفوها علامة صاحب ظرف ونوادر. توفي ببغداد سنة (285هـ) ترجمته في الفهرست ص93-94، ونزهة الألباء ص 217-228. وبغية الوعاة 1/ 269-271، وانباه الرواة 3/ 241-253.

(6) أبو القاسم عبد الرحمان بن اسحاق الزجاجي. ترجمته في نزهة الألباء ص206، وبغية الوعاة 2/ 77.

السيرافي(1)، وأبوعلي الفارسي(2) وعلي بن عيسى الرماني(3) وهو لاء يمثلون أشهر رجال النحو في القرن الرابع، ويضاف اليهم أبوعمر الزاهد (ـ345هـ)(4)، وأبومنصور الأزهري (ـ370هـ)(5)، وابن خالويه (ـ370هـ)(6)، وابن فارس(7)، وغيرهم كثير.

وما منهم الا صاحب مدرسة قائمة بذاتها في النحو واللغة. فأبوسعيد السيرافي (ـ368هـ) كان أحد معالم بغداد في القرن الرابع، وكان "وحيد القرين لأنه كان يقرأ عليه القرآن والفقه والشروط والفرائض والنحو واللغة، والعروض والقوافي، والحساب والهندسة والحديث والأخبار، وهو في كل هذا اما في الغاية واما في الوسط"(8). وكان أبوعلي الفارسي يتقد بالغيظ على أبي سعيد

---

(1) ستأتي ترجمته ضمن أساتذة أبي حيان.

(2) أبوعلي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الفارسي، امام النحو والعربية في زمنه، فضله كثير من معاصريه على المبرد، وكانت له حظوة عند عضد الدولة، توفي سنة (377هـ). ترجمته في معجم الأدباء 7/ 232—261، ونزهة الألباء ص 315—317 وبغية الوعاة 1/ 496—498، وانباه الرواة 1/ 273.

(3) معجم الأدباء 18/ 198 وقارن بنزهة الألباء ص 249 وستأتي ترجمة الرماني ضمن أساتذة أبي حيان.

(4) أبوعمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المعروف بالزاهد وغلام ثعلب، كان كثير الحفظ والرواية حتى اتهم بالكذب والتزيد. ترجمته في الفهرست ص 119، ومعجم الأدباء 18/ 228—234، ونزهة الألباء ص 276—280، وشذرات الذهب 2/ 369 وبغية الوعاة 1/ 164.

(5) أبومنصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري. ترجمته في نزهة الألباء ص 323—324، وشذرات الذهب 2/ 72، وبغية الوعاة 1/ 19—20.

(6) أبوعبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان، كان رأسا في اللغة والأدب، اختص بسيف الدولة ابن حمدان وأولاده وكانت الرحلة اليه من الآفاق، وجرت له مع المتنبي مناظرات. ترجمته في الفهرست ص 130، ونزهة الألباء ص 311—312، وبغية الوعاة 1/ 529.

(7) أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، كان نحويا على طريقة الكوفيين، وكان مقيما بهمذان ثم حمل منها الى الري ليقرأ عليه أبوطالب ابن فخر الدولة فسكنها، ودرس عليه الصاحب ابن عباد وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما توفي سنة (395هـ). ترجمته في معجم الأدباء 4/ 80، ونزهة الألباء ص 320—322، وانباه الرواة 1/ 92، وبغية الوعاة 1/ 352.

(8) الامتاع والمؤانسة 1/ 133.

وبالحمد له كيف تمهله تفسير كتاب سيبويه من أوله الى آخره بغريبه وأمثاله وشواهده وأبياته ، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) [1] لأن هذا شيء ما تم للمبرد ، ولا للزجاج [2] ، ولا لابن السراج ، ولا لابن درستويه [3] ، مع سعة علمهم وفيض كلامهم " [4] وربما كان هذا أهم عمل قام به أبو سعيد مضافا اليه ما قام به في التدريس ونشر العلم وتكوين الأساتذة والطلاب . وكان موصوفا بالورع والزهد والتقوى ، " وكان نزيها عفيفا ، جميل الطريقة حسن الأخلاق " [5] .

وكان يمثل التيار العربي المحافظ في الدراسات اللغوية كما يظهر من مناظرته لمتى بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني [6] ، ومن العداء المستحكم بينه وبين أبي علي الفارسي [7] ، وعلي بن عيسى الرماني [8] المتأثرين بالمنطق اليوناني والاعتزال فظهر أثرهما في دراساتهما اللغوية .

فأبو علي الفارسي كان " أوحد زمانه في علم العربية ، وكان كثير من تلامذته يقول : هو فوق المبرد . . . وصنف كتبا عجيبة حسنة لم يسبق الى مثلها ، واشتهر ذكره في الآفاق ، وبرع له غلمان حذاق مثل عثمان بن جني [9] ، وعلي بن عيسى الربعي [10] ، وخدم الملوك ونفق عليهم . . . وكان متهما بالاعتزال " [11] ، ومن كتبه

---

(1) الآية رقم 4 من سورة الجمعة ، ورقم 21 من سورة الحديد ، ورقم 56 من سورة المائدة .

(2) أبو اسحاق ابراهيم بن السري بن سهل الزجاج ، كان من أهل الفضل والدين ، وكان ~~يخرط~~ يخرط الزجاج ثم مال الى النحو فأخذه عن المبرد مقابل درهم يعطيه له كل يوم ، توفي سنة (311 هـ) . ترجمته في الفهرست ص 96 ، ونزهة الألباء ص 244 وبغية الوعاة 1/ 411–413 .

(3) أبو محمد عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه ، لقي المبرد وثعلبا وأخذ عنهما ، وكان مفننا في علوم كثيرة ، شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة ، توفي سنة (344 هـ) . ترجمته في الفهرست ص 99–101 ، ونزهة الألباء ص 383–385 ، وبغية الوعاة 2/ 36 .

(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 131 .

(5) نزهة الألباء ص 227 .

(6) الامتاع والمؤانسة 1/ 107 فما بعدها ، وستأتي ترجمة متى بن يونس في ص 32 حاشية رقم 2

(7) المصدر نفسه 1/ 131 ، وانظر خبر اصطدامهما عن النسام بينهما في معجم الأدباء 7/ 258 .

(8) انظر نزهة الألباء ص 318–319 .

(9) أبو الفتح عثمان بن جني كان من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف ، تصدر مكان أبي علي الفارسي ببغداد بعد وفاته ، توفي سنة (392 هـ) . ترجمته في الفهرست ص 124 ، ونزهة الألباء ص 332–334 ، ووفيات الأعيان 3/ 246 ، وبغية الوعاة 2/ 132 .

(10) أبو الحسن علي بن عيسى بن الفرج بن صالح الربعي . ترجمته في نزهة الألباء ص 341–342 ، ووفيات الأعيان 3/ 336 ، وبغية الوعاة 2/ 181–182 .

(11) معجم الأدباء 7/ 232 و ج ج

الايضاح وتكملته . وبما كان كتابه الايضاح يقترب في شهرته وسيرورته من كتاب سيبويه . وكان تأثيره في الدراسات اللغوية في عصره وبعد عصره كبيرا واضحا. وأهم خصائص مدرسته الأخذ بالقياس في النحو ،وتبعه في ذلك تلاميذه العديدون ومن بينهم أبو الفتح عثمان بن جني الذي صحبه أربعين سنة[1]،ويحكى عنه أنه قال:"أخطئ في خمسين مسألة في اللغة ولا أخطئ في واحدة من القياس"[2] وذلك على خلاف أبي سعيد السيرافي الذي كان "أروى من أبي علي ،وأكثر تحققا بالرواية وأثرى منه فيها "[3].

أما علي بن عيسى الرماني فقد كان أبعد مدى من أبي علي في تمثيل الاتجاه المتأثر بالدراسات المنطقية في دروسه وكتبه العديدة حتى كان أبو علي نفسه لا يفهمه ،فقال عنه: "ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ،وان كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء" [4].

وبذلك نرى أن هؤلاء الأعلام الثلاثة رسموا الخطوط الكبرى التي سار عليها النحو واللغة في القرن الرابع متأثرا بالتطور الفكري والحضاري العام ، فمدرسة السيرافي محافظة تعتمد الرواية والسماع ،بينما يطبق أبو علي الفارسي مبدأ القياس في اللغة ،ويغالي الرماني في التفكير المنطقي في الدراسات اللغوية ،وهناك علماء آخرون لا يخرجون عن هذا الاطار كأبي عمر الزاهد (ـ345هـ) غلام ثعلب ،وأبي منصور الأزهري (ـ370هـ) صاحب التهذيب في اللغة في عشرة مجلدات[5]،وابن خالويه (ـ370هـ)شيخ أهل حلب وأبي الحسين أحمد بن فارس(ـ395هـ) صاحب المجمل والمقاييس في اللغة[6] ، وأبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري[7] صاحب الصحاح في اللغة الذي رتبه على الحروف الهجائية وغيرهم كثير .

ومما تقدم نرى أن الدراسات النحوية واللغوية في القرن الرابع أنتجت

---

(1) معجم الأدباء 12/ 90 .

(2) نزهة الألباء ، 317.

(3) معجم الأدباء 7/ 254،وانظر ظهر الاسلام 2/ 91.

(4) معجم الأدباء 14/ 74-75.

(5) شذرات الذهب 2/ 72.

(6) معجم الأدباء 4/ 84 والمختصر 2/ 133.

(7) أصله من فاراب وكان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلما حتى عرته وسوسة وجنون في أواخر عمره . ترجمته في يتيمة الدهر 4/ 406-407 ، ونزهة الألباء 344-346،وبغية الوعاة 1/ 446-448.

نتاجا طيبا كثيرا وصنفت فيها الكتب الكثيرة ،في الجمع والشرح والتبويب والابتكار، وقد ظلت مثار النقاش والجدال والتعليق والرد في القرون التالية . ومن المعلوم أن الصاحب ابن عباد كان لغويا الى جانب اشتهاره بالكتابة كصاحبه أبي حيان كما سنرى .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

لا يختلف أمر التفسير كثيرا عن النحو واللغة ،فلقد كان القرن الثالث الهجري قرن تدوين المجهودات العلمية التي قام بها العلماء من قبل ،وفيه ظهر أضخم تفسير بالمأثور هو تفسير محمد بن جرير الطبري (ت310هـ) (1)،وفي القرن الرابع تعاطى هذا العلم كثير من الفقهاء والمحدثين وعلماء الكلام ،وأنتجوا فيه انتاجا غزيرا(2)، وتأثر في أغلبه بالجدل الكلامي وآراء الفرق الاسلامية المختلفة في هذا العصر . الا أن الكثير من ذلك الانتاج لم يصل الينا لأن فقهاء الأشاعرة وأهل السنة الذين جاءوا بعد القرن الرابع أهملوه ،وربما عرضوه للتلف، وساعد على ذلك الحروب والفتن التي تعرضت لها الأمة الاسلامية .

ومن أشهر المفسرين في هذا العصر أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت384) الذي "صنف كتبا كثيرة ،منها كتابه المشهور في التفسير" (3) وأبو بكر محمد بن الحسن النقاش (ت351هـ) " المقرئ المفسر صاحب التصانيف في التفسير والقراءات" (4) والشريف المرتضى الموسوي (ت436هـ) الذي وصلت الينا أماليه في التفسير من بين كتبه العديدة (5) التي سلك فيها طريقة الاعتزال في البرهنة والاستدلال .

أما الحديث فقد شهد القرن الثالث أشهر مدونيه وعلمائه كالبخاري (ت256هـ) ومسلم (ت25[illegible]هـ) وأصحاب السنن (6) وغيرهم، وقد خلفوا تراثا ضخما كان مادة البحث والدراسة أثناء القرن الرابع ،الى جانب السماع الذي كان الوسيلة العلمية الدقيقة لأخذ العلوم وروايتها ،وحفظ عليها المحدثون شروطا خاصة وتعصبوا له . وبسبب ذلك كله ورث محدثو القرن الرابع ومفسروه مادة ضخمة من الجوامع والكتب والمرويات،فظهر فيه عدد كبير من الحفاظ والمحدثين والمفسرين ،وجددوا الطريق أمامهم مجددا ، كأبي بكر الجعابي (ت355هـ) الذي قال عن نفسه "أحفظ أربعمائة ألف حديث، وأذاكر بستمائة ألف حديث" (7)، وأبي الحسن

---

(1) الفهرست ص340 .
(2) المصدر نفسه ص256 فما بعدها ، و294 فما بعدها .
(3) نزهة الألباء ص233 .
(4) شذرات الذهب 3/8 .
(5) انظر أمالي المرتضى 1/ 11-17 من مقدمة المحقق .
(6) انظر أخبار بعضهم في الفهرست ص328-340 .
(7) شذرات الذهب 3/ 17 .

القزويني القطان (ت345هـ) "الذي روى عن ابن ماجة سننه ورحل الى العراق واليمن" (1) وكان عالماً بعدة علوم كالتفسير والحديث والفقه والنحو واللغة، كأبي سعيد السيرافي المذكور سابقاً، وغيرهم كثير.

وأشهر محدثي القرن الرابع على الاطلاق رجلان، أولهما الحافظ أبو الحسن الدارقطني (ت385هـ) الذي كان "أستاذ هذه الصناعة.. سمع الكثير، وصنف وألف وأجاد وأفاد، وأحسن النظر والتعليل والانتقاد والاعتقاد، وكان فريد عصره ونسيج وحده، وامام دهره في أسماء الرجال وصناعة التعليل، والجرح والتعديل، وحسن التصنيف والتأليف" (2)، والثاني أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ) صاحب الكتب العديدة في طرق رواية الحديث ومصطلحاته (3)

ويستخلص من ذلك كله أن الطابع العام للحديث في هذا العصر هو كثرة الحفظ تبعاً لكثرة النصوص، وتكديس المرويات، وغربلة الأسانيد والتشدد في حفظ نصوص الحديث الأصلية وعدم العبث بها وتغييرها. وطابع التفسير هو سيطرة التفسير بالرأي، وغلبة المذاهب وآراء الفرق الاسلامية عليه، وذلك ما أدى الى ذكاء الخلاف والجدال حوله عند المتأخرين.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

انتشرت المذاهب الفقهية انتشاراً واسعاً في العالم الاسلامي بفضل نشاط المفسرين والمحدثين، واعتنقها الفقهاء والعوام وتعصبوا لها. ونظرة منا في كتاب (طبقات الفقهاء) لأبي اسحاق الشيرازي الشافعي (ت476هـ) تكفينا للتثبت من ذلك، فقد ترجم فيه مؤلفه لأشهر فقهاء القرن الرابع من مختلف المذاهب والأصقاع، الا أن الظاهر أن الفقهاء في هذه الفترة وما بعدها انكبوا على مؤلفات الأئمة الأقدمين وأصولهم يشرحونها ويعلقون عليها دون ابتكار كبير أو زيادة واضحة، اتباعاً منهم للرأي القائل بوجوب سد باب الاجتهاد. ولذلك كثرت الشروح والتعاليق والرد على المخالفين، والمختصرات. (4) كما نشأ الاعتقاد بالمذهب الواحد والتعصب له والدفاع عنه، وساهم في ذلك الصراع القائم بين الفرق الاسلامية، واستتبع ذلك كله الفتن المذهبية التي تحدثنا عنها سابقاً. (5)

ومن أشهر فقهاء القرن الرابع أبو بكر محمد بن اسماعيل الشاشي القفال

---

(1) شذرات الذهب 3/ 369.
(2) البداية والنهاية 11/ 317.
(3) وفيات الأعيان 4/ 280–281، وتاريخ ابن خلدون المقدمة 1/ 369.
(4) انظر (فهرس الكتب المذكورة في المتن في طبقات الفقهاء ص224–227.
(5) انظر ما سبق في ص18–20.

الكبير (ت365هـ) " الفقيه الشافعي صاحب المصنفات ،رحل الى العراق والشام وخراسان. قال الحاكم: كان عالم أهل ما وراء النهر بالأصول وأكثرهم رحلة في الحديث"[1]...وله كتاب حسن في أصول الفقه، وله شرح الرسالة،وعنه انتشر فقه الشافعي فيما وراء النهر". ومنهم أبو حامد أحمد بن عامر بن بشر المروروذي (ت362هـ) أحد شيوخ التوحيدي الأجلاء، " كان اماما لا يشق غباره،تفقه عليه أهل البصرة...شرح مختصر المزني،وصنف الجامع في المذهب..."[2] وأشهرهم على الاطلاق أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الاسفراييني الفقيه الشافعي، انتهت اليه رئاسة الدنيا والدين ببغداد،وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثمائة فقيه،وعلق على مختصر المزني تعاليق وطبق الأرض بالأصحاب..."[3] وغير هؤلاء كثير.

أما علم الكلام الذي يعنى ببحث الفرق الاسلامية في الأصول الاعتقادية، فعلى الرغم من النكسة التي أصيب بها المعتزلة في عهد المتوكل،ومن ظهور أبي الحسن الأشعري منافسا خطيرا لهم[4] ،فقد استمر ازدهاره بفضل تبني البويهيين للمذهب الزيدي[5] الاعتزالي ،وبفضل انتشار المذهب الاعتزالي في الأقاليم الشرقية بتشجيع الوزيرين أبي الفضل ابن العميد والصاحب ابن عباد كما سنرى. ويتجلى ذلك في كثرة المناظرات والمجالس التي كانت تعقد في المساجد والمنازل ،ويحضرها المتكلمون من كل النحل والأجناس،وفي كثرة الكتب والرسائل والمدونات التي وصل الينا منها القليل[6] . وتعزز جانب علم الكلام عامة تقدم الدراسات الفلسفية والمنطقية ،وبانتشار الحرية الفكرية والدينية في الأوساط المثقفة خاصة.

وأهم من كان يمثل علم الكلام الاعتزالي في بغداد أثناء القرن الرابع أبو عبد الله الحسين بن علي المعروف بالجعل (ت399هـ) "واليه انتهت رئاسة أصحابه في عصره ،وكان فاضلا فقيها متكلما عالي الذكر،نبيه القدر،عالما بمذهبه،منتشر الذكر في الأصقاع والبلدان ولا سيما بخراسان"[7] . أما في الأقاليم الشرقية

---

(1) شذرات الذهب 3/ 51.
(2) نفسه 3/ 40.وستأتي ترجمته ضمن أساتذة أبي حيان.
(3) وفيات الأعيان 1/ 68.
(4) الملل والنحل 1/ 94 فما بعدها.
(5) نفسه 1/ 156،و 160-162.
(6) الفهرست ص 259 والامتاع والمؤانسة 2/ 14. وكتب أبي حيان وخاصة (المقابسات)والمحاضرات والمناظرات دليل على ذلك كما سنرى.
(7) الفهرست ص 261 . وقد نال منه التوحيدي كثيرا في كتابه (أخلاق الوزيرين) ص 200-214 باعتباره من شيوخ الصاحب كما سنرى.

فأكبر متكلمي المعتزلة هناك هو قاضي قضاة الري و أعمالها أبو الحسن عبد الجبار بن محمد بن عبد الجبار (ت415هـ) الذي حمله الصاحب الى الري وولاه قضاء القضاء فيها.(1) وقد وصلت الينا أغلب مؤلفاته لكونه متأخرا عن زمن الفتنة التي تعرض لها أساتذته من المعتزلة. أما أهل السنة فقد تولى الدفاع باسمهم أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403هـ) (2) "وكان شيخهم . فأما علم الكلام فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطرا، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، و أفصحهم عبارة، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة، في الرد على المخالفين من الرافضة و المعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم..." (3). ومثل الشيعة الى جانب الشريف المرتضى (ت436هـ) الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد البغدادي المعروف بابن المعلم ((ت413هـ) "عالم الشيعة وامام الرافضة، وصاحب التصانيف الكثيرة" (4). وسنرى أن أبا حيان والصاحب ابن عباد كانت لهما علاقة قوية بعلم الكلام، وبالصراع الفكري القائم في القرن الرابع عامة، ذلك الصراع الذي كان له أصداء مهمة في كتاب (أخلاق الوزيرين).

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

أما الفلسفة والطب والفلك والمنطق والطبيعيات والهندسة والحساب والموسيقى، وهي العلوم المعروفة بالعلوم الدخيلة أو العلوم العقلية،(5) أو علم الأوائل (6)، فقد ابتدأ نقلها وترجمتها الى اللغة العربية منذ عهد الأمويين، ثم لم ينقطع ذلك طيلة العهد الذهبي من الدولة العباسية (7). ولم يكد القرن الرابع يطل حتى شاعت معرفتها، كما تدل على ذلك المجالس الفلسفية والمحاضرات العلمية التي نقلها أبو حيان في مقابساته عن فلاسفة بغداد في عصره. ولذلك بدأت مواقف الفرق الاسلامية والفقهاء من هذه العلوم تتضح شيئا فشيئا. فأهل السنة استصرعوا أو هم المطلق لها باعتبارها مخالفة للعقيدة والشرع في اعتمادها على العقل والقدرة الانسانية وحدهما للوصول الى الحقيقة ونشدان

---

(1) معجم الأدباء 2/ 116. وستأتي ترجمته في ص 200 حاشية رقم 2.
(2) تقدمت ترجمته في ص 22 حاشية رقم 11.
(3) تبيين كذب المفتري ص 217.
(4) شذرات الذهب 3/ 199.
(5) تاريخ ابن خلدون، المقدمة 1/ 399.
(6) ورد هذا الاسم في كتاب أخلاق الوزيرين مرتين، في ص115 و 182، وانظر التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص 123.
(7) الفهرست ص352-356.

الكمال (1)، ولذلك وجهوا تهمة الزندقة والالحاد لأغلب من تظاهر بها وجاهر بانتحالها. وربما تمثل مناظرة أبي سعيد السيرافي لمتى بن يونس (2) التي رواها أبو حيان في كتابه (الامتاع والمؤانسة) (3)، أفضل تعبير وأجوده عن هذا العداء في القرن الرابع.

أما الفرق الاسلامية على اختلافها فالظاهر أنها اطلعت على هذه العلوم، وحاولت أن تستفيد منها في طرق الجدل والاقناع، ولكنها سرعان ما تراجعت عن ذلك مكتفية بما تكون عندها من طرق وأصول مستنبطة من الشريعة وغير مخالفة لها. ولذلك قال أبو حيان نقلا عن أستاذه أبي سليمان: "ومما يزيدك وضوحا، ويريك عجبا، أن الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها، فصارت أصنافا فيها وفرقا، كالمعتزلة والمرجئة والشيعة والسنية والخوارج. فما فزعت طائفة من هذه الطوائف الى الفلاسفة، ولا حققت مقالتها بشواهدهم وشهاداتهم، ولا اشتغلت بطريقتهم، ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها. وهكذا الفقهاء، الذين اختلفوا في الاحكام من الحلال والحرام منذ أيام الصدر الأول الى يومنا هذا، لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم..." (4). فهل يعني هذا أن الفلسفة وتوابعها عجزت تماما عن التأثير في الثقافة العربية الاسلامية وغزوها؟ لا أظن هذا صحيحا. فهي في الواقع، لم تحل محل الشريعة الاسلامية مطلقا، وذهبت كل محاولات التوفيق بينهما أدراج الرياح، غير أن أثرها في مختلف فروع المعرفة آنذاك واضح بين لا يمكن انكاره. كما أنها استطاعت في القرن الذي ندرسه خاصة أن تجتذب الكثيرين وتغريهم بفضل أبي نصر الفارابي (339هـ) (5) ومدرسته (6) التي يمثلها يحيى بن عدي (364هـ) وأبو سليمان السجستاني المنطقي

---

(1) في الامتاع والمؤانسة 2/ 106 كلام جيد لأبي سليمان المنطقي في الفرق بين الشريعة وأجزاء الفلسفة.

(2) أبو بشر متى بن يونس النصراني نزيل بغداد، كان عالما بالمنطق، مترجما من السرياني الى العربي واليه انتهت رئاسة المنطقيين في زمنه. توفي سنة (328هـ). الفهرست ص382–383، وتاريخ الحكماء ص323، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان 4/ 119.

(3) الامتاع والمؤانسة 1/ 107 فما بعدها. وفي أخلاق الوزيرين ص235–247 رسالة منسوبة لابن ثوابة في ذم الهندسة، وهي من أجود ما وصلنا في تصوير هذا العداء كما سنرى.

(4) الامتاع والمؤانسة 2/ 9.

(5) انظر تاريخ الحكماء ص277.

(6) انظر أعلام هذه المدرسة في الفهرست ص382–384.

والتوحيدي ،ولغلب الفلاسفة الذين دون أبوحيان بعض آرائهم في كتابه المقابسات(1) . وهي مدرسة اصطبغت ،كما يبدو ومن آثار التوحيدي خاصة ، بصبغة الأفلاطونية المحدثة،تلك الفلسفة المشرقية التي تومن بالارتباط الوثيق بين الله والكون،وبخضوع الوجود كله للقوة الالهية،وتأثيرها فيه تأثيرا متصلا دائما،وبذلك اقتربت من صورة الألوهية في الاسلام،فنالت رضى تلك الجماعة واعجابها،وخاصة أبا سليمان المنطقي وتلميذه أباحيان كما سنرى .

وقد استفاد المسلمون من أجزاء الفلسفة التي لا علاقة وطيدة بينها وبين الدين كالطب والجبر والهندسة وما أشبهها ،فأنتجوا فيها انتاجا مهما،واشتهر أطباء ومهندسون كثيرون في القرن الرابع وغيره،(2) كان هدفهم الحقيقة العلمية وحدها والحصول على المنفعة العاجلة. ومع ذلك لم يخل الأمر من ظهور بعض النزعات والتيارات الهدامة لدى بعض الطوائف المتطرفة في مبادئها وتفكيرها كالاسماعيلية والقرامطة والصابئة والمانويين .

ونستنتج من ذلك كله أن العلوم العقلية ازدهرت في القرن الرابع بعد أن تعرضت لمحاكمة شرعية اسلامية عربية وضعتها في مكانها الصحيح من الثقافة العربية الاسلامية.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ولا يختلف الأمر كثيرا في الأدب،عن الحركة الثقافية عامة ،اذ بلغ الأدب قمة التطور والتجديد والاحتكاك بالدخيل في القرن الرابع . وكان الشعر قد وصل في القرن الثالث الى مفترق الطرق على يدي أبي تمام (ـ231هـ) والبحتري (ـ284هـ) ،والى قمة الصراع بين القديم والجديد . واحتدم الجدال في النقد حول هذين الاتجاهين الكبيرين ،وتعصب لهما المتعصبون . والدليل على ذلك ظهور عدة كتب نقدية تؤيد هذا الاتجاه أو ذاك أوتحاول التوسط والحكم بينهما ،وأقرب الأمثلة على ذلك كتاب (أخبار أبي تمام) لأبي بكر الصولي (ـ335) ، وكتاب(نقد الشعر) لقدامة بن جعفر (ـ337هـ) ،وكتب(الموازنة بين الطائيين) للآمدي (ـ370هـ) .

وجدت ظروف اجتماعية وسياسية أدت الى نشاط ثقافي، وأدبي على يد

---

(1) انظر أسماء بعضهم في المقابسات،ص29و 57 . وستأتي ترجمة يحيى بن عدي وأبي سليمان ضمن أساتذة أبي حيان .

(2) في تاريخ الحكماء ص 79، 109، 112، 226، 230، 232، 234، 287، 337، تراجم بعض المهندسين والفلكيين والأطباء من القرن الرابع ممن صحبوا الملوك البويهيين .

البويهيين الذين أثروا تأثيرا واضحا في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، كغيرهم من أمراء الأطراف، بتشجيعهم للثقافة والأدب في عواصمهم [1] لقد ظهر عدد من الشعراء والكتاب الجدد في الأقاليم والبلدان النائية عن العاصمة بغداد، فأنتجوا أدبا فيه أصداء مهمة من التغير السياسي والاجتماعي الذي شهدته بلدانهم ومواطنهم. والدليل على ذلك كله ما في كتاب (يتيمة الدهر) من تراجم شعراء البلدان الشرقية وعواصم الأطراف، وما فيه من أخبار كتابها وأدبائها ونماذج من شعرهم ونثرهم، كانت كلها تعبيرا عما ترسب في أعماقهم من آثار الصراع السياسي والاجتماعي والثقافي في عصرهم، وتصويرا لمواقفهم الفردية المتباينة من ذلك كله.

لقد عبر الشعراء عن التغيرات السياسية والاجتماعية، ووصفوا الأحداث الكبيرة في عصرهم ومجتمعهم، ووقفوا عند رغبات الوزراء والأمراء والكبار في تخليد مآثرهم ووصف الجوانب المشرقة من حياتهم وسيرهم. فهذا أبوبكر الخوارزمي (ـ383هـ) [2] يمدح مؤيد الدولة اثر فتحه لاحدى القلاع، واستنزاله صاحبها المسمى (كوشيار) فيقول:

وكنت سماء والعجاج سحائبا ... وخيلك أبراجا وجيشك أنجما

وأنزلت منها كوشيار وانما ... تقضت من فوق المجرة ضيغما

عرفتك صياد الأسود ولم أكن ... عرفتك صياد الأسود من الدما [3]

وبنى الصاحب بن عباد دارا فخمة بأصبهان، فاقترح على الشعراء وصفها، فقالوا فيها عدة قصائد عرفت باسم (الداريات) [4]، وكذلك فعل عندما مات برذون لأبي عيسى المنجم [5] كان الصاحب قد أهداه له، فرثاه الشعراء بمجموعة من القصائد عرفت باسم البرذونيات [6] ولما حصل أيضا في وقعة جرجان على الفيل الذي كان في عسكر خراسان أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه، [7] فوصفوه في قصائد مطولة عرفت أيضا باسم

---

(1) انظر تفصيل أثر البويهيين في الأدب في ظهر الاسلام 1/ 255-257، والأدب في ظل بني بويه ص 126 فما بعدها.

(2) ستأتي ترجمته في ص ٥٥ / ما شية رقم 3

(3) يتيمة الدهر 4/ 225. وانظر وصفه للملوك البويهيين عامة في المصدر نفسه 4/ 217.

(4) المصدر نفسه 3/ 203 فما بعدها.

(5) انظر ما ورد عنه في الامتاع والمؤانسة 1/ 56.

(6) يتيمة الدهر 3/ 214 فما بعدها.

(7) المصدر نفسه 3/ 229.

(الفيليات) ،وكانوا في كل ذلك يمزجون بين الحديث عن الموضوع الأصلي المقترح عليهم، وبين وصف المعارك والمآثر والأمجاد التي حرص الصاحب على تخليدها ومدحه بها. ومما يلحق بذلك وصف مجالس الشراب والسقاة والفواكه والثمار والغلمان الى غير ذلك مما تعج به اليتيمة (1) ودواوين الشعراء المعاصرين، وخاصة ديوان الصاحب ابن عباد الذي قال في وصف غلام:

خداه ورد وصدغه سبج ومقلتاه الفناء والسراح

ان هز أطرافه على نغم شقت جيوب وطاح أرواح

وجملة القول في محاسنه ان أمر الصباح صباح (2)

والحق أن مسيرة الشعر العربي الجديدة التي وضع أسسها أبو تمام والبحتري وغيرهما من شعراء القرن الثالث واصلت سيرها وتطورها في القرن الذي ندرسه على يد شعراء كبار كالمتنبي (ـ354هـ) والشريف الرضي (ـ406هـ) وأبي العلاء المعري (ـ449هـ) وغيرهم ،وهم الذين استطاعوا أن يربطوا حاضر الشعر العربي بماضيه وأن يحافظوا على أصالته وقوته،وأن يؤثروا في الشعراء المعاصرين لهم،فكانوا بذلك ممثلي الشعر وحاملي لواء الشعراء في عصرهم.غير أنه وجد الى جانبهم وعلى هامش التيار السائد الذي كانوا يمثلونه، شعراء آخرون كانوا أقرب الى الطبقات الدنيا من المجتمع وأكثر تصويرا لمتاعبها وأحوالها المختلفة،وكان أغلبهم يشكو فساد الدهر،وجور السلطان والزمان، ويتألم للحرمان الدائم والفقر المقيم. وبعضهم احترف الكدية والتسول وسيلة للابتزاز وجمع المال،وبحثا عن المتعة والترفيه في هذا اللون من ألوان الحيلة الاجتماعية والفنية ،وربما كان خير من يمثل هذا النوع الأحنف العكبري (3) وأبو دلف الخزرجي (4)، وأبو الفضل البديع الهمذاني في مقاماته المعروفة . قال الأحنف:

قد قسم الله رزقي في البلاد فما يكاد يدرك الابالتفاتيش

ولست مكتسبا رزقا بفلسفة ولا بشعر ولكن بالمخاريق

والناس قد علموا أني أخو حيل فلست أنفق الا في الرساتيق (5)

---

(1) اليتيمة3/ 253ـ266.

(2) ديوانه ص203.

(3) أبو الحسن عقيل بن محمد العكبري ،شاعر المكديين وظريفهم،توفي سنة (385هـ) .انظر اليتيمة 3/ 117ـ119،والأعلام 5/ 41.

(4) أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي ،شاعر الشحاذين في عصره. انظر اليتيمة3/ 352ـ373.

(5) يتيمة الدهر 3/ 118ـ119.

وقال الثعالبي "وأنشدني بديع الزمان لأبي دلف،ونسبه في بعض المقامات(1) الى أبي الفتح الاسكندري:

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور

لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور" (2)

ولأبي دلف قصيدة ساسانية عارض بها قصيدة مماثلة للأحنف العكبري (3)، وهي تدور حول أصناف الحيل التي يحتال بها الكدون للفوز بالرزق والكسب، وبديع الزمان أيضا خص مقامته الرصافية لهذا النوع من الحيل (4)، وذلك كله تصوير لهموم هذه الفئة الاجتماعية التي أفرزها مجتمع القرن الرابع،وهي صدى للفوارق الاجتماعية في هذا القرن .

أما النثر الفني فقد ظهر منافسا خطيرا للشعر منذ القرن الثالث الهجري، واستطاع أن يغزو موضوعات الشعر وأغراضه التقليدية من مدح وفخر وهجاء وغيرها على يد الجاحظ في رسائله العديدة. وقد استطاعت مدرسته النثرية أن تحتل المرتبة الأولى وتعد النموذج الأمثل لأغلب الكتاب من بعده. وكان مظنونا لدى الكثير منهم أنها الأولى والأخيرة في النثر العربي،وأن صاحبها قد وضع يده على سر التعبير النثري في الكلام،وأن لا أحد يستطيع تجاوزها. لذلك نراهم يتهافتون على كتبه وعلى لقب الجاحظ الثاني أثناء القرن الرابع خاصة(5)، الا أن التطور جرى على خلاف ما ظنوه وذهبوا اليه،اذ كان من نتيجة الاحتكاك بين العرب والفرس وانتشار الثقافة العربية الاسلامية في المناطق الشرقية، وانتقال النفوذ والسلطان الى عواصم تلك المناطق،أن ظهرت هناك مدرسة نثرية منافسة تسير عن الوسط الذي نبعت منه،وهي مدرسة أبي الفضل ابن العميد (ت360هـ) الذي ساعد مركزه السياسي على شهرتها وانتشارها باسمه(6)، وفي ذلك يقول الباقلاني وهو ينقد طريقة الجاحظ الكتابية "وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه،والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تجد قوما يرون كلامه قريبا،ومنهاجه بعيدا،ونطاق قوله ضيقا..."(7) الى أن قال:"على أن متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته،وجاذبوه على منهجه

(1) هي المقامة القريضية،انظر شرح المقامات ص17.
(2) يتيمة الدهر 3/ 354.
(3) المصدر نفسه 3/ 354 فما بعدها.
(4) شرح المقامات ص 215.
(5) معجم الأدباء 16/ 103 ووفيات الأعيان 5/ 103.
(6) أمراء البيان ص511.
(7) اعجاز القرآن ص247-248،وانظر المقامة الجاحظية لبديع الزمان الهمذاني في شرح المقامات ص84.

فمنهم من ساواه حين ساماه،ومنهم من أبر عليه اذ باراه،هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه،وأخذ طريقه،فلم يقصر عنه ، ولعله قد بان تقدمه عليه..."(1). وقال أيضا في ابن العميد "خلص لنفسه طريقة،وأنشأ لنفسه منها جا"(2) .

غير أن أنصار أبي عثمان من الكتاب والأدباء،قاوموا هذه المدرسة الجديدة ولم يعترفوا بها،واعتبروها افسادا للكلام العربي الأصيل،وخروجا عن الأسلوب القرآني المعجز. ويوجد أبو حيان التوحيدي على رأس هؤلاء،وهو القائل على لسان ابن ثوابة(3) "أول من أفسد الكلام أبو الفضل،لأنه تخيل مذهب الجاحظ،وظن أنه ان تبعه لحقه،وان تلاه أدركه،فوقع بعيدا من الجاحظ ، قريبا من نفسه..."(4) وهذه قولة شبيهة بقولة أخرى مماثلة في مسلم بن الوليد الذي كان أول شاعر اشتهر بمذهب البديع في الشعر،فقد قيل فيه :" أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد" (5)،ثم تبعه أبو تمام فأفرط وغالى. فكأن هذا الاتجاه التجديدي في الأدب الذي يولي اللفظ والتزويق الخارجي بعض عنايته،يعتبر افسادا للشعر والنثر في نظر هؤلاء المحافظين. وكما أن أبا تمام حمل لواء البديع والزخرف والتغيير في الشعر ، أثناء القرن الثالث،فان الصاحب ابن عباد حمل اللواء نفسه في النثر أثناء القرن الرابع. وهذا ما نشأ حوله صراع قوي بين الكتاب في هذا القرن، ويمثل كتاب(أخلاق الوزيرين) قمة التوتر والمجابهة فيه،كما يمثل جوانب متعددة من الصراع الثقافي والخلقي عامة في هذا العصر كما سنرى ان شاء الله تعالى.

ولقد حافظ النثر على أشكاله التقليدية فأبقى على الرسائل الديوانية والاخوانية والأخبار اللغوية والأدبية . وكل تطور في هذا الشأن هو ما كان من ظهور فن المقامات وبعض القصص الأدبية الناضجة ،على هامش الخبر الأدبي الذي كان متداولا عند أغلب الأدباء والمثقفين في القرون السابقة .

بهذا العرض المختصر للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية في القرن الرابع الهجري ،نكون قد رسمنا صورة عامة عن التغيرات الكبرى والتناقضات العامة التي كانت تشغل بال المثقفين،وترسم في أذهان بعضهم فجوة غير معبورة بين المثال، في صفائه واغرائه،وبين الواقع المر ،الذي أبى أن يحقق ذلك المثال وأن يستجيب لذلك الاغراء. وهذا التباين والتناقض هو الذي عرض شخصية مرهفة الاحساس

---

(1) اعجاز القرآن ،ص248.

(2) المصدر نفسه، ص 121.

(3) ستأتي ترجمة ابن ثوابة في ص 154 حاشية رقم 1 .

(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 66.

(5) الموازنة للآمدي 1/ 135. وستأتي ترجمة مسلم في ص 290 حاشية رقم 7.

عميقة الشعور بجوانب النقص في المجتمع ،مريضة في أصل خلقها وتكوينها ، مثل شخصية أبي حيان ،عرضها للموت واليأس والجنون ،بعد الكفاح والأمل والثقة ،فراح يرسم بحساسة الفنان المقتدر صورا فنية خالدة لـلا هتزازات والتوترات الانسانية التي ولدها التناقض والاحتكاك ، بين الواقع والمثال ،في سلوك الصفوة المختارة من أبناء مجتمعه كما سنرى بتفصيل من خلال هذا البحث بحول الله .

* الفصل الأول *

أبو حيان التوحيدي : حياته وثقافته وعلاقته بالوزيرين ابن عباد وابن العميد

ان تعريف القدماء بأبي حيان ، ومواقف المترجمين منه ومن آثاره ، يشير بعض الملاحظات الأولية التي لابد من الاشارة اليها والبحث فيها ، قبل الشروع في عرض مراحل حياته ، وتكوين ثقافته ، وعلاقته بمعاصريه .

ذلك أن معاصريه من الكتاب والأدباء والمترجمين والمؤرخين على اختلافهم قد تجاهلوه تجاهلا يكاد يكون مطلقا ، اذ لم يشر اليه أحد منهم ، ولم يرد ذكره أو ذكر كتبه ، على كثرة ما وضعوه من الكتب والمصنفات في التراجم والأخبار الأدبية والثقافية والتاريخية المختلفة ، وعلى كثرتها ملأ هو كتبه ورسائله بالمرويات عن علماء عصره ، وأخبار أدبائه وأعيانه ومثقفيه ، في حياتهم وبعد مماتهم . ولا تجد له ذكرا عندهم باستثناء اشارة صغيرة من صديقه مسكويه في عرض اجابته على أسئلته في كتاب (الهوامل والشوامل) ، اتهمه فيها بالتيه والعجب والجنون .(1)

وبعد وفاته بأزيد من نصف قرن نجد ذكره بصفة عابرة ، أواخر القرن الهجري الخامس ، في (الهفوات النادرة)(2) لغرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن الصابي (ـ480هـ) وفي (ذيل تجارب الأمم)(3) للأمير أبي شجاع الروذراوري (ـ488هـ) . وفي القرن السادس بدأت كتبه تشيع وتنتشر ، ويطلع عليها الكتاب والمترجمون ، وينقلون منها الفقرات تلو الفقرات ، كما فعل صاحب (تكملة تاريخ الطبري)(4) لمحمد بن عبد الملك الهمذاني (ـ521هـ) وظهير الدين البيهقي (ـ565هـ) صاحب (تاريخ حكماء الاسلام)(5) بل نجد عند ابن الجوزي (ـ597هـ) حكما عليه بالالحاد والزندقة والكذب والتزوير(6) ، وهو حكم شاع وانتشر قبل هذا التاريخ دون معرفة مصادره بدقة كما سنرى .(7)

وفي مستهل القرن السابع نجد عند ياقوت الحموي (ـ626هـ) في كتابه (معجم الأدباء)(8) ترجمة موسعة شاملة لأهم معالم حياة أبي حيان ، وتقويما ثانيا جديرا بالاعتبار والتقدير لشخصيته وكتبه ، وقد استطاع أن يحصل على عدد من

---

(1) الهوامل والشوامل ص56 . وسيأتي تفصيل العلاقة بين مسكويه وأبي حيان .
(2) الهفوات النادرة ص342 ، وقد أورد حكاية بين أبي حيان والصاحب لم ترد في كتاب أخلاق الوزيرين .
(3) ذيل تجارب الامم ص75 .
(4) تكملة تاريخ الطبري ص186 ، 212 ، 217 .
(5) تاريخ حكماء الاسلام ص 83 ، وانظر كتاب أخلاق الوزيرين ، مقدمة المحقق ص ز .
(6) المنتظم 8/ 185 .
(7) وذلك في نص منسوب لابن فارس (طبقات الشافعية 5/ 287) وسنعرض موقفنا من هذا النص في الفصل التالي .
(8) معجم الأدباء 15/ 5ـ52 ، وانظر مقدمة المحقق لكتاب أخلاق الوزيرين ص ح .

من كتب الرجل ويعرف بها ويقدم منها نقولا مهمة،لايزال بعضها معتمد الباحثين في معرفة كتبه ورسائله الضائعة كما سنرى. وقد استغرب ياقوت سكوت المؤلفين عنه قبله فقال: "ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب"،(1) كما اعتمد على كتبه في ترجمة بعض أعلام الثقافة والأدب(2)، ونقل مختارات من كتاب(أخلاق الوزيرين)(3) ظلت هي المعتمد حتى اكتشف الكتاب وطبع.

وأهم من عني بأبي حيان بعد ياقوت،واطلع على بعض آثاره في القرن السابع، ابن أبي الحديد (ـ655هـ)،الذي أورد في كتابه (شرح نهج البلاغة)(4) رسالته المعروفة باسم رسالة السقيفة وعلق عليها تعليقا مفيدا،وابن خلكان (ـ681هـ) في كتابه (وفيات الأعيان)(5). وفي القرن الثامن نجد ترجمة مختصرة له في (طبقات الشافعية)(6) لتاج الدين السبكي (ـ771هـ). وفي القرنين التاسع والعاشر نعثر على ترجمتين متوسطتين له عند كل من ابن حجر العسقلاني (ـ852هـ) في (لسان الميزان)(7) وجلال الدين السيوطي (ـ911هـ) في (بغية الوعاة)(8).

غير أن ما يؤسف له أن أيا من هؤلاء المتأخرين لم يرتفع الى درجة ياقوت في شمول الفهم وعمق النظر في كتب أبي حيان وشخصيته،اذ اقتصر معظمهم على ذكر الشيوخ والتلاميذ وتحقيق الاسم،وذكر بعض آرائه في الفقه والحديث، وما أضعف جوانب ثقافته كما سنرى،مع محاولة تبرئته من الزندقة والالحاد أو ذمه بسببهما. وكل ذلك أبعدهم عن فهم شخصيته فهما صحيحا كما سنرى.

ومن ذلك كله نستنتج أن صلة القدماء بأبي حيان،وتعريفهم به،وترجمتهم له،كانت عن طريق كتبه وآثاره وحدها،وأن هذه الصلة تمت تدريجيا،اذ بدأت بنقول مختصرة واشارات صغيرة،وانتهت بتقويم شخصيته واصدار الأحكام على ثقافته وعقله ودينه. ولم تبدأ الا بعد مرور أزيد من نصف قرن على وفاته،وهو قدر كاف لطمس الأسباب الحقيقية لسكوت معاصريه عنه وتجنبهم ذكره. وربما كان كتاب (أخلاق الوزيرين) بظروف تأليفه،وأسبابه،ونتائجه،وموضوعاته الخطيرة،يتحمل

---

(1) معجم الأدباء 15/ 6.
(2) انظر ترجمة أبي زيد البلخي وأبي سعيد السيرافي في معجم الأدباء 3/ 64، 8/ 145-232
(3) معجم الأدباء 15/ 26-49.
(4) شرح نهج البلاغة 2/ 911-918،ومقدمة المقابسات للسندوبي ص25-44.
(5) وفيات الأعيان 5/ 112.
(6) طبقات الشافعية الكبرى 5/ 286 فما بعدها.
(7) لسان الميزان 7/ 38-41.
(8) بغية الوعاة 2/ 190-191.

جانبا مهما من السوء ولية من هذا السكوت ،وعن المواقف التي اتخذها القدماء من الرجل وكتبه عامة كما سنرى .

ونستنتج من ذلك أيضا أهمية كتب أبي حيان في الترجمة له والتعريف به. أما ما كتبه عنه القدماء فان أهميته تعود قبل كل شيء الى الحقائق والمعلومات التي استقوها من مصادر لم تصل الينا ،ولا مفر لنا من الاعتماد عليها،مادمنا نفتقد المصادر المباشرة المكتوبة في عصر الرجل .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

أبو حيان

نشأته وتكوينه:

اتفق المترجمون له على أن اسمه علي بن محمد بن العباس،وأن كنيته أبو حيان ولقبه التوحيدي "نسبة الى نوع من التمر يسمى التوحيد . وقال شيخ الاسلام ابن حجر : يحتمل أن يكون الى التوحيد الذي هو الدين ،فان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد "(1). وسبب اتفاقهم على ما يبدو هو اعتمادهم على الاسم كما هو وارد في صدر كتبه . ثم اختلفوا في تعليل تلقيبه بالتوحيدي .

على أن أبا حيان لم يشر الى شيء من هذا ،ولكنه كان يفتخر بكنيته ويتباهى بها (2)وسكت أيضا عن كل ما يشير الى أهله وأسرته وأحواله في صباه وشبابه(3) وذلك ما فسح المجال للخلاف حولها فقال ياقوت انه " شيرازي الأصل ،وقيل نيسابوري ،ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي "(4)وورد في (لسان الميزان) "أبو حيان التوحيدي من شيراز"(5) ، وكل هذه الأقوال ترجح أن يكون منحدرا من أصل فارسي . الا أن التوحيدي ،كما سنرى فيما بعد،قضى قسطا مهما من أواخر عصره في شيراز،فقد التجأ اليها بعد أن ساءت أحواله في الري وبغداد، وقال مخاطبا علماءها وأدباءها في مقدمة رسالته في العلوم : "أطال الله بقاءكم وأدام كرامتكم ... وجعل حظ الغريب السلامة بينكم اذا فاتته الغنيمة منكم . وقد كان يقال : من لم يغضب لنفسه ناصرا ،لم يغضب لبني جنسه منتصرا"(6) الى أن قال : "ومن بعد ذلك فاني لم أرد بلادكم العراق مما هيأ لكم،

---

(1) بغية الوعاة 2/ 190،وانظر وفيات الأعيان 5/ 113.

(2) انظر أخلاق الوزيرين ص305–308، 487.

(3) وردت اشارة وحيدة عن حسد أحد أعمامه له في البصائر والذخائر2/ 475.

(4) معجم الأدباء 15/ 5،وانظر طبقات الشافعية5/ 286 وبغية الوعاة2/ 190.

(5) لسان الميزان 7/ 40.

(6) رسائله ص 103.

ولا حضرت مجالسكم طاعنا فيكم ،ولا تأخرت عنكم متطاولا عليكم..."(1). وهي كلمات تفصله عن مدينة شيراز بقدر ما تنسبه اليها ،فاما أن يكون أبو حيان قد عاد الى موطنه الأصلي بعد أن خاب أمله في رحلته الكبرى ،واما أن يكون قد هرب الى مدينة شيراز لبعدها عن نفوذ أعدائه ،فاستوطنها مدة طويلة(2) ،حتى اشتهر أمره بها ،ونشر بها كتبه ،فلم يعرف من أصحاب التراجم والوراقين الا منسوبا اليها.

ويستأنس أيضا الى رجحان أصله الفارسي بقول ياقوت:"قدم بغداد فأقام بها مدة ومضى الى الري"(3) ،وقول ابن حجر رواية عن بعض الشيرازيين:"أنشدنا أبوحيان التوحيدي بشيراز بعد عوده من بغداد ،فذكر شعرا من انشاد ثعلب"(4).

غير أن أبا حيان قضى فترة تكوينه في بغداد كما سنرى ،وكان يحبها ويتعصب لها في كتبه وأقواله(5) ،وقيل ان أباه كان يبيع نوعا من التمر بها(6). أضف الى ذلك تعصبه للعرب ورده على الشعوبية أمام وزير فارسي هو ابن سعدان(7). وكان ينعت في شيراز بلقب البغدادي(8) ،وكل ذلك ان لم يرجح انحداره من أصول عربية، فهو يؤكد ارتباطه بالعرب في العنصر والنشأة والثقافة منذ عهد بعيد. ومما يزيد هذا الرأي توكيدا قوله في أبي بكر الخوارزمي: انه كان "من أفصح الناس،ما رأينا في العجم مثله"(9).

وكيفما كان الحال فأبوحيان لم يكن يحتفل بالفوارق الجنسية ،ولا بأصل الانسان وعنصره ،وانما يعتد بأخلاقه وعلمه وثقافته(10) ،لذلك سكت عن كل ما يتعلق بأصله وأسرته وماضيه قبل أن يستوي مثقفا وأديبا طموحا ،فنحن نجهل كل ذلك ،ولعله لم يكن يجد فيه ما يشرفه(11) ففضل السكوت كما

---

(1) رسائله ص 104.

(2) من سنة 375-414 كما سنرى.

(3) معجم الأدباء 15/5.

(4) لسان الميزان 7/ 40 ،وستأتي ترجمة ثعلب في ص 189 حاشية رقم 1.

(5) في الامتاع مثلا 1/ 62، 64، 67 يتعصب للطبائع العراقية ويفتخر بها.

(6) وفيات الأعيان 5/ 113.

(7) الامتاع 1/ 73 فما بعدها ،وموقفه من الشعوبية يتسم بالحرارة والعنف والشمول أكثر من موقف الجاحظ. وستأتي ترجمة ابن سعدان في ص 62 حاشية رقم 1.

(8) هدية العارفين 1/ 684.

(9) أخلاق الوزيرين ص 108 ،ويستفاد من نص آخر في المصدر المذكور ص 306 ومن آخر في (المقابسات) أنه ربما كان يجهل اللغة الفارسية ،وانظر

Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi

لمارك بيرجيه ص 10 – 11.

(10) أبوحيان التوحيدي لزكريا ابراهيم ص 14– 15.

(11) ألقى عليه الصاحب كما ورد في (أخلاق الوزيرين) ص 306–310 ثلاثة أسئلة تدور كلها حول كنيته ،من بينها سؤاله: من كناك أبا حيان؟ وهو يتهرب من الاجابة ،فهل في الأمر نوع من اللمز؟

فعل المتنبي .

أما تاريخ ولادته فيمكن الوثوق بأنها كانت في أوائل العقد الثاني من القرن الرابع حوالي سنة (310ﻫ) أو بعدها بقليل . وقد اعتمد الباحثون في ذلك على ما ورد في رسالته الى القاضي أبي سهل التي يعتذر فيها من احراق كتبه ، وكانت مؤرخة بسنة (400ﻫ) ، فقد جاء فيها قوله: " وبعد، فقد أصبحت هامة اليوم أو غد ، فاني في عشر التسعين "(1). ويؤيد ذلك قوله في (الامتاع والمؤانسة) الذي ألفه حوالي سنة (374ﻫ) كما سنرى: "هذا وأنا في ذيل الكهولة وبادئة الشيخوخة "(2). ومعنى هذا أنه كان على أبواب السبعين من عمره عندما دون هذا الكلام ، فيكون من المرجح أنه ولد في التاريخ المذكور.

ومهما كان أصله ونسبه (3) والمكان الذي ولد فيه ،فالذي لا شك فيه أنه نشأ نشأة عراقية بغدادية ،ففي بغداد تكونت شخصيته العلمية والأدبية والاجتماعية ، وفيها تلقى العلوم المختلفة عن شيوخها وأساتذتها المشهورين ،واطلع على التيارات السياسية والاجتماعية المتصارعة في عصره،كما حاول بعد أن استكمل نضجه وثقافته أن ينتج انتاجا فنيا متميزا . وذلك ما أدى به الى التعصب لبغداد وحضارتها وعادات أهلها ،والى ادراك الفوارق المميزة لها عن غيرها . والشواهد على ذلك متوفرة في كتبه ، فهو يصف أبا اسحاق الصابي مثلا بكون طباعه عراقية (4) ،وينعت الصاحب بأنه جبلي

---

(1) معجم الأدباء 15/ 16.

(2) الامتاع والمؤانسة 1/ 1.

(3) أصل أبي حيان ونسبه من المسائل المشكلة التي يسافر فيها الظن والتخمين، كنسب الجاحظ والمتنبي وغيرهما من العظماء الذين سكتوا عن ذويهم وأسرهم، فاما أن يكون الأصل مشبوها وغير مشرف ،واما أن العظماء الفقراء يفضلون الصمت عن الماضي ،لما لمسألة النسب من أهمية خاصة في المجتمع الاسلامي . وأبوحيان خاصة كان ذا نزعة ارستقراطية واضحة ،فقد عير الوزيرين ابن العميد وابن عباد بخساسة أصلهما كما سنرى ،وعير الفقيه الداركي بأن أباه كان فلاحا من سواد همذان (الامتاع 1/ 141) ،وكان يحتقر العوام . وحملته ونقمته كانت موجهة نحو عظماء فارس ، فمجال الافتراضات واسع بشأنه ،لكن لاشيء يستحق الترجيح ما دمنا نفتقر الى نصوص صريحة . وقد ذهب أحد الباحثين المحدثين الى الحديث عما سماه بعقدة النسب عند أبي حيان دون الاستناد الى دليل قوي واضح . انظر مجلة (الفكر) ،العدد الثامن ،ماي 1979، السنة(24) ، ص24 (مدخل الى دراسة أبي حيان التوحيدي) بقلم البشير المجذوب .

(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 67 ، وستأتي ترجمة الصابي في ص 189 حاشية رقم 3 .

في كتابته و أخلاقه. (1)

والغالب أن نشأته كانت متواضعة تتسم بالفقر والحرمان وايثار السلامة،(2) ولم يعرف عنه أنه تزوج أو أنجب أطفالا أو تحمل أعباء أسرة مستقلة(3). ولذلك كتب الى القاضي أبي سهل حين لامه على احراق كتبه في أواخر عمره يعتذر عن فعله فيقول: "وما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا، ورئيسا منيبا"(4). وهو يؤكد أنه أقبل على الدرس والتحصيل في شبابه بهمة قوية أشارت عليه حسد بعض أقاربه(5). واستعان في سبيل ذلك بمواهبه العقلية وقدراته الخاصة على الفهم والحفظ.(6) وتمكن أيضا من حضور المجالس الأدبية التي كان يعقدها بعض الوزراء(7) منذ عهد مبكر من حياته. وذلك ما أذكى أمله في التقرب من أصحاب السلطة والنفوذ في عصره والاتصال بهم والرحلة اليهم بعد أن تم نضجه وتكوينه. وكان يعود الى بغداد بعد كل رحلة من رحلاته كأنه اتخذها مستقره المفضل.

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

ثقافته وأساتذته:

ان مؤلفات أبي حيان الباقية بين أيدينا تعطينا صورة عامة عن ثقافته في جوانبها المتعددة، وفي فروعها واتجاهاتها المتشعبة، كما تبين لنا درجة عنايته واهتمامه بالمعرفة الانسانية كيفما كان موضوعها وصلتها بالانسان، وربما كان يا قوت من بين الأدباء والكتاب القدماء، كما أشرنا الى هذا قبل قليل (8)، أول من توفر عنده كثير منها، وتمكن من قراءتها وادراك تميزها ودلالتها على شخصية صاحبها، وعلى نبوغه وتضلعه في مختلف العلوم المشهورة في عصره،

---

(1) اخلاق الوزيرين ص137، (انظر ص505 منه.
(2) قال في الامتاع" أنا رجل حبب السلامة غالب علي والقناعة بالبلغة محبوبة عندي" 1/ 104.
(3) اشار في الامتاع 3/ 151 الى أنه كان يملك ذهبا وأثاثا وجارية ذهبت كلها في فتنة (362).
(4) معجم الأدباء 15/ 19.
(5) البصائر والذخائر 2/ 475.
(6) معجم الأدباء 15/ 5-6.
(7) الدليل على ذلك قوله في الامتاع (2/ 145) "قال لنا علي بن عيسى الوزير" وقوله في الصداقة والصديق ص197 "سمعت العوامي يقول لعلي بن عيسى الوزير" فقد كان يحضر اذن مجلس هذا الوزير العظيم الذي توفي سنة (334) وهو اذ ذاك لا يزال في حوالي العشرين من عمره.
(8) انظر ما سبق في ص 39-40.

فقال فيه :" وكان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة . وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ،ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وامام البلغاء ،وعمدة لبني ساسان... فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة ،وفصاحة ومكنة ،كثير التحصيل للعلوم، في كل فن حفظه،واسع الدراية والرواية "(1). ولا مفر لنا من قبول هذه الشهادة من ياقوت على وجه العموم ،تبعا لما عرف به من سعة الاطلاع والدقة في الحكم، ومن الحذر والحيطة والاعتماد على النصوص(2) . ويؤيده في ذلك قول السبكي: " أبوحيان التوحيدي المتكلم الصوفي...كان اماما في النحو واللغة والتصوف، فقيها مؤرخا..."(3) وقول ابن النجار" كان أبوحيان التوحيدي فاضلا لغويا ، نحويا ،شاعرا ،له مصنفات حسنة "(4) كما تؤيده كتبه الباقية التي وصلت الينا.

ولكننا، مع ذلك ،نجد أبا حيان نفسه يعترف باستحالة الجمع بين مختلف العلوم والتضلع فيها بنسب متساوية فيقول :" واني لأتعجب من أصحابنا اذ ظنوا وقالوا : ان الانسان يستطيع حفظ جميع فنون العلم،والقيام بها ،والابقاء عليها . ولوكان هذا مقدورا عليه لوجد ،ولو وجد لعرف،ولوعرف لذكر . وكيف يجوز هذا، وقلب الانسان مضغة ،وقوته مقصورة ،وانبساطه متناه،واتهامه وتصوره وذكره محدود" (5) . وسواء صح هذا أم لم يصح ،فقد فكر أبو حيان في أن ينبغ في كل علوم عصره ويبلغ فيها مستوى محمودا كمعظم العلماء المعاصرين له ،وحاول ذلك حسب طاقته وقدراته،متأثرا بالميل الطاغي لمثقفي العصر نحو الموسوعية والاحاطة بكل المعارف المتداولة في عصرهم،وبالازدهار الثقافي الشامل .

ولذلك نراه،كما تشير الى ذلك اشارات كثيرة في كتبه(6)، يتردد على شيوخ عصره ومجالسهم في العراق وفارس وهم كثيرون ،يدرس عليهم الكتب الفلسفية واللغوية،ويدون الأخبار الأدبية المتنوعة من كل فن ،ويسألهم الأسئلة المختلفة

---

(1) معجم الأدباء 15/ 5 وعنه في بغية الوعاة 2/ 190 ،وانظر مقدمة الهوامل والشوامل لأحمد أمين ص9.

(2) قال بعد أن نقل خبراعن التوحيدي " ...أوكما قال أبوحيان ،فاني لم أنقل ألفاظ الخبر لعدم الأصل الذي قرأت منه "معجم الأدباء 8/ 147في ترجمة السيرافي .

(3) طبقات الشافعية5/ 286.

(4) لسان الميزان6/ 39.

(5) الامتاع والمؤانسة2/ 35.

(6) كتابه المقابسات وكتاب الهوامل والشوامل أقرب مثل على ذلك ،فكلاهما أسئلة وأجوبة لعدد من الشيوخ والعلماء.

عن قواعد السلوك والأخلاق والدين والتصوف وغيرها من ميادين المعرفة في عصره. وفي أسفاره يسأل كل من يلتقي بهم على اختلاف درجاتهم العلمية وموضوعات اهتمامهم، يسأل عن كل شيء ويدون كل جواب، فلقد كانت اهتماماته واسعة متشعبة يصعب حصرها، كما يصعب حصر أساتذته في عدد محدود من الشيوخ. أضف الى ذلك أنه كان يحترف الوراقة (1) فقضى أكثر أيامه مع الكتب والمدونات، وتتلمذ بذلك على الأموات من الكتاب والعلماء زيادة على الأحياء منهم. ومع ذلك كله لانستطيع أن ندعي له بلوغ الكمال في كل العلوم التي كان يهتم بها، بل انه على خلاف ذلك، كان يميل الى التوسط بالقياس الى مشاهير عصره، وهذا ما يؤكده هو نفسه حين طلب منه الوزير ابن سعدان أن يصف بعض علماء عصره فقال: "وصف هؤلاء أمر متعذر، وباب من الكلفة شاق، وليس مثلي من جسر عليه وبلغ الصواب منه، وانما يصفهم من نال درجة كل واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم، فعرف حاضرهم وغائبهم، وموجودهم ومفقودهم" (2). كما أنه رضي بأن يورق لزيد بن رفاعة أحد رؤوس اخوان الصفاء (3)، وأن يحصل بعض رسائلهم الى شيخه أبي سليمان المنطقي، فلما عرف رأيه فيها وعدم رضاه على مذهب الجماعة في الجملة، نقله كذلك الى المقدسي أحد هؤلاء الاخوان، الذي رفض التعليق على رأي أبي سليمان، وقال التوحيدي انه "سكت، وما رآني أهلا للجواب" (4). أضف الى ذلك أنه في أغلب كتبه يروي ما سمعه ووعاه عن شيوخه وفي مطالعاته الكثيرة، ولا تظهر شخصيته العلمية الا من خلال تعليقاته وأسئلته وحسن عرضه للأفكار والأحداث، ومن خلال حرصه على التدوين وكثرة الحفظ.

ومع ذلك، نجده في أواخر عمره يتحدث عن كثرة محصوله العلمي، وعن مكانته الثقافية الضائعة بما يدهش الألباب ويحير العقول، فيقول في رسالته الى القاضي أبي سهل "وماذا أقول وسامعي يصدق ان زمانا احوج مثلي الى مابلغك لزمان تدمع له العين حزنا وأسى، وينقطع عليه القلب غيظا وجوى، وضنى وشجا، ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى كاف وشاف، وان احتجت اليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس الى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس، "ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون "" (5).

---

(1) أخلاق الوزيرين ص306.

(2) الامتاع والمؤانسة 1/ 32.

(3) الامتاع والمؤانسة 2/ 4، وهو أبو الخير زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة. الأعلام 3/ 98.

(4) الامتاع والمؤانسة 2/ 11.

(5) رسائله ص167 والآية مقصورة يوسف رقم 38 والكلمة الأخيرة فيها مصحفة، فالصحيح انها "لايشكرون".

ويبدو أن ما قاله سابقا في الاعتذار عن صفة علماء عصره كان في بداية نشاطه الثقافي وأول اتصاله بمختلف العلماء ومجالسهم الثقافية، وأنه قاله وهو في بغداد مدينة العلم والمعرفة حيث لم يستطع أن يحقق سوى نجاح محدود في الشهرة والاتصال بالكبار، بسبب مزاحمة من هم أطول منه باعا وأقوى صولة. أما القولة الأخيرة فقد قالها في شيراز، في أواخر عمره، عند اكتمال شخصيته العلمية. ولذلك يصح تصديقه في الحالتين معا، برغم ما في الحالة الأولى من تواضع مدعى، وما في الحالة الثانية من بعض الفخر الذي لا مبرر له. ومع ذلك تبقى الصورة العلمية التي رسمها له ياقوت في حاجة الى مزيد من التفسير لا نستطيعه نحن نظرا لما نفتقده من كتب أبي حيان وأخباره. كانت متوفرة عند ياقوت، ولذلك فنحن مرغمون على قبول هذه الشهادة كما سبق القول.

ذلك شأن أبي حيان في سعة ثقافته وكثرة معارفه على وجه العموم. أما خصوصيته فيها ودرجة تمثيلها لنفسه وشخصيته، فالذي لاشك فيه أن التوحيدي لا نظير له بين كتاب النثر العربي في قوة الاخلاص للذات وصدق التعبير عنها، والتصاقه كل حديث وخبر مما رواه ودونه بشأن من شؤونها، اذ لا يخلو أي كتاب من كتبه أو رسالة من رسائله الباقية. من الأحاديث الصريحة عن نفسه وشؤونه، كما أن مروياته ومدوناته الموضوعية لا تعدو في أغلبها أن تكون تعبيرا غير مباشر عن ميوله وأحواله الواقعية والفكرية والنفسية. وذلك ما أثار انتباه كثير من الناس واستغرابهم واعجابهم في القديم والحديث. فقد قال فيه ياقوت: "وكان مع ذلك محدودا محارفا، يتشكى صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه"(1). وقال تاج الدين السبكي "ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه الا أنه كان قوي النفس مزدريا بأهل عصره"(2). وقال آدم متز كلمته السائرة" ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيرا عن مزاج صاحبه"(3). وذلك كله تعبير عما في آثار الرجل من حرارة خالدة وظلال نفس دائمة التوتر والاضطراب، لكونها تروي بصورة أو بأخرى قصة حياة شخص معذب، لم يجد الخير والصدق في بني جنسه، فمنح ثقته واخلاصه للكلمة يفجر فيها آلامه وشجونه، وهنا قبل أي شيء آخر، تكمن أهمية آثاره وقيمتها الأدبية والفنية(4).

---

(1) معجم الأدباء 15/ 6.
(2) طبقات الشافعية 5/ 288.
(3) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 441.
(4) اكتفينا هنا بالحديث عن مكانة أبي حيان العلمية والثقافية مرجئين تفصيل موقفه من كل علم على حدة الى الباب الثاني بحول الله حين يتضح ذلك من خلال نقده وتجريحه لما يدعيه الوزيران من العلوم والمعارف.

أما أساتذته المباشرون فقد أشار القدماء المترجمون له الى بعضهم ،فقال السبكي "وتفقه على أبي حامد المروروذي ،وسمع الحديث من أبي بكر الشافعي ،وأبي سعيد السيرافي ،وجعفر الخلدي ،ولعله أخذ عنه التصوف،وغيرهم" (1) . وقال ابن النجار انه" سمع أبا بكر الشافعي ،وأبا سعيد السيرافي ، والقاضي أبا الفرج المعافى ،وأبا الحسين بن سمعون وغيرهم" (2) . الا أن الملاحظ أنهم اقتصروا على ذكر شيوخه في الفقه والحديث والتصوف،وهي الجوانب التي ترجموا له من أجلها ،وأغفلوا جوانب أخرى وشيوخا آخرين ربما كان تأثيرهم في شخصية التوحيدي ،وفي نفسه وعقله،أشد وأعمق كأبي سليمان المنطقي ،وعلي بن عيسى الرماني ،ويحيى بن عدي وغيرهم (3) من شيوخه في الفلسفة والكلام والأدب،وربما تجنب المترجمون له ذكر هؤلاء لكونهم متهمين بالفلسفة كما اتهم بها أبوحيان نفسه (4) .

وتفقهه على أبي حامد المروروذي (-362هـ) (5) هو شيء تشهد به مروياته الكثيرة عنه، وأقواله التي دونها في كتبه في موضوعات شتى ،فقهية وكلامية ولغوية وغيرها ،وقد تلقى عنه الفقه الشافعي وأعجب بموقفه في اتباع السلف الصالح ،ورفض الجدل ، وكثرة الخلاف، وقد قال فيه :"كان أبوحامد شديد الازورار عن الخلاف،شديد الكلام في أهله" (6) وربما تأثر به في عداوته لعلم الكلام وأهله (7) . وقد بلغ اعجابه به وتقديره له ،درجة لايضاهيها في نفسه الا درجة أبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي ، ولذلك قال :"وانما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل لانه أنبل من شاهدته في عمري وكان بحرا يتدفق حفظا للسير،وقياما بالأخبار،واستنباطا للمعاني ،وثباتا على الجدل ،وصبرا في الخصام..." (8) . وقد لزمه التوحيدي حوالي سنتين وروى عنه الكثير (9) .

ومع ذلك ليس لأبي حيان فيما نعلم آراء يعتد بها في الفقه، سوى بعض

---

(1) طبقات الشافعية 5/ 286 ،وانظر بغية الوعاة 2/ 191 .

(2) لسان الميزان 7/ 39 .وستأتي تراجم هؤلاء الاعلام بعد قليل .

(3) انظر ماسبق في ص 32-33 .

(4) لسان الميزان 1/ 413 وانظر رسائله ص 105 و الصداقة والصديق ص 56 .

(5) القاضي أبوحامد أحمد بن عامر بن بشر بن حامد المروروذي ،نسبة الى مرو الروذ احدى المدن الخراسانية الكبرى ،فقيه شافعي أخذ عنه فقهاء البصرة وبغداد . ترجمته في الفهرست ص 315 وطبقات الفقهاء للشيرازي ص 114 ، ووفيات الأعيان 1/ 69-70 ،وشذرات الذهب 3/ 40 .

(6) البصائر والذخائر 1/ 304 .

(7) أخلاق الوزيرين ص 207-208 ،والبصائر والذخائر 1/ 73 .

(8) البصائر والذخائر 1/ 305 ،وانظر طبقات الشافعية 2/ 82 .

(9) قال أبوحيان وهو يتحدث عن أبي حامد " أقام عندنا ببغداد في أواخر أيامه سنتين" أخلاق الوزيرين ص 224 .

الآراء الفقهية المتواضعة التي رواها عن أبي حامد، ولذلك قال السبكي "ولكني لا أعرف له من قبل نفسه كلاما في الفقه"(1). فقد تأثر بأبي حامد اذا، كما يفهم من أقواله فيه ومروياته عنه، في المبادئ العامة والمواقف الكبرى من الحياة ومشاكل الثقافة في عصره، وفي الفصاحة والبيان، وفي كونه يقترب من مثال الشخصية النموذجية، الذي يبحث عنه أبو حيان ويحلم به.

وأما أبوبكر الشافعي المحدث(2)، فلم يرو عنه شيئا ذا بال في كتبه الموجودة فلعل صلته به كانت عرضية، كما أن مرويات أبي حيان في الحديث لم يصلنا منها الا ما ورد منشورا في الامتاع والمؤانسة والبصائر والذخائر وغيرهما، وهو قدر محدود من الأحاديث في موضوعات مختلفة لا يسلكه في سلك المحدثين الكبار. ولكنه مع ذلك كان يميل الى المحدثين ويناصرهم، كما يناصر المحافظين عموما في الدين واللغة وغيرهما ويقاوم أرباب النحل والأهواء ودعاوى التجديد.

وأما أبو سعيد السيرافي (-368هـ)(3) فهو أكثر شيوخه تأثيرا فيه وأكثرهم ذكرا في كتبه الى جانب أبي سليمان المنطقي، اذ تكاد مروياته عنه في اللغة والنحو خاصة تكون معظم محصوله فيهما الى جانب مطالعاته وتحقيقاته. وكثيرا ما يفزع الى الاستشهاد به حين يعوزه المرجع والدليل، وعنه تلقى أكثر العلوم التي اشتهر أبو سعيد بتدريسها كالأحكام والفرائض، والتفسير والكلام، والحساب والشعر والعروض الى جانب علوم اللغة. وقد تحدث عنه أبوحيان حديثا يشعر بمدى تأثره به وتقديره له الى درجة الاعجاب المطلق. فقال في كتاب (تقريظ الجاحظ)، وقد ذكر جماعة من الائمة كلهم كانوا يقدمون الجاحظ ويفضلونه: "ومنهم أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وامام الائمة، معرفة بالنحو، والفقه، واللغة، والشعر، والعروض والقوافي، والقرآن، والفرائض والحديث، والكلام والهندسة والحساب. أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، فما وجد له خطأ ولا عثر منه على زلة، وقضى ببغداد، وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه في السليماني، فما جاراه فيه أحد، ولا سبقه الى تمامه انسان،

---

(1) طبقات الشافعية 5/ 286.

(2) هو محمد بن عبد الله أبو بكر الشافعي (-354هـ). العبر 2/ 301.

(3) أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان، كان أبوه مجوسيا اسمه بهزاد، أصله من فارس ومولده بسيراف ثم رحل الى عمان فالعسكر فبغداد وبها تولى القضاء. ترجمته في الامتاع 1/ 128-133، والفهرست ص 99، ونزهة الالباء ص 307-308، ومعجم الادباء 8/ 145 فما بعدها، وبغية الوعاة 1/ 507، وانظر ماسبق في ص 25-26.

هـذا مع الثقة والديانة ،والأمانة والرواية،صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله"(1).

وقال في كتاب(المحاضرات)" وحضرت مجلس شيخ الدهر،وقريع العصر،العديم المثل المفقود الشكل،أبي سعيد السيرافي ..."(2).

ويظهر من مروياته عنه في أغلب كتبه أنه لزمه مدة طويلة حتى أدرك في عمق ويقين مدى نبله وشرفه ،وأعجب بشخصيته هذا الاعجاب. وهي النموذج المثير لطموح التوحيدي والمستجيب لرغبته ورغبة معاصريه من العلماء في الكمال القائم على الاستقامة الدينية والفكرية والخلقية المعروفة لدى السلف الصالح . ومن ثم فهو يوافق نوازع المحافظة في نفسه ونفوس معاصريه ممن أدركوا عمق الهوة التي تردى فيها المسلمون بابتعادهم التدريجي عن المحتوى الروحي الاسلام وتقاليده،وسقوطهم في أحضان التيارات الروحية والفكرية الفارسية والأجنبية،وذلك مابلغ غايته ومداه في القرن الرابع الهجري.(3)

وأبو سليمان المنطقي(4) يحتل أيضا مكانة كبرى في نفس التوحيدي وتفكيره وثقافته فهو الذي أشبع تعطشه للحقيقة الفلسفية المجردة التي جرى وراءها طيلة عمره، اذ وجد عنده الحل الوسط الذي لا يضحي بالفلسفة في سبيل الدين،ولا بالدين بسبب الفلسفة ،بل يعتبر أن لكل منهما حظه الايجابي والضروري في حياة الانسان . وهو حل وسط أمام دعوى التجديد التي يتزعمها الفلاسفة العقليون ،ودعوى التقليد وعلى رأسها المحدثون والفقهاء ،ودعوى التوفيق التي يمثلها اخوان الصفاء(5). ويظهر أن معاشرته له طويلة وخبرته به واسعة،كمعشرته لأبي سعيد السيرافي وخبرته به ،فقد قال له ابن سعدان وهو يسأله عن أبي سليمان:" أول ما أسألك عنه حديث أبي سليمان المنطقي ،كيف كان كلامه فينا ، وكيف كان رضاه عنا ،وجزاؤه بنا ،فقد بلغني أنك جاره ومعاشره ،ولصيقه وملازمه،وقافي خطوه وأثره،وحافظ غاية خبره"(6).

---

(1) معجم الأدباء 8/ 150-151 وروايته في الامتاع 1/ 129 وصفا قريبا من هذا.

(2) معجم الأدباء 8/ 152.

(3) انظر ماسبق في ص 15 فما بعدها.

(4) أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، نزيل بغداد ، قرأ على متى بن يونس ويحيى بن عدي ،وكان منزله مقيلا لأهل العلوم الحكمية. ولا يعرف تاريخ وفاته بالضبط،ولكن الأكيد أنه عاش الى ما بعد سنة (374هـ) التي ألف فيها كتاب الامتاع والمؤانسة وقد ذكر فيه حيا . ترجمته في الامتاع 1/ 29-33، والفهرست ص323،وتاريخ الحكماء ص282،وتاريخ حكماء الاسلام ص82. وانظر حديثا مفصلا عنه وعن مصادر ترجمته في كتاب عبدالرزاق محيي الدين(أبو حيان التوحيدي حياته وآثاره) ص214 حاشية رقم 3.

(5) يفهم هذا كله من تعليق أبي سليمان على رسائل اخوان الصفاء في الامتاع2/ 4-23.

(6) الامتاع والمؤانسة 1/ 26.

كان أبو حيان اذا من أخص تلاميذ أبي سليمان، ورسوله عند ابن سعدان، والمتحدث باسمه والعاطف عليه عنده، لانه كان أعور، وبه برص، ولا يحتمله الرؤساء (1) ولذلك استطاع أن يصفه وصفا صادقا نابعا من أعماق نفسه، الى جانب جماعة الفلاسفة التي كانت تحضر مجلسه، فقال فيه: "أما شيخنا أبو سليمان فانه أدقهم نظرا، وأقعرهم غوصا، وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تقطع في العبارة، ولكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز" (2). كما كانت كتبه، وخاصة المقابسات والامتاع والمؤانسة، طافحة بذكره والرواية عنه، بل ان كتاب المقابسات يكاد يكون من تأليف أبي سليمان، وليس لأبي حيان فيه الا التعبير والرواية والتنظيم، ومن ثم يصعب جدا الفصل بين آرائهما ومعرفة رأي أبي حيان خاصة الا على وجه التغليب واعتباره متبنيا لآراء أستاذه. (3)

ولذلك كله يصح القول انه لايدانى أبا سليمان وأبا سعيد في نفس التوحيدي الا أبو عثمان الجاحظ كما سنرى.

أما علي بن عيسى الرماني (-384هـ) (4) فيبدو أنه لم يفز من التوحيدي الا باعجاب محدود، فعلى الرغم من اشادته بكثرة حفظه، وجودة تفكيره، واتساع معرفته وحسن سيرته، لم يكن راضيا كل الرضى، على ما يظهر، عن طريقته الخاصة في مزج النحو بالمنطق (5). ولذلك اقتصد في الرواية عنه، ولكنه أنصفه في مقدرته وشخصيته فقال فيه: " انه لم ير مثله قط بلا تقية ولا تحاش، ولا اشمئزاز ولا استيحاش، علما بالنحو، وغزارة في الكلام، وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص، وايضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه، ودين ويقين، وفصاحة وفقاهة" (6). وعندما يذكره لا ينعته الا بالشيخ الصالح، وعنه روى المناظرة المشهورة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني (7).

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1/ 29-33.

(2) المصدر نفسه 1/ 33.

(3) انظر بحثا جادا في هذه المسألة في مقدمة المقابسات بقلم محمد توفيق حسين ص 14-17 وقارن بأبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات للدكتور عبد الأمير الأعسم ص 269-270.

(4) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني، كان يعرف بالاخشيدي والوراق، وكان اماما في العربية وعلم الكلام، من طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي وله تفسير مشهور. ترجمته في الامتاع 1/ 133، ونزهة الألباء ص 318-319، ومعجم الأدباء 14/ 73 فما بعدها، ووفيات الأعيان 3/ 299، وبغية الوعاة 2/ 180-181.

(5) انظر ماسبق في ص 26-27، وانظر البصائر والذخائر 1/ 170-172.

(6) معجم الأدباء 14/ 76.

(7) الامتاع والمؤانسة 1/ 108 فما بعدها. وقد تقدمت ترجمة متى في ص 32 حاشية رقم 2.

ولا يشبه صلته بالرماني الا صلته بالفيلسوف النصراني يحيى بن عدي (ت364هـ)(1) الذي كان على رأس الطائفة العقلية من فلاسفة بغداد، ومن أشهر تلاميذ الفارابي ومدرسته(2). قال فيه ابن النديم: "أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي، واليه انتهت رئاسة أصحابه في زماننا، قرأ على أبي بشر متى، وعلى أبي نصر الفارابي، وعلى جماعة، وكان أوحد دهره. ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية"(3). وقد وصفه أبو حيان في عرض وصفه لفلاسفة عصره فقال: "وأما يحيى بن عدي فانه كان شيخا لين العريكة، فروقة، مشوه الترجمة، رديء العبارة. لكنه كان متأتيا في تخريج المختلفة، وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ بالالهيات، كان ينبهر فيها ويضل في بساطها، ويستعجم عنه صاحب فضلا عما دق منها، وكان مبارك المجلس"(4). ومن تلاميذه الذين يشير اليهم التوحيدي هنا أبو سليمان المنطقي شيخه الذي انفرد عن الجماعة بموقفه الخاص من الدين وعلاقته بالفلسفة كما أشرنا اليه سابقا. وبذلك نال اعجاب التوحيدي وأثار استغراب معاصريه، بقدر ما كان نفوره من جفاف فلسفة يحيى بن عدي وانتصارها للعقل وحده على حساب الشريعة والوحي(5).

وبسبب ذلك كله كانت صلة أبي حيان بيحيى بن عدي قائمة على التقدير للمكانة العلمية والمقدرة العقلية، وليس على المحبة والمشاركة الروحية، فروى الكثير من آرائه في المقابسات وغيرها عنه وعن تلاميذه، ويظهر أنه لم يكن مختصا به، ولا معروفا بالجلوس اليه بدليل قوله: "قال يحيى بن عدي، في درس البديهي عليه سنة احدى وستين وثلاثمائة وأنا حاضر"(6) وقوله: "سمعت البديهي يقول -وكان صحب يحيى بن عدي دهرا، وهو حملني بدعوته اللطيفة الى مجلسه-"(7). فقد كان أبو حيان باحثا عن المعرفة بمختلف فنونها وأشكالها في مجالس

(1) أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا، من تلاميذ الفارابي ومتى بن يونس، وكان أوحد دهره في الفلسفة والمنطق، وله تصانيف كثيرة. ترجمته في الامتاع 1/ 37، والفهرست ص383، وتاريخ حكماء الاسلام ص 97، والأعلام 9/ 194.

(2) انظر ماسبق في ص 32-33.

(3) الفهرست ص 383.

(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 37.

(5) قال ابن سعدان بعد أن سمع من التوحيدي تفنيد أبي سليمان لفلسفة اخوان الصفاء "ما عجبي من جميع هذا الكلام الا من أبي سليمان في هذا الاستحقار والتغضب، وهو رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عدي النصراني، ويقرأ عليه كتب يونان." الامتاع 2/ 18. وقال أبو حيان "الى التوحيد تنتهي الفلسفة بأجزائها الكثيرة، وأبوابها المختلفة، وطرقها المتشعبة" الامتاع 3/ 135.

(6) المقابسات ص104. وستأتي ترجمة البديهي في ص 105 حاشية رقم 3

(7) المصدر نفسه ص 157.

بغداد العلمية والأدبية الزاخرة بمختلف الفنون والمعارف في عصره، وكتبه ملأى بمثل قوله: سمعت فلانا، وقرأت على فلان، وعلقت عليه، ولهذا يصعب حصر أساتذته وتحديد علاقته بهم، وهو القائل: "... وانما أجول في هذه الأكناف لكلفي بالحكمة كيف دارت العبارة بها وأمكنت الاشارة اليها، لا على التقصي لها وبلوغ الغاية منها، ومن يقدر على ذلك؟ ومن يحدث نفسه بذلك؟ ..."(1).

ولعل اتصال أبي حيان بالتصوف وأصحابه كان في وقت مبكر من حياته، فهو يتحدث أنه صحب جماعة منهم أثناء عودته من الحج سنة (354هـ)(2). وفي مكة التقى بعدد من شيوخهم كابن الجلاء الزاهد(3) الذي سأله عن صفة الغريب الوارد في الحديث المشهور "بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا، فطوبى للغرباء من أمتي"(4)، واهتمامه المبكر بهذا الموضوع شاهد على أصالة تعطشه الروحي الى التصوف وعمق حاجته اليه في نفسه، وعلى أنه صوفي بالطبع. وقد عاد الى هذا الموضوع نفسه، موضوع صفة الغرباء، في أواخر حياته، في كتابه الاشارات الالهية، ففصل فيه القول، وأسهب في وصف انسلاخه عن مجتمعه وانقطاع صلته به.(5)

وقد اتصل أيضا من الصوفية، بابن السراج، وبرهان الصوفي، وجعفر بن حنظلة وغيرهم(6)، وأغلبهم غير مذكور ولا مشهور في القرن الرابع كأبي حيان. وكان يهتم بأقوالهم وأحاديثهم، ويأخذ منها الحكمة والعبرة، ولذلك قال فيهم: "لو جمع كلام أئمتهم وأعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة، عمن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة، سوى ما عند قوم آخرين لا نسمع بهم، ولا يبلغنا خبرهم"(7).

على أن الشيخين اللذين ذكرهما السبكي وابن حجر باعتبارهما عمدة التوحيدي ومرجعه في التصوف هما جعفر الخلدي(8) وابن سمعون. ولم يرد أي ذكر للأول

---

(1) الامتاع والمؤانسة 3/ 140.
(2) المصدر نفسه 2/ 155.
(3) نفسه 2/ 79 والصداقة والصديق ص 100. وابن الجلاء هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى، بغدادي سكن دمشق. طبقات الصوفية ص 176، والرسالة القشيرية ص 20.
(4) الحديث في الجامع الصحيح لمسلم 1/ 90.
(5) الاشارات الالهية ص 80 فما بعدها، وهذا الموضوع هو الذي حمل الدكتور عبد الرحمن بدوي على تلمس سمات الوجودية في أدب أبي حيان وحياته. انظر مقدمة طبعته من الاشارات الالهية ص يا فما بعدها وانظر (الأديب المفكر أبو حيان التوحيدي) لعلوش ص 73-77
(6) الصداقة والصديق ص 72، 104، 207 فما بعدها.
(7) الامتاع والمؤانسة 3/ 97.
(8) هو جعفر بن محمد بن نصير الخلدي، بغدادي المولد والمنشأ، توفي سنة (348هـ). طبقات الصوفية ص 434.

منهما في كتبه ولا ما يشير الى اتصاله به ، ومن المرجح أن يكون ذلك في كتبه المفقودة عن التصوف ككتاب (رياض العارفين) ، و (الرسالة في أخبار الصوفية) (1) . والتوحيدي ولوع بذكر أحواله وشؤونه الظاهرة والباطنة في كتبه ، فيبدو أنه أشار في ثنايا حديثه عن الصوفية الى تتلمذه على جعفر الخلدي الذي " كان المرجع في علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم "(2) .

أما أبو الحسين بن سمعون(3) فله به اتصال وله عنه رواية قليلة(4) ، وكذلك القاضي المعافى بن زكرياء(5) . ومهما يكن من شيء فان " لهؤلاء النفر من أساتذته واخوانه الصوفية عظيم الأثر في تلوين حياته جميعها باللون الصوفي ، وفي طبع مؤلفاته بالطابع الروحي ، ثم في خلوص بعضها لهذا الفن خاصة "(6) .

وعلى الجملة فأبو حيان حاول النهل من جميع علوم عصره ومعارفه ، رغبة منه في الوصول ، أو الاقتراب ، من تحقيق نموذج العالم الموسوعي الذي كان الهدف المثالي لعلماء عصره وأدبائه . وقد كاد يبلغ ذلك لولا الانتكاسة التي تعرض لها اثر خيبته في الاتصال بوزراء عصره ، وكان لها الأثر البالغ في تحويل اتجاهه وتغيير مجرى مطامحه وآماله كما سنرى . ثم انه تتلمذ على أغلب علماء عصره وأدبائه المذكورين وغيرهم في تطوير طريقته المختارة في الكتابة والانشاء ، فقد كانت دراسة الكلمة العربية من الناحية الفنية والبلاغية مقترنة بدراستها من حيث الاشتقاق والاستعمال . أضف الى ذلك اتصاله بأغلب كتاب عصره ، وروايته لأقوال الكتاب والأدباء السابقين وآرائهم ، واطلاعه على رسائلهم وكتبهم ، وخاصة أبا عثمان الجاحظ الذي قال فيه بعد أن روى مختارات من كلامه " أنا ألهج - أيدك الله - بكلام أبي عثمان ، ولي فيه شركاء من أفاضل الناس ، فلا تنكر روايتي لكلامه ، فان لي فيه شفاء ، وبه تأدبا ومعرفة ، قد سلم على أكثر الناس . . "(7)

---

(1) انظر معجم الأدباء 15/ 7 . ومعلوم أن ياقوتا لم يشر الى أي أستاذ من أساتذة أبي حيان .

(2) طبقات الصوفية ص 434 ، ويقصد ذلك كونه بغداديا ومتوفى سنة (348هـ) .

(3) أبو الحسين محمد بن أحمد بن اسماعيل بن عنبس بن اسماعيل ، الواعظ البغدادي ، كان مشهورا بحسن الوعظ والكلام على الخواطر توفي سنة (387هـ) ، ترجمته في وفيات الأعيان 4/ 304-305 ، والمنتظم 7/ 198 .

(4) انظر الصداقة والصديق ص 278 والامتاع 3/ 173 .

(5) القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء بن يحيى المعروف بابن طرارا الجريري النهرواني ، كان فقيها أديبا شاعرا ، وولي القضاء ببغداد ، وكان ثقة . توفي سنة (390هـ) . ترجمته في وفيات الأعيان 5/ 221-224 ، والعبر 3/ 47 ، وانباه الرواة 3/ 296 . وانظر مقدمة السندوبي لطبعته من المقابسات ص 104-105 .

(6) أبو حيان التوحيدي : سيرته وآثاره ، لعبد الرزاق محيي الدين ص 163 .

(7) البصائر والذخائر 2/ 279 .

هذا ما أمكن اختصاره عن أساتذة التوحيدي وثقافته وتكوينه، ذلك التكوين الذي يظهر أنه حصل في بغداد، ذات الازدهار الثقافي المشهور في القرن الرابع الهجري، بعد أن استوى شابا طموحا متفتحا. أما قبل ذلك فنحن نجهل كل شيء عن حياته في طفولته ونشأته.

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

أسفاره وعلاقته بوزراء عصره:

بعد أن استكمل أبو حيان نضجه وثقافته استشعر في نفسه الاستعداد لخوض ميادين الحياة، فمضى متسلحا بمحصوله من المعارف والعلوم والآداب كغيره من أدباء عصره وعلمائه، ليبحث عن مكانه من مجتمعه وزمانه[1]، ويحقق أمانيه في حياة محترمة سعيدة. ولكن دون ذلك متاعب وأهوال لم يكتشفها أبو حيان الا بعد فوات الأوان.

وبدأت مرحلة جديدة من مراحل حياته هي مرحلة التنقل والرحلة من أجل الكسب والغنى، كأغلب الشعراء والأدباء والعلماء في العصر العباسي، واذا صح أنه أخذ التصوف عن جعفر الخلدي، المتوفى سنة (348هـ)، في بغداد، فنستطيع أن نتتبع تنقلاته واتصالاته من هذه السنة المذكورة الى سنة (375هـ) تتبعا واضحا، بل الى ما قبل وفاته بقليل كما سنرى.

ففي سنة (353هـ) صحب جماعة من الصوفية، بحكم صلته المبكرة بهم، متوجها الى مكة للحج، ثم رجع الى بغداد في السنة التالية[2]، ليمكث بها مدة قصيرة يتجه بعدها في رحلة طويلة الى بلدان المشرق يزور خلالها أصبهان وأرجان ونيسابور. وفي أصبهان حضر مجالس بعض العلماء سنة (357هـ) منهم أبو سعيد البسطامي[3]، كما تعرف في أرجان على أبي الوفاء المهندس أحد أصدقائه الأوفياء[4]. وفي السنة التي تليها نجده في مدينة الري عند أبي الفضل ابن العميد الذي ربما كان هدفه من الرحلة كلها[5]، مضافا الى الأغنياء والكبار الذين كان يقصدهم ويطلب ضيافتهم ونوالهم. وقد أتيح له أن يحضر مجالس هذا الوزير المشهور وينقل في

---

(1) قال في رسالته الى أبي الفتح ابن العميد "لما رأيت شبابي هرما بالفقر، وفقري غنى بالقناعة، وقناعتي عجزا عند أهل التحصيل، عدلت الى الزمان أطلب اليه مكاني فيه وموضعي منه"، أخلاق الوزيرين ص 497.

(2) انظر الامتاع والمؤانسة 2/ 79، 155، وأبو حيان التوحيدي لاحسان عباس ص 44 فما بعدها

(3) البصائر والذخائر 1/ 252.

(4) قال له أبو الوفاء سنة (374هـ) "أنا أرعى حقك القديم حين التقينا بأرجان ..." الامتاع 1/ 4، وربما يشير الى لقاء تم في رحلة سابقة نجهلها.

(5) قال في (أخلاق الوزيرين) ص 127 "وكنت بالري سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وابن عباد بها .."

(أخلاق الوزيرين) خبرين مهمين من أخباره التي شهدها بنفسه(1)،فضلا عن الكثير مما دونه ونقله عن الحاشية والزوار الذين اتصل بأكثرهم في زيارته الثانية للري في حضرة الصاحب ابن عباد. وكان مسكويه خازن كتب ابن العميد وأحد أصفيائه الاثيريين عنده ممن تعرف عليهم التوحيدي في هذه الرحلة(2)، وحاول أن يفوز بصداقته وتزكيته لدى أبي الفضل ابن العميد،فوجه له أسئلة كثيرة أجاب عنها مسكويه. فكان من الأسئلة والأجوبة كتاب (الهوامل والشوامل) (3).

وتعرف في الري أيضا على الصاحب ابن عباد ، و حضر مجلسه في السنة المذكورة(4)، ونقل عنه أخبارا كثيرة دونها فيما بعد في كتاب (أخلاق الوزيرين) . وفي السنة نفسها نجده في بغداد(5) ، ناقما ساخطا على الجميع. الأمر الذي يؤكد أنه لم يفز من رحلته بطائل مما كان يأمله ،وهو في حقيقة أمره لا يزال في بداية التعرف والاتصال بالرجال ،وبداية وضع قدراته العلمية والأدبية موضع التطبيق والممارسة. لذلك حاول أن يتلمس طريقه ويجرب نفسه في مقارعة من هم أكثر منه تجربة واحتكاكا بالرجال ،فوجه لمسكويه أسئلته الهوامل. ويبدو أنه كان في حوزته أغلب مادة كتابه البصائر والذخائر أو بعض الأجزاء منه لأنه دون فيه " جميع ما في ديوان السماع .. .منذ عام خمسين وثلاثمائة.."(6). واستمر تأليفه والاضافة اليه الى مابعد سنة (375هـ) (7) .

ولا شك أن سنوات اقامته بعد ذلك في بغداد كانت حافلة بالنشاط الثقافي والأخذ من شيوخه الكبار الذين أخذ يختلف الى مجالسهم وحلقاتهم ،ويدون محاوراتهم ودروسهم وأجوبتهم التي كانت مادة غنية لكتبه التي ألفها في السنوات

---

(1) أخلاق الوزيرين ص334–341، 362–365.

(2) نفسه ص23.

(3) قال في الهوامل ص315 يخاطب مسكويه: "وأنت المدخر لغريب العلم ومكنون الحكمة .." وابن العميد كان يميل الى المسائل الغريبة كالتي وردت في كتاب الهوامل،ومن بينها سؤال كان موجها اليه(ص346) ،أما شهادة أبي حيان على مسكويه في الامتاع (1/ 35) والصداقة والصديق(ص 80) ووصفه له بالنقصان العلمي والخلقي فقد كتبها بعد أن انقطعت صلتهما معا بآل العميد ونهاية مجدهم ونهاية جاه مسكويه معهم ،وبعد أن اتصل أبو حيان بعلماء أطول منه باعا ،لذلك لم ترد رواية عنه أو ذكر مشرف له في كتبه المتأخرة.

(4) أخلاق الوزيرين ص127 .

(5) الامتاع 1/ 4 حيث أشار أبو الوفاء المهندس الى اجتماعهما في بغداد سنة (358هـ) ،وانظر الصداقة والصديق ص308.

(6) البصائر والذخائر 1/ 3.

(7) ذكر التوحيدي هذه السنة تاريخا لوفاة الفقيه الداركي (البصائر ..2/ 103) كما أورد في المصدر نفسه بعض أخباره مع الوزيرين (البصائر ..1/ 193، 310)

التالية . وكان يصحب هؤلاء الشيوخ الى مجالس الوزراء والأعيان التي يعقدونها للعلماء والأدباء[1]، وربما الى ما يمكن غشيانه والوصول اليه من مجالس الغناء الكثيرة في هذا الوقت في مدينة السلام.[2]

وكانت بغداد في هذه الفترة تمييز أسوأ أيامها في ظل الحكم البويهي ،تحت امرة بختيار عز الدولة(356ـ368) اذ كانت مسرحا للاضطرابات والفتن طيلة حكمه[3]،وتعرضت لفتنة عامة في سنة (362هـ) اثر هجوم الروم على النواحي الشمالية من العراق دون أن يقوم بختيار بما يوجبه مركزه من الدفاع ورد العدو ،وقد قدم أبو حيان في (الامتاع والمؤانسة) صورة مثيرة عن هذه الفتنة[4]، التي كان فيها هو نفسه "كمن شهد أولها ،وغرق في وسطها ونجا في آخرها"[5].

وفي سنة (364هـ) زار بغداد أبو الفتح ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي[6] في مهمة التصالح بين عضد الدولة وبختيار،وعقد مجالس أدبية حضرها علماء بغداد وأدباؤها ،كما حضرها أبو حيان[7]،فشهد للوزير الشاب بالنجابة والذكاء وكثرة الحفظ، مؤكدا أنه استفاد بدخوله بغداد أشياء فاتت والده[8]. وقد تمكن التوحيدي من أن يسمع صوته للوزير فنراه يرد على ابن فارس في مسألة لغوية[9]،الا أنه مع ذلك لم يتمكن من الظهور والتميز اللذين يتمناهما نظرا لكثرة العلماء ذوي الأخطار في كل فن في بغداد ، فاكتفى غالبا بالملاحظة والتدوين على عادته في ذلك .

ومن جهة أخرى شهد اكرام أبي الفتح للعلماء واقباله عليهم،والحاحه في استصحابهم الى الري[10]،وذلك ما شحذ طمعه وأثار رغبته المأثورة في الكسب والغنى . ولذلك لم يكد الوزير الشاب يغادر بغداد حتى جمع أبو حيان أمتعته ،وودع شيوخه وأصدقاءه ،وتوجه في رحلة ثانية الى الري ،علّه يجد في كنف ابن العميد الابن ما

---

(1) في سنة(360هـ) حضر مناظرات في مجلس عز الدولة بين بعض كبار علماء بغداد ،وحضر مجلس الوزير أبي الفرج محمد بن العباس الذي وزر بعد المهلبي وتوفي سنة(363هـ) . انظر أخلاق الوزيرين ص 202ـ207، 224.

(2) الامتاع والمؤانسة 2/ 165ـ183.

(3) انظر ماسبق في ص6ـ7.

(4) الامتاع والمؤانسة 3/ 151 فما بعدها .

(5) المصدر نفسه 3/ 150.

(6) وزر بعد وفاة والده أبي الفضل (360ـ366هـ) وانظر ما سبق في ص 13.

(7) انظر أخلاق الوزيرين ص 411، 495،والبصائر والذخائر 3/ 545.

(8) أخلاق الوزيرين ص 344، 406.

(9) المصدر نفسه ص 510ـ511.

(10) نفسه ص 410.

فاتــه في ظــل والده،وكــان شفيعــه في التوسـل اليه رسالــة تقـريظ(1)، لا تختلـف في شـيء من حيث المبالغــة والتكلـف وزيـف العاطفــة،عن بعـض قصـائد المديـح في عصـره،وتشهـد لأبي حيـان بسـوء التـأتي وقلـة الخبرة بقـواعـد السلـوك والتعامـل مع الكبراء والرؤسـاء. وقـد قال لـه الصاحـب وهو يسألـه عن بعـض أخبار أبي الفتـح: "أعلـم أنك انمـا انتجعتـه من العراق،فاقرأ علي رسالتـك التي توسلـت اليـه بهـا"(2)،وهذا دليـل قاطـع على أنـه خـرج من بغداد قاصـدا أبا الفتـح ابن العميد في الري.

والظاهـر أن الأحداث قد سبقـت أبا حيان فعجلـت بالفتـك بابن العميد ذي الكفايتين وبمصـادرة ممتلكـات أسرتـه وأموالهـا سنة (366هـ) في قصـة تاريخيـة شهيـرة، كـان أبـو حيـان أفضـل رواتهـا،وعنـه رواهـا ياقـوت والمؤرخـون من بعده. قـال ياقـوت:"وقد ذكـر أبو حيـان قصـة أبي الفتـح ابن العميـد وسبـب القبـض عليـه مبسوطـة مشروحـة،وقد نقلتها عنـه ها هنـا بكمالهـا،فاني لـم أجـد أحدا ذكـرها أكمـل منـه"(3). وبرجوعنـا الى القصة نجـد أبا حيـان يتحـدث بنفسـه دون راويـة أو سنـد على غير عادتـه،وهذا يؤيد أنـه كان من شهود العيـان لنكبـة أبي الفتـح سنـة(366هـ) وأنـه توجـه الى الري في هذه السنة نفسهـا أو في السنـة السابقـة،اذ كـان في بغداد سنـة (364هـ) كمـا رأينـا،ولكنـه لـم يتمكـن من تحقيق أملـه في الحظـوة لدى أبي الفتـح(4).

وليس لدينـا ما يؤكـد أن أبا حيان عاد بعد ذلـك الى العراق ليتوجه من جديد الى الري قاصدا الصـاحب ابن عباد،بعد توليـه وزارة مؤيد الدولـة، اذ تشير الدلائـل الى أنه بقـي هنـاك،وحاول التقـرب من الوزيـر الجـديد، فقـد قال لـه أبو الوفاء المهندس: "انك تعلم يا أبا حيان أنـك انكفـأت من الري الى بغداد في آخر سنـة سبعيـن ، بعد فوت مأمولـك من ذي الكفايتيـن ، نضـر اللـه وجهـه ، عاتبـا على ابن عباد ..."(5). فهـو قد توجـه الى الري قاصـدا أبا الفتـح ابن العميد،ولكنـه لـم يدرك مبتغـاه منـه بسبـب القبض عليه. فاقتضـاه الأمر مدة من الزمـن حتى تهدأ الأحوال ،ويستحكـم نفـوذ الوزيـر الجـديد ، فيحـاول أن يعوض عنده مـا فاتـه عنـد سابقـه متشجعـا بمعرفتـه لـه واتصـالـه به فـي

---

(1) الرسالـة في أخلاق الوزيريـن ص496–504،وايراد أبي حيان لرسالتـه في كتابه دليل على عدم ادراكـه وجـه الخطأ فيهـا.

(2) أخلاق الوزيريـن ص465،وانظر أبو حيان التوحيدي. لعبد الرزاق محيي الدين ص133.

(3) معجـم الأدباء 14/ 215،والقصـة في أخلاق الوزيرين ص532–547 ومنه أخذهـا ياقوت.

(4) على أننا لاندري هل تمكـن أبو حيان من الوصول فعلا الى أبي الفتـح والمثول بين يديـه في الري،كما نجهـل كيف انتهـت علاقتـه به على وجـه اليقيـن. وياقوت يورد خبرا عـن امتناع أبي الفتـح عن استقباله دون ذكـر زمان ذلك ومكـانه (معجـم الأدباء 15/ 9)،ومن المرجح أنه لم يصـل الى مجلسـه في الري ولو كان ذلـك لروى بعض مشاهداته وأخباره معـه،وقصـة مصرعه التي حضر وقوعهـا رواها بتفصيـل كما رأينـا.قارن برسالة بيرجيه:

pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi 146–147

(5) الامتاع والمؤانسـة 1/ 3،وانظر (أبو حيان التوحيدي) للحوفي ص79–80.

رحلته الأولى . فاذا كان أبو حيان قضى ثلاث سنوات في صحبة ابن عباد ،كانت نهايتها أواخر سنة سبعين وثلاثمائة التي وصل فيها الى بغداد (1) ،وواصل فيها عمله في الوراقة والدرس (2) والتقرب من ذوي السلطان والنفوذ ،فلا شك أنه تمكن أواخر سنة (367هـ) من المثول أمام الصاحب الذي تجاهله تجاهلا تاما (3) .

ومما أجج نقمة الصاحب عليه ، مضافا الى كونه قليل الخبرة بقواعد السلوك والتعامل مع الأمراء والوزراء ، اتصاله بأبي الفتح وأبي الفضل من قبله ،وكونه من أشياع آل العميد حسبما تصورناه سابقا ،فهو في نظره من أتباع عدوه (4) ،ويبدو أن الذين أشار التوحيدي الى أن الصاحب فتك بهم ،وقتلهم ونفاهم ،كانوا من أنصار أبي الفتح المجاهرين وبما أن التوحيدي لم يحقق شيئا يذكر في صحبة أبي الفتح قبله الصاحب في حضرته، وصبر على مشاكسته وسوء أدبه، ناويا في الوقت نفسه تعذيبه بالصد والتنكر والحرمان.

أما قول أبي حيان" ولعمري لو انقلبت عن ابن عباد ،بعد قصدي له من مدينة السلام ، وانا خلي بفنائه .. " (5) ،وقوله:" انما توجهت من العراق الى هذا الباب،وزاحمت منتجعي هذا الربع" (6) ،وهما قولان صريحان في أنه توجه من العراق الى الري قاصدا الصاحب ابن عباد ،فمن الموافق لطبائع الأشياء أن يقول ذلك بعد أن تهدد أمله في الاتصال بأبي الفتح واستقر الرأي على محاولة التجربة من جديد مع الصاحب ابن عباد . ويتأكد هذا المعنى اذا عرفنا أن الصاحب ابن عباد كان السبب المباشر في تأليف كتاب (أخلاق الوزيرين) ، وكان هو الهدف منه كما سنرى ، وأن أبا حيان لم يفكر في الكتابة عن آل العميد الا بسبب الصاحب وصلته بهم،وأن كل ما كتبه عن الوزيرين لم يكن الا بعد نكسته مع الصاحب ،تلك النكسة التي أذهلته وأطلقت لقلمه العنان،صارفا جل غضبه ونقمته الى ابن عباد الذي فتح له بابه وسهل له الوصول اليه،وأطمعه في النوال والغنى ،ثم لم يحصل شيء " مما كان الطمع يدندن حوله والنفس تحلم به،والأمل يطمئن اليه" (7)، بل على العكس من ذلك ،كان التجهم المتوالي ،والازدراء المقصود ،وحبس الأجرة على

---

(1) قال أبو حيان وهو يصف ما جرى بينه وبين ابن عباد : "وجرت أشياء أخر ،وكان عقباها أني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعا الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة،ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهما واحدا ..."أخلاق الوزيرين ص311.

(2) أخلاق الوزيرين ص521،وانظر الصداقة والصديق ص169.

(3) أخلاق الوزيرين ص305-306.

(4) نال الصاحب من أبي الفضل نفسه وهو أستاذه، ولكنه عفا فيما بعد عن جميع حاشية أبي الفتح . انظر أخلاق الوزيرين ص170، 284 ، 287،ورسائل الخوارزمي ص51.

(5) أخلاق الوزيرين ص85.

(6) نفسه ص306،وفي مثالب الوزيرين ص203 الربيع بدل كلمة الربع.

(7) نفسه ص85.

النسخ والوراقة (1).

ويظهر من عدة قرائن أن أبا حيان شرع في جمع مادة كتابه (أخلاق الوزيرين) ممن حاشية الصاحب وزواره، وهو لا يزال بحضرته، وكان يسألهم عن آرائهم وشهاداتهم وأقوالهم فيه فيدون كل شيء(2)، وأعلن لبعضهم أنه ينوي أن يؤلف كتابا في أخلاقه(3). ولا شك أن كل ذلك أو بعضه وصل الى الصاحب عن طريق جواسيسه وأعوانه، فهم بعمل شيء ما لعله الفتك بالرجل كما يؤكد نص ابن فارس(4)، ولذلك قال أبو حيان في حكاية أمره مع الوزير الكبير "وجرت أشياء أخر"(5)، ولم يصرح بها في كتابه، وأكد أنه تعرض في سفره الى بغداد لشقاء وعناء(6). فقد فطن اذا لما يدبر له عن حقيقة أو وهم، وضاعف من همه الوسواس والجبن، فطوى الأرض في ظروف غامضة تماما، متوجها الى مدينة السلام، بدون زاد ولا راحلة، ليصل اليها أواخر سنة (370هـ) (7).

واذا صدق أبو حيان، فان الصاحب حاول بعد ذلك أن يسترضيه، ويحمله على الرجوع اليه، ليتلافى ما صدر منه في حقه، الا أن أبا حيان امتنع عن ذلك، اما خوفا منه وشكا في حسن نيته، أو اعتصاما بكبرياء موهومة، يستسلم لها أثناء الكتابة عادة، ولا وجود لها في عالم الواقع، كما يبدو من كثرة شكواه وتضرعه الذي استمر طيلة حياته، والذي لا يليق بمن في مكانته من العلم والدين. فقد قال في وصفه لابن عباد: "هو رجل أساء الي وأوحشني، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب اليه ثانية، وكنت أكره ذلك، وما كنت آمن ما يكون منه ومني، والمجنون المطاع مهروب منه بالطباع"(8).

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1/ 3-4.

(2) قال مثلا: "اني نقلت ما نقلت في وقت صعب وحال عوراء" أخلاق الوزيرين ص 461.

(3) قال لأبي سعيد الأبهري: "بين لي أمر هذا الرجل، ففي نفسي أن أعمل كتابا في أخلاقه" أخلاق الوزيرين ص318.

(4) الطبقات الشافعية ص 287 ج 5، وسيأتي تحليل هذا النص ومناقشة مدى صلاحيته للاستشهاد.

(5) أخلاق الوزيرين ص311.

(6) الامتاع والمؤانسة 1/ 4.

(7) أخلاق الوزيرين ص311. وانظر تحليلا مفصلا لتطور علاقة أبي حيان بابن عباد ومناقشة أقواله عنها على ضوء ما نقله عنها ياقوت من كتاب أخلاق الوزيرين في كتاب: أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره لعبد الرزاق محيي الدين ص280 فما بعدها.

(8) الامتاع والمؤانسة 1/ 53، وقال هذا الكلام أمام ابن سعدان متظاهرا بالقوة والشجاعة والأهمية.

ويبدو أن أبا حيان عندما وصل الى بغداد خائبا ساخطا مهزوما، اطمأن تماما الى وجوب النيل من الصاحب والانتقام منه ومعاملته بالمثل، وأن لا مجال للمصالحة بينهما من جهته. وضاعف من شعوره بالمأساة وامتلاء نفسه بها الى درجة المرض، التقاؤه بالأصدقاء والشيوخ والمعارف، وأسئلتهم المتتالية عن الزيارة ونتائجها، وتأنيبهم اياه على سوء التصرف والتأتي، وربما شماتة بعضهم وشفقة آخرين. أضف الى ذلك ما يراه أو يسمع به من أخبار القادمين من الري بالأموال والتحف والهدايا. ولذلك كله عزم عزما أكيدا لا رجعة فيه على الانتقام عند أول فرصة. وكذلك الصاحب من جهته ربما لم يشعر بخطر الخصومة بينه وبين أبي حيان، وبفداحة الخطأ الذي ارتكبه في حقه الا بعد فراره وخروجه عن مجال نفوذه، وربما بلغه ماينشره عنه من سيئ القول وقبيح الذكر، فحاول أن يصلح خطأه، ويزيل أثر اساءته فلم يفلح في ذلك، لأن الآخر تجاوز الأمر عنده كل امكانية للصلاح والتصحيح، فلم يبق الا المجابهة والمعاملة بالمثل. فجند أعوانه وأنصاره لملاحقة ومحاربة كتبه وآثاره، وخاصة كتاب (أخلاق الوزيرين)، ولذلك قال أبوحيان وكأنه يعلل اقدامه على تأليف هذا الكتاب: "وما اضطرني اليه الا تتابع المكروه من جهته، والشر الذي لا يزال يتعقبني به، وأنه حين وجد غرة امتطاها، ولما رأى الفرصة انتهزها" (1).

وفي بغداد واصل أبوحيان عمله في الوراقة والدرس بحرص واقبال كبيرين، وجدد العهد مع شيوخه وأصدقائه الباقين منهم على قيد الحياة (2)، وخاصة الفلاسفة، كما اتصل بصديق قديم كان له أبلغ الاثر في نفسه وحياته، هو أبو الوفاء المهندس (3)، وشكا له سوء عاقبته مع الصاحب (4). فتولى أمره وواساه وأكرمه، وعينه موظفا في البيمارستان (5)، كما توسط له بجماعة عند أبي عبد الله

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 51، ولنا عودة الى هذه المسألة في الفصل التالي بعون الله.
(2) توفي شيخه أبو سعيد السيرافي أثناء غيبته سنة (368هـ).
(3) أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزجاني الحاسب، امام مشهور في علم الهندسة، وله فيه استخراجات لم يسبق اليها، وله فيه عدة كتب. توفي سنة (387هـ). ترجمته في الفهرست ص 408، وتاريخ حكماء الاسلام ص 84، ووفيات الأعيان 5/ 167-168.
(4) استعرض أبوحيان ذلك كله في مقدمته للامتاع والمؤانسة 1/ 3 فما بعدها.
(5) الامتاع والمؤانسة 1/ 19.

العارض ابن سعدان[1]، قبل وزارته لصمصام الدولة وأثناءها. فتوطدت العلاقة بينهما كما توطدت بينه وبين الوزير، فأنتجت كتابين وثلاث رسائل من أجود ماكتبه أبو حيان وأعمه. والكتابان هما (الصداقة والصديق)[2] وكتاب (الامتاع والمؤانسة)، أما الرسائل فهي الواردة في آخر الجزء الثالث من كتاب الامتاع.

وقد تكلم أبو حيان بحضرة الوزير ابن سعدان بصراحة وحرية[3]، ووجد عنده صدرا رحبا وأذنا صاغية، بل تقديرا لم يكن ليعلم بمثله عند من سبق أن زارهم. وكان ابن سعدان شخصية عظيمة له اطلاع واسع، واهتمامات فلسفية ولغوية، تكشف عنها أسئلته التي كان يلقيها على التوحيدي، وهي أساس مادة كتاب (الامتاع والمؤانسة)[4]. وهذا ما يؤكد أن ثقافتهما وميولهما متقاربة متشابهة.

ومن جهة أخرى فان أبا حيان استفاد من تجاربه السابقة، فلم يعد مندفعا مبالغا في مدحه، ولا جبانا مترددا، بل يتصرف بثقة واطمئنان، وربما بكبرياء الفائز بمبتغاه[5] بعد التعثر والكدح واليأس، ولعله من أجل ذلك أو بسببه نسي ماضيه القريب، كما نسي الرجل الذي كان صلة الوصل بينه وبين الوزير، وكان السبب فيما ناله في مجلسه من رفعة وشأن، وهو صديقه أبو الوفاء المهندس، لذلك طالبه هذا في قوة والحاح وتهديد بأن يكشف له، ويطلعه على كل ما كان يجري بينه وبين الوزير في السمر والعلن، من أحاديث وأخبار ثقافية وسياسية متعددة الموضوعات والأغراض، وان لم يفعل ذلك فسيلقى جزاءه الذي يستحقه على سوء فعله. فآثر أبو حيان، لرغبته في خلود الذكر الحسن، أن يكون ذلك على شكل كتاب لعله يبقى فيروى، فكتب له (كتاب الامتاع والمؤانسة) مقسما الى أربعين ليلة، كليالي ألف ليلة وليلة في امتاعها، وبحثها للنشوة الروحية والعقلية[6].

الا أنه بالرغم من الصدق والاهتمام الحار اللذين كتب بهما أبو حيان كتابه،

---

(1) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، فارسي الأصل، صحب عضد الدولة، ثم تولى الوزارة لابنه صمصام الدولة من سنة (373ه) الى سنة (375ه). وكان كريما مفضالا ذا ثقافة واسعة. انظر ذيل تجارب الأمم ص9، 85، 97، 102، 106، 107 والكامل 7/ 125، ومقدمة الامتاع والمؤانسة ص(وـط).

(2) انظر الصداقة والصديق ص9ـ10.

(3) كما يظهر من أقواله في الامتاع والمؤانسة 3/ 85ـ90.

(4) انظر مقدمة الامتاع والمؤانسة ص ط.

(5) الامتاع والمؤانسة 1/ 20ـ21 اذ اشترط على ابن سعدان منذ أول لقاء أن يخاطبه بكاف الخطاب، تخلصا من مزاحمة الكناية، ورغبة منه في المراجعة والصدق والاصلاح.

(6) مقدمة الامتاع والمؤانسة ص ي.

يبدو من رسالته الى صديقه أبي الوفاء في آخر الكتاب (1) أن العلاقة بينهما تطورت الى ما يشبه القطيعة والهجران، وأن عهد الاطمئنان والاستقرار والاقبال عند أبي حيان قد ذهب وانقضى. فقد شغل عنه وزيره وأهمله لسبب مجهول، كما أعرض عنه صديقه وتنكر له، ولم يؤثر فيه عتابه وشكواه واستعطافه. ولم يرد في مؤلفات أبي حيان التي ألفها بعد ذلك ما يشير الى أن علاقته بابن سعدان وأبي الوفاء رجعت الى صفائها الأول ونقائها المعهود، كما لم يرد فيها ما يفسر تفسيرا مقنعا أسباب القطيعة والفشل اللذين توجا هذه المرحلة المزدهرة من حياة أبي حيان في بغداد، ولكن هناك بعض القرائن والاشارات التي ترجح بعض الأسباب والاحتمالات وتؤيدها.

فيلاحظ أولا أن صمصام الدولة ووزيره ابن سعدان في بغداد، كانت بينهما وبين فخر الدولة ووزيره الصاحب ابن عباد في الري علاقات صداقة وتقدير وتفاهم أثناء فترة وزارة ابن سعدان (373-375هـ)، فقد قال ابن الأثير في حوادث سنة (373هـ): "واتفق فخر الدولة وصمصام الدولة فصارا يدا واحدة" (2). وقال في حوادث سنة (375هـ): "وفيها وقع الصلح بين صمصام الدولة وبين عمه فخر الدولة بمكاتبة أبي عبدالله ابن سعدان الى الصاحب ابن عباد، فكان ابن سعدان يخاطب الصاحب ابن عباد بالصاحب الجليل، والصاحب ابن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاي ورئيسي" (3). فالمراسلات كانت متصلة بين الوزيرين بسبب المصالح المشتركة المتبادلة بين الأميرين البويهيين الكبيرين. والتوحيدي كان في هذا الوقت ضمن حاشية ابن سعدان ومن أعيان مجلسه، وهو منفي مطرود من الصاحب الذي لا يزال يلاحقه ويحاول الوقيعة به كما رأينا. وهو، من جهة أخرى، نال من ابن عباد في مجلس ابن سعدان، وهجاه هجاء مرا قبيحا، وكشف له عن بعض أسرار حياته ومساوئه الكبرى، واليه قدم النسخة الأولى من كتاب (أخلاق الوزيرين)، وطلب منه كتمانها وعدم اعلان أمرها لأحد من الناس، وذلك خوفا من ابن عباد الذي "لمكره دبيب" (4). وكان ذلك كله في أول لقاء بينه وبين ابن سعدان، ولكن العلاقات بين الوزيرين تطورت الى ما رأينا من الصلح والتفاهم وتبادل المصالح، كما تطورت حياة ابن سعدان واهتز مركزه في وزارة صمصام الدولة، وأحاطت به المكايد والدسائس من كل جهة (5)، وشغل

(1) الامتاع والمؤانسة 3/ 225-230.
(2) الكامل 7/ 118.
(3) نفسه 7/ 125.
(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 54.
(5) نفسه 3/ 64 فما بعدها.

بهما عن التوحيدي وغير التوحيدي من أفراد حاشيته، فتضاعف الشك والوسواس في النفوس. ويبدو أن أبا حيان ،ذا الخيال الواسع في هذا المجال، تصور الغدر من صاحبه ، والكيد والمكر من عدوه، وخاف أن يكون هو الضحية التي تدور عليها الدوائر، وهو الجبان المطلع على أساليب الدس والغدر والاغتيال في عصره. وبذلك كله يحتمل أن يكون الصاحب سببا أصيلا في الجفوة بين ابن سعدان وأبي حيان، ولا بد أنه كان سببا غير مباشر في تعميقها، والبلوغ بها أبعد ما وصلت اليه من التنكر والهجران، بسبب كتاب (أخلاق الوزيرين) الذي بقي في حوزة ابن سعدان، وخوف أبي حيان من أن يستمع صاحبه لرأي الصاحب فيه.

ويلاحظ ثانيا أن هناك أعداء مشتركين في بغداد لكل من أبي حيان وابن سعدان، نال منهم التوحيدي في مجلسه ووسمهم بأقبح النعوت، وربما كان ينقل اليه أخبارهم وأقوالهم فيه، كما تشير الى ذلك اشارات كثيرة في كتاب الامتاع[1]. فلم تكن مهمة التوحيدي في قصر الوزير خالصة للثقافة والتأنيس وحدهما، بل كان حديثه مع الوزير يمر بأشياء " منها ما يشيط به الدم المحقون، وينزع من أجله الروح العزيز، ويستعفر معه الصلب" [2]. وعلى الرغم من أنه كان يجالس الوزير بصحبة غيره من العلماء والكتاب وأعضاء الحاشية، فقد كان يخلو به وحده في أكثر الأيام الى ما قبل نومه بقليل. وربما كان ذلك سببا قويا في مطالبة أبي الوفاء اياه بالاطلاع على كل ماكان يدور بينه وبين الوزير، وفي الحاح أبي حيان على كتمان الكتاب[3] وعدم الاعلان عما فيه من نيل واضح من بعض أعداء ابن سعدان، وعلى رأسهم عبد العزيز بن يوسف[4]، الذي تمت المكيدة بابن سعدان على يده، وتولى الوزارة بعد الفتك به مباشرة[5].

وكيفما كان الحال فقد حيل بين أبي حيان وبين ما يشتهي من صديقه ووزيره، وتسلط الأعداء والحساد على السلطة والتدبير في بغداد، فلم يبق أمامه الا

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1/ 42، 49، 52–53، 3/ 198.

(2) المصدر نفسه 1/ 13.

(3) نفسه 2/ 1.

(4) نفسه 1/ 42–48، 65–66، 3/ 147–150. وابن يوسف هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الجكار الشيرازي، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه، ثم تولى الوزارة لصمصام الدولة بعد قتل ابن سعدان، وله مكاتبات شعرية ونثرية، توفي سنة (388هـ) انظر اليتيمة 2/ 312 –325، والكامل 9/ 31، 50، والنثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك 2/ 357–361.

(5) انظر مقدمة الامتاع والمؤانسة (ح–ط)، وانظر مزيدا من التفصيل عن حياة التوحيدي في ظل ابن سعدان والعلاقة بينهما في: أبو حيان التوحيدي لعبد الرزاق محيي الدين ص 300 فما بعدها.

الهرب والاختفاء عن الأنظار ريثما تنجلي الغمة، وينكشف أمر المستقبل، وتدور الدائرة على الأعداء، لينالوا جزاءهم من القتل والنفي والتشريد. ولكن حياتهم تطول وتمتد، سواء منهم من كان في بغداد ومن كان في الري، ويطول معهما الاختفاء والانتظار. فيضطر أبو حيان للهجرة والابتعاد عن مكان نفوذهم وحكمهم، ومن المرجح أنه اختار احدى مدن فارس المغمورة البعيدة عن الأنظار قبل أن يلتحق بالعاصمة شيراز.(1)

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

في ظلال الغربة والنفي :

بخروج أبي حيان من بغداد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته، تختلف في كثير من الجوانب عن المراحل السابقة، وخاصة المرحلة المضطربة الأخيرة، وتقل فيها المعلومات عنه الا مايمكن استنباطه من كتبه المتأخرة، اذ لم يعد بالامكان تتبع حياته بدقة حتى نهايتها. والغالب أنه انصرف فيها الى الى التأليف الهادئ، والى الدين والتصوف واجترار الذكريات.

وبما أن هذه المرحلة من حياة أبي حيان خالية من الأحداث والشواغل التي تصرفه عن عالمه الفكري والروحي، فقد كانت جد خصبة من حيث الانتاج والتدوين والتصنيف، اذ وجد فيها الوقت الكافي لاعادة صياغة كتبه القديمة وتنسيقها وترتيبها والزيادة فيها، وتأليف كتب جديدة، وتحقيق أحلام علمية انبسطت أمامه في الماضي، فكان نتيجة هذه المرحلة عددا من المؤلفات والرسائل وصل الينا منها ما يلي :

(المقابسات) : وهو مجموعة المحاورات الفلسفية التي دونها عن فلاسفة بغداد برئاسة أستاذه أبي سليمان المنطقي(2)، لم يجد الفرصة المناسبة لصياغتها في كتاب الا في هذه الفترة، وقد انقطعت كل صلة له بالجو الذي حدث فيه الأخذ والاقتباس كما

---

(1) خضعت سيراز في هذه الفترة لحكم شرف الدولة بن عضد الدولة، ثم لحكم أخيه صمصام الدولة بعد طرده من بغداد ونفيه منها، وكلاهما لم تكن له علاقة طيبة بأصحاب بغداد ولا بأصحاب الري. وقد حكم صمصام الدولة، الذي عاش أبو حيان في حاشيته في بغداد، مدينة شيراز من سنة (380ه) الى سنة (388ه) (انظر ماسبق في ص8). قال أبو حيان في رسالته الى القاضي أبي سهل التي كتبها سنة (400ه) يعلل فيها اقدامه على احراق كتبه " وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ"، وربما يشير بذلك الى دخوله شيراز مع حاشية صمصام الدولة سنة (380ه).

(2) تقدمت ترجمته في ص 50 حاشية رقم 4.

تدل على ذلك اشارات كثيرة في ثنايا الكتاب(1).

(الاشارات الالهية): وهو مناجيات وأدعية ورسائل في التصوف،توجه بها الى المشايخ والمريدين والأصدقاء من الصوفية الذين قضى معهم أواخر عمره،ونفث فيها كل آلامه وزفراته التي ترسبت في أعماق نفسه. ولما كان كذلك فمن المرجح أنه كتبه في فترات متباعدة يرجع أغلبها الى مابعد سنة (400هـ) (2) اذ يدل الكتاب على الاستسلام المطلق،ويسوده الندم على ماضى من الخوض في شؤون الدنيا. أما قبل سنة (400هـ) ،وقبل أن يحرق كتبه فلا يزال يؤلف ويكتب ويصحح الكتب الفكرية والأدبية المختلفة التي ينافس بها الأحياء ويبحث بها عن مكانة ومكانته بينهم.

ووصلتنا أيضا عدة رسائل من انتاج هذه الفترة المتأخرة من حياته،وهي (رسالة في علم الكتابة)(3)،و (رسالة الحياة) (4)،و (رسالة في العلوم) (5)، ورسالته الى القاضي أبي سهل في شأن احراق كتبه(6). أما (رسالة السقيفة) فيظهر أنها من مؤلفات العهد السابق من حياة المؤلف،اذ تصور الصراع بين أهل السنة والشيعة في زمن الوزير ابن العميد (7).

ويظهر أن أبا حيان تناول كتبا أخرى سبق تأليفها ، بالتنقيح والزيادة،ككتاب (أخلاق الوزيرين) كما سنرى،وكتاب (الصداقة والصديق) الذي كتبه سنة (371هـ) بقصد تقديمه الى ابن سعدان،ولكنه لم يتمكن من ذلك،فبقي في المسودة الى سنة (400هـ) ، فأعاد كتابته من جديد (8)، كما جدد النظر أيضا في كتاب البصائر والذخائر (9).

وهناك مجموعة أخرى من الكتب لم يصلنا منها الا بعض النقول في معجم ياقوت وغيره،وهي كتاب (المحاضرات والمناظرات) ،وكتاب (الزلفة) ،وكتاب (تقريظ الجاحظ). والكتابان الأولان من الكتب التي ألفت في الفترة المتأخرة من حياة أبي حيان بدون شك(10)،أما الكتاب الثالث فما وصلنا منه لا يسمح بتقدير زمن تأليفه.

---

(1) انظر تفصيل ذلك في كتاب:أبو حيان التوحيدي. لعبد الرزاق محيي الدين ص226فما بعدها. وانظر أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات للدكتور عبد الأمير الأعسم ص115–117.
(2) مقدمة الاشارات الالهية ص/ 9.
(3) رسائل أبي حيان التوحيدي ص41، 61.
(4) رسائل أبي حيان التوحيدي ص100،وانظر أبو حيان التوحيدي. لزكريا ابراهيم ص124–125.
(5) رسائل أبي حيان التوحيدي ص103.
(6) المصدر نفسه ص161.
(7) لسان الميزان 7/ 38،وانظر أبو حيان التوحيدي لزكريا ابراهيم ص123.
(8) الصداقة والصديق ص9–10،وانظر أبو حيان التوحيدي. لعبد الرزاق محيي الدين ص198.
(9) انظر ما سبق في ص56.
(10) انظر معجم الأدباء 15/ 14،وذيل تجارب الأمم ص75،وأبو حيان التوحيدي. لعبد الرزاق محيي الدين ص241 فمابعدها.

وخلف أبو حيان عددا آخر من الكتب لا نعرف عنها الا أسماء ما كما ذكرها ياقوت(1)، وهي كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي ،وكتاب رياض العارفين ،وكتاب الحج العقلي اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي ،وكتاب الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة ،وكتاب الرسالة البغدادية،وكتاب الرسالة في أخبار الصوفية،وكتاب الرسالة الصوفية أيضا ،وكتاب الرسالة في الحنين الى الأوطان . وأضاف صاحب(هدية العارفين . .) (2)كتاب المقامات (ولعله محرف عن المقابسات) ،وكتاب الاقناع (ولعله محرف أيضا عن الامتاع) . وهي كلها كتب ورسائل لم يصلنا منها شيء يعرف بها ويكون عمدة الباحثين. (3)

ومع ذلك فالكتب الباقية وحدها تشهد أن المرحلة الأخيرة من حياة التوحيدي هي أخصب فترات حياته انتاجا وتدوينا وتصنيفا . ويبدو من خلالها أنه قضى هذه الفترة في النفي والغربة ،وفي وسط ضعيف الثقافة ،تميز فيه بكثرة الرواية عن شيوخ العصر وكبار علمائه ،وبكثرة الحفظ والجمع بين مختلف العلوم ،كما غلب عليه التصوف. لذلك اهتم به المحدثون والفقهاء والمتصوفة،الذين لم يفهموه كما سنرى ،أكثر من الأدباء والكتاب الذين حال أعداؤه بينه وبينهم ،فلم يترجم له منهم أحد ،وذلك بسبب انقطاع صلته بالمشتغين والعلماء والأدباء المشهورين في عصره،والذين كثر تجوالهم وترددهم في هذه الفترة بين الري وبغداد وحلب،حيث كانوا يفوزون بالذكر والشهرة والغنى . أما شيراز فقد كانت عرضة للفتن وعدم الاستقرار ،وربما كانت مركزا مهما من مراكز التصوف في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (4)، ولم تعد عاصمة كبيرة تجتذب اليها العلماء والأدباء منذ خروج عضد الدولة منها ورحيله الى بغداد سنة (368هـ) . وفي ذلك كله يكمن السر في سكوت معاصري أبي حيان عنه واغفالهم اياه ،الى جانب حملة الصاحب وأنصاره عليه وعلى كتبه(5).

ولما توفي الصاحب بن عباد(385 هـ) واستصفى فخر الدولة أمواله وأنصاره ،وتوفي عبد العزيز بن يوسف سنة (388 هـ) ،ظهر أبو حيان من جديد ووجد الجرأة لاعلان كتبه وعوا سلسلة أصدقائه والحديث عن أحواله(6) وهو يبدو من خلالها شخصا يختلف كثيرا عما عرفناه في المرحلة السابقة من عمره،

---

(1) معجم الأدباء 15 ص 7ـ8

(2) هدية العارفين 1/ 684 ، وانظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان 4/ 338 .

(3) انظر مناقشة مفيدة لآثار أبي حيان في كتاب أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات لعبد الأمير الأعسم ص80 – 106 .

(4) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري 2/ 24 .

(5) انظر ما سبق في صفحة 59 – 61 .

(6) كما هو الشأن في رسالته الى القاضي أبي سهل (رسائله ص161) وفي مقدمته للصداقة والصديق ص7 ـ 9 . وانظر أبو حيان التوحيدي . . لعبد الرزاق محي الدين ص317 فما بعدها

مرحلة التنقل والطموح والرغبة في الاصلاح ،فنراه منا أميل الى الهدوء واليأس قليل الاهتمام بمجتمعه ومعاصريه ،يتجنب ذكرهم والطعن فيهم ،كأنه اقتنع أخيرا بأن الأمر ابعد من طاقته ،فاستسلم للحكمة والتصوف والاهتمام بنجاة نفسه لذلك دون ذكرياته الماضية في الفلسفة ،وتجاربه ومعاناته الحالية في التصوف ، كما استمر في الشكوى من العوز والهرم والعجز ،وهي صفة مشتركة بين أغلب مؤلفاته ولكنها في هذه المرحلة الأخيرة أقل حرارة وحرقة مما كانت عليه سابقا ،ولا نستثني من ذلك الا ابتهالاته وأدعيته الواردة في كتابه الاشارات الالهية . يقول مثلا :((فقد أمسيت غريب الحال ،غريب اللفظ ،غريب النحلة ،غريب الخلق ،مستأنسا بالوحشة قانعا بالوحدة ،معتادا للصمت ،ملازما للحيرة ،محتملا للأذى ،يائسا من جميع من ترى ، متوقعا لما لا بد من حلوله ،فشمس العمر على شفا وماء الحياة الى نضوب ،ونجم العيش الى أفول (1))) .

لقد كان أبو حيان طيلة حياته عرضة لصراع حاد بين الانجذاب للدنيا ،والتعلق بأسباب الشهرة والبقاء ،وبين الاستسلام للقضاء والعمل على كشف الحجب وتحقيق السعادة الأخروية (2) . فاضطربت حياته ،واتسمت بالعذاب النفسي المر ،ولم ينتصر عنده أحد النقيضين على الآخر الا في سنة (400هـ) عندما نجح في الاقدام على احراق وثائقه ومدوناته التي ربما كانت كثيرة جدا ،وكان يحمل المهم منها معه في أسفاره . ففي تلك اللحظة انتصر أبو حيان المؤمن المتصوف المستسلم لقضاء الله وارادته ،وانهزم أبو حيان المتشبث بالدنيا وأسباب العيش والخلود ،فكأنه انتحر انتحارا معنويا (3) ، فأصبح ذا ارادة واحدة مستسلمة لله . ويغلب على الظن أنه وجد عزاء نفسيا في ذلك ، فامتد به العمر الى سنة (414هـ) (4) . وزاد من عزائه وشفائه ما كتبه أو أملاه في الاشارات الالهية عن أحواله وآلامه الباطنية ،فكانت أشبه باعترافات روحية صرح فيها بلغة رمزية صوفية ، بكل همومه وهموم جيله وعصره المترسبة في وعيه المرهف قبل أن يلقى ربه وصحيفته بيمينه شاهدة باستغفاره وتوبته .

---

(1) الصداقة والصديق، ص9 . وبمقارنة هذا النص برسالته الى أبي الوفاء في الامتاع (3/ 225) نجد فرقا شاسعا بينهما .

(2) انظر الاشارات الالهية ص 18 ـ 19 .

(3) أبو حيان التوحيدي لزكريا ابراهيم ص 62 .

(4) أبو حيان التوحيدي لابراهيم الكيلاني ص 35 ، وانظر Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi لمرك برجيه ص 215 ـ 216

* المنحنى الشخصي لحياة التوحيدي وفكره *

تلك أهم عناصر حياة أبي حيان وأبرز احداثها كما يمكن استنتاجها من كتبه وأخباره. فهل يستطيع الباحث، بالمقارنة بين آثاره مرتبة ترتيبا زمنيا، وبين حياته في توتراتها ومنعرجاتها المختلفة، أن يرسم ما يعرف في الدراسات الحديثة بالمنحنى الشخصي لحياته وفكره؟ أظن أن ذلك ممكن ما دمنا نملك بعض آثاره التي تغطي أزيد من نصف قرن من حياته الطويلة.

فمن خلال أسئلته في الهوامل التي يرجح أنها أول ما سطره قلمه، وتجرأ على كتابتها والتوجه بها الى مسكويه، يظهر طموحه الثقافي لمعرفة شتى جوانب النشاط الانساني كيفما كان نوعه وموضوعه. ومن تصفح تلك الأسئلة تظهر قدرة أبي حيان على اثارة المشاكل وتناول مجالات فلسفية ونفسية وأخلاقية ولغوية وعلمية أكثر دقة وعمقا وشمولا، ويظهر من خلالها أيضا نموذج انسان فريد تؤرقه نفسه التواقة الى الاطمئنان، وعقله الباحث عن الحقيقة الأزلية التي تحل بواسطتها كل ألغاز الكون.

ويمكن تقسيم تلك الأسئلة وارجاعها الى ثلاث مشاكل كبرى يمكن اعتبارها أساس كل ما عاناه أبو حيان من هموم ومتاعب طيلة حياته، فقد ألقاها على مسكويه منذ بداية نضجه ورشده الثقافي، دون أن ينتظر منه جوابا مقنعا على ما يظهر، لأنه يعلم أنها مشاكل أزلية تستعصي على الحل، ولأنه مقتنع بأن الانسان "سؤاله أظهر من جوابه، ودعواه أحضر من برهانه" (1).

وتتعلق المشكلة الأولى بمعرفة الله تعالى وصفاته وعلاقته بالكون والانسان، وهي التي أثارت في وعي المؤلف وتفكيره مسائل فلسفية عميقة، تركزت كلها في النهاية في محاولة التوفيق، ان أمكن، بين الفلسفة والشريعة، ما دام كل منهما يقدم حلا لمشكلة الوجود البشري على وجه العموم. ونحن نعرف أن صراعا قويا قام بينهما في عصر التوحيدي على المستويين النظري والعملي (2).

وقد حدد هذه المشكلة بقوله "أعجب الأشياء بعيد لا يجحد، وقريب لا يشهد، وهو الحق الأحد. وعلى ذكر الله تعالى، بما يحيط العلم من المشار اليه باختلاف الاشارات والعبارات؟ أهو شيء يلتصق بالاعتقاد؟ أم هو مطلق لفظ بالاصطلاح؟ أم هو ايماء الى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف؟ أم هو منسوب الى شيء بعرفان (3)

(1) الامتاع والمؤانسة 3 / 109 .
(2) انظر ما سبق في ص 21، 32-33.
(3) الهوامل والشوامل ص 55 .

الى أن قال:"هيهات هيهات ،اشتد اللغط ،وكثر الغلط ،ورجع كل الى الشطط، وفات الله الفهم والفاهم ،والوهم والواهم ،وبقي مع الخلق علم مختلف فيه ، وجهل مصطلح عليه"(1) . وأورد أسئلة أخرى متعددة ،تفصل ما أجمله في هذا السؤال ،أو تتفرع عنه ،أو تنبني على احدى قضايا العلاقة بين الله والوجود والانسان ،وأهمها تلك التي تحوي بذورا عن محاولة التوفيق بين النظر العقلي والشريعة الدينية(2) .

أما المشكلة الثانية فتتعلق بالانسان والنفس الانسانية ،وفازت هي أيضا بنصيب وافر من اهتمام أبي حيان في هوامله ،فقد قال مثلا :" ما ملتمس النفس في هذا العالم؟ وهل لها ملتمس وبغية ؟ . . .ولولا أن يتسع النطاق لسألت : ما نسبتها الى الانسان؟ وهل لها به قوام ،أوله بها قوام ؟وان كان هذا فعلى أي وجه هو؟ وأوسع من هذا الفضاء حديث الانسان ،فان الانسان قد أشكل عليه الانسان"(3) ،كما ألقى عددا آخر من التساؤلات عن التقسيم الثلاثي المشهور للنفس(4) ،وعن بعض أمراضها وانفعالاتها المختلفة كالصرع والفرح والحزن والضحك والانتحار والقلق والطيرة والفأل وغيرها(5) من المسائل النفسية المثيرة ،ويمكن أن يضم الى ذلك كله ما أشاره من القضايا الفنية والأدبية والبلاغية(6) ،ما دامت أشكالا محسوسة يتجلى فيها النشاط العقلي والنفسي عند الانسان.

والمشكلة الكبرى عند ابي حيان ،التي لها ارتباط عميق به ،باعتباره فردا في جماعة يمتلك مواهب قوية تؤهله للفوز بمكانة اجتماعية محترمة ،وتخلصه مما يعانيه من فقر وبؤس وحرمان ،تتعلق بالتفاوت الاجتماعي بين الناس،وعدم تقسيم الخيرات والأرزاق والمراتب على أساس القدرات العقلية والسلوك الديني والخلقي ،وقد أوردها بعبارة تشعر بمدى تأملها في وعيه وروحه فقال وهو يخاطب مسكويه:"حدثني عن مسألة هي ملكة المسائل،والجواب عنها أمير الأجوبة،وهي الشجا في الحلق،والقذى في العين،

---

(1) الهوامل والشوامل ص 56.
(2) المصدر نفسه ص 56، 108، 156، 192، 220، 278، 315، وانظر :
Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi
لمارك بيرجيه ص 266-267.
(3) الهوامل والشوامل ص 179-180.
(4) نفسه ص 356.
(5) نفسه ص 44، 112، 152، 210، 244، 247، 252.
(6) نفسه ص 5، 118، 285، 308.

والغصة في الصدر، والوقر على الظهر، والسل في الجسم، والحسرة في النفس، وهذا كله لعظم ما دهم منها، وابتلي الناس به فيها، وهي حرمان الفاضل وادراك الناقص. ولهذا المعنى خلع ابن الراوندي (1) ربقة الدين، وقال أبو سعيد الحصيري بالشك، وألحد فلان في الاسلام، وارتاب فلان في الحكمة..." (2).

وعرف هذه المشكلة كما يؤكد الدكتور احسان عباس أدباء آخرون غير أبي حيان من العصر العباسي كابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء، "وهي في جذورها مشكلة اقتصادية بحت، حاول كل فرد أن يفلسفها على طريقته الخاصة، فهي مشكلة توزيع الأرزاق... وهي الصراع بين الطبيعتين الأرضية والسماوية، وهي الانجذاب المتردد بين الواقع والمثال، وبين مطالب الجسد ونزعات النفس" (3). وقد حاول أبو حيان أن يتخلص منها، ويعثر على حل مقبول لها على المستوى الذاتي والفردي والجماعي، ولذلك شارك غيره من العلماء والأدباء في أسفارهم ورحلاتهم بحثا عن ذوي اليسار والجاه والسلطان، لعلهم ينصفون فيخضعون لنداء العقل والدين والأخلاق في وجوب الكرم والرحمة وتحقيق العدالة بين الناس. وكانت البداية بأبي الفضل ابن العميد ذي الشهرة الواسعة في الفطنة والذكاء والأدب والعلم، ولا أحد يستطيع أن يعرفه به ويربط الصلة بينهما كمسكويه خازن كتبه ومعلم ولده، ولذلك قدم اليه أسئلته وهمومه كلها، وشكا خلالها من الفقر والبؤس والحرمان (4).

ويتعلق بهذه المشكلة كثير من المسائل الخلقية والاجتماعية والعلمية التي أثارها التوحيدي في كتابه، وهي كلها تدور حول تناقضات مجتمعه وسلوك أفراده ومحاولة تفسيرها وتقديم أجوبة مقنعة معقولة لها (5).

وهذه المشاكل الثلاث هي التي اقتضت اهتمام أبي حيان، ووجهته الوجهة التي سلكها في حياته، وصبغت ثقافته وتفكيره وسلوكه بالصبغة الشمولية والبحث الجاد المستمر عن أسرار الأشياء والأحداث وألوان النشاط الانساني وسلوكه، ومحاولة الوقوف على أسبابها المعقولة. وقد ظل مدة طويلة من الزمن غير مقتنع عقلا بما عليه

---

(1) أبو الحسين أحمد بن يحيى بن محمد بن اسحاق الراوندي، كان بارعا في علم الكلام، وهو مشهور بالالحاد والكفر، والطعن على الاسلام، وله في ذلك كتب، وقيل انه تاب في آخر عصره. توفي سنة (298هـ). انظر الفهرست ص254-255، ومروج الذهب 4/ 105-106، ووفيات الأعيان 1/ 94-95، والبداية والنهاية 11/ 112.

(2) الهوامل والشوامل ص 212.

(3) أبو حيان التوحيدي ص 127-128 وانظر ص 112 فما بعدها من المرجع نفسه.

(4) الهوامل والشوامل ص1، 115.

(5) المصدر نفسه ص33، 64، 67، 84، 115.

مجتمعه وعصره من الفوضى والاضطراب في شتى المجالات والميادين،فظل معذبا بذلك مدة طويلة أيضا،وجادا في الوقت نفسه في البحث عن أسرار ذلك وأسبابه. وراثده في بحثه هو الحقيقة وحدها وتحقيق العدالة في الكون على المستوى النظري والعملي، ليطمئن باله وعقله،ويستريح جسمه المتعب في ظل مجتمع متغير، وليستريح هذا المجتمع أيضا وينعم بالرفاهية والعدل والسلام[1] . ولذلك اتسمت كتاباته بالعمق والصراحة والشمول،وارتبط فيها كل شئ بالمشاكل الثلاث المذكورة التي هي محور اهتمامه ومصدر معاناته وتفكيره.

والظاهر أن أبا حيان لم يجد عند مسكويه ما كان يرجوه من حل لهذه المشاكل العامة والخاصة،فلم يقدم له أجوبة شافية،بل كثيرا ما أعرض عن بعض أسئلته واستهزأ بها،وسخر منه بسببها،بل ذهب في بعضها الى اعتبار أبي حيان مجنونا مريضا يستحق العلاج[2] . وكل ذلك دليل على أنه لم يفهمه،وأنه لا قدرة له على اقناعه وعلى الارتفاع بالأجوبة الى مستوى الأسئلة من حيث العمق والاحاطة والتجريد والابتكار،كما لم ينوه به عند ابن العميد ، ولم يمهد له الاتصال به. فرجع الى بغداد ناقما ساخطا على مسكويه وعلى ابن العميد،وهذا ما سوغ له أن ينال منهما مما فيما كتبه بعد ذلك عنهما في (الامتاع والمؤانسة) [3]و(أخلاق الوزيرين)[4].

وكل ذلك ساعد على كبر مشاكله وعموصه وازدياد تأزمها وترسبها في أعماق نفسه وروحه،وتأثيرها في أخلاقه وسلوكه. وكان في حوزته آنذاك ذخيرة من الحكم والأمثال والأقوال والتعليقات من كل فن وعلم ،ومن مختلف الأشخاص والطبقات الاجتماعية،جمعها في بداية تتلمذه وتجواله وتعرفه على أساتذته وشيوخه،وربما كان يصحبها معه في تنقلاته بقصد درسها وتمحيصها وتجديد النظر فيها،بل تجربتها عمليا. فعزم على تدوينها واشاعتها على طريقة الجاحظ في حيوانه وبيانه وابن قتيبة في كتبه الأخبارية وغيرهما من المشاهير[5]. وهي لا تخرج في مضامينها العامة عن أن تكون الأصول النظرية والحقائق الواقعية التي ولدت في ذهنه،مضافة الى تجاربه ومشاهداته،تلك الأسئلة العميقة التي وجهها لمسكويه. فلما لم يجد لها عنده حلولا مقنعة عزم على المزيد من البحث والبحص والاتصال بالكبار من العلماء والوزراء

---

(1) سنعود لتفصيل هذا المعنى بعود اللعند مناقشة أسباب تأليف كتاب أخلاق الوزيرين في الفصل التالي .

(2) الهوامل والشوامل ص 56.

(3) الامتاع والمؤانسة 1/ 35ـ36، 66ـ67.

(4) أخلاق الوزيرين ص 23ـ24، 346.

(5) انظر مقدمة البصائر والذخائر 1/ 4ـ7.

عله يجد عندهم ما افتقده عند مسكويه وابن العميد .

ولذلك نراه متجها بخطه الى فلاسفة بغداد وعلمائها في مختلف الفنون والعلوم، تسيطر على اهتمامه المشاكل المذكورة نفسها ،وقد ازدادت وضوحا وحصرا ودقة، وتحديا للنفس والعقل والشعور،فازدادت هذه من جهتها توقدا واشتعالا وبحثا عن الحل بأي وسيلة ممكنة. لذلك لم تقنعه نصائح أساتذته بقبول الواقع والتسليم بالقضاء ،كما لم يقنعه سلوكهم في الرضى بالممكن المتاح على ضآلته وهوانه(1)،فلم يحصل على أي اطمئنان أو راحة على الرغم مما يرددون من حكم عميقة لو أخذ بها لأراح واستراح . ولذلك عزم على أن يجرب حظه من جديد في الرحلة والبحث عن الذات في عالم الاضطراب والغموض، غير أن الشعور الباطني بمشاكله الشخصية والاجتماعية المحتدة،ارتفع كثيرا . وذلك ما أبعد الشقة بين الحلول المثالية التي يأملها ويرتقبها وبين الواقع الملموس الذي لايزداد الشر فيه الا قوة واستحكاما .

بهذا الشعور ارتحل أبو حيان مرة ثانية الى الري ،واستقبل الصاحب ابن عباد . فكانت الواقعة وكان الصدام القوي ،الذي كاد يقلب الحقائق كلها ،ويضيع كل أمل لمواصلة البحث عن المعنى والعلاج . ولولا الايمان الثابت، وربما بعض الجبن والخوف، لرجع أبو حيان من هذه الرحلة منظوما في سلك واحد مع ابن الراوندي وأبي عيسى الوراق(2) وأمثالهما من الملحدين. ولكن الله سلم فرجع الى بغداد متماسكا أو كالمتماسك، وأتيحت له الفرصة مرة أخرى لتجديد العهد مع أصدقائه وشيوخه ومتابعة البحث عن حلول المشاكل المزمنة . وحاول في الوقت نفسه جمع أخبار الأصدقاء والأحباب والأصفياء على الرغم من يقينه الثابت أن "لا صديق ولا من يتشبه بالصديق" (3) ولكن وصف الصاحب المساعد مطرب،وفيه "شفاء للصدر ،وتخفيف من البرحاء ،وانصباب للحرقة، واطراد للغيظ،وبرد للغليل ،وتعليل للنفس"(4)،وذلك عمل أعطى ثمرته العاجلة في توطيد علاقته بصديقه القديم أبي الوفاء المهندس الذي استطاع أن يلحقه بموكب الوزير ابن سعدان.(5)

وبذلك أخذت المشاكل المزمنة تجد طريقها نحو الحل على الرغم من الصدمة

---

(1) انظر أخبار السيرافي وأحواله وأقواله التي نقلها ياقوت عن بعض كتب أبي حيان في معجم الأدباء 8/ 150 فما بعدها .

(2) أبو عيسى محمد بن هارون الوراق البغدادي ،كان معتزليا ثم تحول عن الاعتزال الى المانوية وهو أحد كبار الملحدين في الاسلام ،توفي سنة (247هـ) . انظر الفهرست ص487 ومروج الذهب 4/ 105

(3) الصداقة والصديق ص10 .

(4) المصدر نفسه ص14 .

(5) تقدمت ترجمته وكذلك ترجمة أبي الوفاء في 61،62

المتفقة التي امتلأت بها جوانب نفسه وشعوره،فقد حاول كظمها وتجاوزها ونسيان أمرها الى أن تتغير الأحوال القائمة. وواصل البحث عن تحقيق ماكاد يضيع وسط القهر والفوضى،ونجح فلاسفة بغداد وشيوخها الفضلاء في تقديم أجوبة شافية مقنعة عما عجز مسكويه عن الاجابة عليه من القضايا النفسية والفكرية والانسانية. فقد استطاع أبو سليمان المنطقي أن يزرع في قلب تلميذه القناعة التامة بأن الفوضى في الكون مسألة طبيعية ترتبط بارادة الله،وبطبيعة البشر ،وأنها تبدو كذلك فوضى في الظاهر فحسب اذا نظر اليها من جهة الحس ،أما اذا نظر اليها من جهة العقل والروح ،فهي عدل واعتدال،ودلائل باهرة على الوحدة التي تسري في الموجودات ،وترابطها بواجب الوجود.(1) كما أن تناقضات النفس الانسانية ضرورية أيضا لوقوع الانسان بين جواذب الحس وجواذب الروح. وحين تسيطر الأولى ينزع الفرد نحو الشر والرذيلة وحين تنتصر الثانية يتجه نحو الخير والاستقامة والتقوى. وفي كل تتحقق ارادة الله ووحدانيته(2). وهكذا وجد العقل الحائر أخيرا ضالته من الاطمئنان والراحة والاقتناع في ظل فلسفة استطاعت أن تحقق نوعا من التصالح بين حقائق الدين الاسلامي والأفلاطونية المحدثة،بعيدا عن النزعة العقلية الاغريقية(3). ولذلك قال أبوحيان وهويعبر عن موقفه من الفلسفة عامة : " وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقق التوحيد ،ولا تدل على الواحد ،ولا تدعو الى عبادته والاعتراف بوحدانيته(4)."

ومن جهة أخرى وجدت المشكلة الشخصية والاجتماعية طريقها الى الحل في ظل الوزير الفارسي ابن سعدان،اذ تحقق الاتصال والتفاهم على أسس من العقل والدين،مع وزير كبير واسع المعرفة والنفوذ. فكانت الليالي الأربعون في الامتاع والمؤانسة فرصة لعرض خلاصة التجارب والرحلات والدروس في المجالس العلمية ،وعلى أبواب الوزراء، مع أصناف الناس من الصغار والكبار وأصحاب المرقعات،كما تحقق الأمل في الفوز بالمكانة المطلوبة ومورد عيش كريم مأمون. ولم يبق الا تحويل آرائه وتجاربه ونصائحه في السياسة والاجتماع من النظرية الى التطبيق والعمل والتنفيذ على يد الوزير الفارسي الكبير.

---

(1) المقابسات ص100، 136، 159، 221 .

(2) نفسه ص 241، 244، 265.

(3) انظر تحليلا مفصلا لفلسفة أبي حيان وعلاقتها بالتصوف والأفلاطونية المحدثة والفلسفة الاغريقية القديمة في مقدمة المقابسات 29 فمابعدها بقلم محققها احمد توفيق حسين .

(4) الامتاع والمؤانسة 3/ 135.

ولكن كيف؟ فالبلاء محيط ، والداء مستحكم ، والمصيبة أجل وأعظم منه ومن وزيره ، فها هي ذي المكايد تحاك والعيون تترصد، والأعداء يتكاثرون ، ومن ورائهم الشر الذي لا يبقي ولا يذر . وسقط ابن سعدان كغيره من الضحايا ، فكثرت وساوس أبي حيان وتضاعفت همومه ، واشتعل الداء القديم في صدره ، وظن أنه أحيط به ! فأين المفر؟ وكيف السلامة " من هذه النيران التي قد طافت بالشرق والغرب ، وأتت على الحرث والنسل ، فقدمت كل أفوه ، وأسكتت كل ناطق ، وحيرت كل لبيب ، وأشرقت كل شارب ، وأمرت على كل طاعم ، وان الفكر في هذا الأمر لمختلس للعقل ، وكارث للنفس ، ومحرق للكبد "(1) .

ولكن لا بد مما ليس منه بد ، والاكان ثاني اثنين اذ هما في السجن ، وأمام سيوف الكيد والطغيان ، ولا سبيل للنجاة سوى التواري والهروب في انتظار سقوط الأعداء في مستنقع جرمهم وفجورهم . ولكن الأيام تمر ، وتتوالى الشهور والسنوات ، ولا تصل اليه الا أنباء انتصاراتهم وعتوهم . وتزداد غصص صدره ألما وقوة وكربا ، ولا عزاء له ولا رفيق سوى دفاتره وتعاليقه عن الشيوخ الذين ضاعت الفرصة في التشبه بهم ، ومزاحمة شأوهم وبلوغ مجدهم ، " وليس لمن وقع في شر الشباك وعين الهلاك الا الصبر "(2) ، ولا أقل من تعمية ولو من بعيد لهؤلاء الشيوخ ، اعترافا بنبلهم وشرفهم ، وذلك بتدوين محاضراتهم ومجالسهم وفضائلهم الخلقية ، لعل الزمان يجود بمن يسمع وينصف ، فيمين على محو العوز المقيم ، وشفاء الأدواء المزمنة . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فدفعته آلامه وشجونه ومذهبه الفلسفي ، الى الانضمام للمرة الثانية والأخيرة ، الى الرعيل المنهزم الذين طلّقوا الدنيا من أبناء عصره ، وهم رجال الزهد والتصوف ، والانصراف المطلق عن شؤون الدنيا وشواغلها . ولكن كيف تطيب حياته معهم وتصفو عشرته لهم ، ونفسه وشعوره مثقلان بأوزار جسيمة تتمثل فيها شذوذ شخصيته ومجتمعه ، واضطراب حياته وعصره؟ وكيف يصدق له معهم وداد وعشق ، وفي حوزته هذه الكتب والدفاتر دلائل سهو وغفلة وقلة اكترات؟ لقد انتهى أمر أبي حيان الثائر الطموح الباحث عن السعادة في الأرض ، فلتلتحق به آثاره وشواهد ادانته وليطهر هذا الشيخ الفاني من بقايا أدران الاطماع والبحث المضني عن الشهرة والغنى فأحرق كتبه ووثائقه .

وهكذا يتمثل لنا منحنى حياة التوحيدي في تداوره النفسي بحثا عن القيم

---

(1) الامتاع والمؤانسة 2/79 .
(2) معجم الأدباء 15/13 نقلا عن أبي حيان .

الخالدة على الشكل الآتي . يبدأ الخط على قاعدة المنحنى مع التصوف مع جعفر الخلدي في بغداد ، ومع الزهاد في مكة ، ثم يرتفع في غير استقامة بحثاً عن الحقيقة المطلقة والغنى والمجد ، حسب هذا الترتيب ، في مجالس العلماء والوزراء في بغداد والري وغيرهما ، حيث يبلغ كل شيء قمة المواجهة بين عوامل الشر في شخص ابن العميد والصاحب وابن يوسف ، وعوامل الخير في شخص ابن سعدان وأبي الوفاء ، وينتهي الأمر بانتصار الأولى . فيبدأ الهبوط في تدرج أكثر ميلاناً من حالة الصعود ، فلا مجد ولا غنى ولا حقيقة . فيصل الخط بسرعة الى مستوى القاعدة في الجهة الأخرى مع التصوف من جديد . وقد اعترضته في حالتي الصعود والهبوط اهتزازات وتوترات نفسية متعددة ، بسبب التنافر المستمر مع الواقع ، أنهكت جسده وروحه مع مرور الأيام . ولعل شيئاً من هذا هو ما يرمز اليه أبو حيان في دعائه الآتي من آخر ما سطره قلمه حين قال : " اللهم كَثُرَ غلطنا فينا ، وطال لغطنا علينا ، واشتد الضعف بنا ، وتنادى مناديّ العز بذلتنا ، ودل دليل الهتك على فضائحنا ، واشتدت حيرتنا فينا ، وترادفت حسرتنا منا ، وارتد نظرنا الينا ، وشمت بنا عدونا ، ووجد السبيل نحونا حاسدنا ، وأصبحنا بين خلقك ؛ ملحوظين بالمقت والشنآن ، موطوئين بالقسوة والعدوان ، مقروفين بالكذب والبهتان .

اللهم فجُد علينا منك ما يسلينا عما حرمتنا منهم وميزنا بلطيف لطفك عنهم ، وعززنا بعزيز عزك حتى لا نرى عز العزيز بغير عزك ، وقد هممنا اليك ، واصرف هممنا عما لديك ، وافصل بعدنا في الآخر نظير ما بدأت به في الأول ، انك المجيد الكريم ، ذو الفضل العظيم " (1)

(1) الاشارات الالهية ص 58

الفصل الثاني

كتاب (أخلاق الوزيرين)

التعريف به وبأسباب تأليفه وأهدافه العامة

تشير الظروف الخاصة التي أحاطت بتأليف كتاب (أخلاق الوزيرين)، والتي أبرزناها مبطنة في الفصل السابق، إلى خصوصية موضوعه وخطورته كما تثير عدة قضايا وأمور لا بد من كشفها والوقوف عندها حتى يمكن التعريف به تعريفا شاملا كافيا.

ويأتي اسم الكتاب وحجمه وترتيب مادته في مقدمة تلك القضايا والأمور. فعلى الرغم من أن المؤلفين المتأخرين أطلقوا على الكتاب أسماء مختلفة، فسماه ياقوت باسم (أخلاق الوزيرين) و(مثالب الوزيرين) و(ذم الوزيرين) (1) وذكره ابن خلكان باسم (كتاب ذم الوزيرين) و(مثالب الوزيرين) (2)، ومثل ذلك فعل ابن حجر (3) والسيوطي (4)، فأورده كل منهما باسم (مثالب الوزيرين).. نقول على الرغم من ذلك، نكاد نتأكد، بالرجوع إلى الكتاب ذاته، وإلى ظروف تأليفه، وإلى بعض كتب أبي حيان الأخرى، أنه لم يسم كتابه بأي من الأسماء المذكورة.

ولقد سبق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي رحمه الله في مقدمة طبعته المحققة للكتاب، إلى سياقة عدة براهين وأدلة، على أن العنوان الوارد في الأصل المخطوط وهو (أخلاق الصاحب وابن العميد)، هو العنوان الأصلي الذي وضعه أبو حيان لكتابه (5).

وأهم تلك الدلائل والبراهين أن أبا حيان لم يكن له من الجرأة ومناعة الجانب ما يجعله يتحدى الوزيرين الخطيرين فيسمي كتابه باسم ذا هو النيل منهما، ولذلك احتاط للأمر فضمن خطته في كتابه على ذكر المحاسن والمساوئ، واستنجد بالمقاييس الدينية والخلقية، وسلوك الأدباء من قبله، على جواز الهجاء والثلب. كما أخفى مسودة الكتاب عنده مدة من الزمن، واعتذر للوزير ابن سعدان

---

(1) معجم الأدباء 15/5، 9، 26، وانظر مقدمة أخلاق الوزيرين ص (ح ط)

(2) وفيات الأعيان 5/108، 112، وانظر مقدمة أخلاق الوزيرين ص (ى ك)

(3) لسان الميزان 7/40.

(4) بغية الوعاة 2/190.

(5) أخلاق الوزيرين ص (ج - و) من مقدمة المحقق

عن تحريرها (1) . واستدل المحقق بقولين لأبي حيان يربط فيهما كتابه بكلمة الأخلاق وهما قوله : " على أني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد (2) وقوله : " ففي نفسي أن أعمل كتابا في أخلاقه " (3) . وكل ذلك يكشف في وضوح عن جبن أبي حيان وخوفه من سطوة الوزيرين المشهورين وأنصارهما ، ولهذا سمى كتابه باسم (أخلاق الصاحب وابن العميد) وليس باسم (مثالب الوزيرين) أو غيره من الأسماء المشابهة السابقة .

ونحن نؤيد المحقق الفاضل فيما ذهب إليه ، ونرى أن هناك أدلة أخرى تؤكد هذا المعنى وتسانده .

فكما أن عنوان الكتاب في الأصل المخطوط هو (أخلاق الصاحب وابن العميد) فقد انتهى أيضا بالعبارة التالية " انتهت رسالة أخلاق الصاحب ابن عباد وابن العميد (4) " . وسواء كان أبو حيان هو كتبها أم وضعها النقلة من بعده ، فلا بد أنها تستند إلى العنوان الأصلي للكتاب .

أما كلمة (أخلاق) فيبدو أن أبا حيان حرص أشد الحرص على أن يسمي بها كتابه وأن يتخذ منها مبررا وستارا يسمح له بالطعن على الوزيرين من زاوية مشروعة وموقف لا شبهة فيه ، فيحقق بذلك أهدافه في الانتقام لنفسه ، وفي اسماع شكواه وتبيان موقفه الخلقي والديني من أوضاع عصره المتناقضة في نظره . ومما يؤكد هذا المعنى أن المدح والهجاء يقومان في أساسهما على الفضائل والرذائل الخلقية ، كما سنرى في الفصل التالي بحول الله ، ولذلك نراه يستعمل كلمة الأخلاق في كلامه بكثرة فيقول مثلا : " هذا عمرو بن بحر ... كتب رسالة طويلة في ذم أخلاق محمد بن الجهم ، ومدح أخلاق ابن أبي دؤاد " (5) . وقال بعد أن روى خبرا عن زهو الصاحب واعجابه بنفسه : " وهذا من أسرار الأخلاق " (6) ، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تؤكد حرص التوحيدي على أن يضفي على كتابه

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1/ 54 ، وانظر ما سبق في ص 63

(2) الامتاع والمؤانسة 1/ 54 .

(3) أخلاق الوزيرين ص 318 ، وانظر ص ع من مقدمة المحقق .

(4) مثالب الوزيرين ص 362 تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ولم ترد هذه العبارة في طبعة ابن تاويت الطنجي مع العلم أنهما اعتمدا معا على مخطوطة واحدة بعينها .

(5) أخلاق الوزيرين ص 42 _ 43 وستأتي ترجمة ابن أبي دؤاد في ص 157 حاشية 3

(6) المصدر نفسه ص 250 .

صفة علمية و أدبية تمكنه من القول والبقاء ،ولذلك نعته باسم الأخلاق حتى يتحقق الانسجام بين مضمونه وعنوانه .

ولكن من أين جاءت كلمة (الوزيرين) المذكورة من أسماء الكتاب التي وضعها المؤلفون المتأخرون ؟ يبدو أن منشأها كمنشأ كلمات (ثلب) و (ذم) و (مثالب) الملحقة بها ، والتي نظر فيها واضعوها الى الهدف الأساسي من تأليف الكتاب وهو هجاء الوزيرين ،والى تناول هذا الهجاء شخصين وزيرين ذكرا باسميهما في العنوان الأصلي للكتاب ،ولذلك اقتصروا على ذكرهما بلقبيهما .

وبعد ذلك كله نتساءل : هل يرتقي الكتاب بمادته وحجمه الى مستوى الكتب ذات الفصول والأبواب والموضوعات المتعددة فيستحق بذلك أن يسمى كتابا ؟ أم أنه لا يتجاوز بمادته مستوى رسالة صغيرة الحجم ،محدودة الهدف والموضوع ؟

الواقع أن أبا حيان في بداية تأليفه للكتاب وعزمه عليه لم يكن يريد له أن يتجاوز مقدار رسالة نثرية متوسطة كرسائل الجاحظ وغيره من كتاب النثر ورسائله الهجائية المتداولة في عصره وقبله ،والتي أورد بعضا منها في كتابه ،وأشار الى بعضها الآخر،لذلك نراه يلح على استعمال كلمة (الرسالة) في عنوان الكتاب كما رأينا ،وكذلك في صلبه وعند ذكره في كتبه الأخرى. فقد ورد فيه قوله :" ... وان تنفست الرسالة " (1) وقوله :" ولقد اضطرب علي نسخ الرسالة (2) " وقوله : " وسنوسع هذه الرسالة " (3). واستعمل الكلمة نفسها عند الحديث عن كتابه في (الامتاع والمؤانسة)فقال وهو يتحدث عن الصاحب : " على أني عملت رسالة في أخلاقه " (4) وقال : " وقد ذكرت ذلك في الرسالة " (5) ،الا أنه استعمل كلمة (الكتاب) في صلب الكتاب ايضا ،وفي أواخره ،فقال :" فقد كنت في أول الكتاب " (6) وقال : " لا أبرئ نفسي في هذا الكتاب الطويل العريض " (7) .

ويبدو أن السبب في ذلك هو شروعه في تأليف رسالته وهو لا يزال بحضرة الصاحب

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 235 .

(2) المصدر نفسه ص 461 .،وفي مثالب الوزيرين ص 303" ولهذا اضطرب علي نسخ الرسالة "

(3) نفسه ص 470 .

(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 54 .

(5) نفسه 1/ 67 .

(6) أخلاق الوزيرين ص 528 .

(7) نفسه ص 549 .

ابن عباد ، وفي عنفوان نقمته عليه وعلى ابن العميد (1) . وقد اكتمل لها حجم صغير وهو في كنف الوزير ابن سعدان ، وربما قدمها بهذا الحجم (2) الى ابن سعدان الذي طلب منه نسخة منها . ثم تطورت الظروف لغير صالحه وصالح رسالته ، فاضطر الى الاختفاء واخفائها معه . وتتوفر له في منفاه مواد جديدة يضيفها الى رسالته بين وقت وآخر . ولم يستطع أن يظهرها الا في زمن متأخر وقد أصبحت كتابا طويلا عريضا جامعا لأحاديث وأخبار ورسائل أدبية قديمة وحديثة .

والدلائل على هذا متوفرة في الكتاب . فقد رأيناه ينعتها في كتاب (الامتاع والمؤانسة) باسم (الرسالة) كما أشرنا الى ذلك قبل قليل ، ونراه يشير الى تزايد مادتها وتكاثرها مرة بعد مرة . فيقول مثلا وهو لم يتجاوز بعد منتصف الكتاب ، وقد رغب في ايراد رسالة ابن ثوابة في ذم الهندسة "وأنا أحكي لك في هذا المكان ذلك الكلام وان تنفست الرسالة" (3) ، بل نجده يكاد يصرح بأنه أضاف الكثير من الأخبار والأحاديث التي لم يكن يرمي الى ايرادها في البداية فقال :"وسنوسع هذه الرسالة بعد هذا التطويل" (4) . والكلام الذي أتى بعد هذه العبارة يختلف في روحه عما سبق من الكتاب اذ يغلب عليه الهدوء والرغبة في الافادة وتدوين الأخبار الأدبية أكثر من الرغبة في الهجاء . ونراه أيضا يستكثر حجم الكتاب في مثل قوله انه صار كتابا بغرافة (5) ، وانه طويل عريض (6) .

وترتيب مادة كتابه هو أيضا دليل على الزيادة المتأخرة فيه ، فقد بدأه بمقدمة واسعة عن الهجاء في الشعر والنثر ، ومحاولة اثبات جوازه من الناحية الدينية والخلقية والأدبية ، وربما كتب أغلبها في زمن متأخر قبل الاعلان النهائي عن كتابه . ثم انتقل الى الصاحب ابن عباد باعتباره الهدف الأول من هجومه ، فنقل شهادات بعض أعلام الكتاب عليه ، ثم أقوال حاشيته وخدمه ، فأقوال علماء الكلام والفقه واللغة والنحو ، فالشعراء والأدباء والتجار وأصحاب النحل المختلفة . ثم حاول تفسير شخصيته على ضوء آراء شيوخه في النفس والأخلاق ، ونقل أيضا

(1) انظر ما سبق في ص 60

(2) انظر الامتاع والمؤانسة 61/1 .

(3) اخلاق الوزيرين ص 235 ، وستأتي ترجمة ابن ثوابة في ص154 حاشية رقم 1

(4) المصدر نفسه ص 470 .

(5) نفسه ص 528 .

(6) نفسه ص 549 .

بعضها جرى له معه ،ليتنقل بعد ذلك الى ابن العميد ،فيروي أخبا ره عن ما شيئه والمتصلين به وبعض الرسائل في صباه. ولكنه سرعان ما يعود الى أخبار الصاحب فيه مجددا في حديثه عن ابن العميد بعد أن كان فرغ منها . فيختل ترتيب الكتاب ، وهو يشير الى ذلك صراحة معا ولا تبريره فيقول : " ولتداخل الحديث ما (1) خرج من ذكر هذا الى شأن ذاك ،ولقد اضطرب علي نسخ الرسالة على مذاهب المصنفين. ولكن عذري بين ،لأني نقلت ما نقلت في وقت صعب وحال عوراء " (2) . ثم يستمر الكلام بدون ترتيب واضح جامعا بين الصاحب وابن العميد وابنه أبي الفتح الى نهاية الكتاب ،وأغلبه بأسلوب الماضي المشعر بقدم زمن النقل عن زمن التصنيف . وكل ذلك دليل على أن الكتاب بدأ رسالة صغيرة ،ثم توفر الوقت وتكاثرت الأخبار والحكايات عن الوزيرين دون أن يستطيع المؤلف الحاقها ركتابه ،فأضافها اليه حتى اكتمل كتابا قائما بذاته ،وتبا وزحدود رسالة صغيرة .

ويلاحظ بعد ذلك كله أن عنوان الكتاب ،بشكله الذي وضعه أبو حيان ، له ارتباط واضح بحركة التأليف عن الأخلاق من جهة ،وعن الوزراء من جهة أخرى ، في القرن الرابع الهجري ،وذلك ما يؤيد كونه العنوان الأصلي الذي اختاره أبو حيان لكتابه . فقد سبق أن أشرنا في وصف الحركة الأدبية في القرن الرابع الهجري الى أن لفئات المثقفة على اختلاف اتجاهاتها وميولها تأثرت ،فيما أنتجته من انتاج فكري وأدبي بالتغيرات الاجتماعية السائدة في ذلك العصر (3) ، حتى ليمكن دراسة أخلاق المجتمع العباسي في القرن الرابع من خلال الكتابات الأدبية والدينية والفكرية التي كتبت فيه (4) .

فلقد كان أغلب المثقفين يلاحظون التغير الحاصل في سلوك الناس أثناء القرن الرابع ،فتألموه ووقفوا ضده مواقف متباينة ،وكان موقف المحافظين منهم على الخصوص ،من الأزمة الخلقية في عصرهم واضحا صريحا . فقد كان لها حل واحد في نظرهم ،وهو العودة الى التمسك بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، وبالفضائل الخلقية العربية الأصيلة التي زكاها الدين وأيدها . وتجلى ذلك في سلوك بعض

---

(1) ما زائدة ،ومثلها كثير في أسلوب أبي حيان .

(2) أخلاق الوزيرين ص 461

(3) انظر ما سبق في ص 34 فما بعدها .

(4) انظر نموذجا من ذلك (النزعة الاجتماعية في أدب التوحيدي) في مجلة الفكر التونسية العدد 9 السنة 21، جوان 1976 ص 6 فما بعدها . وانظر (أبو حيان التوحيدي : الأديب المفكر) لعلي دب ص 104 فما بعدها .

الفئات المتدينة من العلماء والمحدثين من أهل السنة وغيرهم ، وفي انتشار القصص الديني وسير الماضين من العرب وغيرهم(1)، وفي كثرة الحكم والمواعظ والأقوال والأمثال الشعرية والنثرية، وحرص الكتاب والمؤلفين على جمعها وايرادها في رسائلهم وكتبهم، وتأليف كتب ذات روح وأهداف أخلاقية واصلاحية واضحة، اشتهر من بينها كتب مثل (الفرج بعد الشدة) و (المستجاد من فعلات الأجواد) لأبي علي المحسن بن علي التنوخي (-384هـ)، و (المحاسن والمساوئ) للبيهقي، و (أدب الدنيا والدين) للماوردي (-450هـ) و (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) لأبي حاتم البستي (-354هـ)، و (حلية الأولياء) لأبي نعيم (-430هـ) وغيرها كثير(2). وأبرز كتب التوحيدي التي تمثل هذا النوع هو كتابه الضخم (البصائر والذخائر) الى جانب كتاب (أخلاق الوزيرين) .

أما المفكرون والفلاسفة فقد كان اهتمامهم بالمسألة داخلاً في نطاق بحوثهم التقليدية لمحاولة المشور على نظام اجتماعي متوازن. فقد كان موضوع الأخلاق من أبرز فروع الفلسفة اليونانية التي أثارت اهتمام المفكرين المسلمين، وخاصة عندما تعرض النظام الخلقي الاسلامي للمحنة في المجتمع العباسي، فظهر مفكرون شبه مختصين في الاصلاح الخلقي والاجتماعي كمسكويه (-421هـ) وأبي حيان واخوان الصفاء وغيرهم. فقد كانت النزعة الاصلاحية تسود مؤلفات هؤلاء، ولذلك نرى مسكويه مثلاً يصدر كتابه (تهذيب الأخلاق) بقوله: "غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به الأفعال عنا كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي"(3). وقد ساهم الفلاسفة المسلمون بنصيبهم في معركة الاصلاح الخلقي فقام الفارابي (-339هـ) بتفسير كتاب الأخلاق لأرسطو(4)، وألف يحيى بن عدي المنطقي (-364هـ) أستاذ التوحيدي رسالة سماها (تهذيب الأخلاق) (5)وكذلك فعل أبو الخير ابن الخمار(6) وابن سينا(7)، وغيرهم (8) .

ولذلك كله حرص أبو حيان على أن يدلي بدلوه في الاتجاه العام لشعور

---

(1) انظر (الكتب المؤلفة في المواعظ والآداب والحكم) في الفهرست ص452.
(2) انظر كشف الظنون 1/ 35، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان 3/ 92 فمابعدها.
(3) تهذيب الأخلاق ص1.
(4) الفهرست ص382، 384.
(5) انظرها في رسائل البلغاء ص483 فمابعدها.
(6) انظر الفهرست ص384.
(7) انظر تاريخ حكماء الاسلام ص56.
(8) قارن ماسبق بالفلسفة الأخلاقية في الفكر الاسلامي ص13-17.

معاصريه من المفكرين الغيوريين على مصير الأمة ،فوضع أغلب كتبه في الاتجاه نفسه بالرغم من اختلاف موضوعاتها كالصداقة والصديق ،والهوامل والشوامل ، والمقابسات التي ورد فيها قوله: " والكلام في الأخلاق مطرب ،وجبل هذا الكتاب فيها "(1) . ومن ثم أصر على تسمية كتابه في هجاء الوزيرين باسم (أخلاق الصاحب وابن العميد) حتى يحقق هدفه في الانتقام لنفسه وجذب القراء الى تداول كتابه والاقبال عليه. وشفيعه في ذلك أن الكتاب يحوي تجربته في مراقبة سلوك شاذ صالح لأخذ العبرة في نظره.

ولا شك أن لدى أبي حيان أساسا نظريا سنتعرض له بعد قليل ، أقام عليه ملاحظاته وآراءه في سلوك معاصريه والسلوك البشري بوجه عام ،الا أن الفرصة لم تتح له ليحرر خلاصة تجاربه في قالب نظري كمعظم مفكري عصره ،فقال متأسفا على مافاته من ذلك : "وفي الأخلاق كلام واسع نفيس ،على غير ما وجدت كثيرا من الحكماء يطيلون الخوض فيه ،ويحوصون المرام منه ،بتأليف محرف عن المنهج المألوف .ولو ساعد نشاط والتئام عتاد ،وقيض معين ،وزال الهم ، بتعذر القوت ، لكنا نحرر في الأخلاق رسالة واسطة بين الطويلة والقصيرة ،يستفاد منها ما وضح لنا بالمشاهدة والعيان ،وبالنظر والاستنباط ، ولكن دون ذلك أوق ثقيل ،وعوق طويل ،والله المستعان " (2).

أما اهتمام الناس بالوزارة والوزراء في عصر التوحيدي وقبله ،فقد كان له نصيب كبير في تشجيع أبي حيان على تأليف كتابه عن حياة وزيرين عظيمين من معاصريه. فقد كان لمركز الوزير وأثره الخطير ، في تنظيم الادارة وتنفيذ الأحكام ، ومباشرة الحل والعقد في معظم الأمور ،أهمية عظمى لدى العامة والخاصة. فلهج الجميع بذكر المنصب وصاحبه، وتعداد شروطهما ومناقبهما ومساوئهما ،ووقفوا رغباتهم وآمالهم على شخص الوزير ،لدرجة ربما تناسوا معها نفوذ الخليفة وسلطانه. ومن ثم نشط التأليف لهم ، ورواية السير والاخبار والحكم وتقديمها اليهم في كتب ورسائل، وفي المجالس العلمية والثقافية التي تعقد أمامهم ،وبذلك أسهم الكثير منهم في تنشيط الحركة العلمية والأدبية كآل برمك ،والفتح ابن خاقان ،والوزير المهلبي ،وابن العميد ،والصاحب ابن عباد ،وغيرهم(3).

كما اتجه الاهتمام بالوزارة والوزراء الى التأليف عنهم ولهم حول سير الوزراء

---

(1) المقابسات ص88.

(2) الصداقة والصديق ص73 ،وانظر حديثا مفصلا عن بعض ملاحظاته السيكولوجية في أبو حيان التوحيدي لزكريا ابراهيم ص 202 فما بعدها .

(3) انظر أدب الوزير الماوردي ،سلسلة الرسائل النادرة ص1-9.

السابقين والتأريخ لهم ،وتدوين أقوالهم وأخبارهم المأثورة ،حتى يقتدي بها الأواخر ويأخذوا منها العبرة . واشتهر من ذلك عدة كتب ورسائل ككتاب (الوزراء والكتاب) لأبي عبد الله الجهشياري (-331هـ) (1)،وكتاب (مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم) لأبي الحسن علي بن الفتح المطوق (2) ،وكتاب (صحبة السلطان) لأبي الحسن ابن نصر (3)، وكتاب (الوزراء) للصاحب ابن عباد (4) ،وتحفة الوزراء) لأبي منصور الثعالبي (-429هـ) (5). وقد استشهد أبوحيان في بداية كتابه بعدد من رسائل الهجاء في الكتاب والوزراء من قبله، وبعدد آخر من الرسائل التي قيلت في الوزير ابن عباد وأستاذه ابن العميد ، من بينها رسالة لأبي راغب المتبي في الصاحب جاء فيها قوله وهو يخاطب ممجوه : "ولقد شددت وسطي في تعرف أخبارك، واستعنت كل عين وأذن في معرفة ليلك ونهارك ..." (7) .

ولذلك كله ليس بدعا ولا خارجا عن المألوف أن يجمع أبوحيان أخبار وزيرين ممن عاشرهم وغيرهم من وزراء عصره،ويتصفح أخلاقهما وشؤونهما . وكل ذلك يشفع له في تسمية كتابه باسم (أخلاق الوزيرين) أو (أخلاق الصاحب وابن العميد) كما ورد في الأصل المخطوط.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وهناك قضايا أخرى تعرضنا بالكتاب ،ويأتي في مقدمتها محاولة معرفة الشخص الذي قدم له أبوحيان كتابه،وأشار في المقدمة ،دون أن يذكر اسمه،الى أنه طلب منه تأليفه وتقديمه اليه (8)، فهل هو شخص حقيقي معروف له علاقة ما بالمؤلف،أم أن أبا حيان فضل أن يختفي وراء غيره ،يحمله مسؤولية تأليف الكتاب ونشره بين الناس،سواء كان ذلك حقيقة أم ادعاء ؟ .

الحق أنه لايمكن الجزم بشيء ما دامت النصوص لا تفصح بما يمكن الاعتماد عليه واعتباره حجة قاطعة . فهو يقول مثلا: " وهذه الجملة-أكرمك الله - أنت أحوجتني اليها ، وجشمتني صعبها ، حتى نشبت بها قائما وقاعدا، ...وتصرفت

---

(1) الفهرست ص190.
(2) الفرج بعد الشدة 1/ 137 والفهرست ص193 وهو فيه باسم كتاب الوزراء .
(3) الفهرست ص 195.
(4) المصدر نفسه ص 200.
(5) طبع أخيرا بمطبعة العاني ببغداد سنة 1977.
(6) أخلاق الوزيرين ص 42 فما بعدها .
(7) نفسه ص 152.
(8) نفسه ص 9.

في فنونهما مدمنا ومسيئا، لما تابعت الي من كتاب بعد كتاب، تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد..."(1). ويشير في نص آخر الى قدم علاقته وارتباطه بهذا الشخص، وأن الاتصال بينهما ربما يعود الى عهد الطلب وأيام الاقبال والصحة والشباب، لتمتد الى وقت تأليف الكتاب أو تحريره على الأصح، وهو وقت متأخر كما سنرى، حين أصبح هذا الشخص كافل حياة أبي حيان "وراعيها، وجامعها، ومصلحها، وناظم ما انتشر منها"(2). وذلك كله يشعر أن المخاطب أحد شخصين لهما علاقة وطيدة بأبي حيان في الفترة المزدهرة من حياته التي قضاها في بغداد في ظلهما وتحت عنايتهما، وهما صديقه أبو الوفاء المهندس البوزجاني (3)، والوزير أبو عبد الله ابن سعدان (4)، واليهما كتب بعض رسائله وكتبه المعروفة وفي مقدمتها كتاب (الامتاع والمؤانسة) و (الصداقة والصديق) (5). لكنه لم يصرح بأي واحد منهما في كتابه عن الوزيرين. الا أن هناك أسبابا مهمة يمكن الاعتماد عليها في ترجيح أن الشخص المشار اليه الذي قدم اليه الكتاب هو الوزير أبو عبد الله ابن سعدان.

وأول هذه الأسباب أن هذا الوزير طلب منه نسخة من الكتاب في بداية اتصاله به، وهو لا يزال على شكل رسالة صغيرة (6) فوعده التوحيدي بأن ينسخها ويحررها له، بعد أن قدم له تلخيصا شافيا لما ورد فيها، ورجاه أن يكتم أمرها وألا يطلع عليها أحدا غيره. فقال له الوزير: "أجد تحريرها، وعلي بها، ولك الضمان ألا يراها انسان ولا يدور بذكرها لسان، قال: قلت: السمع والطاعة"(7). فارتباط الكتاب باسم ابن سعدان، وبمجلسه في فترة وزارته، ورغبته في الاطلاع عليه، كل ذلك يرجح أن يكتبه أبو حيان باسمه تحقيقا لتلك الرغبة، وجريا على المألوف في تقديم الكتب للوزراء والكبار.

وثانيها أن بداية الرغبة والعزم عند أبي حيان على تأليف الكتاب وانجازه بشكل ما، ترجع لتلك الفترة الساخنة من حياته، التي تتصف بالطموح وقوة الأمل والتماسك قبل السقوط والانهيار، والتي قضى أكثرها معززا منعما في ظل وزيره الأثير،

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 1.

(2) نفسه ص 33، وانظر ص 36، 51 من المصدر نفسه.

(3) انظر ماسبق في ص 61 فما بعدها.

(4) انظر ماسبق في ص 61 فما بعدها.

(5) الامتاع والمؤانسة 1/ 19، والصداقة والصديق ص 9.

(6) انظر ماسبق في ص 79–81.

(7) الامتاع والمؤانسة 1/ 61، وانظر:

Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi

اصدارة بيرجيه. 100.

فلم لا يسرد له بعض الجميل ويخلد له ذكرى حسنة ، فيقدم له ،على الرغم من مضي عهده ونهايته ،مساوئ عدوه ومنافسه ؟ ويتأكد هذا المنحى اذا عرفنا أن الرجل ظل يحتفظ بذكرى اعجاب وتقدير للوزير ابن سعدان طيلة حياته.
وربما كان هو المقصود بالمقارنة الساخرة الآتية بينه وبين ابن عباد حين قال:
"لست أدري أميلي اليك أصدق أم انحرافي عنه أوثق؟ ورغبتي فيك أشد أم زهدي فيه أوكد ؟ ...كما لست أدري أحظك من الهمة والمروءة أجزل ،أم حظه من القلة والدناءة أجل ؟ ومكانك من الحزامة والكرم أرفع؟ أم محله فيهما أوضع؟ ..."(1)
ولعل مصدر السخرية في كلامه هنا هو أنه قيل في الفترة التي انشغل فيها ابن سعدان عن أبي حيان وأهمله ، فكأنه يلومه على ذلك بتجاهله الساخر لحقيقة موقفه منهما .

وثالثها أن تكتم أبي حيان واخفاءه لاسم ممدوحه المؤلف له الكتاب ربما يرجع الى رغبته في أن لا يكشف عن حرصه على الاطلاع على المعايب والمساوئ احتراما له وتقديرا ،وليس هناك أجدر أجدر بذلك في نفس أبي حيان ،من الوزير ابن سعدان.

فهذه مجموعة من الأسباب ترجح كون المخاطب في مقدمة الكتاب هو الوزير ابن سعدان ،ولكنها لا تؤكد ذلك. على أن أبا حيان يخاطب قارئه كثيرا في بعض كتبه ، سواء في مقدمتها أم في صلبها ،كما هو ملاحظ في كتابه (البصائر والذخائر) وفي كتابه (الاشارات الالهية) ،كما أنه لم يذكر اسم الشخص الذي طلب منه تأليف كتاب (المقابسات) أيضا .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

الفترة التي ألف فيها الكتاب :

ومما يعرفنا بالكتاب أيضا معرفة الفترة التي ألف فيها ،فقد أشرنا قبل قليل الى أن التوحيدي صاغ كتابه على شكل رسالة صغيرة في عهد الوزير ابن سعدان ،لكنها ظلت مفتوحة قابلة للزيادة(2). فامتد زمن تأليف الكتاب مدة طويلة ،تبتدئ من وقت اتصاله بالوزيرين ،وخاصة في زيارته الثانية للري ،لتستغرق فترة وجوده في بغداد ،ثم فترة اختفائه الى مابعد سنة (385هـ) . وحينذاك أمكنه أن يضعه في صيغته النهائية ويعلنه للناس بعد أن طوى الزمن أعداءه المهجوين.

(1) أخلاق الوزيرين ص51.
(2) انظر ماسبق في ص79-81.

والنصوص المؤيدة لهذا الذي ذهبنا اليه متوفرة في الكتاب . فقد استهله المؤلف بمقدمة طويلة في الاعتذار عن نفسه والاحتجاج لموقفه من الوزيرين ، وطولها يشعر بالزيادات المتأخرة فيها . كما أنه يقطع تسلسل الحديث ليضيف ما يشفي غليله من مثل قوله :" وملت هذا الفصل بقول فاضت به النفس بعد امتلائها ، وجاشت به بعد تردده فيها "(1). وهو هجو يقطر مرارة وسخرا من الصاحب ، ويدل على طول تفكر أبي حيان وتردده ونفاد صبره في الاخير. وقال أيضا :" وكنت هممت ببعض هذا منذ زمان فكبح عناني عن ذلك بعض أشياخنا ،وقصر ارادتي دونه.."(2) . والكتاب مليء بالشواهد الشعرية والرسائل النثرية النادرة والأمثال والاخبار التي يحتاج جمعها وتدوينها الى وقت وجهد .

وهناك نصوص صريحة في أنها كتبت بعد وفاة الصاحب لبن عباد ،منها قوله وهو يسخر من الوزيرين معا :" ... وأنهما لو بقيا (3) لنزل عليهما الوحي ، ولتجدد بهما الشرع ،وسقط بمكانهما الاختلاف ..."(4) وقوله في الصاحب : "ولئن كان منعني ماله الذي لم يبق له ،فما حظر علي عرضه الذي بقي بعده ، ... ولئن كان ظن أن ما يصير الي من ماله ضائع ،اني لاتيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولي شائع،والحساب يخرج الحاصل من الباقي ..."(5). وفيه بلغ أبو حيان قمة التشفي والانتقام ،كما أن فيه اشارة الى حادثة تاريخية رواها المؤرخون ، وهي مصادرة فخر الدولة لأموال الصاحب بعد وفاته سنة (385هـ) (6) . ومثل ذلك قوله فيه :"وكان باردا لارحم الله صداه ولا بلّ ثراه "(7)، وقوله في حكاية بعض أخباره معه :"وقد تكلفت ذلك وأنا في بقية من غرر الشباب وبعض ريعانه "(8). فهذه الأقوال ،وكثير غيرها ،تؤيد ما ذهبنا اليه من أن الكتاب لم يوضع في صيغته النهائية الا بعد وفاة الصاحب لبن عباد .

---

(1) أخلاق الوزيرين ص51.
(2) المصدر نفسه ص 38.
(3) كذا وردت الكلمة في النسختين المطبوعتين من الكتاب ،لكنها وردت في ترجمة أبي حيان في لسان الميزان (7/ 40) هكذا :"لوتنبأ" ،فاذا كان هذا الوجه صحيحا فلا حجة لنا في النص في المعنى الذي نقصده.
(4) أخلاق الوزيرين ص 83.
(5) نفسه ص 87.
(6) معجم الأدباء 2/ 115 (114) وذيل تجارب الامم ص 262-264.
(7) أخلاق الوزيرين ص 279.
(8) نفسه ص 310.

وكما اختلف زمن تأليف الكتاب فقد اختلف مكانه أيضا ،ما بين بغداد والري وغيرهما من الأماكن التي تنقل أبو حيان بينها ،بحيث نستطيع أن نؤكد أن أغلب الأجوبة التي دونها التوحيدي، ونقلها عن الشعراء والكتاب المنتجعين للصاحب ابن عباد، كتبها وهو مقيم في حضرته ،ومثلها استفساراته لحاشيته وخدمه وبطانته، وكذلك أغلب مشاهداته ،فقد قال مثلا لأحدهم مشيرا الى الصاحب :" اصدقني أيها الشيخ عن هذا الانسان "(1)،وقال لأحد الشعراء مشيرا الى الصاحب أيضا :"كيف ترى هذا الرجل ؟ "(2)،بل ان بعض أخباره يعود زمن روايتها وتدوينها حتما الى رحلته الأولى الى الري كاستشهاده بابن ثابت البغدادي المتوفى سنة(364ﻫ)(3)، وبعرضه بعض أحاديث الصاحب على أبي سعيد السيرافي المتوفى سنة(368ﻫ) قبل سفره الثاني الى الري(4).

وبعض النصوص نقلها عن أشخاص اتصل بهم في بغداد أو عرضها عليهم فيها حتى يعرف رأيهم في الوزيرين ،ثم رتب النصوص وتعاليق هؤلاء عليها في مكان آخر غير بغداد. يدل على ذلك قوله :" قلت لأبي عبيد الكاتب النصراني ببغداد "(5) وقوله : " وقلت لابن الزيات ببغداد : كيف رأيت ابن عباد ؟ "(6) وقوله : " وقد حكيت هذا بمدينة السلام فسمعه قوم كرام ... "(7)، وقوله :" قال أبو سليمان المنطقي وعنده يومئذ أبو زكريا الصيمري ،وقد قرأت عليه هذه الأحاديث... "(8). والأمثلة كثيرة ،وتدل كلها على أن مادة الكتاب كتبت في فترات متعددة ،وفي أمكنة مختلفة ،أهمها الري وبغداد ،ومدينة أخرى لم يصرح بها التوحيدي ، ولعلها مدينة شيراز التي قضى فيها قسطا مهما من حياته ،وراجع فيها مدوناته وكتبه القديمة قبل أن ينقلها عنه الوراقون.

ومع ذلك ماذا نصنع بقوله وهو يثني على الوزيرين بعد أن أفرغ كل ما في صدره من غيظ وحنق عليهما : "...ولو أردت مع هذا أن تجد لهما ثالثا من جميع من كتب للجيل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد "(9)! وكأنه

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 105–106.
(2) المصدر نفسه ص 116.
(3) نفسه ص 163.
(4) نفسه ص164 ومثلها بعض الأخبار المنقولة عن ابن العميد.
(5) نفسه ص133.
(6) نفسه ص190.
(7) نفسه ص193.
(8) نفسه ص302.
(9) نفسه ص531.

بهذا يحدد تاريخ كتابة الكتاب. وحين نستعرض التاريخ الواردة فيه نجد أن آخر تاريخ ورد ذكره هو سنة (370هـ)، وبه يؤرخ أبو حيان مغادرته لمدينة الري، ونهاية علاقته بالصاحب ابن عباد، ويبدو أنه المقصود بقوله السابق، لأنه يشير عند ذكره الى أن كثيرا من أخبار الصاحب فاتته بسبب مفارقته له، فقال: "وجرت أشياء أخر، وكان عقباها أنني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة" (1)، وقال أيضا: "هذا سوى ما فاتني من حديثه، فاني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة" (2)، فكيف يمكن التوفيق بين ما يقوله هنا وبين الأقوال الصريحة السابقة التي تؤكد استمرار تأليف الكتاب الى مابعد وفاة الصاحب؟

يبدو أن التوجيه المقبول لهذا الاشكال هو أن هذه الأقوال الأخيرة وردت في الأصل الأول للكتاب الذي عزم أبو حيان على تقديمه للوزير ابن سعدان قبل قتله سنة (375هـ). ثم أخذ يضيف الى كتابه الأخبار والشهادات الجديدة التي نقلها عن زوار الوزيرين الذين لم يتمكن من استشهادهم قبل ذلك، وكان ينقل ماينقل ويدون ما يدون عن الوزيرين ابن العميد وابن عباد معا، على اعتباره منسوبا لفترة تاريخية معينة تنتهي بسنة (370هـ). ويؤيد هذا التوجيه كون التوحيدي يصر كما سنرى، على توثيق مروياته بالمشاهدة والعيان، وبشهود عدول، حتى لا يتهم بالكذب والتزوير، وكونه يتحدث عن وزيرين أحدهما في ذمة التاريخ وهو أبو الفضل ابن العميد الذي توفي سنة (360هـ). فلامفر اذن من نسبة الكتاب، برغم تجديد صياغته والاضافات فيه، الى تلك الفترة التي توفر له الثقة والقبول. وهذا مافعله أيضا بالصداقة والصديق، الذي وضع مسودته بطلب من ابن سعدان سنة (371هـ)، ولكنه لم يتمكن من تبييضه الا في سنة (400هـ) (3)، وفيه بعض أخبار ترجع الى عهد ابن سعدان، ولكنها لم تدون الا في زمن متأخر، وربما عند تبييض الكتاب، كالخبر الذي يصف فيه ابن سعدان ندماءه، والذي ختمه التوحيدي بقوله: "رويت هذا الخبر على ما اتفق، وكنت أطلب له مكانا منذ زمان، فلم أجد الا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق" (4)

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 311.

(2) المصدر نفسه ص 492.

(3) انظر معجم الأدباء 15/ 6-7.

(4) الصداقة والصديق ص 84 .

أسباب تأليف الكتاب وأهدافه العامة:

ان السبب الأول والأكبر الذي حمل أبا حيان على كتابة كتابه (أخلاق الوزيرين) هو، على العموم، خيبته في رحلته الى الري من بغداد مرتين، توجه فيهما الى وزيرين عظيمين من وزراء الدولة البويهية، بقصد الفوز بالرزق والحظوة على يديهما، وعانى في سبيل ذلك مشاق السفر ومتاعبه في الذهاب والاياب، كما تحمل مقامه بحضرة ابن عباد خاصة صنوف شتى من سوء المعاملة والتحقير والاهانة[1]. وكل ذلك ملأ عليه حواسه وشحن مشاعره بالحسرة والغيظ، وشغله عن كل ما عداه، حتى أصبح وسواسا متصلا ومرضا مقيما[2]. ولا بد للتخلص منه من رد قوي لا مجال للاختيار فيه بالنسبة لأديب مثل أبي حيان، لا يملك الا قلمه وقوة نفسه، ورهافة احساسه، وخصوصية نظرته، وسعة ثقافته. فلتكن هذه وسائله في الرد والانتقام، ذلك الرد الذي تجلى بعد تردد طويل وتفكير أطول في كتابة كتاب (أخلاق الوزيرين) الذي استمر العمل فيه مدة طويلة كما رأينا.[3]

ذلك هو السبب الأكبر في الاقدام على ثلب الوزيرين، وهو سبب لا يخفيه أبو حيان ولا يتردد في الافصاح به والاعلان عنه في كل مناسبة تعرض له، سواء في كتابه (أخلاق الوزيرين) أم في غيره من كتبه وآثاره. فهو يقول مثلا بعد أن روى بعض ما جرى له مع الصاحب: "ولما نالني منه هذا الحرمان الذي قصدني به، وأحفظني عليه، وجعلني من جميع غاشية ورده فردا، أخذت أتلافى ذلك بعد ق القول عنه في سوء الثناء عليه، والبادئ أظلم..."[4]. ويقول أيضا: "ولعمري لو انقلبت عن ابن عباد بعد قصدي له من مدينة السلام، واناختي بفنائه مع شدة العدم والانفاق، والحاجة المزعجة عن الوطن، وصفر الكف عما يصان به الوجه، وبعد ترددي الى بابه في غمار الغادين والرائحين، والطامعين الراجين، وصبري على ما كلفني نسخه، حتى نشبت به تسعة أشهر خدمة وتقربا، وطلبا للجدوى منه والجاه عنده، مع الضرع والتملق ـ ببعض ما فارقت من أجله الأعزة، وهجرت بسببه الاخوان، وطويت له المهامه والبلاد، وعلى جزء مما كان الطمع يدندن حوله، والنفس تحلم به، والأمل يطمئن اليه، والناس يقدرونه ويحققونه، لكنت لاحسانه من الشاكرين،

---

(1) انظر مثلا الامتاع والمؤانسة 1/3-4.

(2) انظر ما سبق في ص 61 فما بعدها.

(3) انظر ما سبق في ص 79-81.

(4) أخلاق الوزيرين ص 311.

ولاساءته من الساترين، وعند ذكره بالخير من الصاعدين المصدقين، وعند قرفه بالسوء من الذابين المتمضين ..." (1) الى أن يقول :" ولكني ابتليت به، وكذلك هو ابتلي بي، ورماني عن قوسه مفرقا، فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظا، وحرمني فازدريته، وحقرني فأخزيته، وخصني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالخيبة التي أحرقته، والبادئ أظلم، والمنتصف أعذر" (2).

ونرى أن هذه النصوص كافية لبيان السبب الأساسي في تأليف الكتاب، وهو السبب نفسه الذي أدركه القدماء الذين وقفوا على الكتاب ونظروا فيه (3)، وأنها ترسم بعض التوترات النفسية التي صاحبت أبا حيان في رحلة الأمل والصمود، تشجعه وتقوي عزمه، وتستهين بالعقبات أمامه، وتشير أيضا الى ما رافقه بعد هزيمته وضياع آماله من أحوال نفسية أخرى تبرر الواقعة وتبحث عن دوائها القاطع الشافي. ولكنه لم يكتف بتلك الأقوال وحدها بل كرر معناها في أكثر من مناسبة وموضع، فهو يقول مثلا معتذرا عن بعض استطراداته :" وكان أبو محمد النباتي يقول في هذا الباب كلاما طيبا، وأنا أحكيه لأنه موضعه، وان تنفست الرسالة، فالغرض الفائدة، وان كان سبب انشائها الغيظ الذي فاض به الصدر، وصرح اللسان بوصفه" (4)، ويقول في معرض آخر :" ما ذنبي ان ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملني عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة، والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خصصت بخساسته وحدي، أو وجب أن أعامل بها دون غيري" (5).

ويحاول أبو حيان زيادة على ذلك، وتبعا لرغبته في ربط الأسباب بمسبباتها وارجاع الفروع الى أصولها، أن يخرج بالمسألة من اطارها الشخصي الخاص الى اطار أوسع ومجال أكبر، حين يربطها بالأخلاق والدين، وبغرض الهجاء، باعتباره فنا أدبيا له فائدته الأكيدة في اصلاح الأخلاق وشفاء الصدور. فالناس لم يؤلفوا في المناقب والمثالب الالغرض مقصود، ولم يتحدثوا عن الخير والشر، والكرم واللؤم، الالهدف مأمول، وهم مدفوعون الى الهجاء برغبتهم في التخفيف عن كواهلهم ونفوسهم من ثقل الغيظ والحنق الجاثمين عليها (6). وفي القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح آيات وشواهد على صحة

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 85.

(2) المصدر نفسه ص 86-87، وانظر الامتاع والمؤانسة 1/ 53-54 ومعجم الأدباء 15/ 12-13 نقلا عن كتاب المحاضرات للتوحيدي.

(3) انظر معجم الأدباء 15/ 5 ولسان الميزان 7/ 40.

(4) أخلاق الوزيرين ص 290.

(5) نفسه ص 492.

(6) نفسه ص 16-19، 26-27، 44-45.

هذه الدعوى ورجحان هذا الحكم.(1)

وكان أبو حيان مصرا على التعميم، وتغطية ذاته، بتكديس المبررات والاختفاء وراء الآخرين يستفتيهم ويدون أقوالهم، ووراء الرغبة في الاصلاح الخلقي، وجمع الفوائد الأدبية والعلمية المختلفة وتخليدها. ولذلك لم يكتف بالسبب المذكور دافعا وحيدا له لكتابة الكتاب، بل راح يبحث عن أسباب أخرى هي في الوقت نفسه أهدافه وغاياته من تدوين أخبار الوزيرين والكشف عن مثالبهما.

فهو يقول لهذا الذي قدم له الكتاب وادعى أنه لم يخض في حديث الوزيرين الاتحقيقا لرغبته:" وهذه الجملة ـ أكرمك الله ـ أنت أحوجتني اليها، وجشمتني صعبها، حتى نشبت بها قائما وقاعدا، وتقلبت في حافاتها مختارا ومضطرا، وتصرفت في فنونها محسنا ومسيئا، لما تابعت الي من كتاب بعد كتاب، تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد..".(2)، فكأن ما كتبه المؤلف عن الوزيرين انما كتبه للتاريخ، ولغيره من ذوي الشأن المهتمين بسلوك من سبقهم أو عاصرهم من المشاهير. وكل أمله في المسألة على هذا الوجه هو الفوز ـ كغيره من الكتاب والأدباء ـ بعطاء معجل أو باقبال متصل من ممدوحه ورئيسه، ولذلك قال:"وعلى ما قدمت من هذه الكلمات، وأطلت به هذا الباب، فقد امتثلت أمرك وسارعت اليه، وأرجو أن تهب لي فيه رضاك ان وقع موقعه الذي أملته، وتهديني الى عين الصواب ان زلّ عن حدك الذي حددته، وما غاية أملي به وقصارى همتي منه، الا أن أكون سببا قويا فيما حاز لك الشكر مني، وأوفر عليك الحمد عني، وأذاقك حلاوة مدحي وتمجيدي..".(3)

وفضلا عن ذلك يقول على لسان صاحبه المؤلف له الكتاب:" ولست أسألك أن لا تذكر من حديثهما الا ماكان جالبا لمقتهما، وداعيا الى الزراية عليهما، وباعثا على سوء القول والاعتقاد فيهما، بل تضيف الى ذلك ما قد شاع لهما، وشهر عنهما، من فضائل لم يلثلهما فيها أحد في زمانهما ولا كبير ممن تقدمهما، فان الفائدة المطلوبة في أمرهما، وشرح حديثهما، تأديب النفس، واجتلاب الأنس، واصلاح الخلق، وتخليص محاسن مما قبح، وتسليط النظر الصحيح مع العدل المحمود فيما أشكل واشتبه بين الحسن المطلق والقبح المطلق".(4). وهنا يبدو سبب آخر حمل أبا حيان على تدوين

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 67، 71 و 77 ـ 79. وسنعود الى هذا المعنى في الفصل التالي بحول الله.

(2) المصدر نفسه ص 9.

(3) نفسه ص 36، وانظر ص 33 ـ 35 منه.

(4) نفسه ص 13.

تجربته مع الوزيرين العظيمين ،وهو ولعه ،مثل معظم معاصريه من المفكرين والأدباء ، بالاصلاح الخلقي ، وبدراسة الفضائل والرذائل من جانبيهما النظري والتطبيقي حتى يتميز ما هو صالح منها للبقاء والخلود ،مما هو مثالي لا يتجاوز بطون الكتب ومخيلات الحالمين من الفلاسفة والوعاظ. وهو سبب وهدف في الوقت نفسه ،لأن أبا حيان حين يهجو الوزيرين ،يحقق رغبة مزدوجة في نفسه ،تتمثل في نشر معايبهما ،وفي جعلهما عبرة للقارئ يحسن سلوكه وأخلاقه بتجنب رذائلهما ومساوئهما. وهذا موضوع سنعود اليه بعد قليل ،وقد سبقت الاشارة اليه في مناسبة أخرى.(1)

والتوحيدي ،حين يدون أخبار الوزيرين التي لها ارتباط بالثقافة والأدب، والتي التقطها في المجالس الأدبية والعلمية التي كان الوزيران يعقدانها ويحضرها الشعراء والأدباء والعلماء من بلدان ومذاهب ونحل مختلفة،انما يحقق بذلك رغبة أصيلة في نفسه من خلال هجائه لابن عباد وابن العميد ،وهي ولعه المعهود بجمع الأخبار والفوائد المتنوعة ومعرفتها كيفما كان موضوعها ومصدرها. وتلك صفة من أهم صفاته العقلية التي تظهر بارزة في أغلب كتبه،وخاصة كتاب(البصائر والذخائر) . ولذلك قال معتذرا عن استطراداته المتكررة :" ولولا أن الفائدة ـ أبقاك الله ـ في سماع هذه الأشياء ،ومعرفة هذه الأحوال ،أضعاف الفائدة في الاضراب عنها ،لكان السكوت ممكنا ،والامساك مستطاعا ،والسلم واقعا ،والاعفاء سهلا ،ولكن الغيرة لا تقع ،واليقظة لا تحدث ،والتجربة لا تستحكم ،والطبع لا يرتاض،حتى تتصفح الأمور ،وتتعقب الدهور ،وتأخذ نصيبك من الاعتبار ،وتبعث همتك على محمود الاختيار".(2) وقال أيضا :" ما وصلنا ـ حاطك الله ـ حديثا بحديث ،وكلمة بكلمة،الا لتكثر الفائدة ويظهر العلم".(3) ،وقال عند ايراده قصيدة أبي عبد الله النمري (4) في مدح أبي الفتح ابن العميد :" ومرادي بذلك تكثير الفائدة وتخليد الحديث ،يمتع مرة وينفع أخرى".(5). وهو ،على الجملة،لم يعرض لأخبار أبي الفتح الا تحقيقا لهذا الغرض لأنه لا يكن له الا التقدير والاكبار على عكس والده كما سنرى.

وقد أورد في كتابه عدة رسائل أدبية وقصائد شعرية وأخبارا مأثورة ترجع الى ما قبل عصره(6) ،وكل ذلك ينسجم مع رغبته في الرواية والتدوين الى جانب هجاء

---

(1) انظر ما سبق في ص 81ـ83.

(2) أخلاق الوزيرين ص 470.

(3) المصدر نفسه ص547.

(4) أبو عبد الله الحسين بن علي النمري ،كان أديبا لغويا له تصانيف ،استدعاه أبو الفتح ابن العميد من البصرة الى الري فمدحه بقصائد توفي سنة(385هـ) . انظر يتيمة الدهر 2/ 358 ـ361،وبغية الوعاة 1/ 537.

(5) أخلاق الوزيرين ص523.

(6) نفسه ص 40ـ41و 45ـ 46و 55ـ67و 235ـ 247.

ابن عباد وابن العميد .

تلك هي الأسباب الكبرى والأهداف العامة التي حملت أبا حيان على كتابة كتابه (أخلاق الوزيرين) ،وكانت رائده في البحث والاختيار وتوجيه الكلام،وقد أمكن فهمها واستنتاجها من خلال الكتاب نفسه. فما هي المصادر التي اعتمد عليها في تحقيق هذه الأغراض؟ .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

مصادره :

قال أبو حيان : " ولست أدعي على ابن عباد مالا شاهد لي فيه،ولا ناصر لي عليه،ولا أذكر ابن العميد بما لا بينة لي معه ،ولا برهان لدعواى عنده" (1). ثم أضاف "لأن غايتي أن أقول ما أحطت به خبرا ،وحفظته سماعا" (2) . وقال أيضا :" ... وأقول ما أقول رائيا وراويا " (3).

من هذه الأقوال ،ومن غيرها مما ورد في تضاعيف الكتاب،يتضح اهتمام أبي حيان بتوفير عناصر الثقة والصدق والواقعية لمروياته وأخباره عن الوزيرين،حتى يقتنع القراء بصحة ما يورده من أوصافهما وأخلاقهما المذمومة . وذلك لأن العامة استمرت على إلصاق تهمة الكذب والتزوير بكل شاعر وكاتب يسلك بانتاجه مسلك الهجاء والطعن على الناس في سلوكهم ومواقفهم ،وخاصة عندما يكون المهجو ذا أثر قوي في حياة الأديب المنشئ،كما هو الشأن في حال أبي حيان والصاحب ابن عباد (4). ولهذا حرص المؤلف على تأكيد أقواله والبرهنة عليها بكل الأدلة والشواهد الممكنة ،ومع ذلك لم يسلم من الاتهام بوضع الأخبار وتلفيق الأحاديث ،ونسبتها الى غيره كما سنرى (5) .

ويمكن ،من خلال الأقوال المذكورة،معرفة مصادر التوحيدي عن الوزيرين. فهي لا تتجاوز نوعين اثنين لا ثالث لهما ،وكلاهما قابل للتقسيم والتفريع الى أنواع فرعية أخرى.

وأولهما مشاهدات المؤلف وملاحظاته المتعددة بحضرة ابن العميد ،وحضرة ابن عباد في رحلتيه اليهما في مدينة الري ،وهي تمثل مصدرا حيا من مصادر الكتاب. وثانيهما استفساراته ومروياته عن رجال الحاشية والكتاب والشعراء والعلماء

(1) أخلاق الوزيرين ص 79.
(2) نفسه ص 79.
(3) نفسه ص 36.
(4) انظر ما سبق في ص 59 فما بعدها .
(5) في الفصل الاول من الباب الثالث.

الذيـن زاروا الوزيريـن ،أو كان لهم علاقـة قريبـة أو بعيدة بهمـا .

وعن النوع الأول يقـول أبوحيان :"واذا احتججـت بالعيـان في وصف هذيـن الرجليـن فقد رفعـت المريـة ..."(1) . ويقـول على لسـان صديقـه الـذي قـدم اليـه الكتـاب:" ... وزعمت أني قد خـبرت هذيـن الرجليـن من غمـار الباقيـن ،ووقفـت علـى شأنهمـا ،واستبنـت دخائلهمـا ،وعرفـت خوافي أحوالهمـا ،وغرائـب مذاهبهمـا وأخلاقهمـا ولعمـري قد كـان أكثر ذاك ..."(2) لقد كـان أبوحيـان اذا شاهد عيـان لكثير من الأحـداث والأحـوال التي حكاهـا في كتابـه ،ولذلـك نراه يستعمـل غالبـا عبارات دالة علـى ذلـك مثل قولـه" سمعت "،و" رأيت" و" قال لي" و" قلت له" وما أشبههـا(3) .

ويدخل ضمـن هذا النوع مصادر أخرى اعتمد فيها المؤلـف علـى سعـة اطـلاعـه وثقافتـه الخاصة ،وروايتـه لأحاديـث وأخبـار وشواهد مختلفـة ليست لها علاقـة مباشـرة بالوزيريـن ،ولكنهـا تؤيـد موقفـه منهمـا وأحكامـه عليهمـا . منها القـرآن الكريـم، والحديـث النبوي الشريـف . فقد أورد من القـرآن عدة آيات بعضها يشفـع له في الهجـاء كقولـه تعالى :"لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلـم"(4) ،وبعضها الآخـر ورد تفسيره ومناقشتـه والاستشهـاد به في مجالـس الوزيريـن ،وفي المناظرات والأخبار التـي رواهـا المؤلـف(5) أو غيره ممن نقل كلامهـم ،وفي مثـل ذلك اعتمـد أيضا على بعـض الأحاديـث النبويـة الشريفـة(6) .

ومنها الشعـر ،فقد روى منـه شواهـد كثيرة في موضـوع الهجـاء وغيره من المعانـي والأغـراض التـي تعرض في أثنـاء الكـلام وما أكثرهـا(7) ،لأن الكتاب يتناول موضـوعـات مختلفـة لها ارتبـاط وثيـق بالحياة الثقافيـة والاجتماعيـة في عصر التوحيدي كما سنرى بعـد قليـل . فهنـاك شواهـد على القضايـا اللغويـة المعروضـة(8) ،(9) وعلى الأخلاق الفاضلة،

---

(1) أخـلاق الوزيريـن ص 93 .

(2) المصدر نفسـه ص 9 .

(3) نفسـه ص 94 ،و 116 ،و 124 و 127 ،و 213 ،وغيرها كـثير .

(4) نفسـه ص 77ـ78 ،والآيـة من سورة النساء 4/ 147 .

(5) نفسـه ص 163و 239 و 242 و 252ـ 254 وغيرهـا .

(6) انظر فهرس الأحاديث النبويـة في كتاب (أخلاق الوزيرين) ص 639ـ640 .

(7) بلغ عدد الأبيات الشعرية في الكتاب أزيد من (560) بيتا وردت على شكـل قصائد مطوّلة ومقطوعـات متوسطـة وصغـيرة وعلى شكل البيت والبيتيـن .

(8) أخـلاق الوزيريـن ص 276ـ279 و 510ـ 514 .

(9) نفسـه ص 3ـ7 و 91ـ 92 و 106 و 289ـ 290 .

ومن شعر الوزيرين[1] ،أو من الشعر الذي قيل في هجوهما أو مدحهما[2] ، وغيرها كثير يرد في ثنايا الاخبار لأغراض متعددة ،ومن بينها أبيات لشعراء من الأندلس أنشدها التوحيدي في مجلس الصاحب ابن عباد الذي تعجب منها ، واستغرب وجود مثلها في المغرب[3] .

ومنها أيضا الأخبار والرسائل النثرية والأمثال التي وشح بها أبو حيان كلامه،وأغلبها في موضوع الهجاء والأخلاق الفاضلة . وينتسب بعضها الى عصر التوحيدي ،وبعضها الآخر الى ما قبل عصره ،نقب عنها أبو حيان وجمعها من بطون الكتب وأفواه العلماء،ثم استشهد بها تأييدا لموقفه ومذهبه، وذلك مثل أخبار ورسائل منسوبة لأبي العيناء ،والحسن البصري ،والخليل ابن أحمد ،وأبي العباس ابن ثوابة[4] ،ومثل عدد من الرسائل كتبها غير أبي حيان في هجاء الوزيرين[5] .

ويلاحظ أنه لم يعن كثيرا بذكر مصادر كتابه من الكتب والدواوين القديمة والمعاصرة له،سوى ما ذكره من الرسائل الهجائية ونسبها لأصحابها[6] ، على عكس ما فعله في كتاب(البصائر والذخائر) الذي تحدث في مقدمته عن طائفة مهمة من مصادره من الكتب الاخبارية التي سبقته[7] . ويبدو أن شفيعه في ذلك هو تناوله لموضوع حي اعتمد فيه على المشاهدة والرواية عن رجال أحياء معاصرين قبل أي شيء آخر. ولكنه برغم ذلك كان يهتم بتوثيق مروياته بالسند[8] ،و بما يشير الى روايته ونقله عن غيره كقوله :"أخبرنا المرزباني عن الصولي "[9] ،وقوله: "ووجدت أيضا رسالة أفادنيها أبو محمد المروضي لابن حماد في ابن مقلة أبي علي"[10] وقوله:"ثم اني في سنة سبعين وجدت هذه الرسالة في مسودة ابن طرخان

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 283 و 343 و 408 و 525.
(2) المصدر نفسه ص 327 و 368 و 373 و 380 و 428.
(3) نفسه ص 397 فما بعدها .
(4) نفسه ص 40 و 45 و 47 و 55 و 220 و 235 فما بعدها ،وستأتي تراجم هؤلاء الأعلام .
(5) نفسه ص 151 و 323 و 423.
(6) نفسه ص 47 و 56 و 71- 73.
(7) البصائر والذخائر 1/ 4.
(8) أخلاق الوزيرين ص 235 - 236 و 308.
(9) نفسه ص 55.
(10) نفسه ص 66-67.

فيما يساع من ميراثه(1) وذلك جريا مع رغبته في تأكيد صحة أقواله وأحاديثه.

أما النوع الثاني من مصادر أبي حيان عن الوزيرين فيوضحه بقوله في ابن عباد: "وقد سألت جماعة من سادة الناس، وحصلت عن كل واحد منهم جوابا سيمر بك فيما تستقبل. وأذكر ها هنا أشياء حدثني بها بطانته وخدمه"(2) وهؤلاء الناس الذين سمع منهم أبوحيان فئتان كما نرى.

الفئة الأولى هم سادة الناس من الكتاب والشعراء والعلماء الوافدين على الوزيرين بقصد مدحهما والفوز بجوائزهما وأعطياتهما. وقد اتصل بهم أبوحيان بحضرتهما أو بعيدا عنهما، عندما انقطعت الصلة بينه وبين الرجلين(3). فكان يلقي عليهم الأسئلة ويستفتيهم، ثم يدون اجاباتهم التي كونت الجزء المهم من مادة الكتاب. ولذلك قال في معرض كلامه في الاعتذار عن خوضه في مساوئ الوزيرين: "فما ذنبي - أكرمك الله - اذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر، فوصفوه جميعا بما جمعت لك في هذا المكان"(4). وقال عند ذكره لبعض مثالب ابن العميد: "وسيتبين بعض هذا بما أذكره لك بشاهد عدل وراو ثقة"(5). ولهذا يستعمل كثيرا العبارات الدالة على الرواية المباشرة من مثل "حدثني" و"قال لي" و"سألت فلانا" وما أشبهها.

ويلاحظ أنه روى بعض مادة كتابه من أشخاص لا صلة لهم بالوزيرين، ولم يعرفوهما الا سماعا، أو من خلال وصفه لهما، كشيخه أبي سليمان المنطقي(6) الذي استند الى رأيه في تفسير سلوك الرجلين، وكصديقه أبي محمد الأندلسي(7) ومن ذلك قوله تعليقا على بعض مساوئ الصاحب: "وقد حكيت هذا بمدينة السلام فسمعه قوم كرام يرجعون الى فضل كثير وبصائر حسنة.. فضحكوا وهزئوا وشمتوا عرضه، وجحدوا محاسنه"(8).

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 521.
(2) المصدر نفسه ص 118.
(3) انظر ما سبق في ص 86 فما بعدها في هذا الفصل.
(4) أخلاق الوزيرين ص 492.
(5) نفسه ص 322.
(6) نفسه ص 255، 302، وانظر ما سبق في ص 50-51.
(7) نفسه ص 370، 397، 401، والأندلسي هو أبومحمد عبدالله بن حمود الزبيدي الأندلسي، كان من فرسان النحو واللغة والشعر، رحل من الأندلس الى المشرق لأخذ العلم فلازم السيرافي وأبا علي الفارسي ولم يرجع الى بلده، وله ذكر كثير في كتب أبي حيان. بغية الوعاة 2/ 41، وانباه الرواة 2/ 118.
(8) أخلاق الوزيرين ص 193 - 194.

والفئة الثانية هم الحاشية والخدم الذين اتصل بهم أبوحيان عند ما كان في صحبة الوزيرين أو في أماكن أخرى بعيدا عنهما ،فنقل عنهم الكثير(1) من أوصافهما وأحوالهما وتصرفاتهما في شؤونهما الخاصة التي لا يطلع عليها غالبا الا الخواص والمتولون للخدمة داخل القصور ، وهم أعرف الناس بالأسرار والحقائق التي يجتهد أصحابها كثيرا في اخفائها . ولذلك قال أحدهم ،وهو أبو الطيب النصراني الذي " كان على السر عند مؤيد الدولة"(2) في وصفه للصاحب:" لوبحت بما في نفسي من حديث هذا المأبون لتصدع الجبل ولتقلع الجندل"(3) .

ولقد قضى أبو حيان أزيد من ثلاث سنوات في مدينة الري ،واتصل خلالها بأغلب هؤلاء الذين كانوا في حاشية ابن العميد ،ثم انتقلوا بعد انقضاء مجد أسرته الى كنف الصاحب ابن عباد ،بل انه عقد علاقة صحبة وصداقة حميمة مع بعضهم ،فتحدثوا اليه بصراحة وثقة عن الوزيرين(4) . وكل ذلك جعل نظرته اليهما وتصويره لهما يختلف اختلافا بينا عن تصوير معاصريه من الأدباء والكتاب،وأيده في ذلك موقفه الخاص منهما ،وخصوصية طريقته في الوصف والتصوير وكتابة السير كما سنرى.

تلك أهم المصادر التي اعتمد عليها أبوحيان في تدوين مادة كتابه. ولما كانت في مجملها تعتمد على المشاهدة والرأي الشخصي(5)،وتؤثر فيها الأهواء والأغراض،ويسهل فيها العبث والتحريف والوضع فانها لم تسلم من الاتهام بالاختلاق والتزوير والرفض من الأدباء والمترجمين على خلاف ما قصد اليه أبو حيان من توفير الثقة بها وتصديقها كما سنرى.

---

(1) نقل عن أحدهم وهو (الخثعمي) حوالي ثلاثين صفحة في الكتاب دفعة واحدة. أخلاق الوزيرين ص 142-172-

(2) أخلاق الوزيرين ص 110.

(3) نفسه ص 110.

(4) نفسه ص 490-491،وسنناقش في الفصل الأول من الباب الثالث بحول الله مدى الثقة بما يقوله هؤلاء نظرا لعداوة بعضهم للوزيرين معا.

(5) بلغ عدد القصص والحكايات والأخبار المتميزة في الكتاب حوالي (320) خبرا روى منها أبوحيان باعتباره شاهد عيان أربعة أخبار عن أبي الفضل ابن العميد ،وعشرين خبرا عن أبي الفتح ،ومائة خبر عن الصاحب ابن عباد ، وثمانية وثلاثين عن أساتذته ومروياته الخاصة ،أما الباقي وهو (162) خبرا فنقله عن معاصريه من المتصلين من قريب أو بعيد بالوزيرين.

موضوعاته :

قال ابن خلكان في ترجمة أبي الفضل ابن العميد :"وكان أبو حيان علي ابن محمد التوحيدي البغدادي قد وضع كتابا سماه :[مثالب الوزيرين) ضمنه معايب أبي الفضل ابن العميد المذكور والصاحب ابن عباد ،وتحامل عليهما ، وعدد نقائصهما ،وسلبهما ما اشتهر عنهما من الفضائل والافضال ،وبالغ في التعصب عليهما وما أنصفهما"(1). هذا القول يمثل الصورة السائدة لدى القدماء عن موضوع كتاب(أخلاق الوزيرين) ،وهي صورة مركزة اهتم أصحابها بالموضوع الأساسي للكتاب دون الالتفات الى الجوانب الأخرى التي استدعاها هجاء وزيرين واسعي السلطان والنفوذ ،كما أنها تمثل خلاصة الرأي الذي يبقى في الذهن بعد الفراغ من قراءة الكتاب .

وكل موضوع (أخلاق الوزيرين) على هذا الوجه هو التشنيع على الصاحب ابن عباد وابن العميد ،وتعداد مساوئهما ومعايبهما في السلوك والتمامل الى درجة التجني والتحامل وعدم الانصاف،ولذلك كان الاصرار على تسمية الكتاب باسم (مثالب الوزيرين)(2) . وقال ياقوت،وهو المنصف المتأني في قراءة كتب أبي حيان: "وكان أبوحيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام،فاجتهد في الغض من ابن عباد . وكانت فضائل ابن عباد تأبى الا أن تسوقه الى المدح وايضاح مكارمه،فصار ذمه له مدحا"(3). وهو هنا ينساق مع الغرض الأصلي من تأليف الكتاب،ويتناسى أن المؤلف بنى خطته في كتابه على ذكر المحاسن الى جانب المساوئ ،كما أبان عن رغبته الاكيدة في الافادة والاصلاح(4) . والى مثل ذلك ذهب بعض الباحثين المحدثين من خلال ما وصلهم من تصوير الكتاب في (معجم الأدباء) لياقوت. فقال آدم متز،وهو يتحدث عن أبي حيان:"وكتابه في ذم الوزيرين مشحون بالثلب المقذع..."(5). وقال خليل مردم:"فان البقية الباقية من هذا الكتاب فرت جلد الصاحب،وكسته سبة الدهر، وجعلته هزأة وأعجوبة في الرقاعة ،وكانت محنة الصاحب بأبي حيان من أسوأ المحن"(6).

---

(1) وفيات الأعيان 5/ 112-113.
(2) انظر ما سبق في صفحة 77 فما بعدها في هذا الفصل.
(3) معجم الأدباء 6/ 187.
(4) انظر ما سبق في ص 83 في هذا الفصل .
(5) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 448.
(6) الصاحب ابن عباد ص 91.

ونحن لا نخالف أصحاب هذه النظرة في اعتبار أن(العمود الفقري) للكتاب هو الهجاء وذكر المعايب والكشف عن المساوئ ،والدلائل على ذلك متوفرة في كل صفحة من صفحاته ،وفي توجيه التوحيدي لبعض الأخبار والحكايات التي لا تتصل اتصالا مباشرا بالوزيرين ،كما لا نخالفهم في أن ذلك هو الغرض الأساسي من تأليف الكتاب[1] ،ولكن برغم ذلك فان بعض مواد الكتاب ونصوصه تدل على أن له جوانب أخرى يمكن اعتبارها موضوعات فرعية .

فالكتاب في مجمله حديث عن الوزيرين ،في سلوكهما وأوصافهما المتعددة ، الايجابية والسلبية ،التي تتلخص في النهاية في صفتين خلقيتين بارزتين هما صفتا الكرم واللوم ،كما حدد ذلك أبوحيان في قوله :"واذا احتججت بالعيان في وصف هذين الرجلين في الكرم واللوم ،فقد رفعت المرية"[2] ،وكما قال له صاحبه وهو يمسين له موضوع الكتاب بزعمه :"ولست أسألك أن لا تذكر من حديثهما الا ما كان جالبا لمقتهما أو داعيا الى الزراية عليهما ،وباعثا على سوء القول والاعتقاد فيهما ،بل تضيف الى ذلك ما قد شاع لهما ،وشهر عنهما ،من فضائل لم يثلثهما فيها أحد في زمانهما ولا كبير ممن تقدمهما ..."[3] .

وهذا شيء لم يغفل عنه أبو حيان من بداية كتابه الى نهايته ،فهو يقول في أول كلامه على الصاحب :"فأول ما أذكر من ذلك ما أدل به على سعة كلامه ، وفصاحة لسانه ،وقوة جأشه ،وشدة منّته ،وان كان في فحواه ما يدل على رقاعته"[4] وقال فيه أيضا حين أظهر تعصبا لشيخه أبي سعيد السيرافي ودفاعا عنه : "فعد هذا التعصب من مناقب ابن عباد"[5] ،وأورد على لسان أحدهم قوله : سقى الله ابن عباد ،فانه وقف نفسه على الغرباء ،وطلبهم بأكثر مما تعرضوا له ،وسأل عنهم بأكثر مما رجوه فيه ..."[6] ،بل انه لم يملك نفسه عندما قارب الفراغ من كتابه فأطرى الوزيرين اطراء لا مزيد عليه ،فقال :"ولولا أن هذين الرجلين ـ أعني ابن عباد وابن العميد ـ كانا كبيري زمانهما ،واليهما انتهت الأمور ،وعليهما طلعت شمس الفضل ،وبهما ازدانت الدنيا ،وكانا بحيث ينشر

---

(1) انظر ما سبق في ص 90-91 في هذا الفصل .

(2) أخلاق الوزيرين ص 93 .

(3) المصدر نفسه ص 13 .

(4) نفسه ص 94 ،وانظر الامتاع 1/ 54 ومعجم الأدباء 6/ 187 .

(5) نفسه ص 402 .

(6) نفسه ص 348-349 .

الحسن منهما نشرا ويؤثر القبيح عنهما أثرا ،لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع...»(1) الى أن قال:" ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثا في جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد»(2) . وأكد وفاءه بما التزم به في بداية الكتاب من وجوب ذكر المحاسن الى جانب المساوئ فقال يخاطب القارئ:"ان كنت تغضب لابن عباد أولابن العميد ،فقد شحنت هذا الكتاب من فضلهما وأدبهما وكرمهما ومجدهما بما ان ميزته وأفردته ،ثم اجتليته وأبصرته ،واقع نفسك وشفى غليلك»(3) .

ومن كل هذا يتضح أن أبا حيان ،برغم رغبته الأساسية في اظهار عيوب الوزيرين، لم ينس جانب الفضائل بل جعل منها موضوعا مهما من موضوعات كتابه. والظاهر من خلال الأقوال السابقة أن طبيعة الموضوع الأساسي هي التي فرضت على المؤلف هذه المزاوجة بين السلوك الحسن والقبيح. فقد تناول بالهجاء وزيرين مشهورين ومثقفين ،لم يستطع أغلب من عاشرهما الا أن يشيد بفضلهما وكرمهما، عن صدق أو عن رغبة أو خوف،ولذلك انتشرت لهما،وخاصة الصاحب، صورة براقة في كتب التاريخ والأدب(4) ،ساعد على سعة مداها وتمكنها في النفوس مركزهما السياسي واتساع نفوذهما. فكيف يتم لأبي حيان ما يريده لكتابه من الذيوع والبقاء اذا لم يوشحه ببعض فضائل الوزيرين تساعد على تلطيف الصورة القاتمة التي رسمها لهما؟

ثم ان معاني الأشياء لا تتضح غالبا الا بأضدادها ،فحيثما ذكرت الرذائل لا بد من تصور الفضائل وان لم تذكر. والهجاء بطبيعته جحود ونكران لمكارم قائمة بالفعل ،ينكرها فرد واحد ويدعيها الكثيرون. ومجرد كتابة أبي حيان عن الوزيرين ينطوي على تقديرهما واكبارهما ،وهو على أي حال ساعد على انتشار أخبارهما وتخليدهما ،وبذلك أسدى لهما ،عن غير قصد ،فضلا كبيرا(5) .

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 531.
(2) المصدر نفسه ص 531.
(3) نفسه ص 548.
(4) انظر مثلا ترجمة أبي الفضل في (تجارب الأمم) 2/ 275 فما بعدها، وترجمة الصاحب في (يتيمة الدهر) 3/ 188 فما بعدها وفي (أعيان الشيعة) 11 / 406 حيث بلغ تصويرهما درجة رفيعة من الشرف والنبل.
(5) ألم أبو حيان بهذا المعنى في خاتمة الكتاب. انظر أخلاق الوزيرين ص 548-549.

وكثير من المترجمين لهما اتخذوا كتاب أبي حيان عمدة في الكتابة عن حياة الرجلين(1) .

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب لم يقتصر على تقويم فضائل ابن عباد وأبي الفضل ابن العميد ورذائلهما وحدهما، وانما شمل الحديث وزيرا آخر من وزراء الدولة البويهية له صلة وثيقة بالأولين، وهو أبو الفتح ابن العميد الذي تناوله أبو حيان بالذكر، وحشد أخباره وفضائله بمناسبة ذكر والده، ولأنه عدو الصاحب(2) . وكان أبو حيان قد اتصل به في بغداد أثناء زيارته لها(3) ، ودون بنفسه بعض مجالسه ومآثره، ونقل غيرها عن الرواة أنفسهم الذين نقل عنهم أخبار والده، كما احتفظ لنا في الكتاب بحادثة مصرعه مفصلة مشروحة(4). وعند الحديث عنه وحده يتغلب جانب المحاسن على جانب المساوئ، ويظهر اعجاب أبي حيان به واضحا في مثل قوله:"وكان على كل حال أمثل طريقة من والده أبي الفضل..."(5) .

ومن موضوعات الكتاب أيضا ما أشار اليه أبو حيان في مقدمته حين قال : "وأضيف الى متن الحديث فوائد كثيرة"(6) . فقد كانت مهنته الوراقة وتدوين الأحاديث والأخبار الثقافية على اختلاف موضوعاتها. وكان الوزيران من جهتهما مثقفين كبيرين، ساهما بنصيب مهم في نشر العلم والمعرفة في بلاد فارس لذلك اتجهت عناية الرجل الى ثقافة الوزيرين، وحرص أشد الحرص على ابراز جوانب النقص في علمهما وحفظهما. فنقل الكثير من مناقشتهما وأجوبتهما على المسائل المختلفة التي كانت تلقى وتتدارس في المجالس العلمية التي كانا يعقدانها وخاصة الصاحب. وأورد أيضا بعض الفوائد الأدبية والفكرية عن أبي الفتح ابن العميد. وكذلك روى بعض الأحاديث والأخبار باعتبارها فوائد علمية وأدبية وخلقية بغض النظر عن كونها أداة من أدوات الثلب والاستهجان(7) . ومن أقواله الدالة على ذلك قوله في معرض حديثه عن أبي الفضل ابن العميد: "وهذا موضع يروى عنه

---

(1) انظر (الصاحب ابن عباد : حياته وأدبه) للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 41 فما بعدها، و(الصاحب ابن عباد الوزير الأديب العالم) للدكتور بدوي طبانة 330 فما بعدها.

(2) أخلاق الوزيرين ص 504 ، 533-537.

(3) المصدر نفسه ص 344، 406 وانظر ما سبق في ص 57 فما بعدها من هذا البحث .

(4) نفســـه ص 532-547 ، وانظر ماسبق في ص58 من هذا البحث.

(5) نفســـه ص 452.

(6) نفســـه ص 36.

(7) انظر ما سبق في مناقشة أسباب تأليف الكتاب ص 93.

بعض ما هو فائدة من الأدب والحكمة، وان كان استيعاب ذلك شاقا، فان الرجل كان كثير المحفوظ، جيد الاقتضاب"(1)، ثم أتبع هذا القول ببعض مروياته عنه.

وقوله في كلامه على مجالس ابنه أبي الفتح التي عقدها في بغداد: "ودخل بغداد وتكلف واحتفل، وعقد مجالس مختلفة، للفقهاء يوما، وللأدباء يوما، وللمتكلمين يوما، وللمتفلسفين يوما"(2) الى أن قال: "وجرت في هذه المجالس غرائب العلم وبدائع الحكمة"(3). ثم أورد بعض المناظرات التي جرت فيها.

وأغلب المناقشات الواردة في الكتاب تدور حول الجدل في الدين وعلم الكلام، والتفسير واللغة والفقه، حتى ليمكن اعتبارها مختارات من محاضر الجلسات الثقافية العامة التي كان الوزراء الثلاثة يعقدونها في بغداد والري(4). ومثال ذلك قوله في الصاحب: "وقال له أبوعاصم البصري يوما: أليس المتكبر هو الذي يتعظم زائدا على ما يستحقه ويحسن به، ومن أجل ذلك ذموه بهذا الاسم اذا أطلقوه؟ فقال: بلى، قال: فما معنى وصف الله نفسه بالتكبر، ونحن انما نفينا عنه التكبر لقبحه عندنا، وعند المعروف به بيننا، فلو ساغ أن ينعت بالتكبر ساغ أن ينعت بالتكذب. فاشتط وانتفخ، وتربد وجهه، ودر وريده وكاد يزند، ثم تدفق بكلام كثير ليس من مسألة أبي عاصم في شيء حفظت منه قوله..."(5). وقوله: "وقيل له يوما: ما القرحان؟ قال: الذي لم يخرج به الجدري، قيل: ولم قيل ذلك؟ قال: ليسخن الله به عين السائل، ويسخم وجهه، ويسمل عينه..."(6).

ولا داعي لحشد المزيد من الأمثلة، فهي متوفرة في الكتاب(7). وما نستنتجه من ذلك كله هو أن المناظرات والمناقشات والأسئلة والأجوبة التي نقلها أبوحيان في كتابه تمثل الحركة العلمية والثقافية العامة المزدهرة في عصره بمشاركة

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 387، ونقل عن بعض كتبه في كتاب (البصائر والذخائر 3/ 234-239، وأشار الى هذا النقل في (أخلاق الوزيرين) ص328-329.

(2) أخلاق الوزيرين ص 410.

(3) المصدر نفسه ص 410.

(4) مثله في ذلك مثل كتابه (المقابسات) الذي دون فيه محاورات فلاسفة بغداد في عصره، انظر ماسبق في ص65 من هذا البحث، وانظر (أبوحيان التوحيدي في كتاب المقابسات) للدكتور عبد الأمير الأعسم ص 128- 132.

(5) أخلاق الوزيرين ص 256.

(6) نفسه ص 263.

(7) انظر مثلا ما ورد في الصفحات: 162 -169، 217 - 227، 251-281 وغيرها من (أخلاق الوزيرين).

الوزراء المذكورين أنفسهم ومساهمتهم(1) ،وهي تكون موضوعا مهما من موضوعات الكتاب.

وفي مقابل ذلك نجد في الكتاب بعض أخبار الشعراء والكتاب ووصف أحوالهم وسلوكهم مع ذوي الشأن والسلطان،ومواقف هؤلاء من الشعر والكتابة، وبعض المنازعات والخصومات التي تحدث أحيانا بين الأدباء ورجال الدولة.

وفوق ذلك كله نجد فيه بعض الآراء والمواقف النقدية التي يتجلى من خلالها الصراع الحاد بين مدرسة التوحيدي ومدرسة ابن العميد في الكتابة والانشاء. ومن أمثلة ذلك ما حكاه المؤلف عن أبي بكر الخوارزمي بعد أن ساق رأيه السيء في الصاحب ابن عباد ،قال: "وكان الخوارزمي من أفصح الناس،ما رأينا في العجم مثله،وانما نوّله الصاحب ما نوّله ،وخوّله ما خوّله،لانه كان أذكاه عينا على محمد بن ابراهيم صاحب الجيش بنيسابور،واستطلع فيه أخبار المشرق، وبهذا المعنى استدرّله من ملك بغداد بواسطة ابن يوسف(2) ،وكان الظاهر أنه انما يعطيه لأدبه،ويجيزه لشعره،ويصطفيه لفضله "(3). وقوله في أديب مشهور من أصحاب ابن العميد :"فأما أبو محمد ابن أبي الثياب،وهو عبد الرزاق بن الحسين البغدادي فانه كان ذا فضل واسع،وشعر بارع،وعلم بكل شيء ،كالمنطق وغريب اللغة. وله رسالة من خراسان لما استقرت به الدار ببخارى كتبها الى أبي الفضل، ولا بأس بسردها هاهنا ،لتعلم أن الحر اذا ذاق الهوان ممن يستحق الكرامة عليه شق جيبه مستعتبا ،وأدرك طائلته مكافحا ومنبّها..."(4) ،وتناول أيضا كتابة الوزيرين بالنقد والتجريح ،وكل ذلك يكون جانبا مهما من موضوعات الكتاب.

وأشار أبو حيان كذلك في مقدمة كتابه الى عدد من الرسائل والأخبار التي كتبها غيره من مشاهير الكتاب قبله في موضوع الهجاء والتصوير الهزلي. كما أورد نصوص بعضها للاحتجاج بها وتأييد موقفه في الهجوم على الوزيرين. وهي من رسائل الجاحظ والمتبي وأبي العيناء وغيرهم(5) .وكان يشفعها بمثل قوله :"وبعد فحمد المحسن وذم المسيء أمران جاريان على مر الزمان منذ خلق الله الخلق ، وعلى ذلك يجري الى أن يأذن الله بفنائه"(6) .

---

(1) انظر ما سبق في وصف الحياة الثقافية في القرن الرابع الهجري ص21 فما بعدها.

(2) تقدمت ترجمته في ص 64 حاشية رقم 4.

(3) أخلاق الوزيرين ص 108-109 وستأتي ترجمة الخوارزمي

(4) المصدر نفسه ص 422-423 وستأتي ترجمة ابن أبي الثياب في ص253 حاشيةرقم 2.

(5) نفسه ص 55-63 وستأتي ترجمة أبي العيناء والمتبي في ص137، 147.

(6) نفسه ص 67.

وفي صلب الكتاب أورد عددا آخر من رسائل غيره من الكتاب والأدباء في هجاء الوزيرين والحط من قدرهما وسمعتهما (1). وروى أيضا رسالة هزلية مهمة منسوبة الى الكاتب أبي العباس ابن ثوابة (2). أما القصص والحكايات الساخرة التي رواها أو أنشأها في التلاعب بالوزيرين وتصويرهما تصويرا مضحكا فمتوفرة في الكتاب (3)، بل لا يكاد أغلب صفحاته يخلو من معنى مثير للسخرية والاستهجان. وكل ذلك يمثل مادة الكتاب ويكون قسطا مهما من موضوعاته، ويجعل من (أخلاق الوزيرين) ميدانا خصبا لدراسة جانب التصوير الهزلي في النثر الهجائي العباسي كما سنرى. (4)

ولما كان حديث أبي حيان في كتابه يتناول وزيرين كبيرين في سلوكهما وحياتهما الخاصة والعامة، فمن الطبيعي أن يمتد كلامه الى بعض قواعد السلوك وآداب المعاملة بين الكبار أنفسهم، أو بينهم وبين من هم دونهم رتبة وشأنا. وكل ذلك يعني في بعض وجوهه عرض نماذج من الحياة الاجتماعية للطبقات الغنية في المجتمع العباسي في عصر التوحيدي، ولهذا كان يعلق أحيانا على بعض حكاياته بمثل قوله: "أفهذا من المروءة والفضيلة وأدب الرئاسة وآيين الوزارة" (5).

ومن ذلك ما يرويه عن شيخه أبي حامد المروروذي عن أسلوب مخاطبة الوزراء والكبار، بعد أن استنكر تشدد ابن عباد في ذلك والزامه الناس بالمبالغة في تقديره ورفع شأنه فقال: "وجرى يوما حديث المخاطبات عند القاضي أبي حامد المروروذي (6) والترتيب فيها، وامتعاض الناس من التصارف الجاري بين أهلها، فقال: سبب هذا كله احساس الناس بنقصهم القائم بهم، الراكد عليهم، النابت فيهم، وطلب دفع ذلك بالترتيب، ونفيه بالخطاب. وليس الطريق الى ذلك هذا، بل الطريق اليه الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والكرم والدين والمروءة. انظر الى السلف الصالح

---

(1) كرسالة أبي راغب المتنبي الى الصاحب في ص 151، ورسالتين متبادلتين بين قاضي أصفهان ووالد أبي الفضل ابن العميد في تبرئه من ابنه في ص 353 – 360 من (أخلاق الوزيرين).

(2) أخلاق الوزيرين ص 235 فما بعدها، وسيأتي تحليل هذه الرسالة في الفصل الثاني الباب الثالث.

(3) أنظر (أخلاق الوزيرين) ص 119، 141، 196، 298 – 301 وغيرها.

(4) في الفصلين الثاني والثالث من الباب الثالث.

(5) أخلاق الوزيرين ص 188.

(6) انظر ما سبق في ص 48–49 من هذا البحث.

كيف كانوا ؟ هل خاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بيارسول الله ؟؟ وبعد فهل يخاطب ربنا الا بالتاء والا بالكاف؟..."(1) ،ومثل ذلك ما يرويه عن بعض معاصريه عن سوء أخلاق المثقين والشباب في عصره ،ومنه قوله:"جميع ما يتقلب الناس فيه من هذه الأمور الفاسدة والأحوال الرديئة يرجع الى أصول أربعة وهي: الحماقة والرقاعة والرعونة والجنون. فأما الحماقة فما عليه الكتاب من المخاطبات المختلفة التي ليس فيها حقيقة ولا ترجع الى صحة،لا من جهة الديانة ولا من جهة رسم الأولين السادة..."(2).

والأمثلة متعددة في الكتاب عن تصوير أبي حيان للحياة الاجتماعية في القرن الرابع،وغالبا ما يكون ذلك من خلال عرضه لما يعيبه من أخلاق صاحبيه ،ويمثل هذا التصوير جانبا مهما من موضوعات (أخلاق الوزيرين) .

تلك أهم الجوانب التي تمثل مادة الكتاب،والتي تناولها أبو حيان بالحديث والشرح والتصوير ،والمعنى الأساسي الذي يربطها جميعا هو الذم والهجاء ، لأن المؤلف ساقها في معرض كشفه عن مساوئ الوزيرين ابن عباد وابن العميد ، وليست هي الهدف من كتابه في واقع الحال،ولذلك وصفه غير واحد بأنه هجاء ظالم غير منصف كما رأينا(3) ،فما مدى صحة هذه التهمة ؟ وما أثرها في سمعته ومصير كتابه ؟

+xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx+

أبو حيان والهجاء :

اذا عدنا الى مواقف المؤلفين القدماء من أبي حيان(4) والى تلك الصورة العامة التي قدمها لنا ياقوت خاصة عن الرجل من خلال كتبه وآثاره التي وقف على الكثير منها،وجدنا فيها أول حكم عليه يستحق النظر والاعتبار بأنه مغرم بالثلب والهجاء والطعن في أعراض الناس واظهار مساوئهم،سواء كانوا أصدقاءه أم أعداءه،وسواء أحسنوا اليه أم أساءوا،حتى كاد يتخذ ذلك حرفته ووجهته في الحياة ،فقد قال فيه ياقوت: انه " سخيف اللسان،قليل الرضا عند الاساءة اليه

(1) أخلاق الوزيرين ص 289.
(2) المصدر نفسه ص 291.
(3) انظر ما سبق في ص 99.
(4) انظر ما سبق في ص 39 فما بعدها في الفصل السابق.

والاحسان، الذم شأنه، و الثلب دكانه . . ."(1) ،وقال :"وكان أبوحيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام "(2) .

ويبدو أن كتاب (أخلاق الوزيرين) ،وقد وقف عليه ياقوت و نقل منه الكثير كما سبق القول(3) ،مسؤول الى حد كبير عن نعت أبي حيان بمثل هذه الأوصاف الى جانب ما أورده في (الامتاع و المؤانسة) وكتبه الأخرى من تراجم مختصرة و صفات خلقية متعددة للعلماء و الكتاب و الوزراء المعاصرين له(4) ،وكان من بينهم من لهم عليه اليد الطولى و الفضل الكبير،وتجمعه وإياهم حرمة العلم و الصداقة،ومن ذلك ما وصف به أحد كتاب الدواوين في عصره فقال :"وأما ابن مكيخا فرجل نصراني أرعن خسيس،ما جاء يوما بخير قط،لا في رأي ولا في عمل،وأصحابنا يلقبونه بقا،وهو منهمك بين اللذات،همه أن يتحسى دن الشراب في نفس أو نفسين، ثم يسقط كالجذع اليابس،لا لسان ولا انسان"(5) ،وقوله في أبي علي الفارسي (6) : "وأبو علي يشرب ويتخالع،ويفارق هدي أهل العلم،وطريقة الربانيين،وعادة المتنسكين "(7) ،وقوله في صديقه أبي الوفاء المهندس الذي قدمه للوزير ابن سعدان،وشهد على يديه أزهى فترات عصره:"والله ما أدري ما أقول،ان شكرتك على ظاهرك الصحيح لذعتك لباطنك السقيم،وان حمدتك على أولك الجميل أفسدت لآخرك الذي ليس بجميل . . ."(8) .

فهذه الأقوال وأمثالها هي التي حملت ياقوتا على اطلاق حكمه السابق على أبي حيان. واستند في ذلك أيضا الى نص مهم جدا نقله من كتاب المحاضرات للتوحيدي ،وفيه يعترف أبو حيان صراحة باهتمامه بالهجاء و انشغاله بالثلب و الذم، وهو قوله :"كنت بحضرة أبي سعيد السيرافي ،فوجدت بخطه على ظهر كتاب(اللمع في شواذ التفسير) ،وكان بين يديه،فأخذته و نظرت،قال : ذم أعرابي رجلا فقال: ليس له أول يحمل عليه ولا آخر يرجع اليه،ولا عقل يزكو به عاقل لديه وأنشد :

---

(1) معجم الأدباء 15/ 5-6.
(2) المصدر نفسه 6/ 187.
(3) انظر ما سبق في ص 39-40 من هذا البحث.
(4) انظر (الامتاع والمؤانسة) 1/ 33-37، 43-49، 66-69، 132 - 142 حيث يصف بعض فلاسفة عصره وكتابه ووزرائه وعلمائه،و (الصداقة والصديق) ص 77-84 حيث يصف ندماء الوزير ابن سعدان.
(5) الامتاع و المؤانسة 1/ 44-45.
(6) انظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص 24-27.
(7) الامتاع و المؤانسة 1/ 132
(8) المصدر نفسه 3/ 230،وانظر ما سبق في ص 61-65 في الفصل السابق.

حسبتك انسانا على غير خبرة فكشفت عن كلب أكب على عظم

لحى الله رأيا قاد نحوك همتي فأعقبني طول المقام على الذم

فقال لي :يا أبا حيان ما الذي كنت تكتب؟قلت : الحكاية التي على ظهر هذا الكتاب فأخذها وتأملها ،وقال :تأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس. فقلت:أدام الله الامتاع بك ،شغل كل نساس(1) بما هو مبتلى به مدفوع اليه"(2) .

ذلك اذا هو المصدر الأول الذي انطلقت منه تهمة الهجاء والثلب ضد أبي حيان ،وتلك أسبابها وأصولها في كتبه وأقواله. ولما جاء الباحثون المحدثون ووقفوا على تلك الصورة التي قدمها ياقوت عن الرجل ،استعاروا منه ذلك الحكم وأخذوا به وأشاعوه على نطاق واسع. فقال آدم متز وهو يتحدث عن الصاحب ابن عباد :غير أنه كان من عدم توفيق الصاحب أنه أغضب التوحيدي فأثار على نفسه الذم من أقذع الألسنة في عصره"(3) . وقال الدكتور زكي مبارك: ان أبا حيان يعتبر من "بين الكتاب أهجى وأفحش من ابن الرومي بين الشعراء"(4) ،ومثل ذلك قال عبد الرزاق محيي الدين(5) وغيره. ولا نستثني في ذلك الا الدكتور زكريا ابراهيم،فهو وحده الذي حاول تبرئة أبي حيان من هذه التهمة والتماس المعذر له فيما فعل من هجاء الوزيرين ابن العميد وابن عباد(6) . على أن من الدارسين المحدثين من نظر الى المسألة من زاوية اهتمام أبي حيان باصلاح مجتمعه ورغبته في التغيير،وعدم رضاه على رجال الحكم والسياسة في عصره(7) .

والانصاف يقتضي اعادة النظر في مصدر هذه التهمة ،وفي أحكام التوحيدي على شخصيات عصره وعلى نفسه،وما تبع ذلك من الحكم عليه بالقدح في الأعراض والشغف بذكر المعايب .

---

(1) الكلمة هكذا في النص ولعلها "انسان"

(2) معجم الأدباء 15/ 8-9 ،والخبر مختصرا في (البصائر والذخائر) 2/ 95-96 دون ذكر أبي سعيد السيرافي .

(3) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 180

(4) النثر الفني في القرن الرابع 2/ 137.

(5) أبوحيان التوحيدي : سيرته وآثاره ص 48-49،وانظر (أبوحيان التوحيدي في كتاب المقابسات) للدكتور عبد الأمير الأعسم ص 65.

(6) أبوحيان التوحيدي ... ص 67-70.

(7) انظر (التفكير السياسي في أدب التوحيدي) ،مجلة الفكر التونسية ،برايسر سنة 1975 ص 38 فما بعدها .

وعند الرجوع الى أوصافه لمعاصريه نجده في معظمها ، يمزج بين المحاسن والمساوئ ولا يقتصر على هذه أو تلك وحدها ، حتى في أشد حالاته اعجابا وانفعالا ، أو غضبا وكرها لا يتورع عن الطعن في سلوك من يحترمه ويقدره ، كما لا يبخل على عدوه وغريمه ببعض الثناء والتقدير . أما الحالات التي يكتفي فيها بالمدح وحده ، أو بالذم وحده ، فهي حالات خاصة لها أسبابها ودوافعها المعتبرة المعقولة .

فهو مثلا يصف أبا بكر القومسي في عرض حديثه عن فلاسفة عصره فيقول :" وأما القومسي أبو بكر ، فهو رجل حسن البلاغة ، حلو الكناية . كثير الفقر العجيبة ، جماعة للكتب الغريبة ، محمود العناية في التصحيح والاصلاح والقراءة ، كثير التردد في الدراسة ، الا أنه غير نصيح في الحكمة ، لأن قريحته ترابية ، وفكرته سحابية ، فهو كالمقلد بين المحققين والتابع للمتقدمين مع حب للدنيا شديد وحسد لأهل الفضل عتيد " (1) . ويصف صديقه مسكويه الذي قدم اليه أسئلته الهوامل ، على لسان الوزير ابن سعدان بزعمه فيقول : "فأما مسكويه فانه يسترد بدمامة خلقه ما يتكلفه من تهذيب خلقه ، وأكره له المشاغبة في كل ما يجري ، لا يجد في نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مضاءه في فن هو فيه طويل الذيل ، مديد السيل ، لا يأذن له في تعاطي فن آخر ، هو فيه قصير الباع ، بليد الطباع ، وصاحب هذا المذهب مكروب ، مصاب بجيد رأيه " (2) . وهكذا نجد أبا حيان يضع شخصياته التي يصفها ويقوم سلوكها وأخلاقها في ميزان عدل يتراوح بين الحسن المطلق والقبح المطلق (3) لأن أخلاق الانسان ، كما يعتقد أبو حيان لا تخرج عن هذين الحدين ، ولا تخلو مهما علت وصفت من بعض الشر ، كما لا تتجرد مهما سفلت وكدرت من بعض الخير (4) . وذلك كله أهمله ياقوت في حكمه السابق .

وأما حين يتجاوز الرجل حدود العدالة والانصاف ويهجو صراحة ويهاجم عدوه دون تستر أو تردد ، كما فعل في (أخلاق الوزيرين) ، فانه

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1 / 34 - 35 .
(2) الصداقة والصديق ص 80 - 81
(3) ، انظر ما سبق في هذا الفصل ص 92-93 .
(4) سنعود بحول الله الى تفصيل هذا المعنى بعد قليل في حد يثنا عن مذهب أبي حيان الخلقي من خلال كتابه أخلاق الوزيرين .

ينص على ذلك ، ويصرح به بمثل قوله : " على أني حفظك الله ، لا أبرئ نفسي في هذا الكتاب الطويل العريض من دبيب الهوى وتسويل النفس ، ومكايد الشيطان وغريب ما يعرض للانسان " (1) .

أما النص المنقول من كتاب المحاضرات فلنا عليه بعض الملاحظات التي تشير الى أسباب اعتراف أبي حيان بالهجاء فيه ، وتضعه في مكانه الحقيقي من سياق تفكيره في الهجاء واهتمامه بمساوئ " الوزيرين ، ولا بد من تأملها واعتبارها وفهم النص على ضوئها ، حتى لا يؤخذ على ظاهره ، ويترتب عليه حكم مبالغ فيه .

فأبو سعيد السيرافي عاب على تلميذه أبي حيان ، كما ورد في النص ، كتابة خبر يتضمن معنى الهجو والذم . وهذا شيء قام به أبو سعيد نفسه ، فقد كان الخبر مكتوبا بخطه على ظهر كتاب اللمع في شواذ التفسير ، فلا شك أن استنكار أبي سعيد كان لشيء آخر غير مجرد نقل خبر في موضوع الهجاء ما دام هو نفسه قام بروايته وتدوينه ، والغالب أنه يشير بذلك الى هجاء أبي حيان للوزيرين ورغبته في نشر مساوئهما ومعايبهما ، لما شاهده مهتما بجمع أخبار الهجاء والهجائيين ومعاني الهجاء ، بقصد الاستعانة بها في تأليف كتابه ، وهو شيء كلف أبا حيان مجهودا شاقا كما رأينا (2) . فقد كان أبو سعيد على علم بعناية التوحيدي بمساوئ " الوزيرين ورغبته في هجائهما على الرغم من أنه توفي سنة (368هـ) قبل عودة أبي حيان من رحلته الثانية الى الري وقبل عزمه النهائي على ثلب الرجلين ، وتدوين مساوئهما سنة (370 هـ) (3) . والدليل على ذلك أن أبا حيان ، كما يؤكد في الكتاب عرض بعض ما لحقه من ابن عباد على شيخه أبي سعيد بعد زيارته الاولى لمدينة الري ، وقد أتيح له أثناء مشاهدته والتعرف عليه وحضور مجلسه (4) فقد روى عن بعضهم أن الصاحب كان يفتخر بدخوله بغداد والتقائه بأبي سعيد السيرافي وغيره من علمائها الكبار ، ثم علق على هذا الخبر بقوله : " وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال : سبحان الله ! وسكت استعظاما لهذا الحديث ونفيا له ، وهو كما أومأ اليه " (5) . ومن ذلك كله يبدو أن التوجيه المقبول لاعتراف أبي حيان باشتغاله

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 549 .
(2) انظر ما سبق في هذا الفصل ص 95–96 .
(3) انظر ما سبق في الفصل الأول ص 59–61 .
(4) انظر ما سبق في الفصل الاول ص 55–56 .
(5) أخلاق الوزيرين ص 164

بالذم والثلب أمام شيخه أبي سعيد السيرافي انما يقصد به هجاءه للوزيرين وروايته للأخبار والأشعار المؤيدة له فيما ينويه من تدوين مساوئهما بعد فشله في رحلته الأولى لمدينة الري . والدلائل على هذا التوجيه متوفرة .

أولها أن النص الذي دار حوله الحوار بين أبي حيان وأبي سعيد وهو قوله : "ذم أعرابي رجلا فقال : ليس له أول يحمل عليه ولا آخر يرجع اليه ، ولا عقل يزكو به عاقل لديه ، وأنشد :

حسبتك انسانا على غير خبرة ... فكشفت عن كلب أكب على عظم
لحى الله رأيا قاد نحوك همتي ... فأعقبني طول المقام على الندم "(1)

يلخص في حقيقته ومغزاه رأي أبي حيان في ابن العميد أبي الفضل وموقفه منه بعد فشله في الفوز بحظوته والنيل من بره ، فقد وصفه في الكتاب بالمكر والدهاء ووضاعة الأصل وادعاء العقل والتفلسف واختيار البخل واللؤم سنة ومنهاجا (2) ، وتلك هي الأوصاف نفسها التي وردت في النص ، والبيتان يشيران من جهة أخرى الى رحلة أبي حيان الى ابن العميد في الري والى ندمه وخيبة أمله فيه . فقد نقل النص اذا لأنه يعبر عن حاله مع أبي الفضل بن العميد ، كما نقل غيره من الأخبار والأشعار المشابهة ومن أخبار أبي الفضل التي تصور مثالبه ، وكان أبو سعيد يعرف ذلك كما قلنا فعاب عليه اشتغاله بالذم والهجاء فلم يجد أبو حيان الا الاعتذار عما بلي به .

وثانيها أن أبا حيان أجاب أستاذه عندما أخذ عليه اشتغاله بالقدح والثلب فقال له : "شغل كل ناس (أو انسان) بما هو مبتلى به مدفوع اليه "(3) وهو جواب ينسجم تمام الانسجام مع حقيقة موقفه من الوزيرين ، ونتيجة علاقته بهما ، اذ لم يختر هجاءهما ولا كان حريصا عليه ، وانما دفع اليه دفعا ، واضطر اليه اضطرارا ، بعد فشله معهما الذي كاد يكلفه حياته ، وقد غير وجهته ، وحتم عليه بالنفي والاختفاء (4) ولذلك قال وهو يتحدث عن مساءته مع الصاحب بعد أن تأكد عزمه على الانتقام منه " ولكني ابتليت به وكذلك هو ابتلي بي "(5) وهي عبارة تؤدي المعنى السابق نفسه الذي اعتذر به لشيخه أبي سعيد ، وقد اعتذر بها هنا لقراء كتابه عامة .

وثالثها أنه أشار في مقدمة كتابه الى أن بعض شيوخه نهاه عن تأليفه وعن التعرض للوزيرين بسوء ، فقال : "وكنت هممت ببعض هذا منذ زمان فكبح عنانى

---

(1) انظر ما سبق في هذا الفصل ص 107-108 .

(2) انظر أخلاق الوزيرين ص 321 - 328 و 360 - 361 ، وسنعود ان شاء الله الى صورة ابن العميد في كتاب أخلاق الوزيرين في الفصل الثالث من الباب الثاني .

(3) انظر النص كاملا في ص 107-108

(4) انظر ما سبق في الفصل الأول ص 107-108 .

(5) أخلاق الوزيرين ص 86 .

عن ذلك بمض أشيا غنيا وقصر ارادتي دونه ... »(1) . وأغلب الظن أنه يشير هنا الى هذه الحادثة التي نقلها ياقوت من كتابه المحاضرات . ويؤيد ذلك كونه ، كما قال ، قد هم بجمع بعض أخبار الوزيرين وتدوينه لا غير ، وأن ذلك كان منذ زمان قد يمر عن زمن تأليف الكتاب فضلا (2) ، وذلك ما ينسجم مع النص والزمن الذي ينتسب اليه .

وربما أنه لم يثبت أن أبا حيان هجا أحدا هجاء مرا قبيحا مميسا سوى الوزيرين ابن عباد وابن العميد وبعض المرتبطين بهما ، حتى يصدق عليه قول ياقوت انه سخيف اللسان مجبول على الطعن في الأعراض وإشاعة المثالب ، وحتى يقال انه اشتهر بهذه الصفة بين شيوخه ومعاصريه ، ولذلك نهاه شيخه أبو سعيد عنها فلم يجد ما يعتذر به الا الاعتراف الصريح بأنه اتخذ الهجاء وسيلة للكسب والعيش . فكل ذلك لا تدل عليه آثاره وأخباره التي وصلت الينا ، وانما الذي يفيد الهجاء بالمعنى الذي شاع عن الرجل ، هو ما كتبه عن الوزيرين وعن بعض أنصارهما وأتباعهما ، وما سوى ذلك فهو رأيه في عصره ومعاصريه ، ولا رغبة مادية يرجوها من ورائه .

وكل هذه الدلائل تفيد أن النص السابق المنقول من كتاب المحاضرات للتوحيدي يرتبط باهتمامه بالوزيرين وبأخبار الهجاء والهجائيين ومما نسي هذا الفن الذي كان في حاجة اليها عند ما كان يجمع مادة كتابه (أخلاق الوزيرين) ، ويرد موضوعاته في نفسه قبل أن يستقر عزمه على كتابته واظهاره ، وهو شيء استمر مدة طويلة أتيح له خلالها أن يجمع مادة كثيرة اشتكى هو نفسه من طولها وتشعب فنونها (3) .

ولذلك غفل على ما يبدو عن ايراد النص ضمن الكتاب الذي جمع من أجله ولم يتمكن من ايراده فيه ، فأورده في كتاب (محاضرات العلماء) (4) ومنا ظراتهم لا رتباطه أيضا بموضوعه اذ أنه قول من أقوال أحد شيوخه الذين حشد أخبارهم فيه ، كما أورده في كتاب (البصائر والذخائر) مجردا من الحوار بينه وبين أبي سعيد السيرافي (5)

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 38 .

(2) انظر ما سبق في هذا الفصل ص 86–87.

(3) أخلاق الوزيرين ص 70 و 549 انظر ما سبق في هذا الفصل ص 86–87.

(4) كذلك سماه ياقوت في معجم الأدباء 8/ 152 .

(5) البصائر والذخائر 2/ 95 – 96 ، وقد قال أبو حيان عن بعض أخبار الصداقة والصديق (ص84) " رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكانا منذ زمان فلم أجد الا هذه الرسالة الآتية على أخبار الصداقة والصديق " وهذا دليل على وفرة محصوله من الأخبار وعدم تمكنه من ايرادها في أماكنها المناسبة لها دائما .

ذلك هو الاطار الذي ينبغي لنا أن نفهم النص من خلاله، ولا يجوز لنا أن نأخذه على عموميته واطلاقه. فأبو حيان لم يكن "الذم شأنه والثلب دكانه" في جميع الأحوال والظروف، ولم يكن الهجاء اختياره ومهنته في علاقاته مع معاصريه فهو قد مدح منهم من يستحق المدح في نظره كعضد الدولة وابن سعدان وأبي الوفاء المهندس وأبي الفتح ابن العميد وغيرهم. وأثنى على الفضلاء وذوي الأخلاق الحسنة من بينهم حسب تمييزه ومقاييسه، كعدد من شيوخه وأساتذته مثل أبي حامد المروروذي وأبي سعيد السيرافي وأبي سليمان المنطقي وغيرهم. وانما الذي أوقعه في كشف مثالب الوزيرين واختصاصهما بسوء النية وتعمد الاساءة فهو تجربته معهما وفشله في كنفهما. ثم كان كتابه عنهما، بعد وفاته، سببا أصيلا وحجة قوية في يد الوراقين وفئات المثقفين في الصاق تهمة ثلب الناس به، بمثل الدرجة والقوة التي التصق بهما تصويره العابث، وسخره وتهكمه بابن عباد وابن العميد.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد وحده، وانما تجاوزه الى الطعن في شخصيته وعقيدته والى اتخاذ موقف خاص من كتابه (أخلاق الوزيرين) خلال التاريخ. فقد أشرنا في ترجمته الى تغيير اتجاه حياته (1) بسبب علاقته بالوزيرين ونتائجها التي حملته على الانحياز لابن سعدان والانضمام لحاشيته وأنصاره، واعلان العداوة لابن عباد واشاعة مساوئه، وكل ذلك كان كتاب (أخلاق الوزيرين) شاهدا عليه ومسجلا لكثير من أسبابه وآثاره وأصدائه في نفسه التي صاحبت تطور أزمته وتضخمها، وكان أبو حيان يدرك تمام الادراك ما ينتظره من سوء الثناء ومن ضروب الطعن والتشويه، وما ينتظر كتبه من المحاربة والارصاد، والى ذلك يشير بقوله: " وقال لي بعض أصحابنا حين وقف على جراءة هذا الكلام: قد كشفت لنا ثغتين كبيرتين، وحملتهما على عداوتك والارصاد لك، يعني المتكلمين والمتفلسفين، فان هذه لا تصبر لك على ثلبك ابن عباد، وهذه لا تسكت عنك في نيلك من ابن العميد ..."(2). وكأنه بذلك يطرق باب الغيب، ويتنبأ بما قام بصدد وفاته حول عقيدته وكتابه أخلاق الوزيرين من جدال ونقاش مغرض من جنس ما صنع هو نفسه في حق الوزيرين.

وربما كان ابن فارس (3)، حسب ما وصلنا من النصوص، أول من أثار كل ذلك في قوله المشهور الذي نقله غير واحد (4) من كتاب الفريدة والخريدة، وهو: "كان

---

(1) انظر الفصل الأول ص 63 فما بعدها.

(2) أخلاق الوزيرين ص 471، وانظر خطابه للقاري في آخر الكتاب ص 547 – 550.

(3) تقدمت ترجمته في ص 25.

(4) نقله الذهبي وصاحب طبقات الشافعية (5/286) وصاحب لسان الميزان (7/38) بألفاظ مغايرة.

كان أبو حيان كذابا قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، تمرّس بأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل. ولقد وقف سيدنا الصاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدغله ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقتله. فهرب والتجأ الى أعدائه، ونفق عليهم بزخرفه وافكه. ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته، وما يبطنه من الالحاد ويرومه في الاسلام من الفساد، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح، ويضيفه الى السلف الصالح من الفضائح. فطلبه الوزير المهلبي فاستتر منه ومات في الاستتار، وأراح الله منه، ولم يؤثر عنه الامثلبة أو مخزية "[1]. وهو نص محير حقا، يثير عدة ملاحظات ومعاني لابد من الكشف عنها والوقوف عندها عسى أن يتبين لنا صحيحه من زائفه. فهو من جهة، يرمز الى بعض الأحداث في حياة أبي حيان كعلاقته بالصاحب ابن عباد، وهربه منه خوف القتل، والتجائه الى بغداد لفترة من الزمن، ثم نزوحه عنها الى مكان مجهول، زيادة على ماتناول به أعلام الصحابة في رسالة السقيفة وأسنده اليهم من أقوال جريئة أثارت عليه أعداء غير منتظرين[2]. فكل ذلك يشير اليه النص من خلال رغبة الطعن والتشويه التي توجهه.

وهو، من جهة ثانية، حملة مغرضة على الرجل، طعنت في دينه وسلوكه وأخلاقه، ونسبت اليه ماهو منه بريء "من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل" والالحاد وكلها أمور تدل الشواهد الكثيرة من كتبه وأقواله على سلامته منها[3]، كما أدرك ذلك بعض المترجمين له كما سنرى بعد قليل. وهي حملة يربطها النص ربطا وثيقا بقصة أبي حيان مع ابن عباد، وتطور الخصام بينهما، ويربطها أيضا بكتابه (أخلاق الوزيرين) الذي كان، على مايبدو، السبب المباشر في تدبير هذه الحملة[4]. فأبو حيان "كذاب قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان". وهذا أقل ما يمكن أن يوصف به ما ورد في الكتاب عن الوزيرين أنصارهما وأعوانهما، والصاحب ابن عباد كان أول من وقف، حسب النص، على بعض أوصاف أبي حيان ونواياه الخبيثة "فطلبه ليقتله". ولما أراح الله منه " لم يؤثر عنه الا مثلبة أو مخزية". وكل هذه دلائل تربط النص بالكتاب وبموضوعه، وتجعل منه ومن الصاحب مسؤولين قبل غيرهما عن هذه الحملة المغرضة.

وهذا النص منسوب لابن فارس في (طبقات الشافعية) حيث قدم له المؤلف السبكي بقوله في الذهبي الذي جرح عقيدة أبي حيان: "ثم نقل قول ابن فارس في كتاب

---

(1) طبقات الشافعية 5/ 286.

(2) انظر ماورد في لسان الميزان 7/ 38.

(3) انظر تحليلا مفصلا لعقيدة أبي حيان في كتاب "أبو حيان التوحيدي" ... لعبد الرزاق محيي الدين ص71 فمابعدها، وانظر أبو حيان التوحيدي لابراهيم الكيلاني ص 53، و أبو حيان التوحيدي للدكتور أحمد الحوفي ص 174-177.

(4) رمز الدكتور عبد الرزاق محيي الدين في كتابه أبو حيان التوحيدي. ص64 الى هذا المعنى في سياق مغاير، ومعلوم أنه لم يطلع على كتاب أخلاق الوزيرين وانما اطلع على مانقله منه ياقوت.

الفريدة والخريدة "(1) ولكن صاحب لسان الميزان قدم للجزء الذي نقله منه بقوله: "قال ابن مالي في كتاب الفريدة "(2)، فنسبه لشخص آخر غير ابن فارس هو ابن مالي. وكتاب الفريدة والخريدة ليس مذكورا بين مؤلفات أبي الحسين أحمد بن فارس الرازي اللغوي المشهور(3) إلا أن يكون من كتبه المفقودة. ومن المؤسف أن النصين مما لا يضيفان أي نسب أو كنية لكلمتي ابن فارس وابن مالي، ولا أي شيء يوضح شخصيتهما وعصرهما. وحين نرجع لمؤلفات أبي حيان الموجودة لا نجد فيها ذكرا لابن مالي. أما ابن فارس فيبدو من خلالها أن التوحيدي قد احتك بشخصين مختلفين يحملان الاسم نفسه، أحدهما هو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي اللغوي المتوفى سنة (391هـ)، ولا يكن له أبو حيان الا الاحترام والتقدير (4)، وهو أحد الذين روى عنهم بعض مثالب ابن عباد (5)، ولذلك يستبعد أن يكون صاحب النص السابق في الطعن على أبي حيان. وثانيهما هو أبو الفتح ابن فارس الذي زاره أبو حيان بقرميسين، ولم يفز من جهته بطائل. فنال منه نيلا قبيحا أمام الوزير ابن سعدان عندما سأله عنه، ويظهر من حديثه عنه أنهما يتبادلان عداوة لم يفصح عن كنهها. (6) ولكن لا شيء يؤكد أنه صاحب النص المذكور في الارشاد لأبي حيان.

ولذلك كله يبدو ذلك النص مزورا موضوعا، وهو ينطوي على خطأ تاريخي جسيم يطعن فيه، ويشهد بأن واضعه قليل الحظ من الاطلاع على أحداث القرن الرابع. وذلك أنه يقرر أن التوحيدي هرب من الصاحب أولا، ثم طلبه الوزير المهلبي من بعده فاستتر منه. ونحن نعلم أن هذا الأخير توفي سنة (352هـ) (7) قبل بزوغ الصاحب واشتهار أمره بعدة سنوات. وهذا شيء لا يستقيم الا اذا افترضنا أن هناك خطأ في تحقيق النص أو في كتابة بعض أسماء الأعلام الواردة فيه (8).

وكيفما كان الحال فان هذه الطعون والشكوك الموجهة الى النص لا أثر لها في الحقائق التي استنبطناها منه، فهو يثبتها ويؤكدها برغم ضعفه واضطرابه كما قلنا.

---

(1) طبقات الشافعية 5/ 286.
(2) لسان الميزان 7/ 38.
(3) انظر نزهة الألباء ص 320، وبغية الوعاة 1/ 352 وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان 2/ 265 و(أبو حيان التوحيدي) لعبد الرزاق محيي الدين ص 60.
(4) أخلاق الوزيرين ص 387 و 452 و 510.
(5) المصدر نفسه ص 319–320.
(6) الامتاع والمؤانسة 3/ 205– 207 و 227.
(7) تكملة تاريخ الطبري 1/ 184، وانظر ترجمته في المقدمة التاريخية ص 11.
(8) أشار الى هذا المعنى الدكتور احسان عباس. انظر (أبو حيان التوحيدي) من تأليفه ص 99 و 101.

وكل ذلك لا ينفي انتساب النص الى عصر التوحيدي ،أو الى مابعد عصره بقليل .
ثم جاء ابن الجوزي في القرن السادس ليؤكد زندقة أبي حيان بقوله:"زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي [1] وأبوحيان وأبو العلاء . . . وأشدهم على الاسلام أبوحيان لأنه مجمج ولم يصرح"[2] ، وتبعه الحافظ الذهبي (ـ748هـ) في تكرار الاتهام نفسه فقال:" وكان عدو الله خبيثا"[3] ،ثم جاء من بعدهما ابن حجر العسقلاني [4] (ـ852هـ) ليتأثر ،كالذهبي ، بقول ابن فارس فقال :" نفاه المهلبي لسوء عقيدته" الى أن قال:" وكان صاحب زندقة وانحلال"[5]. أما السيوطي (ـ 911هـ) فقد جمع في البغية[6] نتفا مما قيل قبله عن زندقة أبي حيان وتدينه.

وبذلك نكون أمام سلسلة متصلة من الأقوال المتهمة للتوحيدي بالالحاد والزندقة ،كان يوازيها سلسلة أخرى من الأقوال المبرئة له تشهد له بصحة العقيدة والايمان. وأهمها قول ياقوت:" وكان يتأله والناس على ثقة من دينه"[7]،وقول السبكي مدافعا عنه:" ولم يثبت عندي الى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقيعة فيه . ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه الا ما يدل على أنه كان قوي النفس مزدريا بأهل عصره. ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل. وسئل الشيخ الامام الوالد رحمه الله فأجاب بقريب مما أقول"[8] .

وكل ذلك دليل على ما تعرض له أبوحيان في شخصيته وعقيدته وأخلاقه من سوء الذكر والطعن والتجريح ،وذلك يرجع الى سبب أساسي كما رأينا ، هو موقفه من الوزيرين ابن عباد وابن العميد ،واشتهاره بالثلب والهجاء بسببهما ، وما جره عليه كتابه عنهما من محاربة وتشويه ،ثم كان تصوفه وآراؤه الخاصة في الفلسفة والاجتماع سندا قويا في يد أعدائه.

أما كتابه (أخلاق الوزيرين) فقد ادعى عليه قوم أنه يجلب النحس والشؤم على من يقتنيه[9] ،وأنه ،كصاحبه ، فارغ من كل خير وفائدة. وليس من السهل في الـ الواقع التأكد من مصدر هذه الشائعة وسببها ،ولا التثبت مما اذا كانت دالة على

---

(1) تقدمت ترجمته في ص 71 حاشية رقم 1.
(2) طبقات الشافعية 5/ 287،وانظر المنتظم 8/ 184.
(3) المصدر نفسه 5/ 287.
(4) لسان الميزان 7/ 38.
(5) نفسه 7 / 38.
(6) بغية الوعاة 1/ 191.
(7) معجم الأدباء 15/ 5.
(8) طبقات الشافعية 5/ 288.
(9) وفيات الأعيان 5/ 112.

سيرورة الكتاب وشهرته،أم على تجنبه واطراحه، ولكن يمكن الاستئناس بقول ابن فارس السابق في اعتبارها مرتبطة بالحملة المدبرة من أنصار الصاحب ضد أبي حيان، ويمكن الاستئناس في ذلك أيضا بكونهما خاصة بكتاب (أخلاق الوزيرين) دون غيره من سائر كتبه. والشيء الذي يمكن تأكيده والوثوق به هو أن الكتاب أصبح معروفا متداولا ينقل منه المؤلفون ويطالعه القراء،وخاصة بعد أن عرف به ياقوت وصاحبه(1).

ذلك ما جناه أبو حيان على نفسه وأدبه وتراثه،بسبب هجائه للوزيرين ابن عباد وابن العميد،وبسبب كتابه (أخلاق الوزيرين) بالذات،غير أننا عندما نعود للمسألة من زاوية فلسفة أبي حيان وتفكيره الخاص نجده ينظر اليها نظرة أخرى، ويضع لها تفسيرا معينا،يعتمد فيه على مقاييس خلقية صارمة.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

مذهبه الخلقي في الكتاب :

أشرنا سابقا الى رغبة أبي حيان الصادقة في تأليف رسالة متوسطة في الأخلاق يصوغ فيها مشاهداته وتجاربه في قالب نظري مخالف لما وجد عليه "كثيرا من الحكماء يطيلون الخوض فيه،ويموّ صون المرام منه بتأليف محرف عن المنهج المألوف"(2)،غير أن ظروف حياته حالت دون تحقيق أمنيته،فلم يترك الا آراء متفرقة في كتبه،ينسبها أحيانا لنفسه وأحيانا أخرى لبعض شيوخه المفضلين، زيادة على تجاربه وملاحظاته المباشرة التي دون بعضها في كتاب(أخلاق الوزيرين).

وبالرغم من أن مبادئه النظرية في الأخلاق لا تختلف كثيرا،كما سنرى،عن آراء شيوخه ونظريات معاصريه من الفلاسفة،الا أن أسئلته في (الهوامل والشوامل) دلت على خصوصية اهتماماته ونظرته الى المسائل الخلقية والنفسية،حتى ليمكن القول انه لو أتيح له أن يؤلف الرسالة التي يشير اليها في النص السابق لكانت متميزة حقا،جامعة لآراء خلقية مبتكرة مفيدة (3).

ولا يهمنا هنا جمع آراء أبي حيان الخلقية ودراستها دراسة تفصيلية فان ذلك لن يقوم به الا دراسة مستقبلة. وبعضها سيرد مفصلا في الباب الثاني من هذا البحث بحول الله عند مناقشة تصوير أبي حيان لشخصيتي الوزيرين . وانما المراد هو

---

(1) نقل منه على سبيل المثال لا الحصر ابن خلكان في وفيات الأعيان 5/ 108،وصاحب الفخري ص47و 267،وابن حجر في لسان الميزان 7/ 40،والعباسي في معاهد التنصيص 2/ 115.

(2) الصداقة والصديق ص 73.

(3) انظر (أبوحيان التوحيدي) لزكريا ابراهيم ص 202-207.

معرفة الاطار النظري العام ، والمبادئ الخلقية الكبرى التي كانت رائدة أبي حيان في محاكمة ابن عباد وابن العميد ، تتميما للفائدة في عرض القضايا الأساسية الضرورية لدراسة كتاب أصر صاحبه على ربطه بالأخلاق في مجالها العملي والتطبيقي .

وأول مايظهر من ذلك أن أبا حيان ، كأغلب شيوخه وفلاسفة عصره ، يربط أخلاق الانسان بنفسه ، ويحافظ مثلهم على تقسيمها الثلاثي الموروث عن فلاسفة اليونان كما يتضح من قوله : " أخلاق الانسان مقسومة على أنفسه الثلاث : أعني النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية ، وجهات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع ... " (1).
وهذه الأنواع الثلاثة مرتبة بحسب أفضليتها ، فالنفس الناطقة هي الشريفة الفاضلة العاقلة المؤثرة على النفسين الأخريين ، لذلك تحتل الدرجة الأولى ، ثم تليها في الأهمية النفس الغضبية فالنفس الشهوية ، وحظهما من العقل والاستنارة من النفس الكلية ضعيف لغلبة الحس والطبيعة عليهما (2).

والنفس الانسانية جوهر خالد ، وهي لذلك لاتفنى ولا تموت " لأنها أشبه بالأمر الالهي من البدن اذ كان يدبر البدن ويرأسه " (3). وليست هي روح الانسان لأن هذه مشتركة بينه وبين الحيوان ، والانسان انسان بنفسه لا بروحه أو ببدنه ، وهي المميزة له عن الجمادات والحيوانات (4). ولهذا كانت مسؤولة عن الارتفاع بالانسان في مدارج الرقي والسعادة والكمال ، بانتقائه منه ، حين تتعلم وتصفو ، من رذائل الجسد وأدران المادة (5) .

ويبدو من أقوال أبي حيان الكثيرة في النفس والأخلاق ، أنه يتبنى ، مثل شيخه أبي سليمان المنطقي ومعظم فلاسفة عصره الذين نقل بعض أقوالهم في كتبه وخاصة كتاب المقابسات ، الفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، هذه الفلسفة المشرقية التي تشطر " العالم شطرين : عالم عقلي متخيل ، وعالم محسوس واقعي . وتعتبر العالم العقلي هو الوجود الحق منه انطلق الانسان بما هو انسان ، واليه يجب أن يعود بالخلاص من ملابسة العالم الطبيعي الواقعي ، عالم الكون والفساد والصيرورة ومصدر الشر والجهل والضرورة " (6) . وهي تجعل الله في أعلى سلم الموجودات ، وهو الفاعل الأول ، وعلة كل شيء ومصدره ، ثم يتبعه العقل الذي يصدر منه ، ويفيض على النفس

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1/ 147 ، وانظر 2/ 113 من المصدر نفسه والمقابسات ص 237 .
(2) انظر الامتاع والمؤانسة 2/ 113 والمقابسات ص 139–140 .
(3) الامتاع والمؤانسة 1/ 199 ، وانظر رسائله ص 80–82 و 98–99 .
(4) المصدر نفسه 2/ 113 .
(5) المقابسات ص 56–57 .
(6) مقدمة المقابسات بقلم محققها محمد توفيق حسين ص 46 .

من تحته ،وفي أسفل السلم تقع الطبيعة والمادة. فالنفس الانسانية تفيض من الله على العقل،ثم تفيض على المادة فتحل في الجسم . ولما كانت من ذلك المعدن الشريف فانها تشتاق اليه،ولا تحقق كمالها الا بالعروج اليه، والانفصال عن المادة،والاتحاد بأصلها الذي نبعت منه(1). ومن أهم صفات الفاعل الأول الوحدة والبساطة،وكلما هبطنا الى أسفل تكثر الأعداد والأجزاء فيحتاج الى التركيب ، ولذلك كان الانسان انسانا بنفسه لا ببدنه " ...لأن الانسان انما هو انسان بحده المنطقي ،فاذا صفا مما كان به كدرا ،وانبسط الى ماكان عنه مركبا ،وانتهى عما كان به محدودا ،وارتقى مما كان به هابطا محطوطا ،وخلع الصورة الملابسة للحس والغشاء الملاصق به من الظاهر،فانه حينئذ يكون الباقي الذي كان مرة انسانا ،لأن الانسان اسم للحد المعروف أعني الحد الناطق المائت،فاذا ارتفع الحد ارتفع الاسم ،وحقت الحقيقة التي كانت النفس موجودة بها حاصلة "(2). والوحدة التي يتصف بها الفاعل الأول "شائعة في جميع (الأشياء) ومحيطة بها كلها ،ومشتملة عليها بأسرها ،فصارت هذه الأشياء بالوحدة تتشاكل وتتكامل ،وبالكثرة تتخالف وتتفاضل ..."(3).

ومن أهم صفات الطبيعة والمادة غلبة الحس والكدر،وسيطرة الغريزة والشهوة والجهل ،والكثرة الدالة على العجز والاحتياج الى الغير . ولذلك هي مصدر الشرور والآثام كما أن العقل والنفس هما مصدر المعرفة والخير ، ولذلك نرى الانسان "بالطبيعة يفزع الى ما هو فساده وهلاكه،وبالعقل يختار ما هو صلاحه وكماله. ولكن اختياره ضعيف فيه لأنه عال عنه في أفق العقل ،الذي هو موجب الواجب ومحسن الحسن،وارادته الطبيعية قوية فيه،لأنها ناشئة منه وكامنة فيه ،ومترددة عليه والنقص أغلب على الجمهور في كل حال وأمر ،وان العجب كل العجب ممن يكمل في دار النقص ،أو يصح في عرصة العلل ،أو يسلم في خطة البلوى ،أو يلذ الصاب والعلقم ويغفل عن غائلتهما وينعم "(4).

ويظهر من تكرار أبي حيان المستمر لمبادئ هذه الفلسفة ومقولاتها أنه مقتنع بها ومتعصب لها ،وأنها تلتقي عنده، وعند أغلب شيوخه وأساتذته الذين أخذها

---

(1) انظر أفلوطين عند العرب ص2 فمابعدها والمقابسات ص 141 و 162،وانظر شرحا مفصلا لمبادئ الأفلاطونية المحدثة واهتمام أبي حيان وفلاسفة المسلمين بها في مقدمة المقابسات بقلم محمد توفيق حسين ص 26 فمابعدها ،وتاريخ الفلسفة الاسلامية لدي بور ترجمة عبد الهادي أبي ريدة ص 43 فمابعدها .

(2) المقابسات ص 151 وانظر رسائله ص 69-90.

(3) المقابسات ص 162 ،وانظر الامتاع والمؤانسة 1/ 147 و 2/ 114.

(4) المقابسات ص 192-193.

عنهم، بعباد ي الديـن والتصـوف(1) اللذيـن يمثـلان مصـدرا مهمـا من مصـادر تفكيره الخلقي . فقـد روى في كتابـه (المقابسـات) أنـه سمـع يومـا شيخـه أبا سليمـان المنطقي يتحـدث بكلام شبيـه بكـلام الصالحيـن المتدينيـن ، فاستغـرب ذلـك ،فقـال أبو سليمـان : " يابني لا تعجب من هـذا فالأنبيـاء والأصفيـاء فمـن دونهـم يذبذبـون(2) حـول خلـوص النفـس في العاجلـة، وخلاصهـا في الآجلـة. والقـول وان اشتبـه ،والعبـارة وان غمضـت،فالمـراد بيّـن ،والمطلـوب متيقـن ،وهـل الحكمـة الا مؤكـدة للديانـة ؟ وهـل الديانـة الا متعـة للحكمـة ؟ وهل الفلسفـة الا صـورة النفـس؟ وهل الديانـة الا سيرة النفـس؟ . وقد كنـت حدثتنـي عن شيخكـم الحصري الصـوفي أنـه قـال : النقـاب كثير(3)، والعروس واحـدة. . ."(4). ومـن هـذا يتضـح أن محظـورات الديـن وأوامـره وطقـوسه المتعـددة،في نظـر أبي سليمـان وتلميـذه أبي حيـان وجماعتـه ، ترمـي في مجملهـا الى تهذيـب النفـس والأخـلاق ،وتخليصهـا من نوازع الشـر والرذيلـة ، والنـزوع بهـا نحـو الفضيلـة والكمـال . فيجـب اذا اتخـاذ الديـن ، وكـذا التصوف النابـع منـه ، أساسـا متينـا من أسـس تهذيـب السلوك الانسانـي ،ومقيـاسـا قـويمـا مـن مقاييـس حسـن الخلـق .

ومـن كل ما تقـدم يتضـح أن الخير والشـر همـا القطبـان الأساسيـان اللذان تدور حولهمـا أخـلاق البشـر وأعمالهـم المختلفـة . والقليلـون منهـم يتجهـون نحـو الأول ويؤثرونه لصفـاء نفوسهـم ،وغلبـة عقولهـم على أهوائهـم، أما الكثيرون فقـد سيطـرت الغرائـز والشهوات والملذات الماديـة العاجلـة على نفوسهـم ، فحجبتهـا عن النهـج السـوي ،وسـدت عنها طـرق السعـادة والكمـال ،فآثـرت الشـر على الخير ،والرذيلـة على الفضيلـة . وذلـك "لأن الشـر طبـاع ،والخير تكلـف ، والطينـة أغلـب . وقد قـال بعـض فتيـان خراسـان : الاحسـان من الانسـان زلـة ،والرحمـة من القـادر أعجوبـة،والظلـم من العـدل مألـوف"(5). وهذا ما يؤكده شيـخ أبي حيـان يحيى بن عدي (ـ364هـ)(6) في قولـه :" فأمـا الأخـلاق المذمومـة فانها موجودة في كثيـر من النـاس كالبخـل والجبـن والظلـم والتشـرر ، فان هذه العـادات غالبـة على أكثـر النـاس ،مالكـة لهـم ،بل قلمـا يوجـد في النـاس من يخلـو من خلـق مكـروه ، ويسلـم من جميـع العيـوب ،ولكنهـم يتفاضلـون في ذلـك ، وكذلـك في الأخـلاق المحمـودة،

(1) ولا يعنـي ذلـك أن الشريعـة والفلسفـة متحدثان في نظره،فلكـل منهمـا طريقتـه وأسلوبه برغـم أن هدفهمـا واحد . انظر الامتاع والمؤانسـة 2/ 6ـ22 ورسائلـه ص 95.

(2) فسرها المحقـق بمعنـى أنهـم يعيدون القول ويرددونـه، وهي في طبعـة السندوبـي ص200 يدندنـون .

(3) العبارة في طبعـة السندوبي ص200 "النقـب كثيرة"

(4) المقابسـات ص 167ـ168.

(5) أخلاق الوزيريـن ص 529 ،وانظر المقابسـات ص193 ،والبصائـر والذخائـر 1/ 460.

(6) تقدمـت ترجمتـه في ص 52 حاشية رقم 1.

قد يختلف الناس ويتفاضلون ،الا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا ،والمبغضون لها كثيرون ،فأما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثر الناس لأن الغالب على طبيعة الانسان الشر.. "(1)،ولذلك لا يخلو الناس في كل زمان ومكان من محاسن ومساوئ. فكل فرد له حظه منها بالقلة والكثرة ، والضعف والقوة " وأحسنهم حالا ،وأسعدهم جدا ،وأبلغهم يمنا ،وأربحهم بضاعة ،من كانت محاسنه غامرة لمساويه ، ومناقبه ظاهرة على مثالبه، ومادحه أكثر من هاجيه "(2).

ومع أن الشر مستقر في قرارة الانسان ، ملتصق بجبلته،مستول على أكثر الناس فليس هناك يأس من مقاومته والتقليل منه والانتصار عليه ، والى ذلك دعا الحكماء والوعاظ والصالحون ،فصنفوا الكتب وجمعوا الأقوال والمواعظ والحكم،ودعوا الى تهذيب النفس والتمسك بالفضائل واجتناب الرذائل ومغالبة الهوى. ولو لم يكونوا متأكدين من قدرة العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق والدين والآداب على تغيير خلق الانسان وفطرته،وعلى الصعود به نحو الرفعة والكمال ، لما جشموا أنفسهم تعب ذلك كله،وسلكوا ذلك المسلك الوعر. وفي هذا المعنى يقول أبو حيان:" وفي الجملة الخلق الحسن مشتق من الخلق ،فكما أنه لا سبيل الى تبديل الخلق،كذلك لا قدرة على تحويل الخلق، لكن الحض على اصلاح الخلق وتهذيب النفس لم يقع من الحكماء بالعبث والتجزيف ، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة ، ومثاله أن الحبشي يتدلك بالماء والغسول لا ليستفيد بياضا ، ولكن ليستفيد نقاء شبيها بالبياض،ويقال للمهذر "اكفف" لا ليكف عن النطق ولكن ليؤثر الصمت"(3)،ولذلك نراه ينقد مجتمعه ويروم اصلاح مما ضربه بطريقته الخاصة.

وعلى الرغم من أن النفس الانسانية جوهر علوي خالد يرتبط بجسد الانسان الى أجل مسمى ، فان أحوال الصحة والمرض تختلف عليها كما تختلف على البدن، وتصيبها أحيانا باعتدال المزاج والاستقامة والصواب في العمل والسلوك ،وأحيانا أخرى بالانحراف والاضطراب النفسي والعقلي الى درجة الحمق والجنون . ولذلك قال أبو حيان:" وأما الصحة والمرض،فليسا أيضا من الأخلاق ،ولكنهما يوجدان في الانسان بواسطة النفس،اما في البدن واما في العقل ، ولذلك يقال: أمراض النفس وأمراض البدن ،وصحة النفس وصحة البدن "(4)،وقال أيضا نقلا عن بعض الحكماء:

---

(1) رسالة(تهذيب الأخلاق) الواردة ضمن رسائل البلغاء ص 485.
(2) أخلاق الوزيرين ص 26،وانظر الامتاع والمؤانسة 1/ 147.
(3) الامتاع والمؤانسة 1/ 148،وانظر رسائله ص73 والمقابسات ص 85-89.
(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 153.

"ان للنفس أمراضا كأمراض البدن ، الا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشر والضرر كفضل النفس على البدن في الخير"(1). وبما أن الكمال المطلق يستحيل بلوغه والوصول اليه كاستحالة وجود الشر المطلق في بني الانسان، فان الاستواء النفسي المطلق كذلك غير موجود كما لا يوجد الانحراف المتناهي، والى ذلك يشير بقوله :" وأما الاعتدال والانحراف ،فهما يدخلان في الخلق بوجه، ويخلصان منه بوجه، ويعمان أعراض البدن وأعراض النفس ،ويوصف بهما الانسان . على أن الانحراف المطلق لا يوجد ،والاعتدال المطلق لا يوجد ،ولكن كلاهما بالاضافة "(2).

تلك أهم المبادئ والأسس النظرية التي تسلح بها أبوحيان في فهم مساوئ الأخلاق في عصره ومجتمعه ومعالجتها ،وعليها اعتمد في نقد شخصيتي الوزيرين وتقويم سلوكهما، ومنها استوحى الفضائل الخلقية التي ينبغي ،في نظره، توجيه الهمة اليها وتربية الأفراد والجماعات على ضوئها ،واتخاذها مقاييس صادقة في معرفة درجات الناس في النقصان والكمال. وقد عرضناها مختصرة موجزة حسبما يتسع له المقام . وعندما أراد أن يلخص مبادئه وفضائله تلك قبل مهاجمة الوزيرين قال :" والعمود الذي عليه المعول ،والغاية التي اليها المؤمل في خصال ثلاث ،هن دعائم العالم ،وأركان الحياة ، وأمهات الفضائل ،وأصول مصالح الخلق في المعاش والمعاد ، وهن :الدين والخلق والعلم ، بهن يعتدل الحال ،وينتهي الى الكمال ، وبهن تملك الأزمة ،وينال أعز ماتسمو اليه الهمة ،وبهن تؤمن الغوائل وتحمد العواقب ..."(3)الى أن قال :" ولم أذكر لك العقل في هذا التفصيل وهو أولهن ،وبه يتم آخرهن، وعليه مجرى جميع ما افتن القول به، لأنه موهبة الله العظمى ،ومنحته الكبرى ، وباب السعادة في الآخرة والأولى ، وكان ما عداه نزعا عليه ومفصوصا اليه ..."(4) ،فهذه فضائل ثلاث ينتظمها العقل في أصولها وفروعها ، وهي أساس المنافسة والتباري بين الناس ،وفيها اجتمع ما انتشر في غيرها من محمود الصفات ومذمومها .

وأما تطبيق هذه المبادئ والآراء فهو الكثير المنتشر في كتب أبي حيان

---

(1) الامتاع والمؤانسة 1/ 63.
(2) المصدر نفسه 1/ 153.
(3) أخلاق الوزيرين ص 27.
(4) المصدر نفسه ص 28.

ومنفاته ، وفي تعرضه لأحوال عصره ومعاصريه بالثناء أو الثلب . ويتجلى ذلك في مثل قوله في الوزيرين :" واعلم ـ حاطك الله ـ أن الكمال عزيز ، فان ما بحسه أبو الفضل بالعقل خسره بالبخل ، وكل ما زاد ابن عباد بالسخاء نقص بالحمق ، على أن العقل لا يكون تاما وهناك خساسة، والسخاء لا يكون محمودا وهناك حماقة ، والبخل في الجملة غالب على المتفلسفين ، كما أن الحماقة غالبة في الجملة على المنشئين "(1) ، وقوله في وصف عصره نقلا عن أحمد خواص ابن عباد :" ياهذا خلت الدنيا من الكرم والكرام ، واصطلح الناس على قلة المباهاة بالفضائل . وكان هذا كله منوطا بالخلافة ، فانقضت أيام الصدر الأول بالدين الخالص، وأيام بني مروان بالرياء والسمعة ، وأيام بني العباس بالمروءات والتوسع في الشهوات ، ولم يبق بعد هذا شيء "(2) ، وسيرد تفصيل ما هو مجمل هنا في الباب الثاني من هذا البحث بحول الله.

(1) اخلاق الوزيرين ص 377، وانظر ما وصف به نفسه في البصائر والذخائر 1/ 460.
(2) المصدر نفسه ص 487.

* الباب الثاني *

معاني الهجاء وصوره الواقعية العامة

في كتاب (أخلاق الوزيرين)

* الفصل الأول *

فن الهجاء في النثر قبل عصر التوحيدي

موضوعاته وأشكاله وأبرز قضاياه

قدم أبو حيان التوحيدي لكتابه (أخلاق الوزيرين) بمقدمة طويلة (1) ناقش فيها بعض الأمور والقضايا المهمة الخاصة بفن الهجاء وموضوعاته وأغراضه، قبل أن ينتقل الى موضوعه الأساسي في هجاء الوزيرين ابن عباد وابن العميد. والى ذلك أشار بقوله:" قد ذكرنا ـ حاطك الله ـ جملة من القول رأينا تقديمها والاستظهار بها، قبل أخذنا فيما أنشأنا له هذا الكلام، قصدا لفل حد الطاعن، وحسما لمادة الحاسد، وتعليما للجاهل، وارشادا للمتحير، واحتجاجا على من يدل بحفظ اللسان، وكتمان السر، وطي القبيح، ومسالمة الناس، واغتفار المنكر، وهو مع ذلك كالأسد في غيله ...."(2).

وهذه القضايا والأمور أوردها المؤلف للدفاع عن نفسه وتسويغ موقفه من هجاء الوزيرين، وهي التي جعلت الكتاب يكتسي صبغة خاصة أهلته لأن يكون ملتقى جامعا لمعظم قضايا فن الهجاء وخصائصه في النثر العباسي قبل عصر أبي حيان، وجعلته كذلك يحتل مكانة متميزة في هذا الفن كما سنرى.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

معنى الهجاء والسخر ومدى صدقهما في تصوير الحقائق التاريخية والفنية:

وأول ما يتعين مناقشته والبحث فيه من تلك القضايا التي أثارها أبو حيان في مقدمة كتابه هو مفهوم كلمتي الهجاء والسخر، ودلالتهما عنده وعند غيره ممن عرض لذكرهما من مشاهير النقاد والأدباء القدماء، ومدى صلاحيتهما لنقل الحقائق المختلفة وتخليدها في أمانة وصدق دون كذب أو تزوير. وذلك لأن أبا حيان قرن في شرحه لموقفه من الهجاء بين معنى هذا الفن وبين ما يلحقه من تزيد ومبالغة وتزييف فقال:" ان الكلام في حمد من يحمد وذم من يذم، ان نمق تنميقا دخله التزيد، والمتزيد مقلي، وان أرسل على غراره شانه التقصير، والمقصر معجز..."(3).

(1) انظر أخلاق الوزيرين ص 1ـ94.
(2) المصدر نفسه ص 76.
(3) نفسه ص 37.

ان كتاب (أخلاق الوزيرين) أهم الكتب التي وصلتنا في موضوع الهجاء كما سنرى، اذ دافع فيه مؤلفه عن هذا الغرض الأدبي وعن موقفه منه، ومن هجاء الوزيرين ابن عباد وابن العميد، وذهب الى أنه فن ضروري للحياة البشرية، وحاول أن يدرسه من الناحيتين النظرية والتطبيقية[1]، ومن عدة زوايا متشعبة تشعب الحياة الانسانية نفسها. ومع ذلك لم يهتم بوضع تعريف لفن الهجاء على شدة ولعه بوضع التعاريف وتدوينها[2]، تأثرا منه بعقليته وتكوينه الفلسفيين، وانما تعرض لمسألة توضيح معنى الهجاء من زاوية المقارنة بينه وبين فن المديح على اعتبار أن أحدهما ضد الآخر[3]، وأشار الى أن شعراء الهجاء يبالغون كثيرا، ولا يرجعون في موقفهم من المهجو الى أي رادع خلقي أو ديني، لأنهم " لا يكسبون الا بهذا المذهب"[4] ليؤكد بعد ذلك أن المدار في فن الهجاء على " الصدق في القول، وعلى تقديم الحق في العقد، وقصد الصواب عند اشتباه الرأى وغلبة الهوى..."[5].

والعجيب أن أكثر النقاد والأدباء القدماء المهتمين بدراسة الأدب ونقده قالوا في المسألة قولا شبيها بقول أبي حيان، فلم يصرفوا عنايتهم لوضع تعريف جامع للهجاء ولا لغيره من الأغراض الأدبية، وانما تعرضوا لها من خلال بعض مظاهره وقضاياه التي تناولوها بالدرس والنقاش، أو من خلال حديثهم عن الأغراض الشعرية عامة، على الرغم من افتتان الكثير منهم بوضع التعاريف للمصطلحات البلاغية وألوانها المتعددة، متأثرين في ذلك بغيرهم من علماء اللغة والفقه وغيرهما من العلوم.

فقد ورد في كلمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين نهى الحطيئة عن الهجاء المقذع، قوله له وهو يوضح معناه: " المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم "[6]. وأورد صاحب العمدة قول خلف الأحمر (- 180هـ) " أشد الهجاء أعفه وأصدقه "[7] وقول يونس بن

---

(1) تحدث الجاحظ في مقدمة كتابه البخلاء ص5-7 وفي رسالة التربيع والتدوير (رسائل الجاحظ بتحقيق السندوبي ص214، 220-222) عن المزاح والضحك من الناحية النظرية كما سنرى.

(2) انظر عدة تعاريف فلسفية وخلقية في المقابسات ص358 فما بعدها والامتاع 1/ 149-157.

(3) أخلاق الوزيرين ص 26-27.

(4) المصدر نفسه ص 74.

(5) نفسه ص 74.

(6) العمدة 2/ 170.

(7) نفسه 2/ 171، وخلف الأحمر هو أبو محرز خلف بن حيان البصري، فارسي الأصل كان مولى بلال بن أبي بردة الأشعري، وكان راوية ثقة، أجمع اللغويون على أنه أفرس الناس ببيت شعر، وكان متهما بالنحل. ترجمته في الفهرست ص80، ونزهة الألباء ص 58-59، وبغية الوعاة 1/ 554.

حبيب (ـ183هـ) "أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ،وهو الاقذاع عندهم"(1)،ويعني خلف الهجاء الساخر المفيف بينما يكرر يونس معنى كلمة عصره.

أما ابن قتيبة (ـ276هـ)(2) فيرد على قولة للحجاج ،يقارن فيها هذا الأخير بين المديح والهجاء ويعتبر الأول بناء والثاني هدما ، بأن الهجاء أيضا بناء كالمديح ، وهو في ذلك يعتبر ما لغرض الهجاء من قيمة فنية ،ولا يلتفت الى الجانب الخلقي فيه.(3)

وفي بداية القرن الرابع نجد قدامة بن جعفر(4) المغرم بوضع التعاريف والقواعد ، متأثرا بنزعته المنطقية(5)،يعرف الهجاء بقوله:" الهجاء ضد المديح ،وكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له"(6). ورغم شهرة كتابه وتداول النقاد له من بعده لم يتأثروا كثيرا بنزعته المنطقية في وضع التعاريف والقواعد مع أنهم تمسكوا بالاتجاه المنطقي العام في التبويب والتصنيف.

أماصاحب الوساطة علي بن عبد العزيز الجرجاني (ـ392هـ)(7) فقد تناول الهجاء من زاوية فنية خاصة ، ومن خلال قسميه البارزين: الساخر والمقذع ، متأثرا بما جد في الاقذاع من تحول في العصر العباسي نحو الفحش والسباب، فقال: " فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج الهزل والتهافت(8) ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ،فأما القذف والافحاش

---

(1) العمدة 2/ 170 ،ويونس هو أبوعبد الرحمن يونس بن حبيب البصري ،من أصحاب أبي عمرو ابن العلاء ،كانت له حلقة بالبصرة ينتابها طلاب العلم والأدب وفصحاء الأعراب وكانت له مذاهب وآراء تفرد بها . انظر الفهرست ص 69، ونزهة الألباء ص 49ـ 51، ووفيات الأعيان 7/ 244ـ249.

(2) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،كوفي سكن بغداد وحدث بها ، وتولى قضاء الدينور فنسب اليها ،وكان عالما في اللغة والشعر والفقه والحديث، له مصنفات مذكورة مشهورة . انظر نزهة الألباء ص 209ـ210، ووفيات الأعيان 3/ 42ـ44،وبغية الوعاة 2/ 63ـ64.

(3) الشعر والشعراء 1/ 94 و 2/ 591 ، والعمدة 1/ 112ـ

(4) قدامة بن جعفر بن قدامة ،كان نصرانيا وأسلم على يد المستكفي بالله،وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ،توفي حوالي سنة (337هـ) . انظر الفهرست ص 194،ومعجم الأدباء 17/ 12ـ13 والأعلام 6/ 31.

(5) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب لاحسان عباس ص 189ـ190.

(6) نقد الشعر ص 113.

(7) القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ،كان فقيها أديبا شاعرا ،واختص بالصاحب ابن عباد زمنا فولاه قضاء جرجان ثم قضاء الري . ترجمته في يتيمة الدهر 4/ 3ـ26 ووفيات الأعيان 3/ 278ـ281، ومعجم الأدباء 14/ 4ـ19.

(8) الكلمة هكذا في النص ولعلها مصحفة عن"التهانف" بمعنى الضحك الفاتر الساخر كما لاحظ ذلك أستاذنا الدكتور عزة حسن.

فسباب محض وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن"(1) . فهو ينظر الى الهجاء من زاوية المتعة الفنية التي يحس بها القارئ والمستمع، لذلك فضل النوع الساخر العابث، وذلك كان مذهب أغلب الشعراء كما يؤكد صاحب العمدة حين قال: " وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أصوب الا جريرا ..."(2) وأضاف موضحا رأيه: " والذي أراه أنا على كل حال أن أشد الهجاء ما أصاب الغرض ووقع على النكتة وهو الذي قال خلف الأحمر بمينه"(3) .

وقد حشد ابن رشيق(4) في كتابه أقوالا كثيرة(5) لأستاذه عبد الكريم النهشلي وغيره، كلها تسير على نهج قدامة في المقابلة بين المديح والهجاء وتعريف أحدهما بأنه ضد الآخر، بل تضع للهجاء فروعا ونظائر كالعتاب والاستنجاز والاستبطاء.

ويلاحظ أن أغلب الأقوال المذكورة انصرفت الى الشعر دون النثر، وذلك لأن الحركة النقدية القائمة حول الشعر والشعراء كانت أكثر نشاطا وأوفر نصيبا من جهود الكتاب والأدباء ، ولأن " الشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظا من الفن وأولى بالنقد والوزن، والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر"(6).

أما الهجاء النثري فلم يتعرضوا له الا فيما ندر، كما لم يتعرضوا لكل أغراض الشعر التي غزاها النثر في العصر العباسي، ومع ذلك لا ضرر من اعتبار آرائهم وأقوالهم في الشعر منصرفة الى النثر أيضا، لأنهما خضعا معا لعوامل مشتركة في التطور والتنقيح والتهذيب، ولأن " مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر"(7) كما يقول أبو حيان.

وهكذا نخلص الى أن أكثر النقاد والأدباء القدماء، ومنهم أبو حيان، لم يهتموا كثيرا بوضع تعريف لفن الهجاء ولا لغيره من الفنون والأغراض الشعرية والنثرية، وانما نظروا اليه من خلال مقارنته بفني المديح والفخر وغيرهما من الأغراض، ومن خلال نوعيه البارزين: المقذع والساخر المفيف، مع تفضيل واضح لما يتوخى فيه أصحابه الصدق والعفاف. ولم تلق محاولة قدامة وضع تعريف منطقي له، ولفن الشعر وأغراضه

---

(1) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص 24.

(2) العمدة 2/ 172

(3) المصدر نفسه 2/ 175–176.

(4) أبو الحسن علي بن رشيق القيرواني شاعر أديب ناقد كان أبوه مملوكا روميا، ولد بالمسيلة ثم ارتحل الى القيروان فصقلية وبها مات ودفن سنة (456هـ) . ترجمته في معجم الأدباء 8/ 110–112. ووفيات الأعيان 2/ 85–89، وبغية الوعاة 1/ 504.

(5) العمدة 1/ 121.

(6) النثر الفني .. لزكي مبارك 1/ 17.

(7) الامتاع والمؤانسة 2/ 139.

المختلفة على العموم ،قبولا من النقاد المشهوريين ،فلم يتقدم أحد من بعده ،فيما نعلم، بتعريف أكثر شمولا ووضوحا. والظاهر أن السبب في ذلك هو أن معاناة وضع القواعد والتعاريف ليست لها قيمة كبيرة في دراسة الفنون الأدبية التي تختلف فيها المقاييس ووجهات النظر من شخص لآخر،على خلاف ما هوعليه الحال في العلوم ذات القواعد والأصول الثابتة.

ويلاحظ أن أبا حيان في حديثه عن الهجاء وبواعثه وأغراضه المختلفة ، لم يميز تمييزا واضحا بين نوعيه البارزين: المقذع والساخر ،كما فعل بعض من ذكرنا أقوالهم، وخاصة صاحب الوساطة الذي مال الى تفضيل الهجاء الساخر الهزلي على الهجاء الفاحش الماجن الذي اعتبره سبابا محضا(1) ،وانما ألح على وجوب الصدق في الهجاء وتجنب الكذب والمحال(2) . ولكنه مع ذلك أورد في كتابه عددا من القصص والحكايات الساخرة عبث فيها بالوزيرين وسخر من بعض مظاهر سلوكهما وأخلاقهما، كما رسم لهما صورا (كاريكاتورية) مثيرة للضحك والاستهجان(3).

وكل ذلك يدل على أنه يعرف هذا اللون الأدبي ، ويتقن استخدامه وتوظيفه، كما أنشأه ووظفه الشعراء والكتاب في عصره وقبل عصره وبعده كما سنرى. وينسب لجرير أنه أول من خرج بالهجاء مخرج الهزل والعبث ،وأنه قال: "اذا هجوت فأضحك"(4) ، الا أنهم مع ذلك لم يوضحوا معنى كلمة السخر باعتباره مصطلحا أدبيا، ولا معاني غيره من الألفاظ المشابهة كالتهكم والعبث والفكاهة(5) باستثناء أصحاب المعاجم الذين شرحوا معانيها اللغوية . وأغلب من تعرض لها من الكتاب والأدباء ناقشوها من الزاوية الدينية والخلقية ، أي من حيث الحلية والحرمة ، ومن حيث فائدتها للنفس الانسانية المكدودة. وفي اطار هذا الفهم تعرض لها كل من الجاحظ وأبي حيان ،فالسخر والتهكم والمزاح والعبث والهزل ألوان أدبية ضرورية للنفس التي أتعبها الجد ، يقول أبوحيان مقتديا بأستاذه الجاحظ بعد أن ساق بعض الفكاهات الماجنة: " وربما عيب هذا النمط كل العيب ،وذلك ظلم ، لأن النفس تحتاج الى بشر،وقد بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه،بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل : أحمضوا،وما أراه أراد بذلك الا تعديل النفس لئلا يلحقها كلال

---

(1) انظر نص كلامه فيما سبق ص 127–128.

(2) أخلاق الوزيرين ص 74–75.

(3) انظر أمثلة ذلك في أخلاق الوزيرين ص 111–113 ،و 180– 182.

(4) العمدة 2/ 172.

(5) انظر (الفكاهة في الأدب : أصولها وأنواعها) ص 8–9.

الجد ،ولتقبس نشاطا في المستأنف ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع"(1).

أما الباحثون المحدثون فقد عنوا عناية خاصة بالتفرقة بين تلك المصطلحات من الناحية النفسية والأدبية . ولنكتف بما قاله الدكتور محمد النويهي في ذلك،قال: " والسخر ليس هو النكتة أو المزاح ،ولا ما يسميه علماء البديع (التهكم والهزل الذي يراد به الجد) ولا هو الفكاهة وحدها ، بل هو شيء أسمى من ذلك بكثير وأندر وجودا ،فهو رد الانسان الأعظم على معاكسة القدر ،وظلم الدهر ،وقسوة الطبيعة ، وعيوب المجتمع، ونقائص الناس ،ونقائصه هو ، يسخر بهذه جميعا ، لا يسبها ولا يحتد عليها ،ولا يشور بها ، بل يتأملها بهدوء ،ويبصر سخافاتها ، ويبصر تناقضها ،بل يبصر تفاهتها وصغرها ، فيعلو عليها جميعا ،ويتحدث عنها بابتسامة هادئة، جليلة ،مستخفة ،هازئة، وحديثه ينبغي ألا يكون محتدا ثائرا ، وألا يكون سيء اللفظ بذيئا ،والا لما كان سخرا ، فالسخر هو الهدوء التام،والأدب التام ، والعلو التام على مصائب الدنيا"(2).

والملاحظ أن السخر الذي يصفه النويهي هنا يمثل درجة رفيعة جدا من هذا الفن لا يحققها الا الأفذاذ الموهوبون ،وربما تمثل في (رسالة الغفران) للمعري بصورة واضحة . أما الآثار النثرية السابقة عليها فيختلط فيها الهجاء السافر بالتهكم والسخر، ولا شك أن هذا تولد عن ذلك لأنهما معا يمثلان وجهين لعملة واحدة ،وانما الاختلاف في درجة التقدم الحضاري وارتفاع مستوى الثقافة والذوق لا غير. فاذا كان الهجاء الصريح فنا بدائيا فالسخر فن حضاري متقدم . وسنرى موقع كتاب أبي حيان ومكانته التي يحتلها بين هذين القطبين ان شاء الله(3) .

فهل يحق لنا بعد هذا العرض عن معنى الهجاء والسخر عند أبي حيان والأدباء القدماء أن نعرض المسألة على مستوى نظري أكثر تجريدا ،وأكثر ارتباطا بالتيارات الفكرية المؤثرة في الانتاج الأدبي في العصر العباسي ، الا وهو ما يسمى بالتحسين والتقبيح العقليين ؟ أظن أنه من حقنا ذلك ما دام أبو حيان ينطلق في سلوكه وتفكيره وأدبه من منظور فلسفي وفكري ثابت(4). وقد ورد في كلامه ما يؤكد خبرته بهذا المبدأ ،وأنه بنى عليه كتابه كله، فقال على لسان من يفترض أنه سيلومه ويؤاخذه على موقفه من الوزيرين فيما لو أخفى مثالبهما وتستر عليهما ،ولفق بدلها

---

(1) الامتاع والمؤانسة 2/ 60،وانظر البخلاء ص 1 .

(2) ثقافة الناقد الأدبي ص 332-333 .

(3) في الفصل الثالث من الباب الثالث.

(4) انظر ماسبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 117 فما بعدها .

محاسن وفضائل لا أساس لها من الصحة :" انظروا الى هذا الكذب الذي ألفه ، والى هذا الزور الذي فوّفه،والباطل الذي وصفه والحق الذي دفعه . . .تبلغ به قلة الدين وسوء النظر فيما يتعقب بالتقبيح والتحسين أنه يمدح واحدا مقروفا بالزندقة والكفر ، ويقرظ آخر مضروفا بالالحاد والسخف . . ."(1).

والتحسين والتقبيح من المبادئ الكلامية والفكرية الاسلامية الكبرى التي قامت على مبدأ الخير والشر،وقد أثار جدلا كثيرا حول الأفعال الانسانية متى تكون حسنة ، ومتى تكون قبيحة(2). ولما كان كل خير ليس دائما حسنا ،وكل شر ليس دائما قبيحا بالضرورة ، انقدح التفكير في امكانية نعت الخير بالقبح ، وبالعكس نعت الشر بالحسن . وليس لهذا مجال مفضل الا البلاغة والأدب،وخاصة عندما تناولهما الجدل الكلامي والتفكير المنطقي بالبحث والنقاش.

ونحن لا نريد أن نذهب بعيدا في محاولة ربط القضية بفكرة المحاكاة الأرسطية كما فعل الدكتور أحمد جابر عصفور،ذاهبا الى أن المعتزلة الأوائل ،ومنهم الجاحظ ، ربما اطلعوا على ترجمة قديمة لكتاب أرسطو في الشعر ومنه استقوا هذا المبدأ(3) . وانما نرى أن الفكرة نضجت في أذهانهم منذ عهد مبكر،لما في التراث الأدبي العربي من هذا اللون.وتأييدا لهذا نذكر ما ورد في ترجمة النظام (4)أن أباه "جاء به الى الخليل بن أحمد (5) ليعلمه، فقال له الخليل يمتحنه،وفي يده قدح زجاج :يابني صف لي هذه الزجاجة،قال : بمدح أم بذم؟ قال :بمدح ،قال : تريك القذى ،ولا تقبل الأذى ولا تستر ما وراء ،قال :فذمها ،قال :يسرع اليها الكسر ولا تقبل الجبر. . ."(6) .

فالفكرة اذا متأصلة في الوجدان العربي الذي عرف المدح والذم،وعرف مقدار التجاوز والمبالغة التي يعرض فيها الشاعر أو الكاتب أو الخطيب أقواله ليصل الى مراده بقلب الحقائق والمغالطة، أما المفكرون والنقاد الاسلاميون فقد وضعوها في مجالها الفكري النظري ،وربطوها بآرائهم في الخير والشر وخلق الأفعال ،وقوم بعضهم من خلالها

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 84.

(2) انظر الملل والنحل 1/ 54،والامتاع والمؤانسة 1/ 150،والمقابسات ص 165.

(3) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ص 435.

(4) اسمه ابراهيم بن سيار النظام وكنيته أبو اسحاق،كان رأسا في الاعتزال وله فرقة تسمى باسمه ،توفي سنة (231هـ) ترجمته في الفهرست ص 252،وأمالي المرتضى 1/ 187، والملل والنحل 1/ 53 ،وفرق وطبقات المعتزلة ص 59—62.

(5) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ،عالم اللغة والنحو والأدب،وكان من الزهاد في الدنيا ،صنف كتاب العين ،وتوفي سنة (170هـ) على خلاف. انظر الفهرست ص69،ونزهة الألباء ص45—49 ووفيات الأعيان 2/ 244—248.

(6) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص154،وانظر أمالي المرتضى 1/ 189.

الانتاجات الأدبية المعاصرة لهم،حتى ذهب فريق منهم الى أن أشعر الناس هو " الذي يصور الباطل في صورة الحق،والحق في صورة الباطل،بلطف معناه ودقة فطنته،فيقبح الحسن الذي لا أحسن منه،ويحسن القبيح الذي لا أقبح منه "(1) .

وفي مقدمة المفكرين والنقاد الذين أدركوا هذا المبدأ وتأثروا به في انتاجهم الفني أبوعثمان الجاحظ(2) ،وظهر ذلك جليا في كلفه بالمغالطة والتمويه،وبوصف الشيء ونقيضه،كما هو الشأن في بعض رسائله وكتبه(3) .

أما أبوحيان فقد تبنى الفكرة في كتابه كما قلنا،وهي ترتبط عنده ارتباطا وثيقا بمبادئه الخلقية المبنية على فكرتي الخير والشر(4) . ولكن تجربته الأدبية التي تمتاز بالعمق والأصالة والاخلاص لذاته وفنه جملته يلتزم جانب الصدق ويلح عليه في كتابه وفي انتاجه على العموم،ولا يجيز الكذب والتمويه الا في حدود ضيقة. فقال وهو يدعو الى وجوب الصدق في الشعر والنثر معا:ان المدار على " الصدق في القول،وعلى تقدير الحق في العقد،وقصد الصواب عند اشتباه الرأى وغلبة الهوى...،وان كان بعض الصدق مشوبا وبعض الحق ممزوجا،فلا بأس ولا حرج،فان ذلك لا يقلب الصدق كذبا،ولا يحيل الحق باطلا،وأين المحض من كل شر والخالص من كل خير"(5) . وقال أيضا،وهو يلح على ضرورة الصدق وتجنب الكذب في الأخلاق والفن معا:"فأما الحسن والقبيح فلا بد له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور،فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، فيأتي القبيح على أنه حسن ،ويرفض الحسن على أنه قبيح . ومنشأ الحسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي،ومنها بالعادة،ومنها بالشهوة،ومنها بالشرع،ومنها بالعقل،فاذا اعتبر هذه المناشىء صدق الصادق منها وكذب الكاذب،وكان استحسانه على قدر ذلك"(6) .

واذا كان أبوحيان يجيز لنفسه بعض المبالغة والكذب والتزييف كما نرى،مع الحاحه على ضرورة الصدق الفني والواقعي،فانما نتج ذلك عن تأثره بالجاحظ في انتاجه الفني على العموم والهزلي على الخصوص،وعن رغبته في تشويه أخلاق الوزيرين وسلوكهما،وفي تحقيق نوع من الملاءمة بين الاخلاص لنفسه وغريزته الفنية،وبين الحقائق التاريخية والواقعية التي تصدى لنقلها وتصويرها في كتابه حتى لا يتهم بالكذب والتزوير،ولا يخلط في الحكم على كتابه وموقفه من الوزيرين بين ما هو من نصيب الواقع الفني النابع من نفسه وذاته ،وما هو من نصيب الواقع التاريخي الذي نقله غيره من الأدباء

---

(1) العقد الفريد 6/ 160،وانظر سرح العيون ص 97.

(2) انظر(البيان والتبيين) 1/ 113.

(3) انظر مزيدا من التفصيل عن هذه الظاهرة في أدب الجاحظ في :

Un genre littéraire Arabe : Almahâsin wa lmasawi

لابراهيم جريى ص 19 فما بعدها .

(4) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث ص 120- 121.

(5) أخلاق الوزيرين ص 74-75.

(6) الامتاع والمؤانسة 1/ 150.

والموُرخين .

ومسألة التقبيح والتحسين هذه تثير مسألة أخرى لها ارتباط وثيق بموضوعنا وهي علاقة الفن بالأخلاق. فلا شك أن هناك صلة متينة بين الأخلاق والأدب عامة وبينها وبين فني المديح والهجاء خاصة. وأبو حيان ألح في هجائه للوزيرين على أن يجعل منه هجاء فنيا ممتعا ،وعلى أن يربطه بالفضائل والرذائل الخلقية ،وبالاصلاح الخلقي . ولذلك أصر على ربط عنوان كتابه بكلمة الأخلاق[1] وساق فيه عددا من القضايا والآراء الخلقية المفيدة، شارك بها مفكري عصره وأدباءه في معالجة الأزمة الخلقية والدينية في القرن الرابع الهجري[2] . فهل يعني ذلك أنه لا يفصل بين الأخلاق والدين من جهة وبين الأدب والفن من جهة أخرى؟

أما النقاد القدماء فقد أدركوا ضرورة الفصل بين الفن والأخلاق ،ولهم فيهما آراء وأقوال لا تختلف كثيرا عن آراء النقاد المحدثين. فعندما دافع ابن قتيبة[3] عن فن الهجاء واعتبره بناء كالمديح ،كما أشرنا الى ذلك سابقا ،كان يدافع من زاوية فنية خالصة. ولقدامة بن جعفر[4] كلام واضح صريح في هذه القضية، قال :" ومما يجب تقديمه أيضا أن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئا وصفا حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا أيضا ، غير منكر عليه ولا معيب من فعله اذا أحسن المدح والذم.. .وانما قدمت هذين المعنيين لما وجدت قوما يعيبون الشعر اذا سلك الشاعر فيه هذين المسلكين... وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه "[5] . وقال الصولي (ـ335هـ)[6] دافعا تهمة الكفر عن صاحبه أبي تمام، : "وقد ادعى قوم عليه الكفر،بل حققوه، وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره وتقبيح حسنه،وماظننت أن كفرا ينقص من شعر،ولا أن ايمانا يزيد فيه "[7]. وكرر الجرجاني صاحب الوساطة هذا المعنى نفسه في كتابه[8].

---

(1) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 78.

(2) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 81ـ83 و 91ـ93.

(3) تقدمت ترجمته في ص 127حاشية رقم 2.

(4) تقدمت ترجمته في ص 127حاشية رقم 4.

(5) نقد الشعر ص 66.

(6) أبوبكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي نسبة الى جده صول التركي ، من الأدباء الظرفاء الجامعين للكتب ،كان ماهرا في الشطرنج . انظر الفهرست ص221، ونزهة الألباء ص273و معجم الأدباء 19/ 109، و الكامل 6/ 324.

(7) أخبار أبي تمام ص 172.

(8) الوساطة ص 64، وقد تقدمت ترجمة الجرجاني في ص 127،حاشية رقم 7.

ومن ذلك يتضح أن الأدباء ونقاد الشعر العرب يدركون مدى الحرية التي ينبغي للأديب أن يتمتع بها ،فدعوا الى وجوب طرح الاعتبارات الدينية والخلقية جانبا واخراجها من مجال الأدب والفن. ولكن أبا حيان يصر على الربط بينهما ،وعلى تناول القضايا الخلقية والدينية والفكرية العامة من منظور فني وأدبي ،ولعل السبب في ذلك يعود الى تشبع تجربته الجمالية والأدبية والنفسية بالروح الدينية والفلسفية والصوفية، وامتزاج التجربة الفنية في أعماقه بالتجربة الدينية . ولولا ذلك لما سمي بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء(1) .

فالى أي مدى استطاع أبو حيان أن يحقق الانسجام بين الاخلاص لفنه ورغبته في الثأر والانتقام،وبين الاخلاص للحقيقة والواقع اللذين نقلهما غير واحد من الأدباء والمؤرخين ؟ذلك هو السؤال الأكبر الذي سنحاول الاجابة عليه في الفصول التالية بحول الله.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

شرعية الهجاء على ضوء الدين والأخلاق العامة :

أشار أبوحيان هذه المسألة في عدة أماكن من مقدمة كتابه ، واجتهد أيما اجتهاد في أن يثبت أن هجاء الوزيرين ابن عباد وابن العميد وثلبهما واغتيابهما ، لايخالف في شيء، المنطق ولا الدين ، ولا ما درج عليه الناس من التقاليد والعادات . فأشار في البداية(2) الى أن بعض شيوخه(3) حاول أن يمنعه من ذلك على اعتبار ما فيه من غيبة وسب وشتم ،ومجاهرة بالعداوة. وكلها ليست من شيم أهل الصلاح والتقوى ،الا أن حفيظته وغيظه ونقمته ضد الوزيرين جملته يفضل الانتقام لنفسه وكرامته المهانة ،متخطيا نصيحة شيخه عن قصد واصرار مبين ،مدعيا أنه مضطر للدفاع عن نفسه.

وقد حشد كثيرا من الأخبار والأحاديث والآيات القرآنية والحجج والبراهين التي تؤيد مذهبه واختياره ،فقال مثلا :"ولم صنف الناس في المناقب والمثالب ؟ ولم نشروا أحاديث الكرام واللئام ؟وكثير من الناس-عافاك الله-لا غيبة لهم أو في

---

(1) انظر معجم الأدباء 15/ 5. ومن الطريف أن صاحب نقد النثر (ص 141) يوافق التوحيدي الى حد ما عندما قال :" والقبيح من الكلام ما كان في سفساف الأمور وأرذالها كالنميمة والغيبة والسعاية والكذب". فهل كان نقاد النثر وكتابه يختلفون عن نقاد الشعر في موقفهم من الفصل بين الأخلاق والفن ؟

(2) أخلاق الوزيرين ص 38.

(3) انظر ماسبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 111-112.

غيبتهم أجر،وقد وقع في الخبرعن النبي صلى الله عليه وسلم : اذكروا الفاسق بما فيه كي تحذره الناس..."(1). فكان من كل ذلك هذه المقدمة الطويلة المريضة التي يناصر بها موقفه وما يحترمه من الهجاء والثلب ،قال : " فحمد المحسن وذم المسي أمران جاريان على مر الزمان،مذ خلق الله الخلق ، وهوعلى ذلك يجري الى أن يأذن الله بفنائه ،وهو عز وجل أول من حمد وذم ،وشكر ولام ، ألا تراه كيف وصف بعض عباده عند رضاه عنه فقال:(نعم العبد انه أواب)(2).. ثم انظر كيف وصف آخر عند سخطه عليه وكراهته لما كان منه فقال:(هماز مشاء بنميم ،مناع للخير معتد أثيم)(3)، وهذا فوق ما يقوله مخلوق في مخلوق "(4) . ثم احتج بقوله تعالى : " لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم"(5). وروى قول ابن عباس ان معنى الآية : الا من لم يكرم في ضيافته (6)، كما اعتصم بقوله تعالى :" ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل"(7) .

غير أنه مع كل هذا الاحتجاج والحرص على اقناع القارئ بحقه في الطعن على الوزيرين وذكرهما بالسوء لا يغفل المذهب الأغر" مذهب الزهاد والمتأبدين(8) ، وأصحاب الورع والمتعبدين "(9)،ويشهد أنه المذهب الصالح الذي لا ينكره أحد . وربما أخذ به لفترة طويلة قبل أن يجمع عزيمته لاظهاركتابه ،لانه لم يضعه في صيغته النهائية الا بعد وفاة الصاحب ابن عباد سنة (385هـ) على الرغم من أنه كتب معظمه قبل سنة (375هـ) (10)،ولكنه تخطاه جانبا وأهمله في لحظة من لحظات ثورته وشدة غيظه وحنقه ، واستحضاره لما تجرع من الألم والأسى ،وما تعرض له من الخذلان وصنوف الشماتة والعذاب بسبب المصير الذي انتهى اليه أمره مع الوزيرين ،فاندفع في تحرير كتابه .

الا أن احتجاج أبي حيان واجتهاده في اثبات حقه وصحة سلوكه واختياره

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 44، والحديث منقده ومع اختلاف في اللفظ في كشف الخفاء للعجلوني 1/ 106، 2/ 171.
(2) سورة ص 38 / 29.
(3) سورة القلم 68 / 11 و 12.
(4) أخلاق الوزيرين ص 67.
(5) سورة النساء 4 / 147.
(6) هذا الوجه في تفسير الآية مأثورعن غيرواحد سوى ابن عباس. انظر تفسير ابن كثير 1/ 471.
(7) سورة الشورى 42 / 38،وانظر أخلاق الوزيرين ص 77 -78.
(8) في القاموس المحيط مادة" أبد" : تأبد الرجل طالت غربته وقل أربه في النساء.
(9) أخلاق الوزيرين ص 69.
(10) انظر مايسبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 86-87.

بشتى البراهين الدينية والعقلية ، لم يقنع الدارسين من قدماء ومحدثين الذين عابوا عليه سلوكه ومذهبه (1)، ولم يستطع أن يهدم المذهب الآخر الذي يرفض الهجاء ويذم الغيبة، ويقوم على دعائم دينية وخلقية ، وكان له تأثير واسع في الأدباء والكتاب القدماء. فقد ذكر صاحب العمدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :"من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر" (2). وأخذ عمر رضي الله عنه بمعنى هذا الحديث فقال للحطيئة :"اياك والهجاء المقذع" (3) كما أخذ به بعض الشعراء فامتنعوا عن الهجاء لما فيه " من سوء الأثر وقبح السمعة " (4) ولما له من صلة وثيقة بالغيبة وذكر أعراض الناس، ولما يتضمنه من السب والشتم ، وكل ذلك محرم شرعا ، فقد قال تعالى :"ولا يغتب بعضكم بعضا" (5) ، وروى أبو هريرة قال : " قيل يا رسول الله : ما الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قال : أفرأيت ان كان في أخي ما أقول ؟ قال :ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته" (6) . وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :"ان الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا" (7) . وقال تعالى في تحريم السخر والاستهزاء بالغير :"ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب" (8) .

والأقوال والفتاوى والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، ولا شك أن التوحيدي لم يكن يجهلها . منها قول ابن قتيبة :" واذا مر بك حديث فيه افصاح بذكر عورة أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب" (9) .

ومن ذلك يتضح أن جمهور المسلمين أجمعوا على تحريم الغيبة بجميع أصنافها ، بل وردت أحاديث أخرى تحث على الدفاع عن أعراض الناس ودفع الغيبة عنهم ، منها

---

(1) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 99.

(2) العمدة 2/ 170.

(3) المصدر نفسه 2/ 170.

(4) نفسه 1/ 110.

(5) سورة الحجرات 49 من الآية رقم 12.

(6) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي 2/ 201، والحديث مع طرق روايته في تفسير ابن كثير 4/ 213. وبهته : افترى عليه.

(7) صحيح البخاري 2/ 217.

(8) سورة الحجرات 49 من الآية رقم 11.

(9) عيون الأخبار 1/ ص ى من مقدمة المؤلف.

قوله صلى الله عليه وسلم :" من ذب عن لحم أخيه في المغيبة كان حقا على الله عز وجل أن يعتقه من النار"[1] ،وكثير من الصالحين المتعبدين يحرصون على أن يغتابهم الناس ليحصل لهم الأجر.

على أن المسألة عندما تطرح من زاوية النقد والاصلاح ووجوب تدوين التاريخ بكل ما فيه من محمود ومذموم ، نجد لأبي حيان بعض العذر فيما ذهب اليه، لأنه كان يرمي الى الاصلاح الخلقي بجانب ما يهدف اليه من أغراض أخرى في كتابه ، وفي ذلك يقول أحد الباحثين : " فلا نزاع في أن الافتراء على الناس والوقيعة فيهم من الأمور المكروهة ،ولكن تحليل الأخلاق و تشريح الأعمال والأقوال ، ووزن الرجال مع تحري العدالة والانصاف ،هل هو كذلك من قبيل الغيبة المذمومة ، واغتصاب صفة الديان من الله العلي القدير ؟"[2]

ويبدو أن أبا حيان اقتدى في دفاعه عن فن الهجاء والغيبة بأبي العيناء[3] (–283هـ) شيخ العيابين ،فقد ورد في أخباره في غير مصدر أنه دخل : " على المتوكل فقال له :بلغني عنك بذاء ،فقال : ان يكن البذاء صفة المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ،فقد زكى الله وذم ،فقال :(نعم العبد انه أواب)[4] ، وقال :(هماز مشاء بنميم)[5]... فذمه حتى قذفه "[6] وهذا ما احتج به أبو حيان نفسه كما رأينا. كما اقتدى بمن سبقه من الكتاب كالجاحظ وسهل بن هرون[7] وغيرهما في كثير من القضايا التي سنعرض لها في الفقرات والفصول التالية.

غير أن أبا حيان برغم اسرافه في الاحتجاج لموقفه كان يشعر في قرارة نفسه ، كما يبدو من عدة قرائن، أنه سلك سلوكا مرذولا ،ووقف موقفا مستهجنا لا يتفق وما عرف به من ايمان عميق ، هو الذي ساقه في النهاية الى التصوف . فغرضه الأساسي هو الهجاء والانتقام ،ولكنه حرص على أن يكون كتابه دراسة خلقية ، وعلى أن ينال رضى الناس وألا يذكر هو وآثاره الا بخير. و هذه أشياء لا يمكن أن تجتمع مع الغيبة وذكر العيوب ،فحرص على تجاوز هذه العقبة بادعاء جوازها وشرعيتها ،ولذلك كان

---

(1) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص 417.

(2) بعض مؤرخي الاسلام لعلي أدهم ص 71.

(3) هو أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد الأديب الفكه الضرير، له مع المتوكل مجالس ومع كتاب عصره وأدبائه أخبار ونوادر. انظر ترجمته في الفهرست ص 187، وأمالي المرتضى 1/ 299–305، ومعجم الأدباء 18/ 286–307، ووفيات الأعيان 4/ 343–348، وزهر الآداب 1/ 321–331 و 3/ 844–845.

(4) سورة ص 38 / 29.

(5) سورة القلم 68 / 11.

(6) المصدة 1/ 249، وانظر أمالي المرتضى 1/ 299، ومعجم الأدباء 18/ 288.

(7) ستأتي ترجمته في ص 151 حاشية رقم 8.

كتابه (أخلاق الوزيرين) أحد أسباب الصراع النفسي المر الذي كان ضحية له[1] ؛ لأنه استسلم لهواه في معالجة خطأ ربما كان هو السبب فيه ، فوقع في خطأ آخر، أثر تأثيرا عميقا في نفسه المتصوفة المومنة ، وقد تجلى ذلك بوضوح في كتاب (الاشارات الالهية) .

واذا التمسنا في الأخير حكما على موقفه هذا من الهجاء، فلن نجد أفضل من قولة الحسن بن سهل (ـ236هـ)[2] تعليقا على رسالة سهل بن هرون في مدح البخل لما قدمها اليه، فقد قال له :" قد مدحت ما ذمه الله ، وحسنت ما قبحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك فما نعطيك شيئا "[3]. فنحن كذلك نقبل أقوال أبي حيان من الناحية الأدبية والفنية، أما من الناحية الواقعية والتاريخية والأخلاقية فلا يمكن قبول أقواله الا في حدود ما تؤيده المصادر الأخرى وتسانده القرائن العامة .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

الأسباب المثيرة للهجاء والداعية اليه :

هذه مسألة أثارها التوحيدي أيضا في مقدمة كتابه ، وهو ينطلق في شرحها وما قشتها من منظور فكري واجتماعي ثابت يرتبط بمبادئه الفكرية والخلقية على وجه العموم.

فهو يؤكد أن المحاسن والمساوئ ثنائية ضرورية للوجود البشري ، لا يخلو الناس منها أفرادا و جماعات ، منذ خلقت الدنيا والى أن تفنى[4]. والسعيد من غلبت محاسنه على مساوئه ، وانتصر فيه جانب الخير على جانب الشر. والناس يتفاوتون في تعلقهم بالأخلاق الفاضلة ودرجة تشبثهم بها ، وبتفاوتهم في ذلك يتفاوتون في حب الآخرين لهم أو بغضهم ، ولذلك فالهجاء والمدح ضروريان للحياة الانسانية ضرورة الخير والشر لها[5] .

واذا كان المطبوع على الخير يدفعه حبه له على الاحسان وتجنب الاساءة

---

(1) انظر الفصل الأول من الباب الأول ص 61و 63ـ64.

(2) هو الحسن بن سهل السرخسي ، وزر للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وعرف بالذكاء والكرم والأدب . وتزوج المأمون ابنته بوران . انظر مروج الذهب 4/ 30، ووفيات الأعيان 2/ 120ـ123 ، والفخري ص 222ـ223.

(3) سرح العيون ص 166.

(4) أخلاق الوزيرين ص 26ـ27، وانظر الحيوان للجاحظ 1/ 204 ففيه كلام شبيه بما هنا .

(5) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 120ـ121.

فكذلك المجبول على الشر تحمله طبيعته الشريرة على الاضرار بالآخرين . وكما أن الاحسان يستوجب الشكر والحمد ،كذلك الاساءة تستوجب البغض والكراهية والذم(1)، والمادح والهاجي لا يخلوان من بعض الاسراف واتباع الهوى تبعا لموقفهما الشعوري من صاحبهما الممدوح أو المهجو،فهذا يبالغ تمننا ورغبة "في شفاء الغيظ وبرد الغليل "(2) وذاك يفرط استدرارا لعطف الممدوح وكرمه.

واذا كان مبدأ الخير والشر هو المنبع الأساسي لكل قول وفعل ،ولكل مدح وذم، فالأسباب والدواعي المثيرة للهجاء والمديح في الأفراد والجماعات ،تختلف حسب الظروف والأحوال. وأغلب تلك الأسباب يطرحها أبوحيان في كتابه بصور متعددة. فهو في المقدمة يختار من بين الشرور والاساءات كلها التي تدفع الى الهجاء وتتبع معايب الناس وفواحشهم ،شرا واحدا واساءة مفردة،ألا وهي الحرمان، وذلك " لأن جرعة الحرمان أمر من جرعة الثكل ،وضياع التأميل أمض من الموت، وخدمة من لم يجعله الله لها أهلا أشد من الفقر... وحرمان المؤمل من الرئيس ككفران النعمة من التابع.."(3). وبسبب ذلك نراه يحمل على الفقر والطمع اللذين دفعاه الى الوقوف أمام أبواب الأكابر والوزراء(4)، فلما لم ينل منهم ما يرضيه امتلأ غيظا وبغضا وكراهية للوزيرين خاصة لما لهما من صلة مباشرة بفقره وحرمانه، فاندفع في ذكرهما بالسوء وتخليد فواحشهما ومساوئهما.

وبذلك يعطي الأولوية للجانب المادي المباشر في اثارة مشاعر الغيظ والحنق والاحتقار الدافعة الى الثلب والهجاء. وهو يلتقي في ذلك مع ما سماه غير واحد من الدارسين بالهجاء الفردي أو الشخصي(5)الذي ينشأ حين يهاجم الشخص في مصلحته الخاصة،فيتحفز ويثور لصد العدوان،كما هو الشأن في هجاء الثالوث الأموي جرير والفرزدق والأخطل، وهجاء بشار والجاحظ. فالدفاع عن المصلحة الفردية هو السبب البارز في انتاج هؤلاء في الهجاء. وقد ساعد على قوته واستفحاله في العصر العباسي تعقد الحياة الاجتماعية فيه،وتزايد احساس الفرد بضياعه ومأساته. ولذلك تفنن الشعراء والأدباء في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم من الفروق المادية والمعنوية بين الأفراد والجماعات ،ومحاولة تجاوز ذلك كله والتعالي عليه. فظهر ما عرف بأدب الكدية ،وأدب الحرمان، وأدب الشكوى،وأدب الجوع،

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 29-31.
(2) المصدر نفسه ص 19.
(3) نفسه ص 19.
(4) نفسه ص 33-35.
(5) انظر الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص23،وثقافة الناقد الأدبي ص 324.

وكلها بلغت غاية نضجها في القرن الرابع الهجري (1)، وتجلت بصور مختلفة في أدب كل من ابن الرومي، وأبي حيان، والخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم.

وحين يهاجم أبوحيان الوزيرين ابن عباد وابن العميد من زاوية دينية وخلقية اصلاحية، ويطعن في مذهبهما الفكري والديني، فانما يشير الى ما يشكله الاختلاف في المذهب والشك والقيم، من سبب قوي في اثارة مشاعر العداء والبغض بين الافراد والجماعات، وما يثيره ذلك من ألوان الهجاء والتهكم والسخر. وهوفي ذلك يلتقي مع ما يسمى بالهجاء الاجتماعي (2)، وهو الذي ينشأ عن تشبث الفرد بمثل جماعة معينة كالقبيلة أو الأمة أو الفرقة أو المذهب، ويدافع عنها داخل الجماعة أو خارجها، ويهاجم كل من يحاول التخلي عنها أو النيل منها. وربما كان هذا اللون هو السائد في العصر الجاهلي حين كانت القبيلة وحدة متماسكة يشعر العربي بالانتماء اليها والذوبان الكلي داخلها. ولما حطم الاسلام وحدة القبيلة هذه، وظهرت الفرق الاسلامية والتيارات السياسية المتصارعة تحول هذا اللون ليصبح دفاعا عن حزب أو مذهب سياسي أوديني، وقد تمثل هذا في الشعر كما تمثل في النثر. وربما كانت الرسائل المتبادلة بين علي رضي الله عنه ومعاوية، وبين الحجاج والخوارج (3) وغيرهما من الرسائل المشابهة خير ما يمثل هذا اللون في النثر في العصر الأموي. أما في العصر العباسي فقد تجلى ذلك في الصراع الشعوبي والعرقي بين العرب والعجم، وفي الصراع المذهبي بين الفرق الاسلامية. وكتاب التوحيدي (أخلاق الوزيرين) يمثل هذا اللون في بعض مظاهره خير تمثيل.

ولعل مايظهر في كتاب أبي حيان عن الوزيرين، وعلاقته بابن عباد خاصة، من تنافس قوي على الزعامة في الكتابة والانشاء (4)، يمثل سببا آخر من أسباب الهجاء بين الكتاب والأدباء دعت اليه النهضة الثقافية العامة التي شهدها العصر العباسي. وعلى ضوئه يمكن تفسير بعض الخصومات الأدبية التي أثرت الأدب والنقد العربيين، وخاصة تلك التي كانت السبب في كتابة آثار أدبية تموج دعابة وسخرا، كما هو الشأن فيما شجر بين الجاحظ وأحمد بن عبد الوهاب وكان السبب في كتابة (رسالة التربيع والتدوير)، وما حدث بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وبينه وبين أبي الحسن البديهي كما سنرى.

أما الدفاع عن الأخلاق الفاضلة والدعوة الى وجوب التمسك بها، والادعاء بأن

---

(1) انظر ماسبق في التمهيد التاريخي ص 35-36، وانظر (الأدب في ظل بني بويه) ص 209، 239 فمابعدها.
(2) انظر ثقافة الناقد الأدبي ص 322.
(3) سنورد نماذج منها في دراستنا لتطور الهجاء النثري بعد قليل.
(4) انظر أخلاق الوزيرين ص 494-495، والبصائر والذخائر 1/193.

الهجاء يظهر عيوب الناس وشرورهم،ويدعوهم بطريقة غير مباشرة الى أن يتجنبوها،ويبتعدوا عنها،كما يذهب الى ذلك بعض أنصار الواقعية، فيظهر أن كل هاج ومادح يمكنه أن يدعي ذلك كما ادعاه أبو حيان(1)، اذ أن الصفات الخلقية المحمودة والمذمومة هي المعين الذي يعتمد عليه الأدباء مدحا وهجاء ،ويجعلونه المثل الأعلى حقا أوباطلا، وأصل ذلك كله يرجع الى الخير والشر المتأصلين في بني الانسان.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

الصفات الخلقية الأساسية التي يقوم عليها فن الهجاء :

أثار أبوحيان هذه المسألة،كغيرها من المسائل السابقة،في مقدمة كتابه،فحدد مجموعة من الأخلاق الفاضلة التي يتطلبها فن المديح ،وقرنها بأضدادها من الأخلاق المرذولة التي ينبني عليها الهجاء،وعليها أدار كلامه وحديثه في الكتاب من خلال وصفه لسلوك ابن عباد وابن العميد،وزعم أن صاحبه الذي طلب منه تأليف الكتاب هو الذي أشار عليه باضافتها الى أخبار الوزيرين لأن " ذلك يأتي على كل ما تتوق اليه النفس من كرم ولؤم، وزيادة ونقص،وورع وانسلاخ،ورزانة وسخف،وكيس وبله،وشجاعة وجبن، ووفاء وغدر،وسياسة واهمال،واستعفاف ونطف(2)، ودهاء وغفلة، وبيان وعي،ورشاد وغي، وخطأ وصواب،وحلم وسفه،وخلاعة وتمالك، ونزاهة ودنس، وفظاظة ورقة، وحياء وقحة،ورحمة وقسوة "(3)، وقد كرر هذه الصفات بصورة مفصلة ،وشرحها شرحا وافيا في (الامتاع والمؤانسة) (4).

ومن الطبيعي أن يربط أبوحيان بين هجائه للوزيرين وبين الصفات الخلقية المحمودة والمذمومة ما دام يحرص على أن يجعل من كتابه دراسة في الأدب والأخلاق مما كما رأينا(5) ،وما دام كل الشعراء والكتاب يرتبطون بالمثل الخلقية للجماعة التي ينتمون اليها،ويعبرون عنها في مدحهم وهجائهم ، عن وعي منهم بها أوبدون وعي ، اذ أن لكل جماعة انسانية تعيش في زمان ومكان معينين مجموعة من القيم والمعايير الخلقية يقوم عليها سلوكها وتصرفاتها في الأقوال والأفعال، ويكون أغلبها نابعا من مصالحها العامة ،ومن تراثها وعلاقاتها المختلفة، وتتأثر بالعوامل المادية والروحية السائدة في حياة الجماعة. فقد كان للجاهليين مثلهم وقيمهم التي صدروا عنها في شعرهم وأقوالهم وسلوكهم عموما. وهي التي يعنيها أبوالحسن محمد بن أحمد ابن

---

(1) انظر أخلاق الوزيرين ص44،والبصائر والذخائر 2/ 853.
(2) النطف :الفساد والتلطخ بالعيب . القاموس المحيط مادة نطف.
(3) أخلاق الوزيرين ص 10.
(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 149 ـ 157.
(5) انظر ما سبق في ص 133ـ134.

طباطبا (ـ322هـ) (1) عندما كتب يحدد الصفات الخلقية المحمودة والمذمومة عند العرب القدماء فقال: " وأما ما وجدته في أخلاقها، وتمدحت به ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حاله فيه، فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخلق الجمال والبسطة، ومنها في الخلق السخاء، والشجاعة والحلم، والحزم، والعزم.. "الى أن قال:" وأضداد هذه الخلال: البخل، والجبن، والطيش، والجهل، والغدر، والاغترار، والفشل، والفجور، والعقوق، والخيانة، والحرص، والمهانة، والكذب، والهلع، وسوء الخلق، ولؤم الظفر، والجور (2)، والاساءة، وقطيعة الرحم، والنميمة، والخلاف، والدناءة، والغفلة، والحسد، والبغي، والكبر، والعبوس والاضاعة، والقبح، والدمامة، والقماءة، والاستحلال، والخور، والعجز، والعي. ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها وتضاعف حسنها، وتزيد في جلالة المتمسك بها، كما أن لأضدادها أيضا حالات تزيد في الحط ممن وسم بشيء منها، ونسب الى استشعار مذمومها والتمسك بفاضحها..." (3). وبمقارنة هذه الصفات مع التي أوردها التوحيدي، يلاحظ طابع التجريد والتحضر وتطور المجتمع وعدم الاهتمام بالعيوب الجسدية عند أبي حيان، بينما الجاهليون، كما يبدو من النص الأخير، أكثر واقعية وارتباطا بالحس.

وبرغم مجيء الاسلام بقيم انسانية وروحية أسمى وأفضل تلح في أغلبها على وجوب الانتصار على جانب الخبث والشر في الشخصية البشرية، فان الهجاء بالمثالب المذكورة المعروفة في العصر الجاهلي، ظل سائدا مستمرا في ظل الاسلام مع بعض التعديلات التي اقتضتها ظروف التحول والتغيير، وتأثير القرآن بأسلوبه ومعانيه. ولهذا ظهرت عيوب أخرى نابعة من الدين ومقاييسه الخلقية كالكفر والنفاق وارتكاب الفواحش وما أشبهها من العيوب والصفات (4)، ومن ذلك قول جرير:

وما لتغلب ان عدّوا مساعيهم ... نجم يضيء ولا شمس ولا قمر
ما كان يرضى رسول الله فعلهم ... والعمران أبو بكر ولا عمر (5)

وقوله لما نزل بقوم فلم يقروه حتى اشترى منهم القرى:

يامالك بن طريف ان بيعكم ... رفد القرى مفسد للدين والحسب

---

(1) شاعر أديب ناقد، ولد وتوفي بأصبهان، من كتبه (عيار الشعر) و(تهذيب الطبع) و(العروض) انظر الفهرست ص 202، ومعجم الأدباء 17/ 143 فما بعدها.

(2) جاءت الكلمة في النص بالدال (الجود) ولا معنى لها في سياق الكلام والتصويب من أستاذنا الدكتور عزة حسن.

(3) عيار الشعر ص 12-13. ويجدر بالذكر أن أبا حيان اطلع على هذا الكتاب ونقل منه رأي مؤلفه في الشعر في البصائر والذخائر 2/ 116.

(4) انظر (الهجاء والهجاؤون في الجاهلية) ص 194 فما بعدها، و(فن الهجاء..) لايليا حاوي ص 93-104.

(5) الكامل للمبرد 1/ 84، والبيتان في شرح ديوان جرير 1/ 261، و 263 وبين ألفاظ الروايتين اختلاف.

قالوا نهيمكـه بيعا فقـلت لهـــم بيعوا الموالي واستحيوا من العـــرب(1)

ولذلـك لم يكن كبيرفرق بين المعانـي الهجائيـة في الأدب العربي قبل الاسلام وبعده،فظل الشعـر الجاهلـي المثل الأعلـى لدى أغلب الشعراء بصوره ومعانيـه. أما النثر فقد أثرفيـه القرآن تأثيرا واضحـا كمـا سنرى.

وفي العصر العباسي تزايـدت الفوارق الاجتماعيـة، وشاركـت العناصر غير العربيـة فـي الدولـة والمجتمـع الاسلاميين، بعقلياتهـا وتقاليدهـا وعاداتهـاالمباينـة للعرف والتقاليـد العربيـة،وترجمت آثار الثقافـات القديمـة الى العربيـة وامتزجت بالثقافـة العربية الاسلاميـة، فاحتد الصراع حول القيم الخلقيـة والمثل العليـا، وامتد أثره الى الثقافـة والتأليف. وقد مثل لنا الجاحظ في كتاب (البخلاء) وغيره جانبـا من المحنـة التي تعرضت لها المثل العربية،وتعرض لهـا من يحاولـون ـفي يأس وحيرة ـ التحلـل منهـا ونبذهـا ،قال مثلا وهو يخاطب من طلـب منه تأليـف كتابـه(البخلاء) :"وسألت أن أكتب لك.. .علة خباب في نفي الغيرة، وأن بذل الزوجة داخـل في باب المواسـاة والاثرة.. .وعلة الجهجـاه في تحسيـن الكذب في مواضع،وفي تقبيـح الصدق في مواضـع.. .وأن الناس يظلمـون الكذب بتناسـي مناقبـه،وتذكـر مثالبـه،ويحابـون الصدق بتذكـرمنافعـه،وبتناسـي مضاره.. ."(2). وقال على لسان صاحبـه الذي ألف له الكتـاب وهو يحصـي ما أنكـره من صفـات بخـلاء عصـره،ويطلب منه تعليلهـا وتفسيرهـا : "...ولـم سمـوا البخـل اصـلاحا والشـح اقتصادا؟ولم حامـوا حول المنع ونسبـوه الى الحزم ؟ ،ولـم نصبـوا للمواسـاة وقرنوهـا بالتضييـع ؟ولم زهـدوا في الحمـد وقل احتفالهـم بالذم ؟ولم جعلوا الجـود سرفـا والاثرة جهـلا ؟ ولم استضعفـوا من هش للذكـر وارتاح للبذل؟ ،ولم حكمـوا بالقـوة لمن لايميـل الى ثنـاء ولا ينحـرف عن هجـاء ؟"(3) ، فهذه شهـادة عن الصراع حول الأخلاق في العصر العباسي ،وقد غدت موضـع الجدال والنقـاش والشـك ، فتعرضـت بذلـك لامتحـان عسير،ولولا تأصلهـا في النفـس العربيـة وتسلحهـا بالقـرآن والديـن لتحطمت أمـام شراسـة الهجمـة التـي تعرضـت لهـا ،ولكنهـا ظلـت ثابتـة في المعركـة ،وان لم تحقـق الانتصـار المطلـوب.

وقد تميزت صفتـان مهمتـان من بيـن الصفـات الخلقيـة المذكـورة ،ونالـت من عنايـة الأدبـاء والكتـاب ونقاد الأخلاق الشيء الكثير،وهمـا صفتـا الكـرم والبخـل ،اللتـان يمكـن اعتبارهمـا محـور الفضائـل والرذائـل على اختلافهـا . قال أبو حاتم البستي (4)في كتابه (روضـة

---

(1) الكامل للمبرد 1/ 272،والبيتان في شرح ديوان جرير1/ 49، وبين ألفاظ الروايتين اختـلاف.

(2) البخـلاء ص 4.

(3) البخـلاء ص 1.

(4) أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمدالبستي ، عالم في الحديث والتاريخ والأدب ،كانت الرحلة الى مصنفاتـه في خراسان . الاعـلام 6/ 306-307.

العقـلاء) موضحـا العلاقة بينهمـا وبين غيرهمـا من الصفـات :" الكريم لا يكـون حقـودا ولا حسودا ، ولا شامتـا ، ولا باغيـا ، ولا ساهيـا ، ولا لاهيـا ، ولا فاجرا ولا فخـورا ، ولا كاذبا ،ولا ملـولا ، ولا يقطع الفه ،ولا يؤذي اخوانـه ،ولا يضيـع الحفاظ، ولا يجفو في الوداد ، يعطي من لا يرجـو ،ويؤمن مـن لا يخـاف، ويعفـو عن قدرة ، ويصل عن قطيعـة " الى أن قال :" الكريـم من أعطاه شكره ،ومن منعـه عذره ،ومن قطعـه وصله ، ومن وصله فضلـه ، ومن سأله أعطـاه ،ومن لم يسأله ابتدأه ،واذا استضعف أحدا رحمـه ،واذا استضعفـه أحد رأى الموت أكرم له منه، واللئـيم بضد ما وصفنـا من الخصـال كلهـا"(1). ولهذا يمكـن تصنيـف الصفات الخلقيـة كلهـا في صفتي الكرم والبخـل ،أو الخـير والشر حسـب تعبير التوحيـدي .

ومـما زاد في بروز هاتيـن الصفتيـن وتميزهـا اشتداد الأزمـة الاقتصاديـة ،وقلـة الموارد الماديـة ،حتى اتسـع الخرق واشتدت الأزمة في القرن الرابـع بسـبب الحروب والاضطرابات المتوالية. قال التنوخي (ــ384هـ) (2):" تجاربنـا ذكر شدة زماننـا وفقر الناس فيه وضيق أحوالهـم ،واستحبابهم البخل ،حتى ان بعضهـم يسميـه احتياطا وبعضهم اصلاحا ،وتوصيـة الناس بعضهم بعضا به وتحـذير التجـار من معاملات الناس ،ومسك الناس أيديهـم عن الاحسـان الى أحد أو بره أو اغاثة ملهوف ،أو التنفيس عن مكروب وأن ذلـك في الأكثر لضيـق أحوالهـم " الى أن قال :" لقد كان في الـدرب الذي أنزلـه هذا ،وهو درب مهروبـه ، خلق من أمراء ،وكتاب ،وتنـاء(3) ،وتجـار ، حسبت ما كانـوا يملكـون فكـان أربعة آلاف ألف دينـار. وما في هذا الدرب اليوم من يحتـوي ملكـه على أربعة آلاف درهـم غير أبي الحريـان أخي عمران بن شاهيـن"(4).

والى جانب سوء الوضع الاقتصادي هناك الصـراع الشعوبي ، فقد كانت صفة الكـرم شيمـة عربيـة أصيلـة اعتز بهـا العرب المسلمـون ،وافتخـروا بهـا أمام العقليـة الفارسيـة والأجنبيـة التي كانـت حائـرة في البحـث عن موقـف مقبـول من الثقافـة والتقاليـد العربيـة القديمـــة ، بعد أن آمنت واعتقـدت بالديـن الاسلامـي ،ولم يعد لهـا خيـار في وجوب الاندمـاج والاتحاد مع العرب المسلميـن ،بكل معتقداتهـم الدينيـة والخلقيـة. وتأليـف كتاب (البخـلاء) في هـذه الفترة عينهـا يشير ــ من بين ما يشير اليه ــ الى تصاعد الأزمة الاقتصادية والخلقيـة معا ،والى حـــدة

---

(1) روضة العقلاء ص 150 ،وانظر (الأسس الجمالية في النقد العربي) ص 310.

(2) هو المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي البصري ،قاض من العلماء الأدباء الشعراء، من كتبه (الفـرج بعد الشـدة) و(نشوار المحاضـرة) ،و(المستجـاد من فعلات الأجـواد) . انظر اليتيمـة 2/ 345ــ346 ،ومعجـم الأدبـاء 17/ 92 فما بعدهـا .

(3) جمع تانئ وهو الدهقان . القاموس المحيط مادة (تنأ) .

(4) نشوار المحاضرة 2/ 275 ،وعمران بن شاهيـن هو مؤسس الامارة الشاهينيـة بالبطيحة مـع جمـع من صيادي السمـك واللصـوص ،هدد هو وخلفاؤه الدولـة البويهيـة زمـانـا . انظر تاريـخ ابن خلدون 3/ 423 ،و 4 / 437 ،و 505.

الصراع مع الشعوبية التي كانت من بين الأسباب المباشرة لا تخاذ الكرم والبخل موضوعا للتأليف(1). ومع ذلك فبخلاء الجاحظ حريصون على الظهور بمظهر الكرم أمام الناس مشيرين بذلك الى أن الكرم هو الأصل والقاعدة، وأن البخل هو الشذوذ. أما في القرن الرابع، عصر التوحيدي، فقد خفت درجة هذا الحرص بسبب البؤس وقلة الموارد لدى الأكثرية وضعف الوازع الخلقي والديني (2).

ومما لا شك فيه أن الكرم كان أداة مهمة في يد أصحاب النفوذ والسلطان، به يكسبون عطف الناس وحبهم وتقديرهم وولاءهم، وقد جاء في رسالة طاهر بن الحسين الى ولده عبد الله(3): " ولا تدخل في مشورتك أهل الدقة والبخل، ولا تسمعن لهم قولا، فان ضررهم أكثر من منفعتهم، وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت في أمور رعيتك من الشح، واعلم أنك اذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية ... واجتنب الشح فانه أول ما عصى به الانسان ربه... وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد.."(4).

أما البويهيون ووزراؤهم وعمالهم الذين عاصرهم التوحيدي فسنعرض لموقفهم من الكرم والبخل في الفصلين التاليين، ويكفي أن نشير هنا الى أنهم، مثل غيرهم من ذوي الشأن والسلطان، لم يشذوا عن التيار العام في تفضيل الكرم وايثاره، وأنهم كانوا ينفقون غالبا عن تدبير وسياسة وحزم.

وللأسباب المذكورة كلها ظلت صفة الكرم محبوبة مطلوبة، وظل البخل مرذولا مذموما. وتمسك الكتاب والشعراء بهاتين الصفتين للحصول على أرزاقهم من الوزراء والكبراء، والتوحيدي كان يرى أن عطاء المتبوع لتابعه حق واجب وسنة مفروضة(5). ولذلك ظلت معاني المديح والهجاء في الشعر والنثر تدور على هاتين الصفتين وعلى توابعهما من الصفات الخلقية المحمودة والمذمومة.

وقبل أن نعرض للآثار النثرية الهجائية المكتوبة قبل عصر التوحيدي، نبحث أولا في مسألة اتخاذ النثر وسيلة للتعبير عن غرض الهجاء، وكلاهما من المسائل الكبرى التي تعرض لها التوحيدي في مقدمة كتابه.

---

(1) انظر مقدمة كتاب البخلاء ص 8 بقلم الدكتور طه الحاجري حيث حدد لذلك سببين هما: الصراع السياسي والشعوبي. وقد أورد صاحب العقد الفريد (1/ 197 فما بعدها) أخبارا عن أجواد الجاهلية والاسلام، وللتنوخي كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد).

(2) انظر ماسبق في المقدمة التاريخية ص 16–19، وانظر نشوار المحاضرة 1/ 15، والهفوات النادرة ص 224.

(3) طاهر بن الحسين وولده عبد الله من كبار قواد المأمون وولاته. توفي الأول سنة (207هـ) والثاني سنة (230هـ). انظر الكامل لابن الأثير 6/ 129، و 7/ 5، والبداية والنهاية 10/ 260، وتاريخ ابن خلدون 3/ 251–252.

(4) كتاب بغداد لابن طيفور ص 30.

(5) انظر أخلاق الوزيرين ص 41، و 91 – 92.

مزاحمة النثر للشعر في العصر العباسي في التعبير عن غرضي المديح والهجاء :

من المعروف أن النثر في العصر العباسي أثرت فيه ضروب من العوامل التي أثرت في الحركة الاجتماعية والثقافية العربية كلها بفضل النهضة الاسلامية الشاملة، وأصابته بتغير واضح في معانيه وأساليبه، ولعل أبرز تلك العوامل المؤثرة يتمثل في القرآن الكريم الذي ساهم بحظ وافر بمضامينه وطرقه التعبيرية في تطوير النثر وجعله يتسع لمختلف الأغراض والموضوعات[1]، فغزاه العقل والتفكير، وغاص في كل الميادين ، وصار أداة للتاريخ والفلسفة وحركة التدوين عموما، وسيطر على الكتابة الديوانية التي شاعت وانتشرت في العصر العباسي، وبذلك استطاع أن يؤدي المشاعر والعواطف الى جانب تأدية المعاني الكلامية والدينية والفكرية الدقيقة.

ولعل القرن الهجري الثالث هو الذي برز فيه التحول في طبيعة النثر بروزا واضحا فتناول الأغراض الشعرية ومعانيها . وذلك لأنه هو الذي شهد آثار التغير الاجتماعي والثقافي ونتائجهما، وفيه ظهر الجاحظ الذي سخر قلمه لخدمة احساسه وفنه كيفما كان اتجاههما، فمدح نثرا، وهجا نثرا، واعتذر ووصف وافتخر وتهكم، وارتقى في كل ذلك الى ما يفوق الشعر أحيانا من حيث التصوير والتأثير، وذهب الدكتور شارل پلا الى أنه الذي " أحل المنثور محل المنظوم"[2] ثم تبعه الكتاب في عصره وبعد عصره.

وقد شاعت هذه الظاهرة بصورة خاصة بين كتاب القرن الرابع وشعرائه[3] ولذلك أثارها أبو حيان في مقدمة كتابه، فدافع في البداية[4] عن الشعراء في معرض استدلاله بأقوالهم على انعدام الانسان الكامل الخلق، واحتج لهم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ان من الشعر لحكما، وان من البيان لسحرا"[5] ، وذهب الى أن الصدق والصواب قد يصدران منهم بالرغم من غلبة الأهواء عليهم، وسيطرة الرغبات الذميمة وتمكنها من نفوسهم، ثم أضاف محتجا لامكانية قول الحق بالنظم والنثر معا :" والشعر كلام وان كان من قبيل النظم، كما أن الخطبة كلام وان كان من قبيل النثر، والانتشار والانتظام صورتان للكلام في السمع كما أن الحق والباطل صورتان للمعنى . . . وليس الصواب مقصورا على النثر دون النظم، ولا الحق مقبولا بالنظم

---

(1) انظر (نشأة الكتابة الفنية) لحسين نصار ص 240–241.
(2) (الرسالة الهزلية من أبي عثمان الى أبي الوليد) مقال بمجلة الكتاب المراقبة العدد الخامس بابن زيدون، الرباط 1975 ص 125.
(3) انظر (النثر الفني في القرن الرابع) لزكي مبارك 1/ 107.
(4) أخلاق الوزيرين ص7–8.
(5) للحديث خبر انظره في البيان والتبيين 1/ 349، والامتاع والمؤانسة 3/ 163، وأخلاق الوزيرين ص 472. وهو في صحيح البخاري 7/ 25، وفي الجامع الصحيح لمسلم 3/ 12، وفي موطأ مالك بشرح الزرقاني 4/ 403.

دون النثر"(1) ،كما أورد عدة رسائل نثرية للكتاب من قبله(2) يحتج بها على صحة موقفه من الوزيرين ،وعلى امكانية هجائهما بالنثر كما فعل عدد من الكتاب السابقين كالجاحظ وأبي العيناء(3) والعتبي(4) وغيرهم في هجاء أعدائهم. ثم قال :" وأما الشعراء وأصحاب النظم،وأرباب المدح والهجاء ،والثلب والحمد ، والتشنيع والتحسين ،فهم كالطم والرم ، لا يكسبون الا بهذا المذهب... ولهم الهجاء المنكر ،والقول المخزي ، والقذع المؤلم... وانما المدار على الصدق في القول ،وعلى تقديم الحق في العقد ،وقصد الصواب عند اشتباه الرأي وغلبة الهوى."(5)

والحق أن أبا حيان لا يكتفي هنا ،كما يظهر من سياق كلامه، بالاحتجاج لصحة موقفه من الوزيرين الكبيرين، ولصلاحية النثر للهجاء ولغيره من الاغراض التقليدية المعروفة للشعر،ولكنه يشير أيضا الى ميله للنثر وتفضيله اياه على الشعر في أداء المعاني والاغراض فقد كان الرجل محرجا بعدة أمور،منها حرصه الشديد على سلوكه مسلك العلماء وأهل الصلاح ، يدعوه الى ذلك تدينه العميق، ومرتبته العلمية. ومنها عدم فصله بين الفن من جهة والدين والأخلاق من جهة أخرى كما رأينا(6)، ولذلك ظل يعتقد ، كأغلب العلماء، أن النثر وسيلة لنقل الافادة العلمية الصادقة الى جانب كونه وسيلة للمتعة الفنية كالشعر. فحرص على أن يكون كتابه مفيدا لقارئه في الأخلاق والآداب والعلوم، قال :"ما وصلنا حاطك الله حديثا بحديث،وكلمة بكلمة، الا لتكثر الفائدة ويظهر العلم ، ويكون ما صرفنا القول فيه مرفودا بالحجة الناصعة والامتاع المونق"(7) .

والمسألة لها دلالة أخرى غير ماذكر،وهي قلة الآثار النثرية الهجائية المتداولة في عصره وقبله،وربما يرجع السبب في ذلك الى غلبة الشعور بقبح الهجاء ، والحرص على عدم التعرض له،وعلى اخفاء ما قيل فيه واضاعته. قال أبوحيان :"أنا قرأت رسالة لابن المقفع في معايب بعض آل سليمان بن علي الهاشمي ، وكذلك أصبت رسالة لسهل بن هرون في مثالب الحراني ،ورأيت أيضا رسالة لسعيد بن حميد في فضائح آل علي بن هشام، وحتى الصولي بالأمس ذم بعض بني المنجم في رسالة له " الى أن قال :"ومن غريب هذا الفن

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 8 .

(2) المصدر نفسه ص 42 فمابعدها ولم يشر الى رسالة التربيع والتدوير ،وسنرى السبب في ذلك بعد قليل .

(3) تقدمت ترجمته في ص 137 ،حاشية رقم 3.

(4) هو أبوعبد الرحمن محمد بن عبد الله بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ،كان فصيحا أديبا شاعرا ،وله كتب، توفي سنة(228هـ) . انظر الفهرست ص 182.

(5) أخلاق الوزيرين ص 74،وانظر ص548 منه .

(6) انظر ماسبق في ص 133-134.

(7) أخلاق الوزيرين ص 547.

رسالة لأبي العيناء محمد بن يزيد في خبائث الحسن بن رجاء ..."(1)، فكلامه هنا ذو دلالة واضحة على اتخاذ النثر وسيلة للتعبير عن غرض الهجاء، وعلى قلة شيوع ما هو مكتوب فيه. ويبدو أن أبا حيان يقصد الرسائل الموجهة لذوي النفوذ المشتملة على حظ كبير من الفحش والاقذاع، لذلك لم يستشهد برسالة التربيع والتدوير ضمن ما أشار اليه أو أورده من الرسائل الهجائية.

وكل الرسائل التي أشار اليها لم يذكرها أحد فيما نعلم، وهذا دليل على عدم شهرتها، وعلى شدة تحريه وتنقيبه عنها، لذلك تحدث عنها بلهجة افتخارية واضحة في قوله " أنا قرأت " وقوله " ومن غريب هذا الفن ". وكل ذلك يدل أيضا على اهتمامه الكبير بموضوع الهجاء عندما رغب في تأليف كتابه، وعلى اتخاذه من سبقه من الكتاب قدوة له في هذا الفن، وذلك ما يفرض علينا القاء نظرة سريعة على ما كتبه الكتاب والأدباء قبله من آثار نثرية هجائية، حتى نتمكن من تحليل الكتاب على ضوئه.

××

الهجاء النثري قبل عصر التوحيدي :

ان الآثار الهجائية النثرية المعروفة في الأدب العربي عموما قليلة بالقياس الى ما هو معروف منها في موضوع المدح، وسبب ذلك اتفاق الجميع على قبح الهجاء ووجوب تجنبه والحرص على عدم التعرض لمن يتعاطاه وعدم تداول ما قيل منه، فكان من الطبيعي أن تقل الآثار النثرية الهجائية المعروفة قبل عصر التوحيدي، وكان طبيعيا أيضا أن يحرص أبو حيان على التعريف ببعضها، ويستشهد بها في مقدمة كتابه لتأييد موقفه من الوزيرين.

وعلى الرغم من شيوع الكتابة النثرية في مختلف الأغراض التي كانت خاصة بالشعر فان الشعور بقبح الشعر الهجائي واختصاص الشاعر بفن الهجاء المقذع ظل مستمرا في العصر العباسي، حتى ان بعضهم يفضل النثر على الشعر، ويتعصب لبلاغة الكتابة على بلاغة الشعر، ذهب الى أن الشاعر " يكون مقليا شينا بما يظن به من الهجاء الذي ربما دلاه في حومة الموت "(2) على خلاف ما يعرض لصاحب الكتابة والانشاء من التعظيم والتوقير.

وفي ذلك ما يشير الى كون الهجاء النثري متعقلا تغلب عليه العفة والسخر والتهكم، وتجنب الفحش والاقذاع، والوقيعة المباشرة في الأعراض لذلك اكتسب كتاب (أخلاق الوزيرين) خصوصية بين الآثار الهجائية النثرية لسلوك صاحبه مسلك الشعراء

---

(1) أخلاق الوزيرين ص71-74، وستأتي تراجم هؤلاء الكتاب ومناقشة مدى صحة ما ينسبه اليهم التوحيدي هنا.

(2) الامتاع والمؤانسة 2/ 138.

عليك حسرة . . ."(1) وورد عليه قطري برسالة منها قوله :" . . . ولعمري يا ابن أم الحجاج انك لمتيّه(2) في جبلتك ، مُطْلخِمٌ(3) في طريقتك ، واه في وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك ، يئست واستيأست من ربك ، فالشيطان قرينك . . . فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك ، وأوضح لي صلحتك ، فوالذي نفس قطري بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال ، مع أني أرجو أن يدحض الله حجتك ، وأن يمنحني مهجتك"(4) .

فمعاني الفخر ، والشجاعة ، والقوة ، والحزم ، والتدين ، وطابع البداوة ، وأضدادها من المثالب والعيوب ، هي السائدة في هاتين القطعتين ، وفي أغلب الرسائل الهجائية المنسوبة الى هذا العصر(5) ، مع بعض الافحاش في السب والشتم في بعضها كقول عبد الملك بن مروان في احدى رسائله الى الحجاج :" بسم الله الرحمن الرحيم ، ياابن المستفرمة بعَجَم(6) الزبيب ، والله لقد هممت أن أركلك ركلة تهوي بها في نار جهنم ، قاتلك الله ، أخيفش العينين ، أصك(7) الرجلين ، أسود الجاعرتين(8) ، والسلام"(9) .

وهناك الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية ، وبين الأسرتين الهاشمية والأموية عموما ، وهي التي أورد أكثرها صاحب نهج البلاغة ، ويصعب الوثوق بها لما في صياغتها وأسلوبها من تنافر واضح مع أسلوب العصر ، ولما في معانيها من جفاء وسوء خلق يتنافيان مع أخلاق علي كرم الله وجهه ، ولكنها مع ذلك لا تناقض الطريقة الجارية في كتابة رسائل ذلك العصر من حيث المعاني المتداولة والبناء العام .

ومن غريب ما نسب الى هذا العصر رسالة لعبد الله بن عباس رضي الله عنه موجهة الى مجبرة الشام(10) ، يعيب عليهم فيها مذهبهم الذي نعته بالضلال والنفاق والفسق والظلم والجهل وغير ذلك من الأوصاف الدنيئة . ولكن أسلوبها الشبيه بأساليب المتأخرين يجعلنا نعتقد أنها موضوعة ، وأنها نتاج الصراع العقائدي بين الفرق الاسلامية الذي كان ظلا للصراع السياسي في كلا العصرين الأموي والعباسي . ومع ذلك فهي تدل على وجود هذا اللون من ألوان الهجاء الذي تسببه العقيدة والمذهب قبل عصر أبي حيان .(11)

---

(1) البيان والتبيين 2/ 310 .

(2) تيّهه : ضيّعه كما في القاموس المحيط مادة (تاه) .

(3) اطْلَخَمّ : كلّ بصره . انظر القاموس المحيط مادة (... طلخم) والطلخم : المتكبر .

(4) البيان والتبيين 2/ 310-311 .

(5) انظر كتابين متشابهين بين معاوية وقيس بن سعد في البيان والتبيين 2/ 87 .

(6) في القاموس المحيط مادة (عجم) : عجم كل شيء نواه .

(7) رجل أصك : مضطرب الركبتين والعرقوبين . القاموس المحيط ، مادة (صك) .

(8) الجاعرتان : حرفا الوركين المشرفين على الفخذين . القاموس المحيط مادة (جعر) .

(9) البيان والتبيين 1/ 386 ، وقد أورده صاحب العقد 5/ 273-274 مطولا .

(10) فرق وطبقات المعتزلة ص27 .

(11) انظر (نشأة الكتابة الفنية لحسين نصار ص113-114 .

في القذع والسب المباشر،في بعض أخباره وصوره، فوصفه بعض من ذكره بأنه هجوعلى طريقة الشعراء وليس على طريقة الكتّاب(1) .وهذا من الأسباب التي جعلت مؤلفه يعاني متاعب جمة كما رأينا(2) . ولولا الصور الفنية الرفيعة الواردة في بعض قصصه وأخباره وحكاياته، والتي ارتفعت بها الى مستوى الآثار النثرية المشهورة بالسخر والعبث، لكان الكتاب أهجية متصلة طافحة بالمثالب والعيوب،باستثناء ما يرمي اليه مؤلفه في بعض نصوصه وأخباره من أهداف وأغراض أخرى غير الهجاء(3) .

واذا أردنا تتبع فن الهجاء النثري وتطوره،وألقينا نظرة على ما عرف منه قبل العصر العباسي ، وجدنا أن هذا العصر لم يرث شيئا ذا بال من هذا الفن عن العصور السابقة. وأقدم من أشار اليهم أبو حيان واحتج بأسبقيتهم في فن الهجاء النثري هو ابن المقفع(ـ142هـ) (4) . أما قبل ذلك فكل ما كان معروفا من هذا الجنس ويمكن اعتباره لونا من ألوان الهجاء هو المنافرات والمفاخرات الشفوية المزدهرة في العصرين الجاهلي والأموي(5) وكذلك بعض الخطب السياسية وبعض الرسائل المتبادلة بين زعماء العصر الأموي، التي عرفت السب والشتم، كما دونت كتب الأدب والأخبار أقوالا وفقرا وأمثالا للأعراب في الذم والهجاء من مختلف العصور(6) . وكانت كلها موردا وعونا للكتاب المترسلين ابتقوا منها المعاني والأساليب،ووشحوا بها رسائلهم واستشهدوا بها في كتابتهم. وقد اهتم التوحيدي بجمع الكثير منها وأدخله في كتابه.

والمنافرات والمفاخرات الجاهلية قامت على المثل الأخلاقية المعروفة في ذلك العصر، ولا تخلو من الشتم والسباب وذكر الآباء والأجداد والأعراض،وكانت رفدا لما تهاجى به ساسة العصر الأموي في رسائلهم وخطبهم،مع بعض الملامح والمعاني الاسلامية. فهذا الحجاج بن يوسف يكتب الى قطري بن الفجاءة(7) الزعيم الخارجي :" سلام عليك ، أما بعد فانك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، وقد علمت حيث تجرثمت(8) ،ذاك أنك عاص لله، ولولاة أمره، غير أنك أعرابي جلف،أمي ، تستطعم الكسرة، وتستشفي بالتمرة، والأمور

---

(1) انظر أعيان الشيعة 11 مجلد 12/ 340.

(2) انظر ما سبق في الفصل الأول من الباب الأول ص 60 فما بعدها .

(3) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 92 فما بعدها .

(4) انظر ترجمته وبعض أخباره في الفهرست ص 178، وأمالي المرتضى 1/ 134ـ136 ووفيات الأعيان 2/ 151ـ155.

(5) انظر نماذج منها في صبح الأعشى 1/ 372فمابعدها وانظر(الهجاء والهجاؤون في الجاهلية) ص 102 فما بعدها .

(6) انظر نماذج منها في العقد الفريد 4/ 35ـ42 وانظر الامتاع والمؤانسة 2/ 146.

(7) اسمه جعونة بن مازن ،وكنيته أبو نعامة،خرج زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق سنة (66هـ) فبقي ثلاث عشرة سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، وهو من الخوارج الأزارقة ، قتل سنة(78هـ) انظر وفيات الاعيان 4/ 93ـ95 ،والاعلام 6/ 46ـ47.

(8) تجرثم :اجتمع ولزم الموضع. القاموس المحيط مادة (جرم) وفيه أيضا بمعنى سقط من علو الى أسفل .

ولا بأس من الاشارة الى أنه منذ العصر الأموي بدأ هذا الفن يميل الى التحضر والتأنق، ومجانبة الجفاء والفحش المرتبطين بحياة الصحراء والبداوة، فقد روى الجاحظ أن سليمان بن عبد الملك أمر وفود أهل العراق أن يسبوا الحجاج فقال أحدهم: " كان عبدا زنابا قَنّوْرا (1) ابن قَنّور (2)، لا نسب له في العرب. فقال سليمان: أي شتم هذا؟ .. فقام ابن أبي بردة (3) بن أبي موسى، فقال: يا أمير المومنين، أخبرك عن عدو الله بعلم، قال: هات، قال: كان عدو الله يتزين تزين المومسة، ويصعد على المنبر، فيتكلم بكلام الأخيار، واذا نزل عمل (عمل) (4) الفراعنة، و أكذب في حديثه من الدجال. فقال سليمان: هذا وأبيك الشتم لا ما تأتي به هذه السفلة" (5)، فسليمان بن عبد الملك يرفض الأوصاف الجافية التي لا حظ لها من الحقيقة في شخص الحجاج، ويثني على الوصف الذي يبني تصوره على الواقع المحسوس، وتلك سمة من سمات التصوير والتعبير حافظ عليها وأتقنها كتاب العصر العباسي كما سنرى عند الجاحظ وأبي حيان وغيرهما.

ويلاحظ أن الرسائل الهجائية المنسوبة الى العصر الأموي تميل الى الايجاز والاقتصار على الغرض المقصود، واستعمال التعابير المجازية أحيانا مع ميل واضح الى التصريح بالفواحش والعورات، ومع الافتتاح بتحية الاسلام والختم بها. و يلاحظ كذلك أن كتّاب بني أمية المشهورين كسالم وعبد الحميد الكاتب (6) لم يؤثر عنهم، فيما نعلم، شيء من هذا الفن.

وفي العصر العباسي تجدد أمر الكتابة والكتّاب وتغير شأنها بتغير الأوضاع السياسية والاجتماعية وازدهار الثقافة، غير أنه لا يسعنا الا أن نؤيد التوحيدي فيما استشعره من قلة ما هو محفوظ من الآثار الهجائية المنسوبة للكتّاب من قبله. ولا نستطيع أيضا أن نثق كل الثقة، مادمنا لا نملك الحجج الكافية، بصحة ما ذكره عن هجو ابن المقفع (7) لبعض آل سليمان الهاشمي، وهجو سهل بن هرون (8) لابن ذكوان

---

(1) هكذا اختار المحقق عبد السلام هرون أن يقرأ هذه الكلمة، ومعناها فأر عظيم أصم، وذهب الى أنها تعني الجاهل. وهو تأويل بعيد.

(2) القِنَّوْر: العبد، والقَنَّور: الشرس الصعب من كل شيء. القاموس المحيط مادة (قنر).

(3) هو بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، قاضي البصرة وأميرها، توفي في سجن يوسف بن عمر الثقفي سنة (126هـ). انظر الأعلام 2/ 49.

(4) زيادة منا يقتضيها السياق.

(5) البيان والتبيين 1/ 397.

(6) انظر ترجمته في الفهرست ص 176، ووفيات الأعيان 3/ 228-232. وفي الفهرست أيضا ص 177 ترجمة مختصرة لسالم.

(7) انظر مصادر ترجمته في ص 149 حاشية رقم 4.

(8) هو سهل بن هرون بن راهبون الدستميساني، كاتب فصيح شاعر، فارسي الأصل شعوبي، شديد العصبية على العرب، وله كتب. توفي سنة (215هـ). انظر البيان والتبيين 1/ 52، والفهرست ص 180، ومعجم الأدباء 11/ 266 فما بعدها.

الحراني ، وهجو سعيد بن حميد (1) لآل علي بن هشام، وهجو الصولي (2) لبني المنجم (3) ، وهجو المبرد (4) للحسن بن رجاء (5) . وهو نفسه أشار الى هذه الرسائل دون أن يوردها (6) . ولا شك أن التوحيدي كان يقصد ذلك النوع من الهجاء الموجه لذوي النفوذ والسلطان. أما مهاترات الكتاب وتشاتمهم فيما بينهم فلم يهتم به الا نادرا ،لأنه لا علاقة له بموقفه المتصل في هجاء شخص لا سند له ولا شأن لوزيرين خطيرين.

وكل ما يمكن معرفته هو أن أغلب الكتاب المذكورين كانت لهم علاقات ولاء وصحبة مع مهجويهم ، فابن المقفع كان كاتب عيسى بن علي أخي سليمان المذكور، وعلى يده دخل الاسلام كما هو معروف (7) ، ولم ينفصل عن أسرتهما حتى وفاته مقتولا ،بل انهما حاولا أن يصرفا سبب قتله. وهذا يدل على استمرار تقديرهم له وعطفهم عليه،فكيف يهجوهم ابن المقفع الا أن يكون الهجو منصرفا الى " بعض آل سليمان "-كما يقول أبو حيان - ممن هم أدنى مرتبة من سليمان وعيسى ، وابن المقفع على أي حال معروف بالسخر والعبث بالآخرين (8) .

أما ابراهيم بن ذكوان الحراني كاتب الهادي ووزيره فكان صديقا لسهل بن هرون بشهادة التوحيدي نفسه الذي قال: " قيل للحراني : بينك وبين سهل بن هرون صداقة فانعته لنا كي نعرفه، فقال : هو كالخير ، وازن العلم ،واسع الحلم" (9) والقولة كلها في مدحه، فهل عرض لصداقتهما ما كدرها فانقطعت ثم تبعتها العداوة والهجاء ؟

وسعيد بن حميد قال فيه المسعودي انه " كان يتنصب،ويظهر التسنن والتخيل، وظهر عنه الانحراف عن أمير المومنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن الطاهرين

---

(1) أبو عثمان سعيد بن حميد ، كاتب شاعر عذب الألفاظ،تولى ديوان الرسائل للمستعين بالله. وهو فارسي الأصل. انظر الفهرست ص 185، و مروج الذهب 4/ 145-147.

(2) تقدمت ترجمته في ص 133.

(3) انظر الفهرست ص211،و اليتيمة 3/ 114-117.

(4) تقدمت ترجمته في ص 24. حاشية رقم 5.

(5) الحسن بن رجاء ،كان من كبار الكتاب والولاة في الدولة العباسية، وكان مقصد شعراء عصره وأدبائه وخاصة أبا تمام. انظر أخبار أبي تمام ص 167-182.

(6) انظر أخلاق الوزيرين ص 71-73.

(7) وفيات الأعيان 2/ 151.

(8) انظر تلعبه بأمير البصرة في وفيات الأعيان 2/ 153.

(9) الصداقة والصديق ص 303،وقد ذهب الدكتور ابراهيم الكيلاني في طبعته لكتاب أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين ص 50) الى أن الحراني المقصود في كلام أبي حيان هو سنان بن ثابت بن قرة(-331هـ) وهو خطأ لأن سهل بن هرون توفي سنة(215هـ) قبل سنان. وابن ثابت لم يعلق بشيء. انظر الفخري ص192.

من ولده، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

ما رأينا لسعيد بن حميد من شبيه

ما له يؤذي رسول الله في شتم أخيه

انه الزنديق مستول على دين أبيه" (1)

وفي ذلك تأكيد واضح لهذا الهجاء الذي يشير اليه أبو حيان.

والمبرد تحدث عن الحسن بن رجاء في أحد مواقفه فقال: كنت اذا رأيته رأيت رجلا كأنما خلق لذروة منبر أو صدر مجلس، يتكلم وكأنه يتنفس، يسهب ويطنب، ويعرب ويغرب، ولا يعجب ويُعجب(2)، وهذا دليل على اتصاله به ومعرفته له. وأبو بكر الصولي كان تلميذا لأحد أبناء المنجم(3).

ومع ذلك فتأكيد الاتصال بين هؤلاء الكتاب ومهجوييهم، باستثناء سعيد بن حميد، لا يقطع بصحة هجوهم لهم ما لم تتوفر نصوص أكثر تأييدا لذلك وأوضح برهانا عليه. والشيء الوحيد المؤكد في هذا المجال أن النصوص الهجائية النثرية الموجهة للكبار نادرة جدا، وحرص أبي حيان على ايراد بعضها في مقدمة كتابه والاشارة لبعضها الآخر يؤيد ذلك ويناصره.

غير أن كتب الأدب احتفظت ببعض رسائل كتاب آخرين وأقوالهم غير الذين أشار اليهم التوحيدي ممن ينتمي الى القرنين الثاني والثالث الهجريين. فقد أورد صاحب العقد الفريد(4) نماذج لكل من أحمد بن يوسف(5) والعتابي(6) وغيرهما. وهناك ما دونته كتب الأدب لغسان بن عمرو الباهلي، ومطرف بن أبي مطرف(7) وأحمد بن أبي طاهر، وأبي علي البصير(8)

(1) مروج الذهب 4/ 146.
(2) زهر الآداب 2/ 594.
(3) انظر نزهة الألباء ص 236.
(4) العقد الفريد 4/ 287–288.
(5) أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، كاتب المأمون ووزيره. انظر الفخري ص 225–226، ومعجم الأدباء 5/ 161–183.
(6) أبو عمرو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي العتابي، من نسل عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي، وكان كاتبا شاعرا مدح الرشيد وصحب البرامكة وطاهر بن الحسين وله كتب. توفي سنة (220هـ). ترجمته في الفهرست ص181، ومروج الذهب 3/ 366، و 4/ 14–16، ومعجم الأدباء 17/ 26 فما بعدها.
(7) انظر الفهرست ص 188.
(8) اسمه الفضل بن جعفر، فارسي الأصل، أديب ظريف شاعر كاتب، مدح المعتصم ومن جاء بعده وتوفي سنة (255هـ). انظر طبقات ابن المعتز ص 397، ومروج الذهب 4/ 147، والفهرست ص 184، ونكت الهميان ص 225.

وأبي العيناء وغيرهم ، وما دونه التوحيدي نفسه لابن ثوابة[1] وأبي العيناء وابن مكرم[2] وغيرهم ، فضلا عن التراث الجاحظي في هذا الفن كرسالة التربيع والتدوير ورسالته في هجاء محمد بن الجهم البرمكي . ولا شك أن الباحث المستقصي سيجد أكثر من هذا ، ولذلك يستطيع المرء أن يطمئن الى الأحكام التي يمكن أن تستخلص من دراسة هذه البقية المحفوظة من هذا الفن .

وأول ما يلاحظ أن أغلب هذه الرسائل تدور بين الكتاب أنفسهم ، أو بينهم وبين من يرجون نوالهم وعطفهم من رؤسائهم الأقربين ، فكانت بذلك ، في مجملها ، ناتجة عن التنافس الأدبي والصراع حول المناصب الكتابية رغبة في الشهرة والنفوذ والعطايا . ولذلك جاءت معانيها متقاربة الى درجة التكرار ، تدور في أغلبها حول صفات الكرم ، واللؤم ، والبخل ، والتكبر ، والظلم ، والقسوة ، والشظف ، والجهل ، والقذارة ، والخيانة وارتكاب الفواحش ، وضعف التعلق بالدين وواجباته وما أشبهها .

فهذا مطرف بن أبي مطرف يصف عبد الله بن مصعب[3] فيقول : " فانك كتبت الي تسألني عن عبد الله بن مصعب ، فكان والله غشا في دينه ، قذرا في دنياه ، رثا في مروءته ، سمجا في هيئته ، مسكينا في علمه ، منقطعا الى نفسه ، راضيا عن عقله ، بخيلا بما وسع الله عليه من رزقه ، كتوما لما آتاه الله من فضله ، حلافا لجوجا ... "[4] فالصفات الدنيئة هنا تندفع متلاحقة ، كأنها ملأت نفس الكاتب منذ زمان فقذفها قذفا عند أول مناسبة . وكتب أيضا في وصف الوالي المذكور : " أما بعد فانك كتبت الي تسألني عن عبد الله بن مصعب ، فكان والله قويا على أهل الضعف والمسكنة ، ذليلا عند أهل الجلد والقوة ، بليغا فيما استحيى العلماء من ذكره ، وصافا لما لا ينتفع به ، كليلا عما لا يستغنى عنه ، قد غلبت عليه الدعابة واستهوته فلا يحسن الا ترهات الأمور ، ولا يحفظ الا سفساف الأحاديث ، ولا يروي الا خرافات الأباطيل ، فأما البصيرة النافذة ، والحكمة البالغة ، فقد أصبح أبوبكر منها غفلا ، وفي المعرفة بها طفلا . ولو لبث أربعين سنة لم يفهم أولاها ولم يعرف أخراها ، الا نظر المغشي عليه من الموت ... "[5]

---

(1) أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب ، من أسرة مشهورة بالكتابة والانشاء . توفي سنة (277هـ) . انظر الفهرست ص 193-194 ، ومعجم الأدباء 4/ 144 فما بعدها ، وسيأتي تحليل رسالته في ذم الهندسة في الباب الثالث بحول الله .

(2) محمد بن مكرم ، وصفه ابن النديم بأنه كاتب بليغ مترسل ، وعرف بمهاجاته لأبي العيناء . انظر الفهرست ص185 .

(3) هو أبوبكر عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، من الولاة أيام الهادي والرشيد ، انظر مروج الذهب 3/ 351 .

(4) جمهرة رسائل العرب 4/ 208 .

(5) المصدر السابق 4/ 209-210 .

فالأوصاف السائدة في هاتين القطعتين هي أوصاف القذارة والسماجة ،والبخل والظلم ، والسخافة، وقلة الخبرة بالأحاديث النافعة والأخبار المفيدة،وكلها أوصاف يحتاج الكاتب أو الوالي الناجح الى تجنبها واطراحها ،والتحلي بأضدادها ،حتى يفوز باقبال رؤسائه ورضاهم،وعنصر التنافس واضح من خلالها .

ويلاحظ في هذه الرسائل ميلها الى نوع من اللين والتلطف في الحديث،والى نوع من السخر والتهكم بالمهجو، وذلك ما يؤذن بزوال الخشونة المعروفة قبل هذا العصر فصار الهجاء خفيفا رقيقا بسبب التقدم الحضاري وتغير الذوق الأدبي العام، فهذا ابراهيم بن اسماعيل(1) يكتب الى علي بن الهيثم : " بلغني ما أظهرت من الوعيد والحمية، فحملت ذلك منك على شرف الحسب وكرم النسب، فان لأشراف العرب سطوات لا يملكونها، وكل ما أتيت فشبيه بك وبموضعك ،وقد قيل :(احذر صولة اللئيم اذا شبع) و أنت أبا حسن - مد الله في عصرك - منهم ، ولك في معاداة الرجال لذة أرجو أن يجعلها الله سبيلا لهلاكك..."(2) . فقد بدأ كتابه مهذبا رقيقا كأنه يمدحه بشرف النسب،وهو في حقيقته يعرض بتكبره ، ثم انثنى ضده ساخرا متهكما وهو يدعو له بطول العمر. وهذه نزعة ساخرة ستتبوأ مكانتها عند الجاحظ كما سنرى .

وفي جواب ابن الهيثم على الكتاب المذكور يلاحظ أنه يعلي شأن نسبه هو بينما ينعت الآخر بالضعة وحقارة الأصل ،كما يفتخر بعلو مرتبته في الكتابة و مكانته لدى الخلفاء ، ولذا يختم كتابه اليه بقوله : " ...ولو أردت قتلك لم أقتلك أو أصل الى قتلك بأكرم من لؤم فعلك وأصلك ،فافخر بهذا جوابا ،على أني لا أريك له أسبابا..."(3).

وكتب العتابي في هجاء بعض معاصريه فقال : " تأتينا افاقتك من سكرتك ،وتراقبنا انتباهك من رقدتك ، وصبرنا على تجرع الغيظ منك ،حتى بان لنا اليأس من خيرك ،وكشف لنا الصبر عن وجه الغلط فيك ، فها أنا قد عرفتك حق معرفتك ، في تعديك لطورك ،واطراحك حق من غلط في اختيارك "(4) . وهذا كتاب مهذب لا يذكر عورة أو فحشا أو نقيصة واضحة، ومع ذلك حكم على مهجوه بالتخلف في كل شيء والخلو من كل خير. وقد رسم العتابي حكمه عليه من خلال تطور موقفه من مهجوه، فعلى حين تحلى هو بالصبر وكظم الغيظ اذا بالآخر يحمله باصراره في مذهبه على اليأس منه ،فلا نفسه وعظته ، ولا موقف الآخرين منه ثناه عن سوء اختياره وقبيح فعله.

---

(1) قال فيه ابن النديم :"له تقدم في البراعة والبلاغة،وله كتاب رسائل" ولم يصفه بأكثر من هذا . الفهرست ص 185 .

(2) جمهرة رسائل العرب 3/ 401-402 .

(3) نفسه 3/ 403 .

(4) العقد الفريد 4/ 288 .

وهذا هارون الرشيد يكتب الى علي بن عيسى بن ماهان[1] ،الذي ولاه خراسان فأفسد فيها، كتابا يبدوءه بقوله :" لسم الله الرحمن الرحيم ،يا ابن الزانية،رفعت قدرك، ونوهت باسمك، وأرطأت سادة العرب عقبك، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك، فكان جزائي أن خالفت عهدي ،ونبذت وراء ظهرك أمري ..."[2] وكله في التهديد والوعيد ،وقد استهله بالفحش والشتم ، ولكنه دون فحش الحجاج وعبد الملك بن مروان وشتمهما لأعدائهما.[3]

ولأحمد بن أبي طاهر رسالة مطولة في ذم ابن ثوابة ينعته فيها بالتكبر والتعالي والجبروت حتى ادعى أن الرجل : " يحسب الجود ذلا ،والبخل عزا ،والجور عدلا ..ولا يستكثر الخلافة فيحدث بها نفسه تيها ،ولا النبوة يتناهى على ربه عجبا، واذا قعد على فراشه وأخذ مجلسه ورمى بطرفه في منازله دخلته العزة، وعلته الابهة، وغلب عليه الكبر ،حتى يخيل اليه أن بيت الله الحرام بعض داره..."[4] ،ومع ذلك يدعي الكاتب أنه لم يصفه الا بأحسن مافيه. ولا شك أن لما قاله فيه أصلا واقعيا بنى عليه أوصافه، فقد وصف ابن النديم ابن ثوابة بقوله : "وكان أبو العباس من الثقلاء البغضاء"[5] وذلك دليل على أنه كان غرضا لأقلام الكتاب يعبثون به ويسخرون من سلوكه وأخلاقه. وسنجد تصويرا ممتازا لملامح هذه العظمة الجوفاء في رسالته في ذم الهندسة الموضوعة عليه[6] ، كما سنرى أمثلة منها في تصوير أبي حيان لشخصيتي الوزيرين ابن عباد وابن العميد .

وللكاتب نفسه رسالة الى أبي علي البصير يحذره فيها من مؤاخاة ابن مكرم، واتخاذه صديقا دونه،وقد قدم لها بمقدمة طويلة يعاتبه فيها ويصف ما بينهما من الاخاء والصفاء، ثم خاطبه بقوله:" وأحتج عليك اذ قصرت، وقدمت علي في اخائك من ليس من أكفائي ولا أكفائك، المقلي المذمم ، المهين ابن مكرم، العاق لأبيه،والمنتفي من أخيه، والقاذف لأمه، والقاطع لرحمه، المهتوك الحرمة،الوضيع الهمة، الضيق الصدر، القريب القعر، السريع الى الصديق، البطيء في الحقوق، المشهور بالزناء، المعروف بالبغاء..."[7]. ويستمر هكذا في وصفه بقلة الورع ودنس العرض والاخلاق،وثقل

---

(1) قائد من قواد هارون الرشيد وابنه الأمين،اشتهر في التاريخ بقيادته جيوش الأمين ضد أخيه المأمون،وقتله طاهر بن الحسين في مدينة الري سنة(195هـ) . تاريخ ابن خلدون 3/ 232.

(2) جمهرة رسائل العرب 3/ 327.

(3) انظر ما سبق في ص 149—150.

(4) جمهرة رسائل العرب 4/ 345—346.

(5) الفهرست ص 194.

(6) في الفصل الثاني من الباب الثالث.

(7) جمهرة رسائل العرب 4/ 350.

الروح ، وخفة العقل ، ورثاثة الهيئة ، وغير ذلك من الأوصاف الشاملة لأحواله الجسدية والخلقية حتى لم يكد يترك بائقة الا ألصقها به في تتابع متواصل كالقذائف . ثم يؤكد أن ذلك " قليل من كثير ما أعرف عنه ". وكل ذلك رغبة منه في التشفي من عدوه واسقاط مرتبته من عيني صديقه .

ولا داعي للاطالة بتقديم النماذج المختلفة من هجاء كتاب القرنين الثاني والثالث . وننتقل بعد ما تقدم الى الحديث عن كاتبين من كتاب القرن الثالث نعتقد أن لهما أكبر الاثر في التوحيدي ، من حيث الطريقة المتبعة وبعض الافكار المعروضة والصور المرسومة في كتابه (أخلاق الوزيرين) خاصة ، وهما أبو العيناء وأبو عثمان الجاحظ .

لقد أورد أبو حيان في مقدمة كتابه نماذج من أقوال أبي العيناء في هجاء ابن مكرم ، وعيسى بن فرخنشاه (1) ، ومحمد بن طاهر (2) ، وأحمد بن أبي دواد (3) ، مع رسالة مطولة (4) كلها فحش صريح وسباب وقذع في هجاء ابن مكرم ، كما أشار الى رسالة الجاحظ في هجاء محمد بن الجهم البرمكي (5) ، وأورد جزءا من رسالة له في هجاء بعض معاصريه (6) . وهو في كل ذلك يستنجد بهما في الاحتجاج لصحة موقفه من الوزيرين ، ويؤكد في الوقت نفسه أنه اقتدى بهما وتأثر بما أثر عنهما من أقوال ورسائل في فن الهجاء .

وأبو العيناء الضرير الأديب الفكه تعاطى الكتابة الهجائية وقرض الشعر كما يستفاد من ترجمته ، ولكن لم يصلنا الا القليل من رسائله وأقواله واجاباته وأخباره ، وعلى رأسها ما رواه منها أبو حيان في مقدمة كتابه وغيرها ، على الرغم من اهتمام القدماء بروايتها وتدوينها . وقد وصفه أحد معاصريه ، وهو أبو علي البصير ، في رسالة هجاه بها فقال : " أما بعد ، فانك الرجل الدقيق حسبه ، الردي مذهبه ، الدني مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذي لسانه ، المقلي مكانه ... قد صيرت القحة جنة ، وشتم الأعراض سنة ، والاقتصاد في ذلك منة " الى أن قال : " والناس منك بين أسرار تفشى ، وبوائق تخشى ، وشناعات واردة ، ونوادر باردة ، تدرج كلامك خوف التحصيل ، وتوري عن عيبك بالقال

---

(1) وزير من وزراء المعتز بالله العباسي ، عزله بعد أن أثار فتنة بين الاتراك . انظر الفخري ص 244 ، وأخلاق الوزيرين ص 45–46 .

(2) آخر من تولى من الأسرة الطاهرية . انظر تاريخ ابن خلدون 3/ 309 ، وأخلاق الوزيرين ص 46 .

(3) انظر أخلاق الوزيرين ص 73 ، وأحمد بن أبي دواد القاضي كان من أفاضل المعتزلة في أيام المأمون والمعتصم ، ومن الذين أظهروا المذهب واعتنوا به . انظر الفهرست ص 253–254 ، ومروج الذهب 4/ 97–98 . وكانت وفاته سنة (240هـ) .

(4) أخلاق الوزيرين ص 56–60 .

(5) المصدر نفسه ص 42–44 .

(6) نفسه ص 61–62 .

والقيل..."(1) وهي رسالة طويلة من أجود الرسائل الهجائية المنسوبة الى هذا العصر. ويلاحظ أن صاحبها يميل الى المبالغة والافراط، الا أنه ينطلق مما هو معروف عن أبي العيناء من البذاءة والقحة والجرأة، وسرعة البديهة، وكثرة الكلام، والعناية بتنميقه وتزويقه. وذلك ما أغرى الكثيرين بروايته والحرص على تداوله، ويغلب على الرجل الفحش والسلاطة واللامبالاة والتشفي الواضح. ولذلك قال له المتوكل عندما دخل عليه: "بلغني عنك بذاء في لسانك"(2) وقال فيه ابن النديم: "وكان أهل العسكر يخافون لسانه"(3).

ولقد فاز ابن مكرم وأحمد بن الخصيب(4) بقسط وافر من قحته وسلاطة لسانه، وهما من الشخصيات التي أساءت التدبير والسلوك، فانطلقت الألسنة ضدهما بالمنكر من القول. ولقد سبقت الاشارة الى رسالة ابن أبي طاهر في ذكر مثالب ابن مكرم، وهي المثالب نفسها التي تفنن أبو العيناء في ترددها بمختلف الأساليب(5). أما ابن الخصيب فيقول فيه المسعودي: انه كان "قليل الخير، كثير الشر، شديد الجهل"(6)، وقال فيه صاحب الهفوات النادرة: "وكان أحمد بن الخصيب وزير المنتصر خفيفا طائشا، وكان يرفس المتظلمين اذا كثروا عليه وهو راكب ويبصق عليهم. فقال فيه بعضهم:

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... اشكل وزيرك انه ركال

اشكله عن ركل الرجال وان ترد ... مالا فعند وزيرك الأموال (7)

...وكان أحمد بن محمد بن المدبر(8) يقول: انما رزق الله تعالى أحمد بن الخصيب الحظ الذي رزقه ليعلم الناس أن الأرزاق ليست بالاجتهاد ولا الاستحقاق، وانما هي فوضى بين العقلاء والجهلاء..."(9). وقال فيه ابن الطقطقي: "كان أحمد مقصرا في صناعته، مطعونا عليه في عقله، وكانت فيه مروءة وحدة وطيش"(10).

فهذه الأقوال تشهد بجهل الرجل وتكبره وطيشه، وبأنه لا يستحق مرتبة الوزارة

---

(1) جمهرة رسائل العرب 4/ 160-161.

(2) معجم الأدباء 18/ 288.

(3) الفهرست ص 187.

(4) وزير المنتصر والمستعين العباسيين. انظر مروج الذهب 4/ 132، والفخري ص 239.

(5) انظر ما سبق في ص 156، وانظر رسالتين متبادلتين بينهما في أخلاق الوزيرين ص ص 55-60، وانظر معجم الأدباء 18/ 291-292.

(6) مروج الذهب 4/ 135.

(7) البيتان في معجم الأدباء (18 / 303-304) ضمن أبيات منسوبة لأبي العيناء نفسه.

(8) هو أخ ابراهيم ابن المدبر الآتي ذكره.

(9) الهفوات النادرة ص 261- 262

(10) الفخري ص 239.

التي منحهما،و أن الحظ وحده كان حليفه ونصيره،وتشهد أيضا بأن أبا العيناء بنى هجاءه فيه على حقائق ثابتة وواقع صحيح . وهذا ماسنجد ملامح منه عند أبي حيان في وصفه لأخلاق الوزيرين ابن عباد وابن العميد ،وفي بحثه عن أسباب نجاحهما ومحاولة تفسيره.

ولما عزل ابن الخصيب عن الوزارة اهتبلها أبو العيناء فرصة مواتية فوضع على ألسنة الكتاب ورجال الدولة أقوالا متنوعة في ثلبه والحط من قدره . وتهمنا هذه الأقوال أكثر من غيرها من أخباره ونوادره،لما فيها من مشابه واضحة بما في كتاب التوحيدي على الرغم من أن هذا الأخير لم ينقل منها ولم يشر اليها مثلما نقل غيرها من أقواله ورسائله.

ومن تلك الأقوال قوله فيه:" قال محمد بن عبد الله بن طاهر(1) :غدر بمن آثره وتخطى ما لا يقدره،فحل به ما يحذره. وقال ابن طولون: تكبر وتجبر،ودبر فدمر. وقال موسى(2) بن بغا الكبير: لولا أن القدر يغشى البصر ،لما نهى ابن الخصيب فينا ولا أمر..."(3). وهي كلها على هذا النمط من القاء الأسئلة وتلقي أجوبة الآخرين وأقوالهم في المهجو وتدوينها. وذلك ما فعله أبوحيان في قسم مهم من كتابه كما رأينا(4)،فقد رغب في اخفاء رغبته الحقيقية في هجاء الوزيرين وفي تبرئة نفسه وتأييد موقفه فعمد الى شخصيات العصر من كتاب وشعراء وعلماء،ممن لهم صلة بالوزيرين، يسألهم عنهما ويستفتيهم في سلوكهما وأخلاقهما ،ثم يدون اجاباتهم بعد ذلك،ولهذا قال بعد ما دون الكثير من أقوال معاصريه في الوزيرين: " ...فما ذنبي ، أكرمك الله،اذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر، فوصفوه جميعا بما جمعت لك في هذا المكان"(5) .

وحرص أبي حيان على ايراد أقوال أبي العيناء ورسائله دليل على تأثره به،وعلى اتخاذه اياه قدوة في وضع الأقوال واسنادها الى الآخرين. وقد كان أبو العيناء مشهورا بوضع الأحاديث والأخبار فيما هو أخطر من المسائل الأدبية،فقد روي عنه أنه قال:" أنا والحافظ(6) وضعنا حديث فدك ، ,وأدخلناه على الشيوخ ببغداد ، فقبلوه

---

(1) أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي ، أمير حازم شجاع،عاش في أيام المتوكل والمعتز العباسيين،توفي سنة (253هـ) . الأعلام 7/ 94.

(2) قائد تركي من قواد الجيش على عهد المعتز والمهتدي والمعتمد،له مشاركة في الفتن التي وقعت أيام هؤلاء الخلفاء. انظر تاريخ ابن خلدون3/ 297،و 308.

(3) جمع الجواهر ص 168،وانظر زهر الآداب3/ 845-846.

(4) انظر الفصل الثاني من الباب الأول ص 97 فما بعدها .

(5) أخلاق الوزيرين ص 492.

(6) كذا في النص ولعله الجاحظ،ولم يستدركه المحقق في فهرس الخطأ والصواب.

الا ابن شيبة العلوي قال :لا يشبه آخر هذا الحديث أوله.(1).

ونصل بعد هذا الى الجاحظ الذي كان أسوة كبرى لأبي حيان في الحياة والسلوك والثقافة والأدب. ولقد أصبح تأثيره فيه،وأستاذيته له ، وتأثر هذا به و أخذه بطريقته في الكتابة والتفكير من الحديث المعاد (2) . وسيرد بعض الاشارات الى ذلك في الفصول التالية ان شاء الله،وانما الغرض هنا تحديد أهم آثار الجاحظ في الهجاء والسخر وبعض خصائصها العامة التي كان لها أكبر الاثر في كتابات التوحيدي الفنية،وخاصة كتابه (أخلاق الوزيرين) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن أبا حيان،كما يظهر من مقدمة كتابه،اتخذ الجاحظ قدوة في الهجاء ،وحجة على من عاب عليه موقفه من هجو صاحبيه،واستدل برسالته في ذم محمد بن الجهم البرمكي . ولكنه لم يورد منها شيئا ،وانما ساق نصا من رسالة هجائية له(3) مال فيها أبو عثمان الجاحظ الى التصريح بالفحش أكثر من رسالته في هجاء البرمكي . والسبب في ذلك أن أغلب الرسائل والأقوال التي أوردها أبو حيان في مقدمة كتابه يغلب عليها الاقذاع وهتك الأعراض،والتصريح بالعورات. وهو بذلك يؤكد رغبته في تمزيق الوزيرين،كما يؤكد غلبة هذا الاتجاه في القرن الرابع وعدم تحرج الكتاب منه كماسنرى. وربما كان ذلك نفسه هو السبب في عدم اشارته ،ولو بكلمة واحدة،الى (رسالة التربيع والتدوير) في مقدمة كتابه،على الرغم من أنه نقل منها في صلب الكتاب فلسفة الجاحظ في الجد والهزل على لسان أبي الفتح ابن العميد (4) .

وكل ذلك دليل على اطلاعه على آثار أستاذه في موضوع السخر والتهكم ، ومزج الجد بالهزل،وفي الهجاء الصريح . وهو الوحيد الذي أشار ،فيما نعلم،الى رد أحمد بن عبد الوهاب على أسئلة أبي عثمان الجاحظ في (رسالة التربيع والتدوير) ، ومعاياته بمثلها(5)،و أكد أن الجاحظ لم يجبه عليها بعد ذلك،كما أشار الى كتاب (البخلاء) في (الامتاع والمؤانسة)وحاول أن يتجاوز ماورد فيه عن الأطعمة والطاعمين (6).

وتلك أهم آثار الجاحظ في السخر والهجاء،وهي رسالته في ذم محمد بن الجهم

---

(1) معجم الأدباء 18/289،وانظر حديث فدك وتفاصيله في شرح نهج البلاغة4/ 108فمابعدها.

(2) انظر مثلا ما يقوله فيه في (البصائر والذخائر) 2/ 279،وانظر مجلة(المجلة) العدد 154 اكتوبر 1969مقال (بنوة التوحيدي الأدبية للجاحظ) ص 24-28 بقلم مارك بربيه.

(3) انظر ما سبق في ص 157.

(4) أخلاق الوزيرين ص 452-453.

(5) الهوامل والشوامل ص 320-322و 327.

(6) انظر الامتاع والمؤانسة 3/ 2-3.

البرمكي ،ورسالة التربيع والتدوير،وكتاب البخلاء . ويبدو أن الرجل أول من أثرت عنه رسالة كاملة أو عدة رسائل في السخرية والاستخفاف والتهكم والتلاعب بالخصم.اذلم يشتهر شيء من هذا النوع لأحد من الكتاب قبله،كما أن أغلب الأدباء من بعده اقتفوا أثره، وترسموا خطاه في هذا الفن وغيره من فنون النثر وأساليبه. وكان أبو حيان على رأس هؤلاء في التشبث بطريقته الفنية في التعبير أثناء القرن الرابع الهجري .

ولا شك أن بعض اللمحات الساخرة ،كما أشرنا الى ذلك قبل قليل(1) ،موجودة في الآثار الهجائية التي خلفها الكتاب المعاصرون للجاحظ أو الذين عاشوا قبله،وفي الأخبار والنوادر والفكاهات المتداولة التي روى الجاحظ كثيرا منها في كتابه الحيوان وغيره، والتي كانت تدون وتجمع لتكون وسائل للتثقيف والتسلية في القصور والمجالس الخاصة، وفيها تلك الوقائع الفكهة التي تحدث بين الأصدقاء والمتمارفين باستمرار،وتكون موضوعا لتندرهم وضحكهم. الا أن استغلال ذلك كله فنيا يحتاج الى احساس فني خاص،والى ادراك واع لفلسفة الضحك والاضحاك،لم يتوفرا الا عند أبي عثمان الجاحظ. وربما كان هو نفسه يشير الى هذا الفرق الفني بين الأخبار والنوادر الأدبية المضحكة المتداولة بين الرواة في عصره،وبين القصص والحكايات التي صيغت أصلا لغاية فنية خالصة عندما قال وهو يتحدث عن مصادر كتابه البخلاء:" هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا، وما رأينا بعيوننا ،فأما أحاديث الأصمعي (2) وأبي عبيدة (3) وأبي الحسن (4) فاني لم أجد منها ما يصلح لهذا الموضع الا ما قد كتبته في هذا الكتاب،وهي بضعة عشر حديثا"(5).

ولعله كذلك أول من اهتم بموضوع المزاح والضحك من الناحية النظرية،وحاول أن يستخلص فلسفة وقواعد نظرية في الهزل والسخر،قبل أن يباشر تطبيقها في رسائله وقصصه،وقبل أن يأتي بما يذهل المستمعين والقراء،وينتزع منهم الضحك انتزاعا. قال مثلا وهو يفسر الضحك والمزاح ويحتج لهما ويدافع عنهما: " فالضحك في موضعه

---

(1) انظر ما سبق في ص 155.

(2) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي ،صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والملح وهو من أهل البصرة ،قدم بغداد أيام الرشيد ،وله معه مجالس. توفي سنة (216هـ) .انظر الفهرست ص 88 ونزهة الألباء ص 112-124 ،وبغية الوعاة 2/ 112-113.

(3) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي كان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها وله فيها مصنفات ،توفي سنة (210هـ) . الفهرست ص 85 ،ونزهة الألباء ص 104- 109، وبغية الوعاة 2/ 294-296.

(4) لعله يقصد أبا الحسن علي بن محمد المدائني الذي نقل منه كثيرا في البيان والتبيين والحيوان ،وهو مؤلف أخباري كثير الكتب،توفي سنة (215هـ) . انظر الفهرست ص 153 ،ومعجم الأدباء 14/ 124فما بعدها .

(5) البخلاء ص 148 ،وانظر (الجاحظ :حياته وآثاره) للدكتور طه الحاجري ص 179-180.

كالبكاء في موضعه،والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه،وكذلك المنع والبذل والعقاب والعفو،وجميع القبض والبسط. فان ذممنا المزاح ففيه لعمري ما يذم،وان حمدناه ففيه ما يحمد . وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ الى المزاح أسرع وحاله بحال السخف أشبه" (1)، فهو هنا يضع الضحك مقابلا للبكاء لأن لكل منهما مهمته وفائدته كغيرهما من الأحوال النفسية والطبائع البشرية،وكأنه بذلك يشير الى تسامي الضاحك وانتصاره النفسي على عدوه، والى هرب الباكي وانهزامه كما تؤكد البحوث الحديثة في فلسفة الضحك (2) . ثم قال معللا ذلك :" وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ،ومن مصلحة الطباع كبيرا ،وهو شيء في أصل الطباع،وفي أساس التركيب" (3) ،وقال :" وللضحك موضع وله مقدار،وللمزح موضع وله مقدار،متى جازهما أحد وقصر عنهما أحد ،صار الفاضل خطلا ،والتقصير نقصا . . . ومتى أريد بالمزح النفع،وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك،صار المزح جدا والضحك وقارا" (4) . فالضحك ضروري للحياة البشرية لأنه في أصل طبائع الناس،ولم يوجد الا لأداء مهمة نافعة للانسان لا بد من أدائها ولا ينبغي تجاوزها . واذا وقع الضحك في موضعه والمزاح في محله،وقام كل منهما بما خلق من أجله،لم يعد ذلك هزلا ولا سخفا ،وانما هو جد نافع ومصلحة واضحة .

ولا يكتفي أبوعثمان بمناقشة مسألة الضحك والمزاح على هذا المستوى النظري العام فحسب،وانما يبحث فيها أيضا من الناحية الدينية والخلقية،ويدافع عن شرعية المزاح والضحك وجوازهما شرعا وخلقا ، على نحو ما قام به أغلب من اهتم بهذا الموضوع من الفقهاء والأدباء والمهتمين بالأخلاق الاسلامية (5) ،وعلى نحو ما قام به أبو حيان من بعده (6)، ويكاد الجميع باستثناء المتزمتين ،يتفقون على جواز المزاح والضحك شرعا في حدود التعقل والتماسك وعدم الاضرار بالآخرين وبالآداب العامة ،مستشهدين بمواقف للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وبعض الفضلاء ضحكوا فيها ومزحوا . وكل ذلك رغبة منهم في كسب الشرعية لسلوكهم وآثارهم،ولضمان الاقبال عليها وعدم نبذها .

وفي هذا الاطار ناقش أبوعثمان هذه المسألة فقال :" وقد ذهب الناس في المزاح الى مذاهب متضادة ،وسلكوا منه في طرق مختلفة ،فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ،وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ،وأن الحمد والذم بينهما نصفان .وسنأتي

---

(1) رسالة التربيع والتدوير الواردة ضمن رسائل الجاحظ بتحقيق السندوبي ص 214.

(2) انظر (سيكولوجية الضحك) لأحمد عطية الله ص 355.

(3) البخلاء ص 6.

(4) نفسه ص 7.

(5) انظر نماذج من أقوالهم في العقد الفريد 8/ 81–83 ،وانظر (الفكاهة في الأدب) للحوفي ص 27–34.

(6) انظر ما سبق في ص 129–130.

على هذه الأقاويل ثم نذكر ما نقول ان شاء الله"[1]. ثم ساق رأي المناصرين للمزاح وحججهم، وأتبعه برأي المتعصبين للجد وحججهم حسب عادته في حسن عرض آراء غيره. ثم قال موضحا رأيه :"فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم. ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح في الجملة كالجد في الجملة، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد، وعامة الجد خير من عامة المزح، والحق أن ينضح عن بعض المزح ويحتج لجمهور الجد"[2]. ثم انطلق يحتج لشرعيته من الناحية الدينية، فأتى بأمثلة من مزاح الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة. ثم قال :"وبعد فمن حزم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة، وفرع من فروع الطلاقة، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ولم يأتنا بالانقباض والقسوة..."[3].

ولكن ما الذي يجعل الجاحظ يضحك من الآخرين ويستهزئ بهم؟ وكيف ضحك منهم ومازحهم؟

يعترف الجاحظ في أول رسالة التربيع والتدوير بالسبب الدافع له الى كتابتها، وهو ما أثاره أحمد بن عبد الوهاب الكاتب، بسلوكه المتناقض وشذوذ شخصيته، من نقمة وغيظ في نفسه. فقد كان الرجل وافر الحظ من الادعاء والكبر والغرور، كغيره من كتاب الدواوين في عصره، وذلك ما دفع أباعثمان الى هجائهم والكشف عن مثالبهم في رسالته في (ذم أخلاق الكتاب)[4]. وخصه هو برسالة مفردة لمابينهما من نزاع شخصي[5] حول الحظوة لدى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات[6]، ولما ينطوي عليه من مساوئ جامعة لماتفرق منها في أصحابه الكتاب، فقد كان" مفرط القصر، ويدعي أنه مفرط الطول. وكان مربعا، وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا..."[7]، وكان "كبير السن، متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد. وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للابانة عنها على قدر غباوته فيها"[8]. وتلك هي التناقضات الكبرى التي أثارت اشمئزاز الجاحظ وفضوله الفني. وهي عيوب ثلاثة أسس عليها رسالته من أولها الى آخرها، وراح يعبث بالرجل من خلالها ويمثل به بسببها، وأولها يتعلق بشكله

---

(1) رسالة التربيع والتدوير الواردة ضمن رسائل الجاحظ بتحقيق السندوبي ص 220.

(2) المصدر السابق ص 221.

(3) نفسه ص 221.

(4) انظر رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون 2/ 183- 209، وانظر (الجاحظ: حياته وآثاره) ص 275 فمابعدها.

(5) انظر (الجاحظ: حياته وآثاره) ص 268 - 274، و 276.

(6) محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات، من بلغاء الكتاب والشعراء، وزر للمعتصم والواثق العباسيين. نكبه المتوكل وقتله سنة(233هـ) .مروج الذهب 4/ 88، والفخري ص 233- 235.

(7) رسالة التربيع والتدوير الواردة ضمن رسائل الجاحظ بتحقيق السندوبي ص 187

(8) المصدر نفسه ص 187.

وحجمه،ويختص الثاني بسنه ،والثالث بعلمه وثقافته.

أما بخلاء عصره ومجتمعه،فقد سخر منهم وعبث بموقفهم من المال ومن المثل الأخلاقية الخالدة ،وعلى رأسها فضيلة الكرم والسخاء،بسبب مناقضتهم لأنفسهم حين يحاولون التنكر لحقيقة شحهم اللاصق بهم،ويتظاهرون بما ليس في جبلتهم من اكرام الضيف والاسراف في الجود والعطاء[1].ولا ريب أن الذي لفته الى نوادرهم وحيلهم العجيبة في الجمع والمنع،هو تزايد ظاهرة البخل وانتشارها في عصره،وتغير الأخلاق العامة وتطورها كما أشرنا الى ذلك سابقا[2]، كما أن نزعته الفنية وولعه بالهزل والسخر كان لهما نصيبهما في دفعه الى تأليف كتابه[3]. وبذلك كله يكون التناقض الخلقي والنفسي والمنطقي معلما بارزا من معالم الفن الهزلي الساخر عند الجاحظ،وله تأثير واضح في كتاب (أخلاق الوزيرين) كما سنرى.

ولم يصلنا من رسالته في هجاء محمد بن الجهم البرمكي الا بعض النقول المختصرة[4]، التي تعطينا عنها فكرة عامة. ويهمنا منها الطريقة التي كتبت بها الرسالة وبناؤها العام. فقد عمد أبوعثمان الى أشخاص معروفين لهم صلة وثيقة بمهجوه،فراح يسألهم عنه،ويدون اجاباتهم التي يصوغها بأسلوبه الخاص ،وهي الطريقة نفسها التي جمع بها أبو العيناء مثالب أحمد بن الخصيب[5] ،وهي نفسها التي أخذ بها أبوحيان في قسم مهم من كتابه رغبة منه في توكيد أخباره وتبرئة نفسه من تبعتها.

وقد سبقت الاشارة الى أن أبا حيان نوه بهذه الرسالة في مقدمة كتابه،وهي أول ما أشار اليه من الآثار الهجائية المكتوبة قبله ،لأنها ترضيه بالطريقة التي كتبت بها،وبأن صاحبها لم يسلك فيها مسلك العبث والسخر كما فعل بأحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير،بل أسسها على حشد المساوئ الخلقية في صراحة ووضوح دون تستر أوتزييف ، ومن جملتها قوله فيه:"وسأخبرك عن هذا الرجل من لؤم الطبع،وسخف الحلم، ودناءة النفس، وخبث المنشأ، بما يشفي الصدر ويثلجه،ويبين عن الغدر فيه ويكشفه،وأستشهد العدول وأهل المخيلة والمقول، على أني لم أر له محتجا ،ولا رأيت عنه مكذبا ،ولا رأيت أحدا يرحمه أويحفل به، أويمسك عنه،أو يشفع فيه. قلت لمعاذ بن سعيد : أدخلت عليه ؟ قال : نعم ، قلت : فكيف رأيته ؟ قال : لا يعود اليه حر. وقلت للفيض بن زيد : صفه لي ، فانك تعرف الأمور،وقل فانك تحسن أن تقول،قال: يضر ـ والله ـ عنده ما ينفع عند الكرام،وينفع

---

(1) البخلاء ص 3.

(2) انظر ما سبق في ص 143ـ145.

(3) انظر مقدمة الدكتور طه الحاجري لكتاب البخلاء ص 33.

(4) انظر (آثار الجاحظ) جمع عمر أبو النصر ص 27 فما بعدها.

(5) انظر ما سبق في ص 158ـ159.

عنده ما يضر عند الكرام. قلت : فكيف عشرته؟ قال : فوق العذاب الأدنى ودون العذاب الأكبر.(1)
ويستمر هكذا يسأل الشخص ويحتال عليه ثم يدون اجابته بعد ذلك. ويبدو التشابه بين ما وصلنا من هذه الرسالة وبين بعض الفقرات من كتاب (أخلاق الوزيرين) واضحا صريحا، وهو يكشف عن التأثر الواضح الذي خلفته الرسالة في ذهن أبي حيان (2).

تلك أهم الآثار النثرية الهجائية السابقة على عصر أبي حيان، التي أمكن الوقوف عليها والاستشهاد بها، والتي لا بد أن لها تأثيرا في أبي حيان وكتابه (أخلاق الوزيرين)، وفيمن عاصره وجاء بعده من كتاب الهجاء وأدبائه، ومنها ما أشار اليه في مقدمة كتابه أو أورده فيه من الرسائل والأقوال. ولا شك أن الكثير مما كتب في هذا الفن وصل الى أبي حيان ولم يصل الينا (3)، وأن الكثير منه أيضا كان نصيبه الضياع قبل أبي حيان وبعده. ومع ذلك لا بأس من محاولة استخلاص بعض الخصائص العامة للكتابة الهجائية قبل عصر أبي حيان، مما سبق عرضه والوقوف عنده من الرسائل والآثار.

يلاحظ أولا أن المعاني والأوصاف الخلقية الدنيئة التي تناقض المثل الأعلى للشخصية العربية المسلمة الآخذة في الظهور بمظهر السيادة والكمال منذ أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي، هي التي يكثر ترددها في النماذج المذكورة. وذلك دليل على استمرار التمسك بالفضائل الجاهلية الخلقية والانسانية في ظل الاسلام، تلك الفضائل التي أقرها الدين الاسلامي وزكاها ووضعها في اطارها الصحيح، ولا تكاد توجد رسالة تخلو من الهجو بالصفات الذميمة التي حاربها الاسلام.

ويلاحظ أيضا تأثر هذا الفن بالتطور الاجتماعي والحضاري وبتغير الذوق الأدبي العام، حتى في ذكر الفواحش والعورات، التي أخذ التصريح بها يشيع شيئا فشيئا، ويحتج له بعض الأدباء كالجاحظ وابن قتيبة (4)، كما ظهرت فيه آثار الصراع الفكري بين المذاهب والفرق الاسلامية، فأخذت تستعمل كلمات مثل السنة والبدعة والاحتجاج وما أشبهها. بل ان أسلوب الجدال والمناظرة ظهر واضحا في بعض قصص الجاحظ ورسائله. وطغت عليه أيضا صبغة الترف والاهتمام بالأبهة وتزيين المجالس بالأدباء والأخباريين، كما برزت فيه اهتمامات الطبقات المختلفة ببعض المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها كالعدالة وحسن الأخلاق، وتوفير شروط الحياة المتكاملة.

ولما كان الكتاب أصحاب هذا الفن، وهو أكثر رواجا بينهم، وكانوا كلهم يحومون

(1) آثار الجاحظ جمع عمر أبو النصر ص 27.
(2) انظر أخلاق الوزيرين ص 313–320.
(3) انظر أخلاق الوزيرين ص 67.
(4) انظر كلام ابن قتيبة فيما سبق في ص 136، وانظر (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ص 162–163.

حول منبع واحد للمعيش هوعطايا الخلفاء والوزراء والأعيان،وكان أغلبهم من طبقة واحدة، فمن الطبيعي أن يحتد الصراع والتنافس بينهم،ويتشابه الانتاج تبعا لتوحد الدواعي والأسباب الا في بعض الجوانب الشخصية والتعبيرية المميزة للأفراد.

أما العبث بالمهجو،والسخرية به،والتهكم عليه،واظهاره بمظهر الزراية المثيرة للاستهجان والضحك،فهو نادر جدا،لا حتياجه الى فلسفة خاصة واحساس فني رفيع فيما نرى.وهما لم يجتمعا الا للجاحظ نظرا لأصالته واقتداره وامتلاكه لفن القول. وربما كان أغلب انتاجه في فن الهجاء من هذا اللون(1). ولا شك أن الموضوعات والمعاني والأخبار التي استغلها الجاحظ لم تكن منعدمة بل كانت معروفة شائعة،ولكنها كانت تفتقر الى الفنان المقتدر الذي يحسن استغلالها. وكذلك اللمحات الساخرة كانت موجودة متناثرة في عدة رسائل الا أنها نادرة،ولم نعثر على أية رسالة مستقلة ينتظمها السخر من بدايتها الى نهايتها باستثناء رسالة ابن ثوابة في ذم الهندسة كما سنرى وباستثناء الآثار الجاحظية التي عرضنا لها.

واذا نظرنا الى جانب الشكل في رسائل هذه الفترة وجدنا أنها تتراوح بين الطول والقصر،ولكنها أميل الى الطول مما كانت عليه في العصر الأموي، فلم تعد مقتصرة على الغرض الرئيسي مع مقدمة وخاتمة موجزتين،وانما أخذ الكتاب يلحون على النيل من مهجويهم بمختلف الأساليب وشتى الأوصاف في استقصاء وتتبع واضحين لمثالب الشخص المهجو الخلقية والشخصية والنفسية والدينية. الا أن بعضها الآخر حافظ على الطريقة التقليدية في الايجاز والاكتفاء بالهدف المطلوب،ولا شك أن درجة الرغبة في التشفي والانتقام هي التي تتحكم في طول الرسالة وقصرها،وفي قوة التعبير وضعفه،وفي الاطناب والتكرار. أما البداية والخاتمة فهما كذلك متأثرتان بالغرض،فتستعمل غالبا كلمة "أما بعد" دون تحميد أو بسملة،وأحيانا أخرى تبدأ الرسالة بداية اسلامية وتنتهي بما يناسبها من التحية والدعاء أو التهديد والوعيد.

ويغلب على أسلوب رسائل هذه الفترة الوضوح وعدم التأنق،واستعمال الألفاظ المأنوسة في صور وأوصاف حسية مادية قريبة المتناول. وبالرغم من كثرة العبارات المجازية والالحاح على استعمالها فان التجرد من الواقع والتنكر له لم يتمكنا بعد من نفوس أغلب الكتاب المذكورين باستثناء الجاحظ الذي مال الى المبالغة في الوصف والتفنن في التصوير(2)،مع احكام الصلة مع الواقع المحيط به،ومهد بذلك لكتاب القرنين الرابع والخامس الذين بالغوا فأفرطوا وتفننوا فابتدعوا.

---

(1) أنظر (فن القصص في كتاب البخلاء) لمحمد المبارك ص29-31.

(2) انظر ما كتبه الدكتور طه الحاجري عن الوصف في كتاب البخلاء في مقدمته له ص48-53.

ولا شك أن هذه التغييرات والتطورات التي شهدها فن الهجاء قد شهدتها الأغراض الأخرى في الشعر والنثر،مع اختلاف الأوصاف والمعاني المعروضة. وذلك لأن أساس التطور وأسبابه واحدة،وهو التغير الشامل الذي عم المجتمع في العصر العباسي. من ذلك مثلا مسألة السجع،فلاشك أنه معروف في الجاهلية والاسلام،ولكن الكتاب لم يأخذوا في الاكثار منه والتأنق فيه الا في بداية العصر العباسي (1)،كما هو شأن الشعراء في مذهب البديع الذي هو تزيين وزخرفة لفظية ومعنوية اقتضتها ظروف التغير الحضاري. الا أن الكتاب مع ذلك كانوا يأخذون بالتوازن في الفقرات أكثر من السجع الذي شهد القرن الرابع بداية طغيانه. فهذا أبوعلي البصير يختم رسالته في هجاء أبي العيناء بقوله :"وقد ملت الى السجع على علمي بخساسة حظه،وركاكة معانيه ولفظه،اذ كنت تلوي به لسانك،وتثني اليه عنانك..." (2)،فالكتاب أنفسهم لم يقتنعوا به في القرن الثالث أداة أسلوبية ينبغي الالتزام بها،وهو على أي حال حلية مشتركة بين جميع الفنون والأغراض النثرية والشعرية كغيره من ألوان البديع.

ويظهر أن أبا عثمان الجاحظ المعروف بثقافته العقلية الواسعة،ورغبته الشديدة في بحث كل شيء، أول من طرح في الأدب العربي قضية السخر والتهكم،في شمول وعمق، على المستويين النظري والتطبيقي،بآرائه في الجد والهزل،وبرسائله وقصصه الفنية الساخرة. ويصعب جدا أن نعثر،بين الأدباء الذين جاءوا بعده،على من اهتم بالمسألة مثل اهتمامه باستثناء تفسير أبي حيان لعملية الضحك كما سنرى. وذلك راجع قبل كل شيء الى تميز أبي عثمان وأصالته واقتداره،والى التحولات الاجتماعية والحضارية التي أثرت في تغيير الذوق الأدبي،فجعلته يميل الى الألوان الأدبية الخفيفة المهذبة المجانبة للفحش الصريح بالقدر نفسه الذي مالت به الى تفضيل الصراحة والجرأة في تناول المقابح والعورات،والكشف عن الفضائح والمساوئ الأخلاقية دون تستر أو احتياط.

فكأن فن الهجاء النثري بنوعيه البارزين : الساخر والمقذع،سار في اتجاه واحد في تطوره،ولم تتضح الفروق المميزة للنوعين الا في القرن الثالث على يد الجاحظ وأبي العيناء،فصار لكل منهما مجاله وخصائصه ومميزاته. وبهذا الشكل تسلمهما أبوحيان من أستاذيه : أبي العيناء شيخ الهجائيين المقذعين،والجاحظ شيخ الساخرين،وتأثر بهما في كتابه(أخلاق الوزيرين) . وذلك لا يتعارض مطلقا مع استعانته بغيرهما،فقد اطلع على أغلب الآثار الهجائية النثرية المدونة قبله،وحرص على الحصول عليها أشد الحرص، كما أخبر بذلك في مقدمة كتابه. كما لا يتعارض أيضا مع أصالته الفنية واقتداره

---

(1) انظر النثر الفني لزكي مبارك 1/ 81-83.
(2) جمهرة رسائل العرب 4/ 163،وانظر ماسبق في ص 153،و 157-158.

وخصوصيــة رؤيتـه.

ولقد أكـد أكثر الباحثيـن المحدثيـن في فن السخـر والتهكـم أن الهجـاء الفاحـــش بالعيـوب الجسديـة والجنسيـة والخلقيـة من صفـات البداوة والتخلـف ،وأن المجتمـع كلما تحضر وتطور،تحـرر الذوق العـام وانبعثـت في أعمـاق الافـراد أسباب نفسيـة تلون مواقفهـم مـــن الآخريـن وتوجههـا كالرغبـة في الانتصـار أوالتعالـي أو تخفيـف العبء على النفـس[1]علـى نحو ما يمكـن العثـور عليه عند أبي حيـان وغيره كمـا سنرى،لهذا كانـت (الكوميديـا) والفنون الهزليـة عمومـا أرقـى أنواع فن الهجـاء[2] . وهي تتنـاول غالبـا عيوبـا اجتماعيـة عامـــة كالبخـل والادعـاء والجهل والتحذلـق في الكـلام،بينمـا يشـل الهجـاء الصريـح بالعيـــوب والمسـاوئ الجسميـة والخلقيـة بدايتـه وأوليتـه. وتطـور هذا الفن في الأدب العربـــي عامـة،لا يخرج عن هذا المقيـاس،لذلـك كـان وجود فن الجاحظ الهزلـي في بدايـة توسـع النهضـة العربيـة الاسلاميـة موافقـا لطبائـع الأشيـاء،كوجود الفـن (الكاريكـاتوري) في شعـر ابن الرومـي والتصوير الساخر عند أبي حيان وأبي العلاء المعري كماسنرى.

وتوفر الفن الهزلي في نثر الجاحظ بالذات،وفي أدب أبي حيان أيضا،له دلالـة أخرى لا تقل أهميـة عما سبـق ذكـره،وهي تتعلـق بتطور النثر العربـي عمومـا ،وغلبة النزعـة العقلية عليـه على يد المعتزلـة وعلمـاء الكـلام ومنهـم الجاحظ. فهم الذيـن أسهمـوا في تطويـــر البيـان العربـي ،وتطويـع الألفـاظ والأساليـب لتنـاول أدق المعانـي والعواطـف والتعبير عنهـا ،فانطبـع النثر على أيديهـم بالطابـع العقلـي ،وهو ما ظهـر جليـا في نثر أبي عثمـــان ومن جـاء بعده من المعجبيـن به،فنثره صادر من العقـل وموجـه اليـه،دون الغاء العاطفة والشعـور. وأغلـب الظن أن هذا هو السبـب الأكبر في نشأة الهجـاء الساخر (الكوميدي) على يد الجاحظ لأنه فن عقلـي يقـوم على التناقـض العقلـي والمفارقـات الذهنيـة[3]،ولـه أثـــر واضـح في تصويـر أبي حيـان للوزيريـن وعبثـه ببعض مظاهـر سلوكهمـا كمـا سنرى.

ويلاحظ أن الجاحظ في أغلب قصصـه ورسائلـه في السخـر والهجـاء في كتـاب البخلاء وغيره،يتحـدث عن أشخـاص معروفيـن في عصـره،وينقـل أحداثـا وأخبـارا واقعة بالفعل[4]، ولكنـه يدخـل عليهـا من فنـه وعبثـه ما يجعلهـا آية في فن التهكـم والهزل. وبذلـك يكتسب فن الهجـاء عنده صفـة ملازمـة لأغلـب آثاره الأدبيـة وهي الواقعيـة[5]، فأبوعثمـان واقعـي

---

(1) انظر(سيكولوجيـة الفكاهة والضحـك) لزكريا ابراهيم ص 63 فما بعدهـا.

(2) المصـدر نفســه ص 185.

(3) نفسـه ص 175،وانظر ما سبـق في ص 163-164.

(4) انظر البخـلاء ص 8.

(5) انظر (فن القصص في كتاب البخلاء) لمحمـد المبارك ص 24 فما بعدهـا.

في جده وهزله،وفي كل ما يحكيه ويصفه،ينطلق من الأحداث والصور التي ينتخبها احساسه من الواقع المحيط به،فيحولها بسخريته وبلاغته الى آية من آيات الفن (الكوميدي) . وهذا يثير مشكلة تتصل بموضوعنا ،وهي مدى ما يمكن أن تنطوي عليه آثار الجاحظ الهزلية من حقائق تاريخية وأخبار وأحداث واقعة بالفعل ،ومدى ما يمكن أن يكون فيها من فن وخيال متأثر برؤيته الخاصة وطابع شخصيته وموقفه مما يصوره وينقله ،فقد كان الرجل يضع الحكايات من عنده،و يحور ما يرويه ويزيد فيه لغاية فنية خالصة[1] ؛

والطابع العام لانتاجه في هذا المجال ،ومنه آثاره الهزلية كلها ،هو غلبة نزعته الفنية وسيطرتها المطلقة على ما يكتبه ويرويه ،وكل بحث فيه عن الواقع المجرد ومحاولة تمييزه مما هو فن واختلاق ضرب من المستحيل ،على خلاف ما عليه الأمر في كتاب (أخلاق الوزيرين) الذي أصر صاحبه على أن يعتبره كتاب حقائق تاريخية وأخلاقية وعلمية قبل أن يكون كتاب أدب وفن كما رأينا[2] . والظاهر أن الفرق بينهما في هذا المجال هو أن أباحيان كتب عن شخصيتين كبيرتين كان لهما تأثير كبير في توجيه الحياة العامة في عصرهما ، وكتب عنهما المؤرخون والأدباء في تقدير واكبار وتوسع،واستقرت صورتهما في أذهان الناس مقرونة بالاعجاب والمجد والكمال ،ولا يمكن التأثير فيها بالطعن والتشويه الا بتوخي الصدق والحقيقة والواقع ولو من حيث المبدأ ،على خلاف من عرض لهم الجاحظ وأغلب كتاب الهجاء في النثر العباسي ،من أشخاص لم يرتق أي واحد منهم الى ما يقرب أو يداني شخصيتي الوزيرين ابن عباد وابن العميد .

(1) انظر تفصيلا للمسألة في مقدمة الدكتور الحاجري للبخلاء ص 40-45.

(2) انظر ما سبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 92 فما بعدها ،وانظر أيضا ماسبق في ص 134.

* الفصل الثاني *

الصاحب بن عباد بين العظمة الجوفاء والعبقرية الفذة

يختلف موقف التوحيدي من أبي القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس (326 ـ385هـ) الملقب بالصاحب، وزير مؤيد الدولة ثم فخر الدولة البويهيين (1)، عن موقف غيره من الأدباء والمؤرخين منه تمام الاختلاف. فقد رسم له صورة بارزة التنافر والتناقض مع كل ما وصف به في الأدب والتاريخ، وسلك في ذلك مذهبا خاصا وطريقة فريدة. فألف كتابا كاملا، وليس رسالة صغيرة أو قصة مختصرة، عن الجوانب التي يراها قبيحة مرذولة في حياة الرجل وسلوكه، الى جانب حياة أستاذه ومربيه أبي الفضل ابن العميد، وبالغ في جمع مساوئهما ورذائلهما حتى ليمكن اعتبار كتابه عنهما سيرة مختصرة لهما كتبت بقلم أحد خواصهما، مع فارق واحد بينه وبين كتب السير، هو أن المؤلف كتب ما كتبه من سيرة الرجلين من زاوية الطعن والتجريح (2) والرغبة الأكيدة في تشويه صورتهما وتخليد ذكرهما بالسوء في التاريخ. ولذلك طعن في صدقها وواقعيتها أغلب الباحثين كما سنرى. فظلت مفتقرة على الدوام الى شواهد وأدلة تزكيها أو تبطلها، وتبين صحيحها من زائفها وصدقها من كذبها، وبعبارة أخرى تفصل بين ما ينتمي منها الى عالم الحقيقة والتاريخ والواقع المجرد، وبين ما ينتمي الى عالم الفن والوضع والانتحال، مثلما تفتقر الى ذلك كل سيرة ذاتية شخصية وغير شخصية، وكل هجاء ومديح من شعر ونثر، ما دامت الذاتية هي التي لها السلطان الغالب في كل هذه الأمور. وبذلك تضيع الحقيقة الموضوعية الواقعية وليس الفنية، في ثنايا الرغبات والأغراض الشخصية المحركة لقرائح الكتاب والشعراء.

ولنستمع الى أبي حيان يلخص مساوئ ابن عباد على لسان أحد أفراد حاشيته ممن نقل منهم بعض أخباره فيقول: "ما رأيت في طول عمري، مع علو سني، وكثرة تجاربي، وشدة تتبعي، رجلا أجمع للمخازي والمقابح والرقاعات والجهالات والخساسات والفواحش والخبائث من ابن عباد، أفيل (3) الناس رأيا اذا ارتأى، وأنكلهم عن الخصم اذا تراءى، وأقلهم وفاء لمن جعله الله ولي نعمته، وأوقحهم وجها مع كل انسان، وأحدهم لسانا بكل خنى وفحش، وأحسدهم لنظير ولمن دون النظير، وأسماهم بالفساد على الصغير والكبير،

---

(1) انظر ما سبق في المقدمة التاريخية في ص 13.

(2) انظر (أبو حيان التوحيدي) لاحسان عباس ص 70.

(3) في القاموس المحيط مادة (فيل): فال رأيه يفيل أخطأ وضعف.

وأخطبهم على الدين، وأضرهم للمسلمين، وأفجرهم من بين العالمين"(1)، وقال أيضا، وهو يدعي اليأس من الاحاطة بجميع فواحشه ورذائله: "على أن مساوئه تفوت الحصر وتند عن التحصيل"(2). وهذه صورة قاتمة حقا لا تزداد مع التمعن في قراءة الكتاب، وتتبع أوصاف الصاحب من خلاله الا قتامة ونكرا وتشويها.

ولكننا عندما نترك أبا حيان وكتابه، وننظر فيما تقوله كتب التاريخ والتراجم والأدب والأخبار عن الصاحب بن عباد، نجد أنفسنا أمام صورة مناقضة تماما لما يقوله التوحيدي ويصفه، وهي صورة ملؤها وقوامها الاعجاب المطلق والثناء المفرط، وكل فضيلة خالدة، ووصف نادر بالكرم والسؤدد والكمال، صورة ربما لم تتحقق في أحد من أعلام الوزراء في التاريخ الاسلامي مثلما تحققت فيه، أوحققها فيه وصنعها له الأدباء والشعراء والمؤرخون. تجد معالم هذه الصورة عند أغلب من ذكره منهم بنسب متفاوتة في الظهور والوضوح، والتوسط والمبالغة، فلاتكاد أغلب الكتب التي ذكرته تخلو من تقريظه والثناء عليه الا نادرا. وكل ذلك حقق له في عصره وبعد عصره، وفي أذهان من تعرف عليه من قريب أوبعيد، شخصية شبه أسطورية لا يملك الانسان الا أن يبجلها ويعجب بها، ويحار في البحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفوز بهذا القدر من التعظيم والتقدير، وفي تفسير أسرار نجاحه وتفوقه مثلما حار التوحيدي قبلنا منذ ألف عام.

فقد روي عن الصاحب أنه قال: "مدحت والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة(3) شعر عربية وفارسية، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد، ماسررت بشعر ولا سرني شاعر كما سرني أبو سعيد الرستمي الأصفهاني(4) بقوله:

ورث الوزارة كابرا عن كابر موفوعة الاسناد بالاسناد

يروي عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن عباد"(5)

وخصص له الثعالبي قسما مهما من يتيمته استهله بقوله: "ليست تحضرني عبارة أرضاها للافصاح عن محله في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرده بغايات المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه. لكنني أقول: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد،

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 142.
(2) المصدر نفسه ص 374.
(3) في كتاب (الظرائف واللطائف) للثعالبي ص 23 "مائة ألف بيت".
(4) اسمه محمد بن محمد بن الحسن، من أهل بيوتات أصفهان، وكان مختصا بالصاحب وله فيه شعر كثير. انظر اليتيمة 3/ 300-319، و 205، و 221.
(5) معجم الأدباء 6/ 263-.

وغرة الزمان، وينبوع العدل والاحسان، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق. وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة اليهم، وصنائعه مقصورة عليهم، وهمته في مجد يشيده وانعام يجدده، وفاضل يصطنعه، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه" (1).

وبالرغم من المبالغة الواضحة في كلام الثعالبي، وامكانية اتهامه بالافتعال والزيف، وتكرار العبارات والأوصاف الواردة في ترجمة الصاحب في غيرها من تراجم كتابه (2)، فانه هنا في وصفه لابن عباد كان يعني ما يقول، بدليل ايراده لأقوال الرجل وأخباره في أغلب كتبه، واشادته به في كل مناسبة يعرض فيها لذكره (3)، وبدليل ما فاز به الصاحب من المدح والاكبار لدى غيره من الكتاب والشعراء والمؤرخين، فهذا صاحب شرح اليميني يقول فيه: " هو كافي الكفاة أبو القاسم، وهو الذي لم يسبق في الفضل والافضال، ولم يلحق في المجد والاجلال، كان الدهر به حاملا فأنجب بأكرم ولد، وأمن الزمان اذ أتى به من قدح كل أحد، ثم صار بعده عقيما فلا يأتي له بشبيه من بنيه، وكانت أيامه مواسم الأدب وأعياد الفضل والكرم..." (4).

وقال ابن خلكان، وقد عرض لذكر موته وجنازته: " رأيت في أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان في حياته غير الصاحب، فانه لما توفي أغلقت له مدينة الري، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته. وحضر مخدومه فخر الدولة المذكور أولا وسائر القواد وقد غيروا لباسهم. فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياما، ورثاه أبو سعيد الرستمي بقوله:

أبعد ابن عباد يهش الى السرى ... أخو أمل أو يستماح جواد

أبى الله الا أن يموتا بموته ... فما لهما حتى المعاد معاد" (5)

والأمثلة أكثر من أن تحصى (6)، ولعل ما ذكر منها كاف لابراز عظمة الصاحب ورسم الملامح الكبرى لشخصيته الفريدة، هذه الشخصية التي ارتفع بها التاريخ الأدبي الى

---

(1) اليتيمة 3/ 188-189.

(2) ورد مثلا في ترجمته لقابوس بن وشمكير قوله فيه انه "غرة الزمان وينبوع العدل والاحسان" اليتيمة 4/ 59 وهي عبارة وردت بنصها في ترجمته للصاحب في النص السابق. وأغلب تراجم كتابه متشابهة في تعابيرها.

(3) انظر مثلا ما ورد عنه في كتبه التالية: تحفة الوزراء ص125-127، والاعجاز والايجاز ص 92 ورسائله ص 141.

(4) شرح اليميني 1/ 201.

(5) وفيات الأعيان 1/ 232، والخبر في مرآة الجنان 2/ 421 عن ابن خلكان.

(6) انظر المزيد منها في كتاب (الصاحب ابن عباد: حياته وأدبه) للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 123 فما بعدها.

أعلى الدرجات،حتى ان بعض العلويين والشعراء ادعوا أنه المهدي المنتظر(1) ،وأن فضائله ومكارمه تستحيل على بني البشر(2) . ولم يسند اليه المؤرخون والأدباء،باستثناء التوحيدي ، الا القليل النادر(3) مما ينال منه أو يطعن في أخلاقه وسلوكه وعظمته.

وعندما نقارن بين هاتين الصورتين،صورة الصاحب عند أبي حيان،وصورته عند غيره من دون سيرته وأخباره،نجد أنفسنا أمام قطبين متباعدين لا مجال لتقريب المسافة الشاسعة بينهما دون التضحية بالكثير من مظاهر الصورتين المتناقضتين. ولهذا يتعين البحث عن الحقائق الثابتة في حياة الرجل وسلوكه،وعن أخلاقه وصفاته النفسية والعقلية الأصيلة فيه،تلك الحقائق والصفات التي رواها غير واحد من المؤرخين والأدباء،وتؤيدها القرائن وطبيعة العصر والعادة الجارية. وبذلك وحده تتضح بعض المعالم الحقيقية لهذه الشخصية المتيدة التي كادت تضيع وتتلاشى بين مدح الثعالبي ومن لف لفه،وبين قدح التوحيدي ومن شايعه. نقول"بعض المعالم" فحسب من أخلاق الرجل وصفاته التي اهتم بها أبو حيان وجعلها موضوعات لكتابه(4) ، وأدار عليها كلامه فيه. وذلك لأن كتاب (أخلاق الوزيرين) أساس بحثنا ،ولأن كتابة سيرة مفصلة لحياة ابن عباد ،بحسناتها وسيئاتها ، من بدايتها الى نهايتها ، بحث آخر قائم بذاته لا صلة له بموضوعنا الا من زاوية البحث عن حظوظ أقوال أبي حيان من (الواقع) ومن(الفن) .

ولما كان التوحيدي متهما في عصره وبعد عصره بالكذب والمبالغة والتزوير ووضع الأخبار والأحاديث ، في وصفه للوزيرين ، وفي بعض رسائله وأقواله،فلابد من الحيطة والحذر والتشدد في قبول مثالبه التي ينعت بها صاحبيه حتى تؤكدها الشواهد الصحيحة والأدلة الثابتة.على أن أبا حيان قد توقع هذه التهمة،وتنبه لما ينتظر كتابه من المحاربة وسوء الظن،فدافع عن نفسه وكتابه بقوله: " وابن عباد-حفظك الله-ليس بصغير القدر،وابن العميد لم يكن خامل الذكر،وما فيهما الا من هو غرة زمانه،وتاريخ دهره،لنباهته وصيته،وطول أيامه،وامتداد دولته،..فكيف يجزّف الحديث عنهما مجزّف ويلزق الكذب بهما ملزق، أو يدعي الباطل عليهما مدع؟ هذا ما لا يطمع فيه حصيف ، ولا يعمل عليه عاقل..."(5). ولذلك أيضا حرص تمام الحرص،من بداية كتابه الى نهايته ،على تأييد أقواله بالدليل والبرهان واسنادها لمن حدثوه

(1) اليتيمة 3/ 237.

(2) المصدر نفسه3/199-200.

(3) نفسه 3/ 277-278.

(4) انظر موضوعات الكتاب في الفصل الثاني من الباب الأول ص 99 فما بعدها.

(5) أخلاق الوزيرين ص 477.

بها ورواها عنهم(1) . وأكد في صراحة ووضوح أن الخلاف بينه وبين غيره ممن تحدث عن الرجلين أو ترجم لهما ومدحهما خلاف في الرؤية و أسس التقدير، ومقاييس تمييز الخبيث من الطيب، والرذائل من الفضائل. فليس الشأن عنده ولا الفضل في نظره "في كتاب ينشأ، ومعنى يقتضب، وقصيدة تنشد، ورسالة تحبّر، ومسألة تتداول بالعي والبيان، ودعوى تتناقل بالشبهة، وعربية تشقق تشقيقا، وكلمة تزوق تزويقا، وباطل ينصر لحاجة تدعو اليه، وحق يرفض لأمر يحمل عليه، وخصم يفحم بما غثّ وسمن، وشبهة تركب بما ظهر وبطن... "(2)، وليس الفضل أيضا " في الأمر والنهي، والعزل والولاية، والقبض والمصادرة، والكيد والغيلة، والاستخراج والحيلة، والغاشية والحاشية، والخدم والحشم، والدور والقصور، والمراكب والمواكب... "(3) وانما " الفضل باجماع الأولين والآخرين، والماضين والغابرين، في الديونة والتأله، والعفاف والتحرج، والكرم والطهارة، والتقزز والنزاهة، والرقة والرحمة، والجود والعطية، والحلم والعفو، والابقاء والاغضاء، والوفاء والارضاء، والتغافل والتسمح، والبر والتعهد، والبشر والطلاقة، والدماثة والشجاعة، وطلب الذكر الجميل من كل أحد "(4).

ولذلك كانت مظاهر الأبهة والعظمة والسطوة والقوة التي تميز بها الوزيران في عصرهما، والتي أعجب بها الكتاب والمؤرخون فوصفوها باعجاب وانبهار، عديمة القيمة في ميزانه الخلقي، وماهي الا طلاء خارجي يغطي كثيرا من الشرور والرذائل والطبائع الأصيلة في القسوة والبطش والمجون والاستهتار. فلو أتيح لهؤلاء، فيما يحسب أبوحيان، أن يقفوا على أسرار حياة الرجلين، ثم لو توخوا العدل والانصاف ومجانبة الهوى، ورجعوا الى أحكامهم وأقوالهم الى مقاييس دينية وخلقية متينة، لأمكنهم آنذاك أن يحكموا على الرجلين حكما حقيقيا صادقا. أما وأن الجميع مغتر بالمظاهر الزائفة الزائلة، ومتأثر بالمصلحة الشخصية العاجلة، فالانصاف بعيد عن تقريظهم واستحسانهم، والتوحيدي وحده، حسب ظنه، هو الذي جاء بالقول الفصل في وصف الوزيرين بما تسلح به من معاشرتهما ومعاينة أحوالهما والاتصال بحاشيتهما وأعوانهما، وبماله من مذهب خلقي صارم لا يقبل المصانعة والنفاق(5)، ومن ثقافة متينة هادفة لا تسكت عن الزيف، ولا تساند الظلمة الفاجرين.

---

(1) انظر ماسبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 94 فما بعدها.
(2) أخلاق الوزيرين ص477.
(3) المصدر نفسه ص 478.
(4) نفسه ص 478-479.
(5) نفسه ص 79-84. وراجع " مذهبه الخلقي " في الفصل الثاني من الباب الأول ص 117 فما بعدها.

فالى أي مدى يمكن قبول تصويره للوزير الصاحب ابن عباد ، وماهو الحد الوسط والقاسم المشترك بين أخباره وحكاياته عنه وبين أقوال الكتاب والشعراء والمؤرخين الذين وصفوه وترجموا له وأشادوا به؟ ثم ما مقدار الثقة بالصورة التي قدمها عن شخصية الرجل في أهم جوانب حياته وسلوكه ؟

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

مثالب الصاحب الأخلاقية والدينية :

يرتكز وصف أبي حيان لأخلاق الصاحب ابن عباد وسلوكه وشخصيته على الفضائل الأربع الكبرى التي اعتبرها في بداية كتابه أركانا قوية صحيحة للحياة البشرية ، ودعائم متينة لبناء الانسان المستقيم المتكامل ، وهذه الفضائل هي : الدين والخلق والعلم والعقل (1) . فكل من كان نصيبه منها ضئيلا ، أو كان عاريا منها جملة ، أو متحليا بأضدادها من الرذائل ، كان مصيره الهلاك والخسران ، والحرمان من الفوز بأي ثناء أو تقدير . ومن اتصف بها أو بقدر وافر منها كان حظه من السعادة والمجد والشرف عظيما . وسنرى أن أبا حيان أدار عليها ، منفصلة ومجتمعة ، حديثه عن الصاحب ابن عباد وتصويره لأخلاقه وسلوكه .

والصفة الخلقية الأولى من صفات الرجل التي اهتم بها أبو حيان هي ما ينعته به من البخل بالمال وندرة عطائه منه ، وغلبة اللؤم على طريقته في كسبه وانفاقه . وقد اهتم أبو حيان بهذا الجانب من سلوك ابن عباد وردد القول فيه الى درجة الحديث عن الكرم وشروطه من الناحية النظرية ، وعن المصير الذي انتهى اليه في عصره كما سنرى ، لما له من صلة مباشرة بعلاقته الشخصية بالوزير المشهور ، ولما يعانيه من فقر وحرمان في حياته الخاصة .

قال فيما وصف به ابن عباد من البخل واللؤم انه كان " كليل الكرم حاد اللؤم " (2) وانه " طويل العنان في اللؤم ، قصير الباع في الكرم " (3) ، وأكد المعنى نفسه في أكثر أخباره وحكاياته عنه (4) . بل ذهب الى أبعد من ذلك فتحدث عن مقادير عطائه بالأرقام مبرزا تفاوته وقلته فقال : " .. على أن عطاءه لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة ، وما يبلغ الى ألف نادر ، وما يوفي على الألف بديع ، بل قد نال به ناس من عرض

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 27-28 ، وانظر ماسبق في الفصل الثاني من الباب الأول ص 122 .

(2) المصدر نفسه ص 106 ، والعبارة نفسها كررها في البصائر 2/ 527 .

(3) نفسه ص 117 ، وكررها كذلك في البصائر 2/ 548 دون ذكر اسم الصاحب .

(4) انظر أخلاق الوزيرين ص 131 ، 195- 198 .

جاهه على السنبين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف،وعدد هؤلاء قليل جدا..."(1). ولكنه، أحيانا أخرى،وخاصة عندما يقارن بينه وبين ابن العميد،يميل الى تفضيله على أستاذه في السخاء والعناية بالمحتاجين على اختلاف طبقاتهم وألوانهم،فقد قال على لسان أحد رواته الذين نقل عنهم أغلب أخبار كتابه وهو يفاضل بين الوزيرين الكبيرين:"سقى الله ابن عباد فانه وقف نفسه على الفرباء،وطلبهم بأكثر مما تعرضوا له،وسأل عنهم بأكبر مما رجوه فيه..."(2)،وقال أيضا:"كان ابن العميد أعقل وكان يدعي الكرم، وابن عباد أكرم وهو يدعي العقل،وهما في دعوييهما كاذبان وعلى سجيتيهما جاريان."(3).

يتضح من الأقوال السابقة أن أبا حيان،بالرغم من الحرمان المطلق الذي قصده به الصاحب،كان يعترف له بمرتبة وسطى من هذه الفضيلة الخالدة،فضيلة الكرم والجود، ولا يسلبها منه جملة. فهل يعني ذلك أن الرجل منصف في الحكم على غريمه،أم أن مكارم ابن عباد وعطاياه كانت غامرة طاغية،فلم يستطع تجاهلها ونكرانها فاكتفى بهذا الحكم الوسط الذي يناسب خطته في تشويه سمعة الوزير المشهور؟.

الواقع أننا نجد في بعض أخبار الصاحب ما يعضد موقف أبي حيان ويسانده سواء منها ما يتعلق بمدحه وما هو خاص بهجائه. فهذا أبو العلاء الأسدي (4) يعرض به ويقول:

وربّ كريم تعتريه كزازة ... كما قد رأيت الشوك في أكرم الشجر

وربّ جواد يمسك الله جوده ... كما يمسك الله السحاب عن المطر (5)

ثم يصرح بما هو أكثر انسجاما ووفاقا مع المؤلف فيقول:

اذا رأيت مسجى في مرقعة ... يأوي المساجد حرا ضرّه بادي

فاعلم بأن الفتى المسكين قد قذفت ... به الخطوب الى لوم ابن عباد (6)

أما أبو بكر الخوارزمي (7) فهو أكثر توفيقا في الاتيان بما في نفس التوحيدي عن الصاحب حين قال في وصفه:

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت ... كفاه يوما ولا تذممه ان منعا

فانها خطرات من وساوسه ... يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما (8)

ونقل ياقوت في ترجمة الشاعر محمد بن أحمد المغربي خبرا يحكي فيه هذا الأخير أنه كان

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 193.
(2) المصدر نفسه ص 349.
(3) نفسه ص 480.
(4) انظر بعض أخباره في اليتيمة 3/ 211، و 335-336.
(5) اليتيمة 3/ 336.
(6) نفسه 3/ 277.
(7) ستأتي ترجمته وتحليل رسالته في هجاء أبي الحسن البديهي في الفصل الثالث من الباب الثالث.
(8) معجم الأدباء 6 / 256.

بحضرة الصاحب، فأمره بوصف رغيف كان على مائدته، فقال على البديهة شعرا استحسنه ابن عباد، فأعطاه الرغيف جائزة له على شعره، فوضعه الشاعر على رأسه وخرج به، فاسترده الصاحب، وقال له على ما يحكيه الشاعر نفسه: "عزمت أن تشق الأسواق والشوارع وهذا على رأسك؟ فقلت: نعم لأسأل فأقول: هذا صلة مولانا وأذكر الأبيات، فضحك ثم قال: بعناه، فقلت: قد بعته من مولانا بخمسمائة دينار، فقال: أنقصنا واجعلها دراهم، فقلت: قد فعلت. فأمر لي بخمسمائة درهم، وخلعة من ثياب جسده"(1).

فهذا الشاعر كان مطمئنا الى جائزته فرحا بها، سواء كانت دراهم أم دنانير، ولكن طمعه كان قويا على أي حال، وهو الذي دفعه الى الخطأ في تقدير استعداد الصاحب للعطاء، والكشف عن طبيعته في الاقتصاد في الجوائز والعطايا، فطلب منه أن يسمن جائزته ويجعلها دنانير، فاضطره بذلك لطلب النقصان. وهذا التصرف يمثل شذوذا عما كان معروفا عن الأجواد المشاهير، ممن هم أقل من الصاحب غنى ومرتبة، من التضحية بما هو أغلى من الرغيف ومن خمسمائة دينار في سبيل خلود الذكر الحسن.

ومع ذلك لا مناص من الاعتراف بأن كل هذه الشواهد والأقوال لا تنهض دليلا على تصديق التوحيدي فيما ذهب اليه، وليس لها من المتانة والقوة ما يجعلها تثبت أمام الأخبار المستفيضة عن مآثر الرجل ومبراته في الكرم والجود، كما لا تستطيع أن تمحو أو تشوه الصورة المثالية التي فاز بها في ديوان الكرم والكرماء في الشعر والأدب والتاريخ. تلك الصورة التي تكاد تقترب من صور الكرماء الخالدين كأبناء المهلب والبرامكة ومعن بن زائدة وأمثالهم. والنصوص المؤيدة لهذا المعنى أكثر من أن تحصى، وسنكتفي بايراد أمثلة موجزة منها لما في بعضها من طول لا يتسع له المقام.

قال ياقوت فيما نقله عن تاريخ الآبي في ترجمة الصاحب: "... وكان ما يخرج لكافي الكفاة في السنة، في وجوه البر والصدقات والمبرات، وصلات الأشراف، وأهل العلم، والغرباء والزوار، ومن يجري مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة، يزيد على مائة ألف دينار"(2). وقال الثعالبي نقلا عن أحد جلساء الصاحب المختصين بحضرته: "وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة"(3). وقال ابن حجر في ترجمته للرجل: "اسماعيل بن عباد بن عباس أبو القاسم الطالقاني (4) المشهور بالفضائل والمكارم والآداب..."(5). وقال أبو

---

(1) معجم الأدباء 17/ 130 - 131
(2) المصدر نفسه 6/ 249.
(3) اليتيمة 3/ 193.
(4) نسبة الى طالقان وهي البلدة التي ولد فيها الصاحب. انظر أخلاق الوزيرين ص 127، وفيات الأعيان 1/ 232-233.
(5) لسان الميزان 1/ 413.

الفداء:" وكان الصاحب المذكور أوحد زمانه علما وفضلا وتدبيرا وكرما"(1).

ولا تكاد أي قصيدة من القصائد التي قيلت في مدحه أوفي رثائه تخلو من الالحاح على كرمه والاشادة به. وكذلك بعض الرسائل التي وجهت اليه. فهذا أبو سعيد الرستمي يقول فيه:

غلب الصاحب الجواد بني الجو ... د كما يغلب الشباب المشيب

بذهم في الندى وغطى علاهم ... بعلاه، فالمكرمات ذنوب

الى أن قال:

واذا ما أتاه طالب جدوى ... راحتيه فالطالب المطلوب

قل لباغي الندى خف الله لا تسأله عمرا فانه موهوب

انما حاتم وأوس وكعب ... مثل في الندى له مضروب(2)

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (-392هـ):

أوما انثنيت عن الوداع بلوعة ... ملأت حشاك صبابة وغليلا

ومدامع تجري فيحسب أن في ... آماقهن بنان اسماعيلا (3)

وورد في احدى رسائل أبي محمد الخازن(4) اليه قوله:"... ليعلم... أن الكرم صاحبي لا برمكي، وعبادي لا حاتمي"(5).

وكل هذه الأقوال، وغيرها كثير(6)، لا يمكن أن تكون زورا وكذبا، ولا مجرد مبالغات لا أصل لها، ولا سيما أن كتب المؤرخين هي التي أوردت النصيب الوافر منها. نعم لا شك أن في تصوير هؤلاء لكرم الرجل وسخائه بعضا من الغلو والافراط، وهم في ذلك متأثرون برغباتهم ومصالحهم الخاصة في ذكر حسناته واشاعتها(7)، كما أنه هو أيضا متأثر في عطائه بميوله وأغراضه وهواه(8). وهو على أي حال بشر لا يمكن أن يرضي الجميع، كما لا يمكن أن يتفق الكل على مدحه بهذا الخلق النبيل. ولكن يكفيه فخرا أنه فاز بهذا القدر من الذكر الجميل الذي ساهم في توكيده أعداؤه الى

---

(1) المختصر في أخبار البشر 2/ 130.

(2) اليتيمة 3/ 305-306.

(3) نفسه 4/ 15. وقد سبقت ترجمة الجرجاني في ص127 حاشية رقم 7.

(4) أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن، من شعراء أصبهان، ومن خواص الصاحب ومشاهير صنائعه، انظر تفصيلا للعلاقة بينهما في اليتيمة 3/ 321 فما بعدها.

(5) اليتيمة 3/ 322.

(6) انظر أعيان الشيعة 11 مجلد 12 ص 409 فما بعدها.

(7) انظر بعض الاشارات الى ذلك في عرض تراجم "الشعراء الطارئين على الصاحب من الآفاق" في اليتيمة 3/ 339 فما بعدها.

(8) انظر أخلاق الوزيرين ص 108-109، و 187-188.

جانب أصدقائه،فقد كان الرجل كريما حقا" ولكنه لم يكن يعطي كل شاعر وأديب لمجرد أدبه وشعره من دون ملاحظته لمقدار علاقة هذا الشاعر أو الأديب بمجلسه وبشخصه"(1)

غير أن أبا حيان لم يكن يرضيه أن ينتحل الأعذار للصاحب وأمثاله من ذوي الشأن والسلطان في عصره،فقد كان يحاسبهم محاسبة عسيرة في كل صغيرة وكبيرة من أقوالهم وأفعالهم. وذلك لأن" النقص ممن يدعي الكمال أشنع،والحرمان من السيد المأمول فاقرة،والجهل من العالم منكر،والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة،والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب"(2)،ولأن المبالغة في الجود والعطاء هي البرهان على كرم الطباع وشرف النفس،وعلى استقامة الانسان ونبله في سلوكه وأخلاقه كلها ،على اعتبار أن فضيلة الكرم عنوان المجد وقوام السلوك الحميد (3).

ولقد تجاوز اهتمام أبي حيان بهذه الفضيلة الخالدة محاسبة الوزيرين ونعتهما بالبخل واللؤم الى محاولة رصد موقعها في نفوس أمثاله "من أبناء الرجاء والأمل"(4) واستخلاص بعض الحقائق عن المصير الذي انتهت اليه في عصره،وعن موقف الأمراء والوزراء والأعيان منها في زمنه. فهو يؤكد أن السؤدد الحق والرئاسة الصحيحة،لا يتمان لصاحبهما الا اذا توفرت له هذه الخصلة،ولا يكون سيدا الا من حرص الحرص كله على كثرة البذل، وتحمل الصبر والأذى في سبيله (5) . بل انه ليذهب أبعد من ذلك ،فيقرر أن الأصالة في هذه الفضيلة الخالدة،تقتضي عدم الخضوع للعقل والمنطق في الانفاق على المحتاجين، وعدم التمييز الدقيق بين المستحقين وغير المستحقين. وذلك لأن" العطاء أولى من المنع، والتنويل أولى من الحرمان،والخطأ في الجود أسلم من الصواب في البخل،لأن الصواب في البخل خفي جدا وقل من يعرفه،والخطأ في الجود حلو جدا وقل من يكرهه"(6).

ويلاحظ،بسخط ومرارة،ما آل اليه أمر العطاء والافضال في زمنه،وفي ظل الحكم البويهي ،من اهمال وزيف وتعلق بالمظاهر الكاذبة. فقد قال على لسان أحد خواص الوزيرين :"ياهذا خلت الدنيا من الكرم والكرام،واصطلح الناس على قلة المباهاة بالفضائل، وكان هذا كله منوطا بالخلافة،فانقضت أيام الصدر الأول بالدين الخالص،وأيام بني مروان بالرياء والسمعة،وأيام بني العباس بالمروءات والتوسع في الشهوات،ولم يبق بعد هذا شيء"(7)

---

(1) الصاحب ابن عباد :حياته وأدبه للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 61.
(2) أخلاق الوزيرين ص 531.
(3) انظر ما سبق في الفصل الأول من الباب الثاني ص 143–144.
(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 2.
(5) انظر أخلاق الوزيرين ص 29–31، و 92، و 376.
(6) أخلاق الوزيرين ص 22–23، وبعض هذا الكلام قريب مما يقوله الجاحظ في البخلاء ص 2.
(7) المصدر السابق ص 487.

الى أن قال :"حصلنا في حديث ابن العميد على أن يقال :جمشك (1) عميدي ،وفي حديث ابن عباد على أن يقال :هذا ركاب صاحبي . اني لأجد في صدري غليلا لا يبرده شيء منذ هاب الكرم وفقد الكرام، وقلة المبالي بذلك" (2) .

وهذه الصورة ،ان كانت صحيحة (3) تمثل موقف بعض المحرومين الفيورين على مصير الأمة الاسلامية ومصلحتها ،فانها لا تمثل موقف غيرهم ممن لا يشاركونهم رأيهم لسبب أو لآخر. ولذلك نجد في كتب التاريخ والأدب اشارات متعددة الى كرم معظم ملوك البويهيين وأكابر وزرائهم. فهذا ابن خلدون يقول في ركن الدولة الحسن بن بويه (330–366 " وكان حليما كريما واسع المعروف" (4) ،ويقول في ابنه عضد الدولة (367–372هـ) :"وكان كثير الصدقة والمعروف، ويدفع المال لذلك الى القضاة ليصرفوه في وجوهه" (5) ،ويقول صاحب (نشوار المحاضرة) في وزير معز الدولة أبي محمد المهلبي (–352هـ) :"وكان رحمه الله من بقايا الكرام، ولقد شاهدت له مجلسا في شهر رمضان سنة (351) كأنه من مجالس البرامكة ما شهدت مثله قط قبله ولا بعده" (6). أما أبو غالب فخر الملك (–407هـ) وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة فقد كان " من أعظم وزراء آل بويه على الاطلاق بعد أبي الفضل ابن العميد والصاحب ابن عباد . . .وكان واسع النعمة فسيح مجال الهمة ،جم الفضائل والافضال ،جزيل العطايا والنوال ،قصده جماعة من أعيان الشعراء ومدحوه وقرظوه بنخب المدائح " (7) .

يتضح من هذه الأقوال أن انفاق المال في وجوه البر والاحسان ،وفي سبيل خلود الذكر الحسن ،كان صفة ملازمة لأغلب الملوك البويهيين وأكابر وزرائهم وأعيان دولتهم ،وأن فضيلة الكرم والسخاء لم تنقطع في عصر أبي حيان، وأن معاصريه من الأغنياء والمترفين لم يستطيعوا أن يخالفوا ما درجت عليه الأمة من ايثار لمكارم الأخلاق، وتعلق بالثناء والأريحية بغض النظر عن عقائد قلوبهم فيها وموقفهم من الصراع حولها في القرن الرابع الهجري .

ومع ذلك يبدو أنه لم يظهر أحد في عصر أبي حيان يستطيع أن ينافس الأجواد المشاهير المتقدمين الذين قرأ عنهم في الكتب، فقد " أجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن

---

(1) جمشك :لفظة فارسية معناها الحذاء كما فسرها المحقق ابن تاويت الطنجي .

(2) أخلاق الوزيرين ص 490، وانظر ص19–26منه ، وانظر الامتاع والمؤانسة 1/ 16–18.

(3) انظر تفصيل ذلك في الفصل الأول من الباب الثاني ص 141–145.

(4) تاريخ ابن خلدون 4/ 451.

(5) المصدر السابق 4/ 456، أما أخوه فخر الدولة الذي وزر له الصاحب فقد كان أقل منه كرما وسخاء . انظر ذيل تجارب الأمم ص 170، و 296.

(6) نشوار المحاضرة 1/ 68، وانظر ما سبق المقدمة التاريخية ص 11–12.

(7) وفيات الأعيان 5/ 124، وانظر ترجمته في ص 13 حاشية رقم 5.

في بني أمية أكرم من بني المهلب،كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة والله أعلم"(1). ولكن الصاحب لم يكن يسلم بهذه الحقيقة كما يدعي التوحيدي ،فقد روى عنه قوله:" لم يكن في الدولتين الأموية والعباسية مثلي"(2)،ويعلق التوحيدي على هذا الكلام بقوله:"ولعمري ما كان له فيمن تقدم في الدولتين مثل ولا شبيه،ولكن في الخلاعة والمجون والرقاعة والجنون"(3).

وهنا نصل الى مجموعة أخرى من الصفات الخلقية الدنيئة التي يصر أبوحيان على الصاقها بالصاحب ونعته بها ،ويؤكد أنه تفوق فيها وأفرط،وتجاوز كل من نسب الى شيء منها من المتقدمين،وهي الرقاعة والمجون والسخف والسفاهة،وما يجري مجراها ويتعلق بها من ارتكاب المآثم وهتك الحرمات،والاضرار بالناس،والتضحية بكل الأوامر والنواهي الدينية والنوازع الخلقية التي تقمع الشهوات النفسية والجسدية وتحد من اتباع الهوى. ولقد ألح أبوحيان على ابراز هذا الجانب من سلوك الرجل وشخصيته، فأورد عنه شواهد وأمثلة كثيرة مع مقارنته بسير الوزراء السابقين،ومحاسبته بمنطق الدين ومقاييس الوعاظ والمصلحين التي استنبطها من ثقافته المتنوعة،ومن تجاربه ومشاهداته المتعددة(4).

فالصاحب كما يصفه" له في الخلاعة قرآن معجز، وفي الرقاعة آية منزلة،وفي الحسد عرق ضارب،وفي الكذب عار لازب،لا ينزع عن المساوئ الا مللا،ولا يأتي الخير الا كملا"(5). وهو" شديد السفه عجيب المناقضة، سريع التحول من هيئة الى هيئة"(6). وكل شيء فيه ينطق بسفاهته وخلاعته،فوجهه وجه خنزير،وعقله عقل سنّور،وكلامه كلام مبرسم،وحركته حركة مخنث، ونظره نظر فاجر،ورأيه رأى موسوس،وأعضاؤه أعضاء مفلوج"(7). ووصف كلامه وحديثه على لسان أستاذه أبي الفضل ابن العميد،فقال ان "سجعه يدل على الخلاعة والمجانة،وخطه يدل على الشلل والزمانة،وصياحه يدل على أنه قد غلب بالقمار في الحانة..."(8)،وقال انه كان يخلو بالغلمان للفحش والفجور(9).

(1) وفيات الأعيان 6/ 283
(2) أخلاق الوزيرين ص 193
(3) المصدر نفسه ص 194.
(4) انظر "مذهبه الخلقي في الكتاب" في الفصل الثاني من الباب الأول ص 117 فما بعدها.
(5) أخلاق الوزيرين ص 107.
(6) نفسه ص 111.
(7) نفسه ص 131.
(8) نفسه ص 126.
(9) نفسه ص 373-374.

ويحفظ كلام الشحاذين وعبارات المقامرين[1] ،وانه كان اذا شرب افتضح وجاهر بالآثام ، وحيل بينه وبين عقله،وذلك ما دفعه الى ترك الشراب والكف عن تعاطي الخمرة ،ولم يتركها ورعا وتقوى[2] . وعلى الجملة فقد " كان ديدنه السخف والخلاعة والمجون، والرواية عن مزبّد المدني[3] ،وأبي الحارث حمين[4] ،وعبادة[5] ،وجحظة[6] ، ونظلة بن البك ومن أشبه هؤلاء"[7] . والأمثلة كثيرة لا تخلو منها جل صفحات الكتاب.

ولم يكتف بالأقوال والأوصاف التقريرية وحدها ،وانما كان يلم بالمعاني المذكورة أيضا في تصويره لهيئة الرجل وحركاته و أفعاله وعلاقاته المختلفة،وفي تصويره الهزلي الساخر لماكان يجري في مجالسه ويقع بينه وبين الحاضرين من طلاب الرفد والعون، أو مع حاشيته وبطانته من أحداث وقصص سخيفة كثيرة.وكلما أورد مجموعة من الأقوال والأخبار والقصص الدالة على المجون والسخف علق عليها بمثل قوله: " أفهذا كله من شمائل الرؤساء وكلام الكبراء،وسيرة أهل العقل والرزانة؟..."[8] ،أوقوله :" أهكذا كانت البرامكة وهو لا يرضاهم؟أم هكذا كان حامد بن العباس[9] ، والعباس بن الحسن[10] ، وآل الفرات، وآل الجراح ،وهو لا يزنهم بشيء فيمن تأخر؟..."[11] . وقال بعد أن ساق الكثير من مجانات الرجل وفواحشه :"على أني قد سترت كثيرا من مخازيه،اما هربا من الاطالة، أوصيانة للقلم من رسم الفواحش ونث العضلة[12] ،وذكر ما يسمج مسموعه ويكره التحدث به"[13] .

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 185.

(2) المصدر نفسه ص 461.

(3) هو رجل اشتهر بالنوادر المضحكة الماجنة،ولعل الكثير مما نسب اليه منها منحول عليه. انظر نماذج من نوادره في رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون2/ 239،والبيان والتبيين 2/ 102 ،والبصائر والذخائر(في مواضع تراها في الفهرس) ،والامتاع والمؤانسة2/ 55،و 3/ 71،و 78

(4) هكذا بالأصل . وورد في القاموس المحيط مادة(جمن) أن المحدثين ضبطوه بالنون والصواب بالزاي المعجمة(جمّز) . وهو كسابقه من المجان المتهتكين ونوادره شائعة.

(5) من المخنثين المجان المضحكين للخليفة المتوكل . انظر بعض نوادره في أخلاق الوزيرين ص 146 و 149،و 150،و البصائر والذخائر 1/ 274،و 2/ 35،و 3/ 530،و 4/ 65.

(6) أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة،شاعر مغن من أسرة البرامكة،لقي العلماء والرواة و أخذ عنهم،وكان وسخا في دينه ودنياه،توفي سنة(326هـ) وله كتب. انظر الفهرست ص 214،ومعجم الأدباء 2/ 241و وفيات الأعيان1/ 133–

(7) أخلاق الوزيرين ص 150.

(8) نفسه ص 141.

(9) تقدمت ترجمته في ص 11 حاشية رقم 1.

(10) من وزراء المكتفي بالله،كان ذا دهاء ومكر وأدب وافر،قتله جماعة من الجند في أيام المقتدر . انظر الفخري ص 258–259.

(11) أخلاق الوزيرين ص 189.

(12) في اللسان : مادة(عضل) :العضل :شديد القبح . ونثه نشره.

(13) أخلاق الوزيرين ص 492.

وعند ما نعود الى ترجمة الصاحب وأخباره في كتب التاريخ والأدب والأخبار نجدها تكاد تكون خالية من الحديث عن هذا الجانب، ومن محاولة تصويره وتخليده(1). فلا يجد فيها القارئ الا سلسلة متصلة من مكارم الرجل ومفاخره ومآثره، باستثناء اشارة عابرة عند ياقوت، وهو رجل اطلع على كتاب (أخلاق الوزيرين) ونقل منه نقولا مهمة كما رأينا(2)، فقد قال وهو يثني على سلوك الصاحب ويهم بايراد بعض أخباره التي هي عنوان مجده ونبله: " وللصاحب أخبار حسان في مكارم الأخلاق مع رقاعة كانت فيه..."(3).

والصاحب نفسه في أقواله وأشعاره ورسائله لم يكن يخفي هذا الجانب من سلوكه وأخلاقه، بل يصرح بما لا يدع مجالا للشك في مجونه وخلاعته وميله لسفهاء الناس وحكاية أقوالهم وأحوالهم. فهو يقول في وصف بعض مجالس الشراب والتهتك التي شارك فيها الى جانب الوزير أبي محمد المهلبي أثناء زيارته الوحيدة(4) الى بغداد بصحبة الأمير مؤيد الدولة البويهي: "...وعلى ذكر عكبرا حضرنا مع الأستاذ أبي محمد بها، فاستدعى دنا للوقت وخمارا من الدير، وريحانا من الحانة، واقترح غناء من الماخور، وأخذنا في فن من الانخلاع عجيب، بطريق من الاسترسال رحيب..."(5). وحكى في بعض أخباره التي تحدث بها عن نفسه أن مخدومه فخر الدولة قال له مرة: "بلغني أنك تقول: المذهب مذهب الاعتزال، والنيك نيك الرجال" (6).

ومن أشعاره التي يظهر فيها قلة احتياطه واطلاق ما يطعن في مروءته وتدينه قوله:

قال لي ان رقيبي ... سيء الخلق فداره
قلت دعني وجهك الجنة حفت بالمكاره(7)

فاقتبس من الحديث الشريف(8) في موضوع ساقط. وقوله في وصف غلام:

وشادن جمالـه ... تقصر عنه صفتي
أهوى لتقبيل يدي ... فقلت لا بل شفتي (9)

---

(1) انظر مثلا ترجمته في وفيات الأعيان 1/ 228-233، ونزهة الألباء ص 325- 327 والكامل في التاريخ 7/ 169.
(2) انظر ماسبق في الفصل الأول من الباب الأول ص 39-40
(3) معجم الأدباء 6/ 174.
(4) انظر تجارب الأمم 2/ 168.
(5) اليتيمة 2/ 229.
(6) اليتيمة 2/ 199.
(7) نفسه 3/ 254.
(8) الحديث هو قوله عليه السلام: "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات" وهو في الجامع الصحيح لمسلم 8/ 142-143.
(9) اليتيمة 3/ 254.

ومنهـا قولـه:

راسلت من أهواه أطاب زورة فأجابني أولست في رمضان؟
فأجبته والقلب يخفق صبوة أتصوم عن بر وعن احسان؟
صم ان أردت تحرجا وتعففا عن أن تكد الصب بالهجران
أولا فزرني والظلام مجلل واحسبه يوما مرّ في شعبان(1)

وهذا استهتار واضح بشهر التوبة والغفران لن يرضى عنه التوحيدي وأمثاله من دعاة الاصلاح وكتاب الأخلاق.

وله نماذج أخرى في الشعر والنثر (2)،فيها افحاش وبذاءة،حتى ان جامع ديوانه امتنع عن ايراد ما يدل على ذلك من شعره وقال :"وبقيت له أبيات متفرقة ،أعرضنا عن اثباتها لما تضمنته من فحش وبذاءة واسفاف"(3).

وما ينسبه اليه أبو حيان من الافتضاح عند الشراب والجهر بالمنكرات يعترف هو به في صراحة ووضوح في قوله من رسالة يصف فيها مجلسا من مجالس أنسه ولذته:"..فلما بلغت الحد الذي يوجب الحد ،بدر مني ما يبدر ممن لا يصحبه لبه ،ولا يساعده عقله وقلبه ،ولا غرو فموالاة الأرطال تدع الشيوخ كالأطفال"(4) ،كما يؤكد الثعالبي اعجابه بالشحاذين والكدين ،وحرصه على معرفة أخبارهم وأحوالهم وحفظ أقوالهم ،فقال :"وكان الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان(5) حفظا عجيبا ،ويعجبه من أبي دلف(6) وفور حظه منها ،وكانا يتجاذبان أهدابها ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما"(7).

واذا كان الصاحب لا يدفع عن نفسه تهمة السخف والمجون والسفاهة التي يتهمه بها أبو حيان ولا يحاول ذلك ،بل يتجاوز الاعتراف بها الى التباهي والافتخار بتناول المعاني البذيئة المنافية للأخلاق الفاضلة في شعره وكتابته ،فما عذر الرجل في هذا السلوك الذي يرفضه الدين وتأباه قواعد الأخلاق الحميدة؟ وكيف يمكن تفسير موقف أبي حيان من المسألة برمتها؟.

الحق أن خلو الكتب التي ترجمت للصاحب،كما قلنا قبل قليل ،من التشنيع عليه

---

(1) اليتيمة 3/ 273.
(2) المصدر نفسه ص 3/ 248، و 253-257، و 267-272.
(3) ديوانه ص 306.
(4) اليتيمة 3/ 246. وأشار في ص 342 من المصدر نفسه الى أنه ترك الشراب بعد ذلك كما يقول أبو حيان.
(5) انظر معنى هذا المصطلح وشرحه في ظهر الاسلام 1/ 141-146.
(6) تقدمت ترجمته في ص 35 حاشية رقم 4.
(7) اليتيمة 3/ 353.

والتشهير به في معنى الفحش والمجون، دليل على تستره واعتداله، وعلى عدم ارتكابه لما هو مخالف لمألوف العادة والسلوك العام في عصره. ولوكان في الأمر مايكلم عرضه ومروءته ويؤاخذه عليه معاصروه وطبقته ومجتمعه لما جاهر به في أقواله وشعره ونثره، ولما سكت عنه المترجمون له. فعصره كان في بعض جوانبه عصر مجون وتهتك وعدم احتياط(1)، ولذلك ناهضه أبوحيان بروح المصلح الغيور المتشبث بسيرة السلف الصالح المشهورين بالتنزه والعفاف والاستقامة والتقوى، وربط في ذلك بين رغبته في الاصلاح وبين رغبته في الانتقام من الوزيرين وهجائهما كما سبق القول(2).

ثم ان الصاحب لم يكن يجهل قواعد السلوك الحسن، ولا غابت عنه أخبار الوزراء والخلفاء الماضين الذين يمجد أبوحيان أخلاقهم وسيرهم. فقد كان من أشهر الوزراء المعروفين بالثقافة والعلم والاقبال على المعرفة بشتى أشكالها كما سنرى. بل انه تجاوز الاطلاع على سير الوزراء ورجال الحكم والتدبير المتقدمين الى التأليف عنهم وتدوين محاسنهم ومآثرهم، فنجد من بين مؤلفاته رسالة مختصرة عن الخلفاء السابقين من بني أمية وبني العباس(3)، وكتابا عن الوزراء(4). وهذا دليل على عنايته بسير من سبقه من ذوي الشأن والسلطان ومعرفته لأحوالهم وأخبارهم.

والوزراء الذين استشهد بهم أبوحيان فوصفهم بالرزانة والاستقامة والورع، لم يكونوا كلهم كذلك، فحامد بن العباس(5) وزير المقتدر بالله كان مشهورا بالسفه والحدة والطيش، نقل عنه التنوخي كثيرا من الأخبار والحكايات الدالة على ذلك وقال فيه: "ما رأينا ولا سمعنا برئيس أسفه لسانا من حامد بن العباس، فانه كان لا يرد لسانه عن أحد البتة، وكان اذا غضب شتم"(6). أما العباس بن الحسن وزير المكتفي بالله فيقول فيه صاحب الفخري: "لم تكن سيرته محمودة، وكان عاكفا على لذاته والأمور مهملة"(7).

وعلى العموم فقد كان أغلب الخلفاء والوزراء والملوك في العصر العباسي يعقدون مجالس خاصة للشراب والغناء وتعاطي الملذات، بل ان بعض مجالسهم العامة كانت

---

(1) سبق شرح ذلك في وصف الحالة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري في المقدمة التاريخية ص 18.
(2) انظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث ص 91-93.
(3) اسمها (عنوان المعارف في ذكر الخلائف) نشرها الشيخ محمد حسن آل ياسين في سلسلة نفائس المخطوطات.
(4) انظر وفيات الأعيان 1/ 230.
(5) انظر ما سبق في ص 182.
(6) جامع التواريخ للتنوخي ص 48. وانظر مروج الذهب 4/ 132.
(7) الفخري ص 259.

تجري فيها ضروب من السخف والخلاعة،وتحكى فيها الحكايات الماجنة الساقطة التي لا يقبلها خلق ولا دين،ويحضرها أحيانا حتى العلماء والقضاة[1].

ومن المتناقضات التي وقع فيها التوحيدي في هذا الباب أنه عاب على الصاحب حكايته لبعض الأخبار الصريحة في السفاهة والفحش التي وقعت في مجلس الخليفة المتوكل على الله،وكان هذا الخليفة نفسه أحد أبطالها[2]،وهو الذي قال فيه المسعودي: "ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه الا المتوكل،فانه السابق الى ذلك والمحدث له، وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا فاتبعه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته"[3] ومن متناقضات أبي حيان أيضا أنه حكى هو نفسه في كتبه الكثير من الحكايات والأخبار المليئة بالفحش والتصريح بالعورات[4]،وهو شيء لا يليق بأمثاله من العلماء المتدينين. ولكن "الهوى يعمي ويصم،ولعل الغيظ يجرح ويجهز"[5] كما يقول.

فالصاحب اذا لم يرتكب من الآثام والشرور الا ما جرت به العادة في عصره،وسمح به الذوق العام في زمنه،برغم مخالفته للأخلاق والدين. وهو أيضا لم يكن واحد الدنيا في الكرم والجود كما رأينا.

ولكنه يدعي كما يقول التوحيدي أنه لا شبيه له ولا منافس في الفضائل والمكارم والعلم والأدب والنبوغ في كل شيء. فلا فضيلة ولا مكرمة الا وهو متفوق فيها،ولا علم ولا أدب الا وهو رأس فيه،ولا تدبير ولا سياسة الا وهي متوقفة عليه. وعلى الجملة، لايوجد ميدان يتنافس الناس فيه ويتبارون في عصره الا وضع نفسه في القمة بين أهله وأربابه،ونسب لها من العبقرية والمجد ما لم يستطعه أحد قبله ولا بعده كما سنرى.

وبذلك نكون أمام مجموعة أخرى من الصفات الخلقية المذمومة التي ينعته بها أبوحيان ،وهي التكبر والتفاخر والغرور،والمبالغة في الاعجاب بالنفس،والاعتداد بها الى درجة احتقار الآخرين ،وغمط حقوقهم،وعدم الاعتراف بفضلهم ،سواء اتصلوا به أم لم يتصلوا،وسواء كانوا أحياء أم أمواتا. وهي كلها تنفي عنه فضيلة التواضع والحلم ولين الجانب وسعة الصدر،وتؤدي الى التجبر والقسوة والحسد والطغيان، ولا يكاد أي قول من أقواله أو فعل من أفعاله يخلو منها،وأمثلتها في الكتاب يصعب

---

(1) انظر مثلا مجلسا من مجالس عضد الدولة في معجم الأدباء 17/ 102_105 وانظر (الأدب في ظل بني بويه) ص 248_251.

(2) أخلاق الوزيرين ص 145_146.

(3) مروج الذهب 4/ 86.

(4) انظر مثلا (البصائر والذخائر) 2/ 705،و 729،والامتاع والمؤانسة 2/ 52_53.

(5) أخلاق الوزيرين ص 36.

حصرها .

فمن ذلك حديث الاستقبال (1) الذي افتتح به أبوحيان مثالب الرجل ، وهو هذيان متصل ردده الصاحب على مسامع مستقبليه من أعيان الري ووجهائها عند ما رجع من همذان في سفارة الى عضد الدولة، ومثل هذا الموقف هو "الذي ذهب به في الاعجاب والكبر، وبعثه على احتقار الناس، وتركه في التيه المضل" (2) كما يقول أبوحيان . ومنه قوله لأحد العلويين ضمن كلام يؤنبه فيه على عدم مراسلته "..وأنى لك بمثلي ، أومن يعثر في ذيلي ، أوله نهار كنهاري ، أوليل كليلي ..أنا واحد هذا العالم، وأنت بما تسمع عالم، لا اله الا الله (سبحان الله" (3) ،وقوله لأحد القضاة للسبب نفسه :" هذا ما لا أحتمله من صاحب خراسان، ولا يطمع مني فيه ملك بني ساسان" (4) .

ويذهب به التيه والعجب والافتخار الى الاسراف في الادعاء ، والى الزراية بالمشاهير من الوزراء السابقين، بل يكاد في هذيانه وفرط أنانيته يدعي النبوة . ومن ذلك قوله :" أنا الذّعاف لمن حساني ،الجراف (5) لمن عصاني ،والجحاف (6) لمن عناني ، أو حرك عناني ، أخمصي فوق هامة الدهر، أين ابن الزيات (7) منا؟ أين ابن خاقان (8) من غلامنا؟ يعني أبا العباس الضبي (9)، ومن علي بن عيسى الحشوي (10) ؟ ومن ابن الفرات الأرعن (11) ؟ ومن ابن مقلة الخطاط (12) ؟ ومن الحسن بن وهب الضراط (13) ؟ هل كانوا

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 94-104 .

(2) المصدر نفسه ص 95 .

(3) نفسه ص 100 .

(4) نفسه ص 100 .

(5) في اللسان مادة (جرف) : سيف جراف : يجرف كل شيء ، وسيل جراف : يجرف ما مر به .

(6) الجحاف : الموت . القاموس المحيط مادة (جحف) .

(7) تقدمت ترجمته في ص 163 حاشية رقم 6 .

(8) لعله يقصد الفتح بن خاقان بن أحمد وزير المتوكل على الله العباسي ، وكان مشهورا بالذكاء والفطنة وسعة الثقافة ، قتله الأتراك مع المتوكل سنة (247هـ) . انظر الفهرست ص175 ومروج الذهب 4/ 86، و 304 . ووزر للمتوكل أيضا من الأسرة الخاقانية عبيد الله بن يحيى بن خاقان . انظر الفخري ص 238 ، كما وزر ابنه للمقتدر بالله . الفخري ص 266-267 .

(9) أبو العباس أحمد بن ابراهيم الضبي ، صحب الصاحب وتتلمذ عليه وتولى الوزارة بعده . ترجمته في اليتيمة 3/ 287-294 ، والمنتظم 7/ 240 ومعجم الأدباء 2/ 105

(10) تقدمت ترجمته في ص 10 حاشية رقم 7 .

(11) تقدمت ترجمته في ص 10 حاشية رقم 4 .

(12) تقدمت ترجمته في ص 11 حاشية رقم 2 .

(13) الحسن بن وهب بن سعيد ، من أسرة تولت الكتابة للوزراء والأعيان منذ زمن الأمويين ، كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات، وكان شاعرا بليغا مترسلا فصيحا ، وهو ممدوح أبي تمام . ترجمته في الفهرست ص 183 ، وأخبار أبي تمام 183-210 ، ومعجم الأدباء 20/ 34-36 (تراجم اضافية) ، وفوات الوفيات 1/ 367-370 . وانظر خبر ضرطته في ثمار القلوب ص 155 .

الا دوننا اذا ذكرت سيادتنا ،وشوهدت سعادتنا ،ولدت والشعرى في طالعي ،ولولا دقيقة لأدركت النبوة،وقد أدركت النبوة اذ قصت بالذب عنها ،والنصرة لها ، فمن ذا يجارينا ويمارينا ويبارينا ويمادينا ويضارينا ويسارينا ويشارينا؟"(1).

فهذا الرجل"قد غرق في بحر نفسه"(2) ولا يمكن انقاذه مما حل به،والعجيب أنه،كما يقول أبوحيان:"كان يعيب غيره بجزء من هذا الباب لا يتجزأ،ويقول :انظروا الى تيهه وصلفه ومدحه لنفسه..."(3) وما ذلك الا لوجود هذا العيب فيه ومرضه به.

وقد أدى امتلاؤه بهذا الداء،وسيطرته على عقله ونفسه وسلوكه الى عدة نتائج ،أهمها احتقار الأدباء والكتاب والنظراء المنافسين له ، وطردهم ونفيهم،بل قتل بعضهم ، وافساد الكتابة والبيان بالمبالغة في المخاطبات، والاكثار من الحجاب، والتشدد في استقبال الناس،والتعلق بمظاهر الأبهة والعظمة في كل شيء دون العناية بما فيه مصلحة الأمة،ومنفعة المسلمين،كما سيتضح من الفقرات التالية.

ولقد رتب أبوحيان على هذا الجانب من شخصية الرجل صورا عديدة تموج دعابة وسخرية وتهكما ،فقد تتبع اهتماماته الثقافية والأدبية والسياسية وعلاقاته العامة،وبنى عليها قصصا وحكايات بلغت درجة رفيعة في فن السخر والتصوير(الكاريكاتوري) الساخر كما سنرى(4).

وعندما نرجع الى أشعار الصاحب وأقواله ،والى ما قاله فيه الشعراء والكتاب والمؤرخون للتأكد من صحة ما يدعيه أبوحيان من تكبره وأنانيته وعجرفته ،نجد في كل ذلك ما يثبت هذه التهمة،ويؤكد صحتها وصدق أبي حيان في دعواه. فابن عباد لم يكن يخفي اعجابه بنفسه،ولا افتتانه بمنصبه ومقدرته ونجاحه،بل ردد ذلك فيما كتبه ، وأثر عنه من الأقوال،وتغنى به في شعره.

فقد كتب رسالة(الكشف عن مساوئ شعر المتنبي) للنيل من الشاعر المشهور الذي رفض زيارته ومدحه والخضوع لأنانيته وتكبره،فحسده واغتاظ منه(5)،وقال في مقدمتها بعد أن طعن في معرفة معاصريه بالشعر والنقد ،ووسمهم بالجهل والغرور :"...وها أنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ،وأكاثر الأدباء ،و أباحث العلماء ،وأجاري الشعراء ، بالجبال تارة،وبالعراق مرة،وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد(6)،و أكتب عن أصحاب

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 170–172 ،وانظر تصويرا مركزا لشخصيته في الامتاع 1/ 54فما بعدها .
(2) أخلاق الوزيرين ص 282.
(3) نفســـــــــه ص 250.
(4) في الفصل الثاني من الباب الثالث.
(5) انظر اليتيمة 1/ 122.
(6) تقدمت ترجمته في ص 24 حاشية رقم 5.

أحمد بن يحيى ثعلب(1) ،فما رأيت من يعرف الشعر معرفته ،وينقده حق نقده غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل ابن العميد "(2) . فهذا الكلام يدل على مبالغة الصاحب واسرافه في تقدير نفسه وأستاذه أبي الفضل ابن العميد .

ونقل ياقوت عن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي أبي اسحاق(3) قوله :" قال هلال :وسمعت محدثا يحدث أبا اسحاق أنه سمع الصاحب يقول : ما بقي من أوطاري ولغراضي الا أن أملك العراق ،و أتصدر ببغداد ،وأستكتب أبا اسحاق الصابي ،ويكتب عني ولغير عليه ،فقال جدي : ويغير علي وان أصبت "(4) .

وفي شعر الصاحب نجده يتحدث بما هو أوفى بالمراد ،وأكثر دلالة عليه ،ومنه قوله :

المجد أجمع ما حوته يميني ... والفخر يصغر أن يكون خديني

والدهر موطئ أخمصي والناس بعـ ... ـد لة ملبسي والرأي بعض ظنوني

والجود يركع خاضعا لأناملي ... والبدر يسجد خاشعا لجبيني (5)

وقد يقال ان الصاحب هنا شاعر يفتخر بمناقبه ومكارمه ومجده ،والفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربي المشهورة المتداولة ،التي درج الشعراء على المبالغة والافراط فيها الى أبعد الحدود ،فالصاحب في هذه الأبيات ،وفي غيرها من أشعاره في الفخر بنفسه والتغني بأمجاده ،لم يرتكب اثما ،ولم يخرج عن العادة المألوفة عند من تقدمه من الشعراء ،وانما سار على نهجهم وتأثر بهم . وهذا صحيح لا جدال فيه ، الا أن المراد هنا هو التأكد من وجود الصفات الخلقية المذمومة التي ينعته بها أبو حيان في شخصه أو عدم وجودها فيه ،ومعرفة نصيبها من الحقيقة والواقع . أما المبالغة والاسراف في الحديث عن هذه الصفات فأبو حيان أيضا كان مسرفا متجنيا على الحقيقة في وصفه لأخلاق الرجل وشخصيته على العموم ،كما سيتضح خلال الفقرات والفصول التالية .

واذا كانت آثار الصاحب النثرية والشعرية تشهد بصحة ما ينسبه اليه التوحيدي من

---

(1) أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار بن زيد الشيباني المعروف بثعلب ،كان امام الكوفيين في النحو واللغة في زمنه ،وكان حافظا ثقة دينا صدوقا ،توفي سنة (291هـ) ترجمته في الفهرست ص 116–117 ،ونزهة الألباء ص 228–232 ،وبغية الوعاة 1/ 396–398 .

(2) رسالة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي الملحقة بكتاب الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي ص 242–243 .

(3) أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن زهرون ،كاتب بليغ شاعر عالم بالهندسة ،والغالب عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر ،توفي سنة(384هـ) . ترجمته في الفهرست ص 199–200 والامتاع والمؤانسة 1/ 67–68 ،واليتيمة 2/ 241–311 ،ووفيات الأعيان 1/ 52–54 .

(4) معجم الأدباء 6/ 306 ،وانظر أقوالا مشابهة لهذا القول في اليتيمة 2/ 245 ،و 3/ 192–193 ،199

(5) ديوانه ص 128–129 .

صفات الغرور والتكبر والاعجاب بالنفس،فان الشعراء والكتاب ومؤرخي الأدب ينسبون اليه أيضا هذه الصفات ويؤيدون أبا حيان فيما ذهب اليه. ولعل الشعراء الذين مدحوه ورثوه كانوا أكثر تأييدا له وأقرب الى ما صوره هذا الجانب من شخصية الرجل. فقد نعتوه بأوصاف الملوك العظماء،والأنبياء الملهمين،والأئمة المهديين، كما فعل أبوحيان في معرض الزراية عليه والسخرية منه(1). وأقوالهم في هذا المعنى كثيرة تتخلل جل ما قيل فيه من مدح ورثاء،ونكتفي هنا بذكر قول أبي سعيد الرستمي (2) من قصيدة:

لا والذي جعل المكارم كلها لك والعلا في مبدأ ومعاد
ورآك أهلا للرشاد وللهدى وكساك آيات الامام الهادي
لوكان غير الله يعبد ما انثنت الا اليك أعنة العباد (3)

ويظهر أن الشيعة أكثر افتتانا واعجابا بشخصية الصاحب وسلوكه وأخلاقه، وبلغ من تقديرهم له أن ادعوا أنه المهدي المنتظر. فقد علق صاحب اليتيمة على شعر في مدح الرجل ورد فيه هذا المعنى فقال:"لما روت الشيعة أن بالطالقان كنزا من ولد فاطمة يملأ الله به الأرض عدلا كما ملئت جورا،والصاحب من قرية الطالقان من قرى أصبهان،ورزق سبطا فاطميا(4)،تأولوا له هذا الخبر،وأنا بريء من عهدته..."(5). فهذه هي الحقيقة التاريخية التي تشبث بها أبوحيان فصاغ منها تلك الصورة الهزلية السابقة التي ارتفع فيها بالصاحب الى درجة النبوة.

وقال ياقوت:"وكان الصاحب رحمه الله ممن يحب الفخر وانتحال الفضائل التي ربما قصر عنها"(6)،وقال فيه صاحب معاهد التنصيص:"وكان يحب التيه ويتيه"(7). والى مثل ذلك ذهب أكثر الباحثين المحدثين،فقال عبد الرزاق محيي الدين ان ظاهرة العجب والكبرياء والأنانية التي وصفه بها أبوحيان" ليست مينا ولا اختلاقا،وانما هي استكناه لدخيلة مهما بالغ أبوحيان في تصويرها وتجسيمها،فلا يعدو فيها حقيقة ما كان ينطوي عليه ابن عباد"(8)،وقال صاحب أعيان الشيعة:"كان يظهر من كثير من أحوال الصاحب

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 79-83.
(2) تقدمت ترجمته في ص 171 حاشية رقم 4.
(3) اليتيمة 3/ 307.
(4) أنجب الصاحب من الأولاد بنتا واحدة لا غير زوجها لأحد العلويين فأنجبت هذا السبط الذي يتحدث عنه الثعالبي هنا. انظر اليتيمة 3/ 236-238،و 407،ومعجم الأدباء 6/ 240.
(5) اليتيمة 3/ 237،وذكر أبوحيان في أخلاق الوزيرين أن أبا عبد الله البصري المعتزلي ألف رسالة ادعى فيها أن الصاحب هو المهدي المنتظر. أخلاق الوزيرين ص 208.
(6) معجم الأدباء 6/ 308.
(7) معاهد التنصيص 4/ 110،وانظر بغية الوعاة 1/ 450.
(8) أبوحيان التوحيدي :سيرته وآثاره ص 277.

رضاه عن نفسه واعجابه بها، وافتتانه بمظاهر الأبهة والمظمة، وأنه كان يحب التماظم والبذخ والخيلاء"(1).

فكل هذه الأقوال، وغيرها كثير، تثبت للصاحب هذه الأوصاف الخلقية المذمومة التي ينعته بها التوحيدي، والتي تدور كلها حول اعجابه بنفسه وتقديره لشخصه، ولكنها، مع ذلك، لا تنفي عنه صفة التواضع والحلم وتقدير الآخرين، والاعتراف بمزاياهم الخلقية والفكرية والأدبية على عكس ما يقول أبو حيان كما سنرى، فقد ثبت أنه كان يقول "لجلسائه اذا أراد أن يبسطهم ويؤنسهم: نحن بالنهار سلطان، وبالليل اخوان"(2). كما أنها لا تنفي انخزاله وانكساره أمام من هم أقوى منه وأعز جانبا(3).

ولم يشتهر أحد ممن قبله من الوزراء والكتاب بشيء من أوصاف الأنانية والعجب والكبرياء هذه سوى ما أثر عن عمارة بن حمزة(4) والفضل بن الربيع(5)، فقد قال الجهشياري في حديثه عن هذا الأخير:" وكان شديد التكبر، فموتب على ذلك فقال: هيهات، هذا شيء حملت عليه نفسي لما رأيته من عمارة بن حمزة"(6). ومع ذلك لا تخلو سير الوزراء والمظماء من هذا الجنس من السلوك، فهو موجود في الطبيعة البشرية، وتقتضيه المناصب الكبرى لنشر الهيبة والأمن. وقد روي عن عبيد الله بن سليمان بن وهب(7) وزير الخليفة المعتضد أنه قام في مجلسه احتراما لأحد أصدقائه من التجار، فقال له الخليفة:" تبتذل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر؟ ولو كان هذا لصاحب طرف كان محظورا، أو ولي عهد كان كثيرا، فقال: يا أمير المومنين، لم يذهب عني حق المجلس وتوفية الرتبة حقها ولكن لي عذرا..."(8).

وحين يريد أبو حيان تعليل هذه الظاهرة في شخصية الصاحب يعللها باستبداده برأيه، واطلاق السلطة في يده واعتماد مخدومه عليه في جميع أمره، فهو "لم

---

(1) أعيان الشيعة 11/مجلد 12/ 420، وانظر الصاحب بن عباد لخليل مردم ص 67، والصاحب ابن عباد: حياته وأدبه للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 48 فما بعدها.

(2) اليتيمة 3/ 196 ومعجم الأدباء 6/ 186، وانظر شعرا له في أحد العلويين في اليتيمة 4/ 58.

(3) انظر شعرا له في مدح ابن العميد في ديوانه ص 278، وأورد أبو حيان في الامتاع 1/ 92 عند ذكر هذا المعنى قول بعض السلف" ما تعاظم أحد على من دونه الا بقدر ما تصاغر لمن فوقه".

(4) كاتب أبي جعفر المنصور ومولاه، كان تائها معجبا بنفسه، كريما بليغا فصيحا أعور، وكان أبو جعفر المنصور والمهدي يقدمانه، توفي سنة (199هـ). الفهرست ص 177، ومعجم الأدباء 15/ 242-257

(5) الفضل بن الربيع بن يونس، كان حاجبا للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، فلما نكب الرشيد البرامكة بزعامته استوزره بعدهم. انظر وفيات الأعيان 4/ 37-40، والفخري ص 211-215.

(6) الوزراء والكتاب ص 194، وكان يضرب المثل بتكبر عمارة بن حمزة فيقال:" تيه عمارة" انظر ثمار القلوب ص 155.

(7) من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب، كان ماهرا في صناعته حاذقا لبيبا. انظر الفخري ص 247، و 254

(8) نشوار المحاضرة 1/ 79.

يبذل لأحد وذل له كل أحد ،وأمر كل انسان وما نهاه انسان"(1). وبذلك كبرداء المجب في نفسه ،وتجاوز حدوده المعقولة ،وصادف أنه ولي الوزارة في فترة لا منافس له عليها كما سنرى ،فاطردت أموره واستقامت شؤونه ،فظن أن كل ذلك بحكمته وحسن تدبيره ،فقوي غلطه وتزايد عجبه وزهوه.

وهذا يسلمنا الى مجموعة أخرى من الصفات المرذولة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتكبر والأنانية والغرور ،اذ هي مقترنة بها وناتجة عنها ،وهي القسوة والبطش والظلم والحسد وما شابهها مما يدل على العتو والجبروت. وكلها من المثالب المهمة التي ألصقها أبو حيان بالصاحب ونسبها اليه ،وهي تنفي عنه أضدادها من الرحمة والحلم والعدل واحترام الناس وتقديرهم وغيرها مما هو مفروض عليه شرعا وعقلا ما دام منتصبا للحكم بين الناس وتدبير شؤونهم.

قال أبوحيان فيما وصفه به من ذلك :"وكان مع ذلك سفاكا للدماء ،قتالا للنظراء والأكفاء ،وكان شديد الحسد لأهل الفضل والدراية ،ولأصحاب الحفظ والرواية. وكان جل حسده لمن كتب فأحسن الخط وأجاد اللفظ ،وتأتى للرسم وملّح في الاستمارة"(2) ، وقال :"وكان الرجل خفيف الدماغ لا يعرف الحلم الا بالاسم"(3). ووصف وقوف القاضي أبي الحسن العلوي الهمذاني(4) بين يديه أثناء استقباله على أبواب الري بعد عودته من همذان فقال :"والهمذاني مثل الفارة بين يدي السنّور ،قد تضاءل وقمؤ لا يصعد له نفس الا بنزع ،تذللا وتقللا. هذا على كبره في مجلسه مع نذالته في نفسه"(5).

وكان الصاحب ،كما يقول أبوحيان ،يؤنس زواره من الأدباء والعلماء في بداية ورودهم عليه ،ويعدهم ويمنيهم ويبسط الآمال أمامهم ،ويشجعهم على نصرة ما يعتقدونه ويرونه دون خوف أو اعتبار لمرتبته ورأيه ومذهبه ،حتى اذا وثقوا به فناظروه بقوة وشجاعة ، وضايقوه بالحجج والآراء التي لا يملك لها ردا ،تنمر لهم واتقد غضبا وجنونا وسطوة ،ونادى حرسه وقال :"ياغلام ،خذ بيد هذا الكلب الى الحبس ،وضعه فيه ،بعد أن تصب على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة عصا ،فانه معاند ضد ،يحتاج الى أن يشد بالقد ،ساقط هابط ،كلب نباح ،متمجرف وقاح ،أعجبه صبري ،وغره حلمي ،ولقد أخلف ظني ،وعدت على نفسي من أجله بالتوبيخ ،وما خلق الله العصا باطلا ،ولا ترك

(1) أخلاق الوزيرين ص 143.
(2) المصدر نفسه ص 116.
(3) نفسه ص 306.
(4) يرجح محقق الكتاب ابن تاويت أنه القاضي المذكور في اليتيمة 3/ 407 اذ أن له صلة بالصاحب.
(5) أخلاق الوزيرين ص 97.

خلقه هاملا..."(1) وأكد أنه عامل كثيرا من الفضلاء بمثل هذا العمل الشنيع.

ومن مظاهر قسوته وعتوه وصلفه، كما يقول أبو حيان، تشدده في ضرب الحجاب على بابه، واهمال العلماء والشرفاء وذوي المراتب وقوفا في انتظار اذنه، وكذلك مطالبة من يكاتبه ويراسله بالمبالغة في تعظيمه بألفاظ المولوية والسيادة المطلقة، وكان يقول: "أنا أعلم أن الحجاب قبيح وبغيض، والصبر عليه متعذر، وهو الذي يورث العداوة الشديدة، ويبعث على القالة الشنيعة.. لكني أتلذذ به، ولست أجد طعم هذه المرتبة العلية، ولا أعرف ثمرة هذه الحال السنية الا بعد أن أحتجب، ويقف الناس على منازلهم بالباب.."(2) ويقول مؤكدا وجوب الافراط والمبالغة في تعظيم مقامه أثناء مخاطبته أو الكتابة اليه: "هذا الذي به أجد طعم ولايتي، ولولا هذه اللذة والشهوة ما باليت أن أتقلب في مرقعة خلق، وشوب رث بال، أجوب بلاد الله، وألقى عباد الله، وآكل رزق الله"(3).

وعندما نعود الى الأخبار والأقوال والاشارات التي نقلها غير أبي حيان، نجدها تؤكد صدق دعواه وصواب قوله فيما نسبه الى الصاحب من قسوة وظلم وحسد. ولكنها لا تنفي عنه أضدادها من الرحمة والحلم والعدل والانصاف، بل تثبتها له، وتبالغ في وصفه بها على عكس ما يدعيه أبو حيان. فقد نقل صاحب ذيل تجارب الأمم خبرا يقول فيه: "قيل ان قوما تظلموا اليه من حيف لحقهم، فوقع على ظهر قصتهم: "يظلمون شهرا، وينصفون دهرا"" ثم علق عليه بقوله: "وهذا توقيع طريف، فهل يجوز الفضول عن الظلم ساعة فكيف شهرا؟ وما يدريه لعل الله يحدث قبل الشهر أمرا"(4). وأورد ياقوت من كتاب مشارب التجارب لأبي الحسن البيهقي خبرا يقول: "حدث الوزير أبو العلاء بن حسولي(5) قال: كان دينار المجوسي صدرا في ديوان الري، وكان مدثرا مدرحما مموّلا فكتب رجل الى الصاحب:

لم لا يفرق في ديوان عسكره كافي كفاة الورى دينار دينار

فان أيسر ما في قطع شأفته تطهير ديوانه من عابدي النار

فقبض عليه وصادره واستوفى منه مالا عظيما، والسبب في ذلك البيتان"(6). وفي ذلك

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 112، وانظر ما وصفه به في الأمتاع 1/ 55 فهو أقوى وأشد مما هنا، ومنه قوله فيه: "وقد قتل خلقا وأهلك ناسا ونفى أمة نخوة وتمنتا وتجبرا وزهوا".

(2) أخلاق الوزيرين ص 199– 200.

(3) نفسه ص 287.

(4) ذيل تجارب الأمم ص 171.

(5) هكذا، والذي في فوات الوفيات 3/ 430 أبو العلاء محمد بن علي بن حسّول، وهو أديب من الكتاب، نشأ بالري وتولى بها ديوان الرسائل، واتصل بالصاحب وتوفي سنة (450هـ) فلعله المقصود هنا.

(6) معجم الأدباء 6/ 262.

من دلائل القسوة والظلم ما لا مزيد عليه.

ولقد سم هو وصاحبه فخر الدولة،بعد أن تم لهما النصر على أعدائهما والانفراد بالحكم في مدينة الري وأعمالها،رجلا كبيرا من رجال الديلم،وهو علي بن كامة،الذي كان سندا قويا بالمال والرجال للدولة البويهية. وكان قتله جريمة صريحة لم يدفعهما اليها الا الخوف منه،والرغبة في ذخائره وأملاكه. قال صاحب ذيل تجارب الأمم بعد أن روى قصة مصرع الرجل،وما حاوله الصاحب قبيل ذلك من اعتزال الوزارة رغبة في التفرغ للدين والعبادة على زعمه:" وليس العجب من فخر الدولة في سم الرجل كالعجب من الصاحب الذي سأل بالأمس..في الاذن له في ملازمة داره والتوفر على أمر المعاد"(1).

وهذا أحد رجال المعتزلة وأدبائهم وعلمائهم أبو القاسم المتروكي أحمد بن علي "جمع بين العلم والقرآن والأدب والزهد،نزل نيسابور،فاستدعاه الصاحب الى حضرته،فأنشأ يقول:

قل للذي لقب بالصاحب	ولست فيما قلت باللاعب
تعتقد العدل ولا ترعوي	أف لهذا القول من كاذب
وتدعي أنك مستبصر	يا شاهدا في صورة الغائب
عاديت من واليت ان لم أكن	منك ومن فعلك في جانب"(2)

أما ما نسبه اليه أبو حيان من حسد الأدباء وازدرائهم واساءة معاملتهم فيكفي دليلا عليه قصته مع المتنبي الذي رفض الخضوع له والاستجابة لرغبته في مدحه، فانطلق في الوقيعة فيه واظهار عيوبه وتدوينها. وهذا ما حدا بالقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني الى كتابة كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه(3)،وقد استهله بالحديث عن التنافس والتحاسد بين الأدباء(4). والعجيب أن أبا حيان لم يشر الى رسالة الصاحب في المتنبي،ولا الى قصة الخصام بينهما بالرغم مما فيهما من تأييد واضح له في موقفه من ابن عباد! والظاهر أن السبب في ذلك هو اعتماده على علاقته المباشرة بالوزيرين، وعلى الرواية عن رجال أحياء اتصل بهم وعرفهم عن قرب،بينما انتهت حياة المتنبي سنة (354هـ) قبل أن يتصل هو بالوزيرين،وقبل أن يهتم بأمرهما.

وهناك اشارات أخرى توضح سوء معاملة الصاحب للأدباء والشعراء(5)،كما

(1) ذيل تجارب الأمم ص 95 وفيه القصة مفصلة.
(2) فرق وطبقات المعتزلة ص 124.
(3) انظر اليتيمة 1/ 122،و 4/ 4.
(4) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص 1.
(5) انظر اليتيمة 3/ 196،و 197،و 322.

أن هناك عدة دلائل تبرهن على تقديره لهم واعترافه بفضلهم كما سنرى، بل ان موقفه من الأدب والشعر والثقافة في عصره كان له أبلغ الأثر في ازدهار الحركة الثقافية في فارس ونواحيها (1) .

أما عنايته بالحجابة والحجاب، وبالتعظيم والتفخيم في المراسلات والمخاطبات فأمر ذائع مشهور. يقول الآبي في تاريخه فيما نقله عنه ياقوت: ان " أبناء الملوك والأمراء والقواد، وسائر من ساواهم من الزعماء والكبار.. كانوا يحضرون باب داره فيقفون على دوابهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة واعظاما لموضعه، الى أن يخرج أحد خلفاء حجابه فيأذن لبعض أكابرهم ويصرفهم جملة، فكان من يؤذن له في الدخول يظن أنه قد بلغ الآمال، ونال الفوز بالدنيا والآخرة فرحا ومسرة وشرفا وتعظيما. فاذا حصل في الدار، وأذن له في الدخول الى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعا الى أن يقرب منه، فيجلس من كانت رتبته الجلوس الى أن يقضي كل واحد منهم وطره من خدمته، ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضا مرارا. ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير الى القيام، ولا يطمع منه أحد في ذلك" (2). ويقول أيضا في وصف هيبته وعظمته: " وأما أسبابه وحاشيته وهيبته ورتبته، فان من أيسرها أنه كان له عدة من الحجاب، منهم من على مربطه ثلاثمائة رأس من الدواب أو ما يقاربها، وكانت أحوال بلكا الحاجب تزيد على ذلك زيادة كثيرة" (3) .

فلا جرم أن من كانت هذه صفته وشأنه يكسب هو وأصحابه الأموال من غير وجوهها، ويصادر صاحبه فخر الدولة أمواله بعد وفاته، ويستولي على أملاكه وذخائره، ويقول فيه: " ان الصاحب أضاع الأموال وأهمل الحقوق" (4). ولا جرم أيضا أن يطالب الناس بما ليس في المستطاع من تعظيمه واجلاله في الحديث معه أو الكتابة اليه. وهذا شيء استرعى انتباه المؤرخين، فقالوا ان ابن سعدان وهو وزير بهاء الدولة أمير الأمراء في بغداد كان " يخاطب الصاحب بن عباد بالصاحب الجليل والصاحب ابن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاي ورئيسي" (5). وبلغ من احتياط ابن سعدان في مكاتبة الصاحب أنه كان يستعين في الكتابة اليه بأبي اسحاق الصابي (6)

---

(1) سبق تفصيل ذلك في وصف الحركة الثقافية في عصره في المقدمة التاريخية ص 33 فما بعدها.

(2) معجم الأدباء 6/ 245-246.

(3) المصدر نفسه 6/ 248.

(4) ذيل تجارب الأمم ص 261 فما بعدها، وفيها الحديث مفصلا عن مصادرته ومصادرة أصحابه. وانظر مصادرة القاضي عبد الجبار أحد أصفياء الصاحب وأركان مذهبه وحكمه في معجم الأدباء 6/ 299- 300.

(5) الكامل لابن الأثير 7/ 125، وقد تقدمت ترجمة ابن سعدان في ص 62 حاشية رقم 1.

(6) رسائل أبي حيان التوحيدي ص 61، وقد تقدمت ترجمة الصابي في ص 189 حاشية رقم 3

بالرغم من جودة خط ابن سعدان وحسن انشائه.

والسبب عند أبي حيان في تشدد ابن عباد وغيره من حكام عصره في الحجاب والمخاطبات يرويه عن أستاذه أبي حامد المروروذي وهو: "احساس الناس بنقصهم القائم بهم، الراكد عليهم، الثابت فيهم، وطلب دفع ذلك بالترتيب ونفيه بالخطاب. وليس الطريق الى ذلك هذا، بل الطريق اليه الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والكرم والدين والمروءة. انظر الى السلف الصالح كيف كانوا، هل خاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بيارسول الله؟ وبعد فهل يخاطب ربنا الا بالتاء والا بالكاف؟."(1) وبذلك تكون عظمة الصاحب التي وصفها المؤرخون والشعراء، وتبعهم فيها غير واحد من المحدثين(2)، عظمة فارغة جوفاء في نظر أبي حيان، تدل على الضعف والنقصان أكثر مما تدل على القوة والكمال.

وفي كل ما سبق من الشواهد والأقوال دليل على صدق المؤلف في بعض ما وصف به ابن عباد من العتو والصلف والجبروت. ولكن الشواهد والأخبار السائرة عن رحمة الصاحب وعدله وحلمه ورفقه وانصافه تعادل تلك التي تصور بطشه وقسوته وظلمه، وربما تفوقها عددا وشهرة. الا أن ورودها في كتب التاريخ والأدب على شكل حكايات وأخبار طويلة يمنع من اثباتها هنا، وسنكتفي بايراد ما هو منها أخصر وأدل على المراد.

فقد وصفه الثعالبي بأنه "ينبوع العدل والاحسان"(3). ونقل ياقوت من تاريخ الآبي أن امرأة تظلمت اليه "من صاحب لفولاذ بن مانادر، وذكرت أنه ينازعها في حق لها، فما زاد على أن التفت الى فولاذ، وكان في موكبه يسير خلفه، فبهت وتحير، وارتعد ووقف ولم يبرح الى أن ساركافي الكفاة، ثم أرسل مع المرأة من أرضاها وأزال ظلامتها..."(4).

وقال فيه أحد الشعراء من قصيدة يمدحه بها:

فنصبت للاسلام أكرم راية ... وقمعت أهل الجبر والالحاد

وأفضت عدلك في البلاد وأهلها ... وضربت دون الظلم بالأسداد (5)

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 289، وانظر موقف أبي حيان من هذه المسألة أمام الوزير ابن سعدان في الامتاع والمؤانسة 1/ 20-21. وانظر حديثا مفصلا عن الألقاب وتحليلها واستنكارها في تحفة الأمراء ص 166 فما بعدها، وانظر المثل السائر 2/ 327.

(2) انظر الصاحب ابن عباد لخليل مردم ص 62، والصاحب ابن عباد لبدوي طبانة ص 126-131.

(3) اليتيمة 3/ 188.

(4) معجم الأدباء 6/ 248.

(5) اليتيمة 3/ 308، وانظر أعيان الشيعة 11 مجلد 12/ 406 فما بعدها.

على أن أكبر دليل على حلم الصاحب،وعلى تجاوزه واغضائه،وعلى اقباله على العلماء والأدباء وتقديرهم،هو صبره على التوحيدي نفسه والسماح له بالبقاء في كنفه،وحضور مجالسه،والاستماع الى كلامه ،بالرغم من مشاكسة أبي حيان وسوء تصرفه واطلاقه ما لا يليق. وأغلب الحكايات والأخبار التي دونها المؤلف عن علاقته بالرجل يفهم منها هذا المعنى (1). ومنها قوله فيما وصفه به من ظلم وحسد وكبرياء :"وقال يوما في المجلس،وهو يحدث عن رجل أعطاه شيئا فتلكأ في قبوله :

ولا بد من شيء يمين على الدهر

ثم قال : قد سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندها ذاك. فقلت :أنا أحفظ ذاك. فنظر الي بغضب وقال : فما هو؟ قلت :نسيته. قال : ما أسرع ذكرك من نسيانك. قلت :ذكرته والحال سليمة،فلما حالت عن سلامتها نسيت. قال :وما حيلولتها؟ قلت : نظر الصاحب بغضب ،فوجب في حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب. فقال : ومن تكون حتى يغضب عليك ؟ دع هذا وهات. قلت :قال الشاعر :

ألام على أخذ القليل وانما أصادف أقواما أقل من الذر
فان أنا لم آخذ قليلا حرمته ولا بد من شيء يمين على الدهر

فسكت"(2). فقد أخطأ أبو حيان ما في نفس الصاحب حين ردد شعرا فيه تعريض ببخله،ولم يقصد بغيره ممن ادعى الجهل بالبيتين. وربما كان يقصد من ذلك ، مدفوعا بصراحته وجرأته ،الى اعلان مساوئ الرجل أمامه ومواجهته بها. وكيفما كان الحال فقد كان جاهلا بقدر نفسه وبقواعد السلوك والتعامل التي يجب اتباعها للنفوذ الى قلب رجل في درجة الصاحب ومكانته.

ومن ذلك قوله :"حضرت مائدة الصاحب أبي القاسم ابن عباد ،فقدمت مضيرة رائقة فأمعنت فيها. فقال لي : يا أبا حيان انها تضر بالمشايخ. فقلت :ان رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل. فكأني ألقمته حجرا. وخجل واستحيى ولم ينطق الى أن فرغنا"(3) فالخجل والحياء اللذان ينسبهما الصاحب في هذا الخبر ليسا من طباع القساة الظلمة.

يتضح من هذين الخبرين أن أبا حيان تجاوز حدود الأدب والسلوك الواجبين مع الوزراء والكبار في عصره،وتجرأ في مجلس الصاحب تجرؤا لاتوجيه مكانته أو

---

(1) انظر أخلاق الوزيرين ص 222–223،و 305–307،و 492–493. وقد نقل ياقوت أغلبها في معجمه ،ومنه أخذها الأستاذ عبد الرزاق محيي الدين وحللها تحليلا مفصلا في كتابه : أبو حيان التوحيدي : سيرته وآثاره ص 281–293.

(2) أخلاق الوزيرين ص 463– 464.

(3) الهفوات النادرة ص 342.

علاقته بوزير كبير. والحق أن ابن عباد كان صبورا معه، كاظما لغيظه منه[1]، حين أبقاه بعد ذلك في مجلسه وحاشيته، ولم يبادله الاساءة حتى انصرف من حضرته عن طواعية واختيار. بل انه، حاول بعد مغادرته اياه ولجوئه الى بغداد، أن يرده اليه ويزيل أسباب الخصام والعداوة بينهما فامتنع أبوحيان خوفا من سوء العاقبة أو تكبرا وأنانية.[2]

ولو رجعنا الى سير الوزراء والأمراء والحكام في عصر الصاحب وقبل عصره لأذهلنا ما دونته عنهم المصادر التاريخية والأدبية من صور الظلم والقسوة والبطش التي تفوق بكثير ما أثر منها[3] عن الصاحب، حتى ان المرء لا يسعه الا أن يحمد لصاحبنا هذا التوسط والاعتدال في الجمع بين الفضائل والرذائل. و ما أحسن ما قاله فيه أحد الشعراء:

يرضى ويغضب لا عمدا ولا غلطا لكنه ذو فنون في تجنيه

فما تقربه مني محاسنه ولا تبعده عني مساويه[4]

وهذه الأخلاق المذمومة التي ينسبها أبوحيان الى الصاحب لا تدل في نظره على ضعف وازعه الخلقي وخبث سريرته وأصالة طبعه في الشر فحسب، ولكنها تدل أيضا على ضعف عقيدته الدينية، وقلة تمسكه بأوامر الاسلام ونواهيه، وعدم عنايته بآدابه في السلوك والمعاملة. ولذلك قال فيه انه كان " قليل التوجه الى القبلة، قليل الركوع والسجود. وكان مع حفظه الغزير عليه مؤونة في تلاوة آية من كتاب الله عز وجل اذا أراد أن يستدل بها في الجدل والمناظرة، أو يذكر وجها من وجوهها في المذاكرة. ولم يكن عليه طابع العبادة ولا سيما المتألهين"[5]. ووصفه بأوصاف الزنادقة والملحدين، ومرتكبي الفواحش والكبائر، الذين لا يترددون في اقتراف المآثم والمنكرات. فقد خاطبه بقوله على لسان أبي راغب المتبي: اني لم أجد في سيرتك " الا ما يصب برأسك المار، ويحشد عليك أسباب الدمار، وتكون عاقبتك منه دخول النار. لأنك تظهر القول بالوعيد، ثم تركب كل كبير من أخذ المال المحرم، واستباحة الحريم المصون، وقتل النفس المؤمنة، ومداهنة الفسقة الفجرة، وخدمة الظلمة الغشمة، وتقديم أهل المجون والعيارة، وفي عشر

---

(1) انظر (أبوحيان التوحيدي ...) لعبد الرزاق محيي الدين ص 283-284

(2) انظر الامتاع والمؤانسة 1/ 53، وانظر الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث ص 60.

(3) انظر مثلا في (تحفة الأمراء) ص 44 فما بعدها "أسماء الذين قبض المحسن بن أبي الحسن بن الفرات عليهم ونكبهم وقتلهم وأبعدهم وما جرى عليه أمر كل واحد منهم" وانظر الامتاع 3/ 216-217.

(4) طراز المجالس ص 208.

(5) أخلاق الوزيرين ص 116.

هذا سقوط المروءة والانسلاخ من الديانة..."(1).

وقد سبق تفصيل القول في معظم هذه التهم التي يسوقها التوحيدي في هذين النصين. والذي يهمنا منها الآن هو ورودها في معرض الطعن على عقيدة الرجل ودينه، والحكم عليه بسببها بدخول النار والاستقرار في الجحيم، اذ بذلك تتأكد مؤاخذته اياه بمقاييس خلقية ودينية على السواء.

والحق أن الصاحب كما تتحدث عنه آثاره وأخباره ليس في حياته ما يدل على الزهد في الدنيا، والاقبال على العبادة والانصراف اليها والى أعمال البر والاحسان، على نحو ما هو مشهور مأثور عن بعض الخلفاء والوزراء والولاة المقتدين بالسلف الصالح(2) كما يريد له التوحيدي ولجميع حكام عصره. ولكنه كان مقبلا على الحياة مع من شاكله من معاصريه وأبناء طبقته بكل محاسنها ومساوئها حسب ما تقتضيه القواعد الخلقية في عصره، وتسمح به العادة الجارية في زمنه، دون تشدد كبير في التمسك بأوامر الدين والامتناع عن نواهيه. وهذا سلوك لن يرضى عنه أبو حيان بسبب نزعته الصوفية ورغبته في تقويم أخلاق معاصريه واصلاح دينهم كما سبق القول(3).

وكل ما يدل في حياته على التمسك بالدين والاعتصام بفضائله وآدابه وعلى ثبات ايمانه وصحة عقيدته - على خلاف ما ينعته به أبو حيان - هو تعصبه للمعتزلة والشيعة، ودفاعه عنهما بكل ما يملك من قوة ووسائل كما سنرى، وكذلك صدقاته ومبراته في المناسبات الدينية، ونفقاته المتعددة من أجل صيانة المقامات المقدسة وتكريمها، وعلى الشرفاء العلويين والزهاد والعلماء وأمثالهم. فقد ورد في أخباره أنه كان "يراعي من ببغداد والحرمين من أهل الشرف وشيوخ الكتاب والشعراء، وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء، بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج على مقادير هم ومنازلهم..."(4) حتى ان أحد العلويين رثاه بعد وفاته بقوله:

تبكي الوزير سليل عباد العلا ... والدين والقرآن والاسلام
تبكيه مكة والمشاعر كلها ... وحجيجها والنسك والاحرام
تبكيه طيبة والرسول ومن بها ... وعقيقها والسهل والأعلام (5)

على أن أكبر دليل وأشهره على يقين الصاحب واحساسه العميق بما ينتظره

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 152-153.

(2) أشهر من يتصف بذلك في العصر العباسي هو علي بن عيسى بن الجراح، وقد تقدمت ترجمته في ص 10 حاشية رقم 7.

(3) انظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث ص 81-83، و 92-93.

(4) معجم الأدباء 6/ 300.

(5) اليتيمة 3/ 286.

من ثواب أوعقاب بعد الموت وعلى تصديقه لكل ما جاء به الاسلام من أحكام وتصورات عن الحياة الانسانية في الدنيا والآخرة هو لجوءه الى التوبة في أواخر عمره،واحضار القضاة والشهود والعدول و أخذ شهاداتهم بصحة توبته،حتى انه بنى دارا سماها بيت التوبة انقطع فيها للعبادة عدة أيام. فقد ورد أنه لما عزم " على الاملاء(1) وهو وزير خرج يوما متطلسا متحنكا بزي أهل العلم فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقروا له بذلك،فقال: و أنا متلبس بهذا الأمر و جميع ما أنفقته من صغري الى وقتي هذا من مال أبي وجدي. ومع هذا فلا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أني تائب الى الله من ذنب أذنبته. واتخذ لنفسه بيتا وسماه بيتالتوبة، ولبث أسبوعا على ذلك. ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته. ثم خرج فقعد للاملاء وحضر الخلق الكثير. وكان المستملي الواحد ينضاف اليه ستة كل يبلغ صاحبه. فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبار(2).."(3).

وقد يقال ان توبته هذه التي بالغ فيها واحتفل بها دليل على كثرة ذنوبه ومنكراته،ودليل أيضا على اعترافه بها،وهي بهذا المعنى تأييد واضح لما يقوله فيه أعداؤه. وربما كان هذا صحيحا،غير أن الذي يهمنا من المسألة كلها هو تفكيره في التوبة وقيامه بها،لأن ذلك دليل قاطع على صحة عقيدته واهتمامه بما بعد الموت. أما الأسباب التي دفعته الى التوبة،وكذلك نتائجها والطريقة التي تمت بها،وصحتها أوعدم صحتها،فكلها أمور لا تؤثر في معناها الأصلي فضلا عن كونها موضع اختلاف عريض يصعب الاتفاق بشأنها.

فأبوحيان طعن في توبة الرجل وقال في معرض ذكره لفواحشه ورذائله:"...ثم يبني دارا يسميها دارالتوبة استهزاء وسخرية وسخنة عين..."(4)،والقاضي عبد الجبار،وهو من صنائع الصاحب،وأحد الشهود الحضور في مجلس توبته واملائه للحديث، قال يوم وفاته:""انني لا أرى الترحم عليه لأنه مات عن غير توبة ظهرت عليه"،فنسب عبد الجبار في هذا القول الى قلة الرعاية"(5)،فهو يرفض صحة توبته ويعتبرها عملا فارغا لم يتبعه انقطاع صحيح الى الله.

---

(1) يقصد املاء الحديث.

(2) هو عبد الجبار أحمد بن عبد الجبار الهمذاني،ولاه الصاحب قضاء قضاة الري وأعمالها. كان شيخ المعتزلة في عصره وله عدة مؤلفات. توفي سنة(415هـ) وله مع الصاحب أحاديث،ترجمته في (فرق وطبقات المعتزلة) ص 118–120،و طبقات الشافعية 5/ 97، وانظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص 30–31.

(3) معجم الأدباء 6/ 251–252،والخبر ورد في عدة مصادر مع اختلاف في الصيغة منها المنتظم 7/ 180،والبداية والنهاية 11/ 315،ومعاهد التنصيص 4/ 111.

(4) أخلاق الوزيرين ص 169.

(5) ذيل تجارب الأمم ص 262

ومن الصعوبة بمكان اثبات صحة ما يذهب اليه أبوحيان والقاضي عبد الجبار في هذين القولين. وكل ما تشهد به أخبار الصاحب في هذا المجال ليس في صالح رأيهما، بل يؤيد استقرار التوبة في وجدان الصاحب واعتباره اياها وسيلة شرعية لمحو الذنوب والنجاة من عذاب الله. فقد ورد أنه قال لصاحبه مؤيد الدولة وهو في مرض الموت: "تب يامولانا من كل ما دخلت فيه، وتبرأ من هذه الأموال التي لست على ثقة من طيبها وحصولها من حلها، واعتقد متى أقامك الله وعافاك صرفها في وجوهها، ورد كل ظلامة تعرفها وتقدر على ردها. ففعل ذلك.." (1)

فاذا أضيفت نصيحته لولي نعمته الى نصيحته لنفسه بالرجوع عن الذنوب واستغفار الله كان في ذلك أكبر دليل على اعتصامه بالدين وتمسكه بالاسلام. وقد نسب اليه أنه قال: "من لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام" (2). الا أن ذلك كله لا يرضي أبا حيان، ولا يقنعه من الوزير الكبير الا المبالغة والتشدد في الزهد والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واصلاح ما فسد من أمور المسلمين على ضوء الأخلاق الفاضلة وتنفيذا لأوامر الله.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ثقافة الصاحب وكتابته وشعره بين الأصالة والزيف:

وحين ننتقل الى الجانب الثقافي من شخصية الصاحب حسب رؤية أبي حيان، نجد فيه أصداء متعددة وظلالا لما سبق شرحه من الشرور والعيوب الى جانب عيوب العقل والتفكير واللسان. وذلك كالادعاء والغرور، وطرد العلماء والأدباء والقسوة في معاملتهم، والميل الى الشعر السخيف الماجن والى أصحابه من السفهاء والعوام، وكثرة الثرثرة والهذيان مع التقعر والتكلف، وكذا لتناقض المنطقي والغفلة والجهل وضعف العقل وقلة الاطلاع وغيرذلك مما سيأتي بيانه. وكل ذلك يؤكد ضعف شخصيته العلمية والأدبية في نظر أبي حيان، ويعطي عنها صورة أخرى تناقض تلك التي صور بها الصاحب نفسه، وصوره بها أنصاره والمعجبون به، ويظهره فارغا أجوف سرعان ما يتضح زيفه وتهافته.

وأمثلة ذلك متعددة في الكتاب نكتفي بايراد بعضها. فقد كانت مجالسه العلمية التي دأب على عقدها وجذب العلماء والأدباء اليها، تتحول - كما صورها أبوحيان - الى مجالس الادعاء والافتخار واظهار البراعة في كل شيء، والى الدعاية

(1) ذيل تجارب الأمم ص 92 .

(2) الغدير 4/ 43.

لمذهب المعتزلة ،ورواية الأخبار السخيفة الماجنة التي لا تليق بأمثاله من الرؤساء ، وكان يهمل مصالح الرعية وأمور المسلمين ويقعد في صدر مجلسه ويقول :" قال شيخنا أبوعلي[1] و أبو هاشم (2) ،تارة يتقلس (3) ويتعمم ،ويتلحى ،ويناظر العامة ، هذا البقال ، وهذا الخباز ،وهذا الخلقاني ،وهذا الاسكاف ، بالفارسية اما بالدّرية ،واما بالرازية ، واما بغيرهما ،ويرى أنه في شيء مهم ،وأنه في نشر مذهب ،ونصرة دين . وتارة يناغي هذا الأمرد ويعاتب هذا الخادم ،وينشد الشعر البارد الذي يورث الفالج .. "(4).

وروى ابن ثابت البغدادي يوما في مجلسه حكاية للخليل بن أحمد (5) " فأحسن سياقتها وامرارها فحجبه أياما ،وأخر عنه رسمه ،وقال : تبسط في مجلسنا واسحنفر (6) بحضرتنا ،وترك توقيرنا وهيبتنا . حتى تشفع في أمره أبوالحسن الطبيب وغيره ،فعاد له على تشقّ "(7) . وقال لأبي حيان في مناسبة مماثلة " . . .ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسطك بحضرتنا "(8) . وكان العلماء لا يستطيعون الرد عليه ومجابهته بالغلط واظهار أخطائه وسقطاته ،وذلك لأنهم " ان كذبوه وخدعوه وموهوا عليه ،ونافقوه وتملقوه ،قربهم و أدناهم ،وأكرمهم و أعطاهم ،وان صدقوه وماتنوه (9) وثبتوا له أبعدهم وأقصاهم ،وحرمهم وأخزاهم "(10).

والقرآن الكريم الذي تصدى للدفاع عنه وتفسيره على مذهبه ،لا يفهم شيئا في تاريخه ولغته وتأويله كما يقول أبوحيان ،فقد كانت تلقى اليه الأسئلة المختلفة في تأويل بعض الآيات وتفسيرها ،فيخطئ فيها أو يمتنع عن الاجابة عليها ،أو يقمع

---

(1) أبوعلي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ،كان اماما في علم الكلام ورئيس معتزلة البصرة في عصره ،وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري شيخ أهل السنة . ونسبت اليه فرقة تسمى الجبائية ،توفي سنة (303هـ) .انظر فرق وطبقات المعتزلة ص 85-90 ،والملل والنحل 1/ 78-85 ،ووفيات الأعيان 4/ 267-269

(2) عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي ،كان كوالده المذكور من كبار المعتزلة ،توفي ببغداد سنة (321هـ) ،انظر فرق وطبقات المعتزلة ص 100-103 ،ووفيات الأعيان 3/ 183-184

(3) يتقلس : يلبس القلنسوة . القاموس المحيط مادة (قلس) .

(4) أخلاق الوزيرين ص 143-144 ،وانظر الصداقة والصديق ص 83

(5) تقدمت ترجمته في ص 131 حاشية رقم 5

(6) اسحنفر : ~~الصحيح في كلامه كما فسرها المحقق ابن تاويت الطنجي ،ولم أعثر على هذه اللفظة في القاموس المحيط ولسان العرب~~ اسحنفر الرجل في منطقه : مضى فيه ولم يتمكث. اللسان ، مادة (سحنفر)

(7) أخلاق الوزيرين ص 220

(8) نفسه ص 223

(9) ماتنوه :خالفوه وعارضوه ،القاموس المحيط مادة (متن)

(10) أخلاق الوزيرين ص 491 ،وانظر ص 178-179 منه ،وكان يقذفهم بالبزاق والسباب الفاحش ،انظر أخلاق الوزيرين ص 260 ،و 487

السائل ويستجهله. فقد سئل يوما عن النظم في قوله تعالى :"فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل"(1) "فصاح على السائل وقال :أتسأل عن النظم وأنت لا تعرف الرّقم(2) ولا العقم(3) ولا الصّدم(4) ولا الرّدم(5)؟"(6). وأرسل اليه جماعة من أهل نيسابور، بعد أن بلغتهم أخباره وشهرته وقوله بالاعتزال، عدة مسائل في التفسير لم يحر لها جوابا(7). بل انه استعمل نفوذه فمنع القصاصين والوعاظ في ناحيته، ومنع من تفسير القرآن وسماع أقوال الصحابة والتابعين، ونفى كثيرا ممن يتعاطى هذه الأمور من الري وأعمالها تعصبا لمذهبه وترويجا له(8).

وكذلك فعل بالحديث والمحدثين، فقد منع من روايته وقال :"الحديث حشو"(9) وكان يجلس للمهتمين به" ويروي ويفسل(10)، ويكذب، ويختلق الاسناد، ويبتك(11) المتن"(12). وسئل عن معنى حديث رواه البخاري فقال :"البخاري حشوي فشري(13) ليس عليه معول ولا لقوله متأول"(14).

ولعل أهم الجوانب الثقافية في شخصية الصاحب هو اللغة وروايتها ونحوها وأخبارها فقد كانت له عناية خاصة بها أكثر من عنايته واهتمامه بغيرها من العلوم المتداولة في عصره. ولذلك كان يردد مسائلها بكثرة، ويملأ بها مجالسه وأوقاته. وهذا ما جعل أبا حيان يروي كثيرا من هذه المسائل ويدون عددا من أقوال الصاحب وأقوال جلسائه التي يتضح منها ضعفه وادعاؤه وقلة حفظه. فقد انقطع مرة في مسألة لغوية فانطلق يهذي بكلام كثير جاء فيه قوله :" . . . يحضرنا قوم لهم دفر(15) كصنان(16) التيوس أعيس

---

(1) سورة الشورى 42/ 22.

(2) الرّقم : ضرب مخطط من الوشي . القاموس المحيط مادة (رقم) .

(3) العقم : كل ثوب أحمر. القاموس المحيط مادة (عقم) .

(4) الصّدم : الدفع، القاموس المحيط مادة (صدم).

(5) الردم : سد الباب أو الثلمة . القاموس المحيط مادة (ردم)

(6) أخلاق الوزيرين ص 268-269.

(7) المصدر نفسه ص 269 فما بعدها .

(8) نفسه ص 166-168.

(9) نفسه ص 167، والحشو فضل الكلام كما في القاموس المحيط ، ونسب اليه عامة المحدثين فسموا حشوية احتقارا لهم واستجهالا . انظر الحيوان للجاحظ 4/ 289، والملل والنحل 1/ 105.

(10) يفسل : يزيف ، القاموس المحيط مادة (فسل) .

(11) يبتك المتن : يقطعه ، القاموس المحيط مادة (بتك) .

(12) أخلاق الوزيرين ص 168

(13) نسبة الى الفاشر بمعنى الهذيان ، وهي عامية . القاموس المحيط مادة (فشر) .

(14) أخلاق الوزيرين ص 268.

(15) الدفر : النتن . القاموس المحيط مادة (دفر)

(16) الصنان : رائحة الابط ، القاموس المحيط مادة (صنن)

على المسك والغالية، يسألون عما لا يعنيهم، ولا يليق بقدرهم، ولو سألت واحدا منهم عن كنية أعشى همذان(1)، أو عن دعيميص الرمل(2)، وما اسم النموذج(3) في كلام العرب؟ وكيف يجمع العجان(4)؟ وكيف يصرف الهجان(5)؟ وما الأقذ(6) والمريش(7)؟ وما الخبا• والعريض؟ وما العنوق والحريش(8)؟ وما المشوف(9) والخريش(10)؟ وما الرّثية(11) والفريش(12)؟...»(13). و" قال يوما: اطلع عليه ولا يجوز اليه، والمعنى يقتضي عليه لا غير. فقال له الضرير النحوي: فما نصنع بقوله عز وجل: "لعلي أطلع الى اله موسى»(14)؟ فبرد»(15). وقال فيه أبو حيان: "ولقد سهرت معه ليلة في معرفة الفرق بين: زيد أفضل اخوته، وزيد أفضل الاخوة، وجواز أحدهما وبطلان الآخر. فكان كالحمار بلادة»(16).

وعلى الجملة فالصاحب في رأي أبي حيان "لا يعرف النحو الا ما جل منه، ومن الكلام الا ما وضح، ثم هو في اللغة على تصحيف شديد وتخليط كثير، وفي الأخبار على تمويه لا يخفى على مميز...»(17).

وكان يدعي أنه لما زار بغداد سنة(347هـ)(18) لقي أبا سعيد السيرافي(19) وعلي بن عيس

---

(1) اسمه عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، من شعراء الدولة الأموية، ثار مع عبد الرحمن بن الأشعث فقتله الحجاج سنة(83هـ)، ترجمته في الأغاني 5/ 146 فما بعدها والأعلام 4/ 84

(2) عبد أسود داهية. انظر القاموس المحيط مادة(دعمص)

(3) النموذج: مثال الشيء وهو معرب. القاموس المحيط مادة (نموذج).

(4) العجان: العنق والاست، وتحت الذقن، وما بين السبيلين. القاموس المحيط مادة(عجن)

(5) الهجان: الخيار، والبيض من الابل، والرجل الحسيب. القاموس المحيط مادة(هجن)

(6) الأقذ: سهم عليه ريش، أو لا ريش عليه، والمستوي البري. القاموس المحيط مادة(قذذ)

(7) راش السهم يريشه ألزق عليه الريش فهو مريش. القاموس المحيط مادة (ريش)

(8) الحريش: دويبة قدر الاصبع بأرجل كثيرة. القاموس المحيط مادة (حرش)

(9) المشوف: المجلو، ومن الابل المطلي بالقطران والهائج. القاموس المحيط مادة(شوف)

(10) خرشه يخرشه خدشه، ولعياله كسب لهم وطلب لهم الرزق. القاموس المحيط مادة(خرش)

(11) الرثية: وجع المفاصل واليدين والرجلين أو ورم في القوائم والضعف والحمق. انظر القاموس المحيط مادة(رثى)

(12) الفريش: الفرس بعد نتاجها بسبع ليال. القاموس المحيط مادة(فرش)

(13) أخلاق الوزيرين ص 258 – 259، وانظر نموذجا آخر عن ولع الصاحب بالغريب في ص 482–487 من المصدر نفسه.

(14) سورة القصص 28/ 38

(15) أخلاق الوزيرين ص 262

(16) المصدر نفسه ص 264، وانظر المسألة مفصلة في الامتاع 1/ 120 على لسان أبي سعيد السيرافي.

(17) أخلاق الوزيرين ص 162

(18) انظر ما سبق في ص 183

(19) تقدمت ترجمته في ص 49 حاشية رقم 3.

الرماني (1) وأبا عبد الله المراغي (2) وغيرهم من علماء بغداد، ودرس عليهم، وحصل كتبهم، وناظرهم فتفوق عليهم، وأفادهم أكثر مما استفاد منهم. ولكن أبا حيان نفى هذا كله وقال: "وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال: سبحان الله لوسكت استعظاما لهذا الحديث ونفيا له... وقلت للمراغي: أكان لهذا الحديث أصل؟ فقال: لا والله" (3).

أما الفلسفة والهندسة والطب والفلك، وهي العلوم المعروفة بالعلوم العقلية أوعلوم الأوائل (4)، فقد كان الصاحب شديد العداوة والمحاربة لها، يطرد أهلها ويحرق كتبها، ولا يقبل مناقشة مسائلها في مجالسه. فقد التمس منه أبو الفضل الهروي يوما أن يضع في خزانة كتب الوقف بعض كتب الطب، فقال له الصاحب في حدة وغضب: "الطب يا أبا الفضل سلم الى الالحاد، ولقد أسررت في هذا القول حسوا في ارتغاء، أنت مهندس، وأنت منهم، ويكفي منك في هذا المعنى ما هو دون هذا. فانخزل الهروي، وكان جبانا، وأخذ يتلافى ما فرط منه" (5). ولكن الصاحب كان يعتمد برغم ذلك على الطب في حياته العملية كما يعتمد على الفلك والتنجيم، ويشاور الأطباء والمنجمين، ويجمع كتب هذين العلمين وغيرهما من العلوم، فقد كان "يطلب كتب الأوائل، ويجمعها وينظر فيها، ويشتهي أن يفتح فاتح عليه شيئا منها في السر، وعلى وجه التهجين لا على وجه التقبل" (6). وكان يحتقر أبا الحسن العامري (7) بالرغم من حرصه على تحصيل كتبه والنظر فيها (8). وأحرق كتب أبي القاسم علي بن الحسين الكاتب، وهو تلميذ العامري وصديق أبي حيان (9)، لاتهامه اياه بتعاطي الفلسفة وجمع كتبها والتأليف فيها. وكان يسب أصحاب الهندسة ويطعن في طرقهم في البرهنة والاستدلال (10).

ويلخص أبو حيان رأيه في ثقافة الصاحب بما ينقله عن بعض أصحابه ممن قال

---

(1) تقدمت ترجمته في ص51 حاشية رقم 4.

(2) أبو الفتح محمد بن جعفر بن محمد الهمذاني ثم المراغي، كان حافظا نحويا بليغا، وكان معلم عز الدولة بختيار، توفي سنة (371هـ)، انظر الفهرست ص133، ومعجم الأدباء 18/ 101-103، وبغية الوعاة 1/ 70. ويعوا المتعمرر على ابي حيان ولعله المقصود فلكه عه.

(3) أخلاق الوزيرين ص 164-165.

(4) انظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص31 فما بعدها.

(5) أخلاق الوزيرين ص 114.

(6) المصدر نفسه ص 115.

(7) أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، عالم بالمنطق والفلسفة اليونانية، أقام بالري خمس سنين وببغداد مدة، ثم رجع الى بلده خراسان، وله كتب. توفي سنة (381هـ)، انظر المقابسات ص116، 171، 340، والامتاع 1/ 35-36، 222-223، والأعلام 8/ 21-22.

(8) أخلاق الوزيرين ص 115-116

(9) نفسه ص 180-183، وانظر الامتاع والموانسة 1/ 35.

(10) نفسه ص 234.

فيه :" ليس عنده الا القال والقيل، والكبر والتخييل. يحب العامة ويرفع نفسه عنها، ويحسد الخاصة ويجعل نفسه منها، ويستطيل بالعلم وهو قريب القعر فيه، ويدعي الرد على الأوائل وهو لا يعرف حرفا من نطقهم، ويتحلى بالعدل والتوحيد قولا، ويتحلى بالجور فعلا، ويتشبع بالأدب وهو سيء الأدب"(1).

ولكن هذه الصورة التي رسمها أبو حيان عن ثقافة الصاحب ودرجته العلمية تناقض في أغلبها ما تنطق به أخباره وآثاره، وما قاله فيه الأدباء والمؤرخون. فقد كانت للرجل شخصية علمية وأدبية محترمة ساهم في تكوينها أسرته وبيئته الخاصة، ومركزه السياسي والاجتماعي، وأشاد بها التاريخ الأدبي اشادة قل نظيرها لغيره من الوزراء في العصر العباسي.

وأول المساهمين في تكوين شخصية الصاحب وتوجيهه نحو الثقافة وأخذ العلم هو والده الذي قال فيه ياقوت:" وكان من أهل العلم والفضل.. سمع أبا خليفة الفضل ابن الخبّاب وغيره من البغداديين والأصفهانيين والرازيين، وصنف كتابا في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه"(2). ثم اتصل بغيره من الأساتذة والعلماء في عصره، وانتسب الى أصحاب الثقافة والمعرفة في زمنه. بل انه شارك مشاركة قوية محمودة في نشاط الحركة العلمية والأدبية في فارس أثناء فترة حكمه..

وكان من أساتذته المشهورين أبو الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي الآتي ذكره، وأبو الحسين أحمد بن فارس الرازي اللغوي (-395هـ)(3). قال السيوطي في ترجمة الصاحب:" وأخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد، وسمع من أبيه وجماعة"(4). وكان الصاحب يقول:" شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف، وأمن فيه من التصحيف"(5).

وتحدث في كتابه (الروزنامجة) عن اتصاله في بغداد أثناء زيارته لها بكل من أبي سعيد السيرافي (-368هـ)، وأبي بكر ابن مقسم العطار (-354هـ)(6)، وأبي بكر أحمد بن كامل القاضي (-350هـ)(7)، فقال بعد أن أورد مناقشته لأبي سعيد السيرافي في مسألة

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 342-343

(2) معجم الأدباء 6/ 172

(3) تقدمت ترجمته في ص25 حاشية رقم 7.

(4) بغية الوعاة 1/ 449

(5) معجم الأدباء 4/ 83، وانظر نزهة الألباء ص321، وبغية الوعاة 2/ 352

(6) أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب، كان ثقة من أعرف الناس بالقراءات وأحفظهم لنحو الكوفيين، وله كتب. انظر نزهة الألباء ص 288-290، وبغية الوعاة 1/ 89، وانباه الرواة 3/ 100

(7) أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة بن منصور، كان عالما بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر والتاريخ، وله مصنفات في أكثر من ذلك. بغية الوعاة 1/ 354

نحوية وعروضية يظهر فيها تفوقه على العالم الكبير :" ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزا فاضلا متوسعا عالما ، فعلقت عليه، وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه، وقرأت صدرا منه . وهناك أبو بكر ابن مقسم وما في أصحاب ثعلب أكثر دراية ولا أصح رواية منه، وقد سمعت مجالسه، وفيها غرائب ونكت، ومحاسن وطرف، من بين كلمة نادرة، ومسألة غامضة، وتفسير بيت مشكل . . . والقاضي أبو بكر بن كامل بقية الدنيا في علوم شتى، يعرف الفقه والشروط والحديث . . . ويتوسع في النحو توسعا مستحسنا، وله في حفظ الشعر بضاعة واسعة، وفي جودة التصنيف قوة تامة، ومن كبار رواة المبرد وثعلب والبحتري وأبي العيناء وغيرهم، وقد سمعت قدرا صالحا مما عنده . . ."(1)

والى جانب أساتذته الكثيرين نذكر مجالسه العلمية والأدبية التي كان يعقدها طيلة حياته، ويحرص أشد الحرص على جلب العلماء والأدباء اليها من مختلف الأقطار، وكانت تموج بمسائل العلم والمعرفة والأدب والشعر. قال الثعالبي :" ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق. وكانت أيامه للعلوية والعلماء، والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة اليهم، وصنائعه مقصورة عليهم . . ."(2) .

ومن مصادر ثقافة الصاحب ودلائل اطلاعه وسعة معرفته، واهتمامه بالعلم والأدب عند أنصاره، تلك الكتب الكثيرة التي جمعها بطرق مختلفة، وأودعها خزانته الخاصة، أو خزانة الوقف التي أوقفها لأهل العلم في مدينة الري (3)، فقد شاع في أخباره، وعلى لسانه، أن صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني (4)، أرسل اليه في السر "يستدعيه الى حضرته، ويرغبه في خدمته، وبذل البذول السنية. فكان من جملة اعتذاره أن قال : كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري، وشاع بين الأنام ذكري. ثم كيف لي بحمل أموالي مع كثرة أثقالي، وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر. قال أبو الحسن البيهقي : وأنا أقول : بيت الكتب الذي بالري دليل على ذلك، بعد ما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين (5)، فاني طالعت هذا البيت فوجدت

---

(1) معجم الأدباء 6/ 279، وقد تقدمت تراجم هؤلاء الأعلام

(2) يتيمة الدهر 3/ 188

(3) ورد في ترجمة أبي علي الفارسي في معجم الأدباء (7/ 239) قول أحد الأدباء "وقفت على نسخة من كتاب الحجة لأبي علي الفارسي في صفر سنة 522 بالري في دار كتبها التي وقفها الصاحب ابن عباد"

(4) نوح بن منصور بن نوح بن نصر الساماني، من أمراء الأسرة السامانية التي حكمت خراسان في القرن الرابع الهجري، ولي سنة (366هـ) بعد وفاة أبيه وطال عهده، وتوفي سنة (387هـ) . الكامل 9/ 34-37، وتاريخ ابن خلدون 4/ 352، 357

(5) محمود بن سبكتكين الغزنوي يمين الدولة أبرز سلاطين الدولة الغزنوية، اشتهر بغزوه للهند وقضائه على الدولة السامانية، توفي سنة (421هـ) . وفيات الأعيان 5/ 175- 182، وتاريخ ابن خلدون 4/ 363-379

فهرست تلك الكتب عشر مجلدات،فان السلطان محمود الما ورد الى الري قيل له: ان هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع. فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه"(1). والصاحب كان شيعيا معتزليا،ولذلك جمع الكثير من كتب طائفتي الشيعة والمعتزلة كما يدل على ذلك هذا النص.

وذكر كتاب الأغاني يوما بحضرته فوصفه وأطنب في تقريظه،ثم قال:" لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها سميري غيره،ولا راقني منها سواه"(2).

وخلف الصاحب كتبا ورسائل تناهز الأربعين(3) ما بين كتاب ورسالة متوسطة، تنوعت موضوعاتها بتنوع اهتماماته وميوله كما سنرى،كما ألفت كتب أخرى باسمه وحملت الى خزانته كـ"الصاحبي في فقه اللغة) لابن فارس،و (تهذيب التاريخ)(4) للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني وعدة كتب في الشيعة ورجالها(5). قال ابن فارس في مقدمة كتابه الصاحبي: هذا الكتاب "الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها. وانما عنونته بهذا الاسم لأني لما ألفته أودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة -عمر الله عراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره- تجملا بذلك وتحسنا،اذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضيا مقبولا،وما يرذله أو ينفيه منفيا مرذولا،ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومفاد منه"(6).

وقد احتفظت كتب الأدب بقدر صالح من الأخبار الدالة على تقديره للعلماء والأدباء،وحرصه على اكرامهم والاستفادة منهم على الرغم مما يؤكده أبوحيان من قسوته عليهم وعدم اعترافه بفضلهم(7). فهذا أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي(8) النحوي،وكان اماما في النحو بعد خاله أبي علي الفارسي،أوفده أبوعلي على الصاحب "فارتضاه وأكرم مثواه"(9). ولما استأذنه في الرحيل وقع في رقعته " لا استدلال يا أخي على الملال أقوى من سرعة الترحال،لكنا نقبل العذر وان كان مرفوضا،ونبسطه وان

---

(1) معجم الأدباء 6/ 259،والشطر الأول من النص ورد بصورة أخرى في اليتيمة 3/ 193

(2) معجم الأدباء 13/ 97 في ترجمة أبي الفرج الأصفهاني

(3) انظر وفيات الأعيان 1/ 230،ومعجم الأدباء 6/ 260،وانظر ثبتا جامعا لمؤلفاته في مقدمة رسالة الهداية والضلالة بتحقيق حسين علي محفوظ.

(4) انظر اليتيمة 4/ 7،9.

(5) انظر الغدير 4/ 46.

(6) الصاحبي ص 9 ،وانظر ص 277 منه.

(7) انظر ما سبق في ص 188.

(8) هو ابن أخت أبي علي الفارسي،أخذ عن خاله علم العربية،وطوف في الآفاق ثم استقر بجرجان الى أن مات سنة (421هـ) وهو أستاذ عبد القاهر الجرجاني وليس له أستاذ سواه. معجم الأدباء 18/ 186-187،وبغية الوعاة 1/ 94.

(9) اليتيمة 4/ 384،وانظر معجم الأدباء 18/ 187،وانباه الرواة 3/ 116-

كان مقبوضا ،ولا أمنعك عن مرادك ووفاقك ،وان منعت نفسي مرادها بفراقك"(1) وأصحبه كتابا الى أبي علي (2).

وهذا أبوأحمد الحسن بن عبد الله العسكري (3) كان الصاحب يتمنى لقاءه ويكاتبه على ممر الأوقات، ويستميل قلبه ،فيعتل عليه بالشيخوخة والكبر، اذ عرف أنه يعرض بالقصد اليه والوفود عليه، فلما يئس منه احتال في جذب السلطان الى ذلك الصوب، وكتب اليه حين قرب من عسكر مكرم كتابا يتضمن علوما نظما ونثرا ..."(4). فأجابه العسكري على كتابه، ثم قصده مع أصدقائه وتلاميذه ،فاعترف بفضلهم وأكرمهم.

وأغلب التوقيعات التي وقعها ،والنكت التي رويت عنه جرت له مع العلماء والأدباء، وفي مجالسه العلمية ومراسلاته الأدبية معهم ،ولا داعي لسرد المزيد من الأمثلة على ذلك فهي متوفرة في أغلب المصادر التي ترجمت له(5).

ومع ذلك لا تخلو علاقاته مع الأدباء والعلماء من بعض الجفاء وسوء المعاملة، فقد ورد في ترجمة أبي منصور محمد بن علي بن الجهان أحد علماء الري وأعيان أدبائها أنه "كان من ندماء الصاحب ابن عباد ثم استوحش منه "(6). وورد في ترجمة أبي علي المرزوقي (7) أنه " دخل عليه الصاحب ابن عباد فلم يقم له ،فلما ولي الوزارة جفاه"(8) . ولكن هذا لم يؤثر في الصورة العامة التي كونها الأدباء والمؤرخون عن ثقافته وأدبه ،فقد وصفه ياقوت بقوله :" والصاحب مع شهرته بالعلوم وأخذه من كل فن منها بالنصيب الوافر، والحظ الزائد الظاهر، وما أوتيه من الفصاحة ، ووفق لحسن السياسة والرجاحة ،مستغن عن الوصف ،مكتف بالاخبار عنه والرصف"(9). ونقل ابن حجر في لسان الميزان قول الرافعي في كتاب(التدوين في علماء قزوين) في الصاحب :" هو أشهر من أن يحتاج الى وصفه جاها ورتبة وفضلا ودراية. وكتبه ورسائله ومناظراته دالة على قدره ...وكان يناظر ويدرس ويصنف ويملي الحديث"(10)

---

(1) اليتيمة 4/ 385، وانظر انباه الرواة 3/ 116.

(2) انظر نص الكتاب في اليتيمة 4/ 385.

(3) فقيه أديب من عسكر مكرم وانتقل الى بغداد ،وله عدة كتب في الأدب والنقد ،وهو خال أبي هلال العسكري صاحب الصناعتين ،توفي سنة (382هـ) . انظر معجم الأدباء 8/ 233– 258، وانباه الرواة 1/ 310.

(4) معجم الأدباء 8/ 248–249.

(5) انظر اليتيمة 3/ 190 فما بعدها ،ووفيات الأعيان 1/ 413 فما بعدها .

(6) معجم الأدباء 18/ 261.

(7) أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن الامام المرزوقي من أصفهان ،كان غاية في الذكاء والفطنة وحسن التصنيف، اشتهر بشرح حماسة أبي تمام ،توفي سنة(421هـ) ،بغية الوعاة 1/ 365.

(8) بغية الوعاة 1/ 365.

(9) معجم الأدباء 6/ 177.

(10) لسان الميزان 1/ 416.

وقال فيه أبو الفداء انه كان" أوحد زمانه علما وفضلا وتدبيرا وكرما ،وكان عالما بأنواع العلوم،وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره"(1). والى مثل ذلك ذهب أكثر الباحثين المحدثين(2) .

وبالرغم من كل هذه الأقوال والشواهد التي ترفع الصاحب الى أعلى درجات العلم والمعرفة،وتشهد له بالتفوق والنبوغ والعبقرية،فاننا عندما نقارنها بما يقوله التوحيدي ،ثم نتتبع ما تشهد به آثاره وأخباره من الاطلاع على مختلف العلوم والتضلع فيها ،لمعرفة مدى صحة ما ينسبه اليه المؤرخون والأدباء من مكانة علمية فريدة،وما ينسبه اليه أبوحيان من الجهل والضعف والادعاء ،نفاجأ بما يؤكد أن تصوير التوحيدي لثقافة الرجل وتصوير الأدباء والمؤرخين لهما مبالغ فيهما معا،ولا يبقى بعد انعام النظر في الصورتين الا بعض الحقائق الثابتة هي التي تمثل حقيقة ثقافة الصاحب وقيمتها الأساسية.

ففي تفسير القرآن وتوضيح مشكله لا نجد للصاحب أثرا قيما يستحق الاعتبار والتقدير،ولا ما يشير الى ذلك في أخباره سوى ما ورد من شروح لبعض الآيات القرآنية في رسائله في علم الكلام كرسالته(الابانة عن مذهب أهل العدل بحجج من القرآن والعقل) و(رسالة الهداية والضلالة) و(التذكرة في الأصول الخمسة) وغيرها ،وكلها وضعت لنصرة مذهب الاعتزال والدفاع عنه. وليس له أثر قائم بذاته في التفسير كما كان ينتظر منه أصدقاؤه ومما صروه،فقد ورد أن أحدهم قال له :" هلاصنفت تفسيرا ؟ فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئا ؟"(3) . ونسب اليه كتاب(الوقف والابتداء) . ويحكى أنه ألفه في عنفوان شبابه فأرسل اليه أبوبكر ابن الأنباري وقال :" انما صنفت كتاب الوقف والابتداء بعد أن نظرت في سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم،فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟فقال الصاحب للرسول: قل للشيخ نظرت في النيف والسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك أيضا"(4) .

(1) المختصر2/ 130 ،وانظر أقوالا مشابهة في النجوم الزاهرة 4/ 169 والغدير 4/ 43.
(2) انظر الحضارة الاسلامية. لآدم متز 1/ 179 ،والنثر الفني . . لزكي مبارك 2/ 244 ،والصاحب ابن عباد للدكتور بدوي طبانة ص 287 فما بعدها .
(3) فرق وطبقات المعتزلة ص 116. وانظر ثناء التوحيدي على تفسير الرماني المشار اليه في الامتاع والمؤانسة 1/ 133.
(4) نزهة الألباء ص 326 . ويلاحظ أن أبابكر محمد بن القاسم بن الأنباري المنسوب اليه هذا الخبر في نزهة الألباء والمشهور بهذا الاسم،والمذكور كتاب الوقف والابتداء من بين كتبه، توفي سنة (328هـ) باتفاق والصاحب لا يزال صبيا . فاما أن الخبر موضوع على غرار ما وضعه الصاحب عن نفسه من الأخبار غرورا وتكبرا وادعاء كما سنرى،واما أنه منسوب الى أبي بكر آخر نجهله أو الى غيره من أبناء الأنبار الكثيرين والله أعلم . انظر ترجمة ابن الانباري في الفهرست ص 118 ،ونزهة الألباء ص 264-271،وبغية الوعاة 1/ 212-214.

وكل ذلك يؤكد شهرة الصاحب بتعاطي علوم القرآن ومسائله، ويلتقي مع ما يقوله فيه التوحيدي في معرض ذمه وانتقاصه(1)، كما يؤكد اعتراف الرجل بتوسطه في فهم القرآن. ولكن لا شيء يثبت أو ينفي ذلك القصور والضعف اللذين يشير اليهما التوحيدي.

وقل الشيء نفسه فيما قيل من حفظه وروايته للحديث، وجلوسه لاملائه في مجلس عام، وتزاحم الناس عليه أثناء الاملاء، وهو شيء تكرر بصيغ مختلفة في أكثر من مصدر(2). وقال ابن حجر في ترجمته له: "...أملى مجالس في أيام وزارته حدث فيها عن عبد الله بن جعفر ابن فارس وأحمد بن كامل بن شجرة وغيرهما. وروى عنه أبو بكر المقرى وهو من أقرانه، والقاضي أبو الطيب الطبري، وأبو بكر بن علي الذكواني، وغير واحد، وكان صدوقا"(3). ولكن ليس في آثاره التي وصلتنا ما يؤكد كثرة روايته وتدوينه للحديث حتى يصنف مع المحدثين الكبار المشهورين. وهذا أيضا نبه عليه القدماء، فقد قال فيه صاحب النجوم الزاهرة: "وسمع الحديث الحديث من أبيه، ومن غير واحد، وحدث باليسير"(4)، كما نبه عليه أحد من كتب عنه من المحدثين وهو الشيخ محمد حسن آل ياسين فقال في هذا المجال: "...فلم تحتفظ كتبه ولا كتب غيره ممن ترجم له وتحدث عنه الا على عدة أحاديث لا تتجاوز العشرة في الاحصاء، وليس فيها ما يدل على عمق الغور وسعة الاطلاع الذي يجذب الفضلاء والفقهاء والعلماء... ولعل فيما فقد من مؤلفات الصاحب ما يغير الرأي في مقدار براعة ابن عباد في هذا الفن، ومقدار عمقه فيه"(5).

فهل يعني جلوس الصاحب لاملاء الحديث تطفلا وادعاء كما يقول أبو حيان؟ ليس من السهل الموافقة على هذا الحكم، ولكن طعنه في الامام البخاري الذي ينسبه اليه التوحيدي يكاد يرد بنصه عند غير أبي حيان، فقد قال فيه ابن حجر: "ويقال انه نال من البخاري وقال: كان حشويا لا يعول عليه"(6). وهذه عبارة قريبة من عبارة أبي حيان(7)، ولعلها مأخوذة من كتابه، فقد اطلع ابن حجر على (أخلاق الوزيرين) ونقل منه(8).

أما اللغة فيبدو أن آثار الصاحب فيها تشهد له بمشاركة اللغويين في عصره ومزاحمتهم، بل والتفوق على بعضهم في بعض الأحيان. وأجل ما تركه فيها هو كتابه المحيط في عشرة مجلدات(9) رتبه على حروف المعجم، كثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد، فاشتمل في اللغة على

---

(1) انظر ماسبق في ص 202–203.

(2) انظر ما سبق في ص 200.

(3) لسان الميزان 1/ 413، وانظر الغدير 4/ 43.

(4) النجوم الزاهرة 4/ 169.

(5) الصاحب ابن عباد: حياته وأدبه ص 159.

(6) لسان الميزان 1/ 413.

(7) انظر ما سبق في ص 203.

(8) انظر لسان الميزان 7/ 40 في ترجمة أبي حيان.

(9) انظر معجم الأدباء 6/ 260 وبغية الوعاة 1/ 450، وقد طبع أخيرا ببغداد بتحقيق محمد حسن آل ياسين.

جزء متوفر"(1) . وألف أيضا جوهرة الجمهرة(2)، وهو مختصر جمهرة ابن دريد (3). ولعل جلالة أثره في اللغة واشتهاره بها هما السبب في الترجمة له في كتب تراجم اللغويين والنحاة(4)، وفي جعل الثعالبي كتبه مصدرا من مصادر كتابه فقه اللغة(5) .

وكان حفظه للغة وعنايته بها هما اللذان جعلاه يكثر من ترداد المسائل اللغوية في مجالسه، ويهتم بالغريب ويعايي به بعض جلسائه. ولا شك أن من كانت له هذه الآثار والعناية والاهتمام لا يقع في مثل السقطات والأخطاء التي ينسبها اليه التوحيدي، ويتهمه بها(6)، فهي مبالغ فيها، ولا يمكن تبرئتها من التزيد والنحل(7). وفضلا عن هذا وذاك فان أبا حيان نفسه كان ولوعا بالغريب يشرحه في كتبه أو يسأل عنه، وغالبا ما يورده بصيغة الاستفهام كما يفعل الصاحب حسبما يدعيه أبو حيان. ومثال ذلك قوله في (البصائر والذخائر) :"يقال :ما الجفيف، والعفيف، والخفيف، وما المفيف، وما الأنيف، وما الشنيف، وما الرفيف، وما الطريف، وما النظيف، وما العريف، وما الغريف، وما الشريف. . ."(8).

ويبدو من التشابه بين ما ينسبه أبو حيان الى نفسه وما يرويه عن الصاحب أن هذا الأسلوب في تداول ألفاظ اللغة التي هي في حاجة الى شرح كان أسلوبا شائعا في القرن الرابع استغله أبو حيان للطعن في مهجوه.

أما النحو فلا شيء في آثار الصاحب يدل على بروزه فيه أو تمكنه منه سوى ما ذكر هو من حضوره ، أثناء وجوده ببغداد ، مجالس بعض أعلامها المبرزين في النحو، كأبي سعيد السيرافي، وأبي بكر ابن كامل، وأبي بكر ابن مقسم(9). وقد ورد في حديثه عن ذلك قوله: "وانتهيت الى أبي سعيد السيرافي وهو شيخ البلد، وفرد الأدب، وحسن التصرف، ووافر الحظ من علوم الأوائل، فسلمت عليه وقعدت اليه، وبعضهم يقرأ الجمهرة. فقرأ: ألمقت، فقلت انما هو لمقت. فدافعني الشيخ ساعة، ثم رجع الى الأصل فوجد حكايتي صحيحة"(10) الى أن قال:"وقرئ عليه من كتاب المقتضب (باب ما يجري ومالا يجري) الى أن ذكروا (سحر)

---

(1) وفيات الأعيان 1/ 230.

(2) انظر معجم الأدباء 6/ 260 وبغية الوعاة 1/ 450.

(3) تقدمت ترجمته في ص 24 حاشية رقم 4.

(4) انظر نزهة الألباء ص 325–327، وانباه الرواة 1/ 201–203، وبغية الوعاة 1/ 449–451

(5) فقه اللغة للثعالبي ص 10

(6) انظر ما سبق في ص 203–204.

(7) قارن ب(العربية) ليوحنا فك الترجمة العربية ص 163–166.

(8) البصائر والذخائر 2/ 114، وانظر شرحا مفصلا لهذه الألفاظ بقلم أبي حيان في المصدر نفسه 2/ 128 فما بعدها، وانظر فيه أمثلة أخرى في 2/ 258، 381، 512، وانظر الهوامل والشوامل ص 5–6.

(9) انظر ما سبق في ص 206–207.

(10) معجم الأدباء 6/ 276–277.

وأنه لا ينصرف إذا كان لسحر بعينه لأنه معدول عن الأول، فقلت: ما علامة العدل فيه؟ فقال: انا قلنا (السحر) ثم قلنا (سحر)، فعلمنا أن الثاني معدول عن الأول. قلت: لو كان كذلك لوجب أن تطرد العلة في عتمة، لأنك تقول (العتمة) ثم تقول (عتمة)، فضجر واحتد، وصاح واربدّ، وادعيت أنه ناقص، والتمس التحاكم. فكتبت رسالة أخذت فيها خطوط أهل النظر، وقد أنفذت درج كتابي نسختها، وفيها خط أبي عبد الله بن رذامر عين مشايخهم".(1)

وقد تعمدنا ايراد هذا النص على طوله لأنه الوحيد الذي استند اليه المترجمون للصاحب، واتخذوه دليلا على دراسته على أبي سعيد السيرافي، وغيره من أعلام بغداد، وعلى تفوقه في علوم النحو واللغة(2). ولما كان النص بلسان الصاحب نفسه، ووافر الحظ من الادعاء والغرور كما يفهم من الحوار الوارد فيه بين السيرافي وابن عباد، فانه يدل قبل ذلك على صحة ما ينسبه التوحيدي الى الصاحب من أوصاف الأنانية والادعاء، وربما يدل أيضا على عدم وجود أي اتصال حقيقي بينه وبين السيرافي أو أي دراسة عليه، وانما ساقه غرور وتكبره الى ادعاء حضوره بعض مجالسه، ثم اعتبر المترجمون ذلك أخذا من العالم الكبير وتلمذة عليه. فأبو حيان يؤكد غرور الصاحب وادعاءه في هذا المعنى فيروي عنه قوله في معرض انتشائه بمفاخره: "دخلت بغداد فلقيت أبا سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى، والمراغي، وناظرت المراغي في عسى ولعل وكناد وغير ذلك، فأبررت(3) وذكرت، وأشير الي بالأصابع، وفسح لي في المجامع، وكذلك ناظرت فلانا وفلانا، وأفدتهم أكثر مما استفدت منهم" (4) ثم يقول أبو حيان بعد هذا الكلام مباشرة انه سأل كلا من أبي سعيد السيرافي وأبي عبد الله المراغي عن مدى صحة هذا الادعاء، فرفضاه رفضا قاطعا، ولم يعترفا بأي اتصال بينهما وبين الرجل(5). وبذلك نكون أمام قضية متناقضة لا تسعفنا النصوص التي بأيدينا لأن نبت فيها سوى ما يمكن ترجيحه من صدق أبي حيان في تكذيبه للصاحب فيما يدعيه ما دامت القرائن تؤيده في ذلك.

أما عداء الصاحب لعلوم الفلسفة والهندسة والطب والتنجيم فأمر صحيح ثابت أشار اليه بعض من ترجم له. فقال فيه ابن كثير: "وكان يحب العلوم الشرعية، ويبغض

---

(1) معجم الأدباء 6/ 278-279، والنص منقول من كتاب الروزنامجة للصاحب.

(2) انظر على سبيل المثال: (الصاحب ابن عباد: حياته وأدبه) للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 143 فما بعدها، و(الصاحب ابن عباد.) للدكتور بدوي طبانة ص 310-313.

(3) في اللسان مادة (برر): أبرّ فلان على أصحابه أي علاهم.

(4) أخلاق الوزيرين ص 164، وانظر ص 401-402 منه.

(5) انظر ما سبق في ص 205.

الفلسفة وما شابهها من علم الكلام والآراء البدعية"(1). وربما كان لهذا العداء أثره في الخصام بينه وبين أبي حيان، فقد قال فيه ابن حجر: "وكان يبغض من يميل الى الفلسفة، ولذلك أقصى أبا حيان التوحيدي، فحمله على أن جمع مصنفا في مثالبه أكثره مختلق"(2).

والظاهر أن الذي حمل الصاحب على عداوة هذه العلوم ومحاربتها هو انتسابه لفرقة المعتزلة في عصره وتعصبه لهم، والنضال معهم في الدفاع عن مذهبهم ونشره. وقد كان الخصام قديما شائعا بين المتكلمين ومنهم المعتزلة، وبين الأطباء والمنجمين والفلاسفة، حتى ان المصادر دونت عددا من الأخبار والحكايات التي تصور الصراع بينهم. فهذا صاحب تاريخ حكماء الاسلام يقول في ترجمة أبي الفرج علي بن الحسين بن هندو(3) انه ذكر في كتابه المفتاح: " أن متكلما كان في جوارنا وصنف كتابا في ابطال علم الطب، وحث تلامذته على درسه. فعرض له صداع فبعث تفسرته(4) الى الحكيم أبي الخير(5)، فقال الحكيم أبو الخير لرسوله قل له: ضع تصنيفك في ابطال علم الطب تحت وسادتك، وضع عليهما رأسك، فانه لا حاجة لك الى الطبيب والطب، فما عالجه واحد من الأطباء حتى اعترف ببطلان كلامه، ومزق تصنيفه وتاب. ثم عالجناه وشفاه الله تعالى"(6).

وكان الصاحب كما قال أبو حيان(7)، يناقض نفسه كغيره من المتكلمين، فيرفض الطب والتنجيم قولا وينصرهما عملا، ويحارب الفلسفة والهندسة وأهلهما، وذلك لأن طريقة مذهبه وأصحابه في البحث والاستقراء والاستدلال تختلف بطبيعتها عن طريقة الفلسفة وأصحابها(8). ولهذا عجزت عن تقديم البراهين العقلية المقنعة على نجاعة تلك العلوم وفوائدها وصحة آثارها(9).

والدلائل على التناقض الذي ينسبه التوحيدي الى الصاحب متوفرة في أخباره

---

(1) البداية والنهاية 11/ 315، والعبارة غير دقيقة على ما يبدو، فالصاحب متكلم معتزلي متعصب كما سنرى. والظاهر أن المؤلف لا يقصد بعلم الكلام معناه الحقيقي وانما يقصد علوم الطب والتنجيم والرياضيات التي هي من جنس الفلسفة والترجمة عن القدماء، ولذلك يسمونها علوم الأوائل. انظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص 31.

(2) لسان الميزان 1/ 413، وربما كان أبو حيان يستشعر الخوف على نفسه في فترة من فترات حياته بسبب ميله الى الفلسفة. فقد امتنع من ايراد كلام لشيخه أبي سليمان في الصداقة والصديق ص 56 لما فيه من الفلسفة. وهو موقف غريب لأنه ملأ كتبه بالرواية عن شيخه المفضل.

(3) ستأتي ترجمته في الفصل التالي.

(4) التفسرة: ما يستدل به على المرض. القاموس المحيط مادة (فسر).

(5) أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام المعروف بابن الخمار، من فلاسفة القرن الرابع، قرأ على يحيى بن عدي، وله عدة كتب. انظر ترجمته في الفهرست ص 384، والامتاع 1/ 33-34.

(6) تاريخ حكماء الاسلام ص 93.

(7) انظر ما سبق في ص 205.

(8) انظر المقابسات ص 203 فما بعدها.

(9) المصدر السابق ص 58 فما بعدها، وص 177 فما بعدها.

وأقواله ،فقد جاء في ترجمة جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع[1]،طبيب معز الدولة وعضد الدولة البويهيين ،في طبقات الأطباء ما نصه :" اتفق أن الصاحب ابن عباد رحمه الله تعالى عرض له مرض صعب في معدته ،فكاتب عضد الدولة يلتمس طبيبا . . . فأمر عضد الدولة بجمع الأطباء البغداديين وغيرهم ،وشاورهم فيمن يصلح أن ينفذ اليه . فلما جمعهم واستشارهم أشاروا جميعا على سبيل الابعاد والحسد ،وقالوا : ما يصلح أن يلقى مثل هذا الرجل الا أبو عيسى جبرائيل لانه متكلم جيد الحجة ،عالم باللغة الفارسية. فوقع ذلك بوفاق عضد الدولة"[2]. فلما وصل الى الصاحب أكرمه ورفع مرتبته "وسأله أن يعمل له كناشا يختص بذكر الأمراض التي تعرض من الرأس الى القدم ،ولا يخلط بهاغيرها . فعمل كناشه الصغير. . ."[3] ،ولما أتم كناشه الكبير ببغداد سماه الكافي بلقب الصاحب. وهذا تناقض واضح : اذ ينكر الصاحب فائدة الطب،ويهين الأطباء وصناعتهم بلسانه ،ثم يستعين بهم في حالة مرضه،ويرسل في طلبهم ويطلب منهم تأليف الكتب.

وقد تجاوز اهتمامه بالطب والأطباء درجة الاستعانة والاستشارة الى تقديم النصائح الطبية لبعض رؤسائه،وكتابة الرسائل في تعيين الأدوية الناجعة لبعض أصفيائه وخلصائه[4]حتى استغرب الثعالبي نفسه ذلك وتعجب منه. وكان أيضا يستشير المنجمين ،ويعتمد عليهم في حياته الخاصة والعامة كما قال التوحيدي ،ثم يؤكد في أقواله وأحاديثه أنه لا يعتمد الا على الله وحده . فقد روى الثعالبي أنه"كتب بخطه على تحويل السنة التي دلت على انقضاء عمره:

أرى سنتي قد ضمنت بعجائب ... وربي يكفيني جميع النوائب

ويدفع عني ما أخاف بمنه ... ويؤمن مما قد خوفوا من عواقب

اذا كان من أجرى الكواكب أمره ... معيني فما أخشى صروف الكواكب

عليك أيا رب السماء توكلي ... فحطني من شر الخطوب الحوارب . ."[5]

وكتب مثل هذا الشعر أيضا "لما كتب المنجمون عما يعرض له في سنة موته"[6].

---

(1) طبيب عالم من أشهر بيوت الطب في العصر العباسي ،ولد وتعلم في بغداد ثم اتصل بمعز الدولة وعضد الدولة والصاحب ابن عباد . توفي سنة (396هـ) وخلف كتبا كثيرة. انظر طبقات الأطباء ص 209 فما بعدها .

(2) طبقات الأطباء ص 211

(3) المصدر نفسه ص 212

(4) انظر اليتيمة 3/ 200-202

(5) اليتيمة 3/ 278-279

(6) نفسه 3/ 278

وهناك جانب مهم آخر من جوانب ثقافة الصاحب وفكره هو مذهبه الديني والفكري الذي اختاره واعتنقه وتعصب له، وهو مذهب الاعتزال. فقد كان كما يقول التوحيدي ،كلفا به الى أبعد حدود الكلف،يدافع عنه وينصره بجاهه وماله ولسانه،في سره وعلانيته،مع العوام والخواص،والقريب والبعيد . وينشر قضاياه في مجالسه ومكاتباته وأشعاره،ويركب بسببه كل مباح ومحظور من الأقوال والأفعال،حتى فهم الناس منه ذلك وشاع عنه،فصار بعض طلاب رفده وعونه يتقربون اليه باسم المذهب،ويبدعون في ذلك أساليب الحيل والخداع للفوز بماله وعطائه.

والدلائل على ذلك متوفرة في الكتاب،فقد قال لأحد خواصه بعد أن لقنه المذهب بالفارسية:" اجلس في الأسواق،عند الباقلاني (1)،وعند الصيدلاني (2)،وعند العراق (3)،وعند الهراس (4)،واطرح له حسن العدل والتوحيد ،وادعه الى المذهب،ولك مشاهرة تدرّ عليك، وبرّ في كل وقت يصل اليك،ولك الجاه العريض في الوصول الي والخلوة معي. وكان يقال لهذا الرجل الفقاعي. ورأيت آخر يقال له أبوعلي الاسكاف،وكان أشف من الفقاعي على هذا. وكان يقال لهؤلاء دعاة الصاحب ،وخاصة الصاحب" (5).

وأكد أبوحيان على لسان أحد أفراد حاشية ابن عباد أن مذهب الاعتزال شاع في أيامه وانتشر في بلده بسببه،فقال:" وهل شاع القول بتكافؤ الأدلة (6) في هذه الناحية الا به ؟وكثر المراء والجدل والشك الا في أيامه ؟" (7)،بل تجاوز تأثيره منطقة الري وما والاها (8) الى منطقة العراق حيث نصب شيخا من شيوخه وعمدة من عمد الاعتزال في عصره هو أبوعبد الله البصري الملقب بالجعل (9)،يدعو الى المذهب في بغداد ،ويدرس ويفتي على طريقه. قال أبوحيان على لسان أحد علماء بغداد المعاصرين له:"حكم الله بيننا وبين ابن عباد وفلان،فانهما سلطا هذا الانسان في هذا المكان حتى أفسد من أجابه

---

(1) الباقلاني :بائع الباقلاء وهي الفول كما في القاموس المحيط مادة (بقل).

(2) الصيدلاني :بائع الأدوية نسبة الى صيدلان. انظر القاموس المحيط مادة (صيدلان).

(3) العراق: بائع العرق.

(4) الهراس:بائع الهريسة ومتخذها. القاموس المحيط مادة (هرس).

(5) أخلاق الوزيرين ص 466-467.

(6) تكافؤ الأدلة هو تعادلها وتساويها ،وبذلك يمتنع الاستدلال بها.

(7) أخلاق الوزيرين ص 166.

(8) انظر مناقشة مركزة لشيوع مذهب الاعتزال وأسبابه في فارس في (الصاحب ابن عباد :حياته وأدبه) للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 81 فمابعدها.

(9) أبوعبد الله الحسين بن علي بن ابراهيم المعروف بالجعل وبالكاغدي من أهل البصرة،واليه انتهت رئاسة أصحابه في عصره ،كان فقيها متكلما عالي الذكر. توفي سنة (369هـ) وله عدة كتب.انظر الفهرست ص 261-262، وفرق وطبقات المعتزلة ص 111-113 ،وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 325 فما بعدها ،وانظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص 30.

الى المذهب ،ونفر من أراد أن ينظر في العدل والتوحيد"(1).

وأغلب المساوئ الخلقية والدينية التي يصفها أبوحيان في شخصية الصاحب كالأنانية والعجب، والقسوة والفجور والفحش، تتجلى فيما يحكيه عنه من نوادر وحكايات في موضوع افتتانه بالمذهب واعجابه به. ومن ذلك أنه كان يقول عندما ينتهي كلامه مع خصم:"النظر شعاري ،والجدل دثاري ،والحق مناري ،والبيان مداري ،والله جاري"(2). ومنه ما يرويه أبوحيان عن المتابي (3) مما يدل على قلة دين ابن عباد ،وضعف يقينه، على الرغم من نصرته للاعتزال واشتهاره به،قال:" الرجل لا دين له،سمعته يقول في الخلوة، وقد جرى حديث المذهب: كيف أنزل عن هذا المذهب-يعني الاعتزال- وقد نصرته وشهرت به نفسي ،وعاديت الصغير والكبير عليه،وانقضى عمري فيه ؟. قلت للمتابي : ومن أين وقع في هذا الالحاد؟فقال :لم يزل مترجحا قليل الطمأنينة،سيء اليقين. ولكن أهلكه مقصدة،الذي يقال له النصيبي أبو اسحاق(4). وصدق هذا الشيخ"(5).

وأكبر ما يأخذه أبوحيان على الصاحب وغيره من المتكلمين المتعصبين في عصره هو مناقضتهم لأنفسهم فيما يدعون اليه. فهم يدعون الى العدل والتوحيد بالقول، ثم يركبون المنكرات والفواحش بالفعل ،وينصرون الدين في الظاهر،ويهدمونه في الباطن،ويتناولون ذات الله تعالى بما لا يليق بها من الأوصاف الساقطة ،والتقديرات الخاطئة ،التي لا تدل الا على استهتارهم وقلة تحرجهم وفساد اعتقادهم. قال:" وحكى يوما في نوادره الفاترة ما يدل على قلة دين القوم،وسوء استبصارهم،وشدة استهانتهم بما يقولونه محقين ومبطلين،وأن الدين هو الهذيان والرقاعة،والتعصب والايهام، وليس لوجه الله في ذلك شيء،لا فيما يجدون به،ولا فيما يهزلون فيه. لا خشية ولا تقوى،ولا مراقبة ولا بقيا(6)، قد جعلوا الله عرضة للخصومات والوساوس،ودينه مندبلا لكل يد"(7) ،وكان الصاحب على رأس هؤلاء ،وقد عظمت" الآفة به على المذهب، وتفاقم الأمر بمكانه على أهله"(8).

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 213.

(2) المصدر نفسه ص 260،وانظر ص 121-122 منه.

(3) وصفه أبوحيان بأنه " شيخ من أهل أصفهان كان صحب ابن عباد في أيام الحداثة" أخلاق الوزيرين ص 461.

(4) أبو اسحاق ابراهيم بن علي ،متكلم معتزلي من غلمان أبي عبد الله البصري ،وممن صحب الصاحب مدة. انظر بعض أخباره في الامتاع 1/ 141،وأخلاق الوزيرين ص 211-212، والمقابسات ص 159-160،وفرق وطبقات المعتزلة ص 122،والمنتظم 7/ 179

(5) أخلاق الوزيرين ص 297،وانظر ص 467-468 منه.

(6) البقيا والبقية : طاعة الله . القاموس المحيط مادة (بقي) .

(7) أخلاق الوزيرين ص 232،وانظر حملة قوية لأبي حيان على المتكلمين في الامتاع 1/ 141-142.

(8) نفسه ص 474.

ويلخص أبو حيان موقفه من التكلمين المعتزلة في عصره، ومن بينهم الصاحب، في قوله: "انهم ادعوا العدل، وعملوا بالجور، وأمروا بالمعروف وركبوا المنكر، ودعوا الناس الى الله بالقول، ونفروا عنه بالفعل، ولم يرجعوا فيما نصروه ونسبوا عنه الى ورع ظاهر، وتحرج معروف، ويقين لا خلاج فيه كما كان عليه سلفهم وأعلامهم واصل (1) وعمرو (2) والحسن (3) ومن جرى مجراهم" (4). وهذه كلها حقائق ثابتة عن الصاحب وفرقته، لا يمكن نكرانها، أو ادعاء عكسها، أو التقليل من أهميتها، باستثناء ما رتبه أبو حيان عليها من الحكايات والصور الهزلية الساخرة التي ربما كانت موضوعة كما سنرى (5).

والشواهد على صدق أبي حيان فيما نسبه الى الصاحب ابن عباد من اعتناق مذهب الاعتزال والتعصب له، والغلو فيه، وحمل الناس عليه وظلمهم بسببه، وفيما نسبه الى أصحابه المعتزلة من قلة الورع وضعف اليقين، وخبث الباطن، متوفرة في آثار الصاحب وأخباره، وفي بعض ما وصل الينا من أخبار فرقته. فقد ورد في شعره قوله:

تعرّفت بالعدل في مذهبي ودان بحسن جدالي العراق
فكلفت في الحب ما لم أطق فقلت بتكليف ما لا يطاق (6)

وقوله:

لو شق عن قلبي يرى وسطه سطران قد خطا بلا كاتب
العدل والتوحيد في جانب وحب أهل البيت في جانب (7)

بل ان له قصائد كاملة مطولة (8) في شرح قواعد المذهب وأصوله والدفاع عنها، جاء في احداها قوله:

قالت: فما اخترت من دين تفوز به فقلت: اني شيعي ومعتزلي

---

(1) أبو حذيفة واصل بن عطاء الملقب بالغزال، كان ألثغ طويل العنق، وهو امام من أئمة البلغاء والمتكلمين وعلى رأس فرقة من المعتزلة تسمى الواصلية. توفي سنة (131هـ). البيان والتبيين 1/ 14–18، 23–34 والفهرست ص 251، وأمالي المرتضى 1/ 163–169.

(2) هو عمرو بن عبيد بن باب، من شيوخ المعتزلة الأوائل، ومن زهادهم المشهورين، توفي سنة 144. انظر مروج الذهب 3/ 313–314 وأمالي المرتضى 1/ 169–178، فرق وطبقات المعتزلة ص 48–52.

(3) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري، تابعي من كبار الأئمة والوعاظ الفصحاء الشجعان، له مواقف مع الحجاج وعمر بن عبد العزيز وغيرهما، ووصف بأنه أشبه الناس في رأيه وحكمته بعمر بن الخطاب. توفي سنة (110هـ). أمالي المرتضى 1/ 152–162، وطبقات الفقهاء للشيرازي ص 87، وفرق وطبقات المعتزلة ص 33–38.

(4) أخلاق الوزيرين ص 473 وانظر أمثلة من فحشهم واستهتارهم في ص 230–235 منه.

(5) انظر أمثلتها في أخلاق الوزيرين ص 196–198، 299–301 وسنعود اليها في الباب الثالث بحول الله.

(6) ديوانه ص 254

(7) المصدر نفسه ص 184

(8) نفسه ص 27–47

قالت:أقلدت أم قد دنت عن نظر   فقلت:كلا ،فاني واحد الجدل (1)

ووقع في رسالة أحد الأدباء بمانصه:" من نظر لدينه نظرنا لدنياه ،فان آثرت العدل والتوحيد بسطنا لك الفضل والتمهيد ،وان أقمت على الجبر فليس لكسرك من جبر" (2). وكتب الى أحد الفقهاء بما يدل على مبلغ اهتمامه بنشر المذهب وتكثير أهله فقال:" قد كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ،والتصديق بوعده ووعيده. هذا وفي فقهائه وفور ،وفي الفضل به ظهور. وقد أعان الله على بث كلمة الحق ،وسمع الأكثر على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة شغلي من الانتصاب في بعض ليلي للمذاكرة والتبيين ،والتكشيف والتخليص فقد صلح خلق كثير ،والحمد لله رب العالمين ،وبه نستعصم من أفعال لا تشبه الأقوال ،وهو حسبنا في كل وقت وحال" (3) .

وفضلا عن ذلك كله ألف الصاحب عدة رسائل يشرح فيها مبادئ الاعتزال ويقرب معانيها ،ويرد فيها على المذاهب الأخرى كرسالته في (الهداية والضلالة) و (مختصر أسماء الله وصفاته) و (نهج السبيل في الأصول) و(التذكرة في الأصول الخمسة) و(الابانة عن مذهب أهل العدل بحجج من القرآن والعقل) (4) .وكلها رسائل متوسطة كما يبدو مما عثر عليه منها ونشر (5)، كتبها في الغالب للمبتدئين ومتوسطي الثقافة حتى تسهل قراءتها وفهمها والانتفاع بها . وهي تدل على اطلاعه على المذاهب الكلامية المتصارعة في زمنه ،وعلى تمكنه من أصول مذهبه ،ومقدرته في الجدال والاحتجاج ،وعلى اهتمامه البالغ بنشر مذهبه وتعصبه له.

ولو ذهبنا نتتبع كل ما كتبه المؤرخون والأدباء القدماء والباحثون المحدثون في هذا المعنى لطال وصل (6) .

أما ما يدل في سيرة الصاحب على مخالفة مذهبه الفكري ومناقضته فيما نص عليه من وجوب الانصاف والرحمة ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،والتمسك بمكارم الأخلاق، وتطبيق عدالة الله في الناس ،على نحو ما عرف به رواد المذهب الأوائل ،فهو متوفر أيضا في أخباره وأخبار أصحابه من مشاهير المعتزلة في عصره. وقد سبق شرح كثير منه في مناقشتنا لشخصيته الخلقية والدينية (7) .

---

(1) ديوانه ص 39.

(2) اليتيمة 3/ 197.

(3) رسائله ص 219.

(4) انظر مقدمة رسالة الصاحب (في الهداية والضلالة) بقلم محققها حسين علي محفوظ.

(5) ، التذكرة في الأصول الخمسة) و (الابانة عن مذهب أهل العدل). نشرهما الشيخ محمد حسن آل ياسين في سلسلة نفائس المخطوطات. أما (مختصر أسماء الله وصفاته) و (نهج السبيل في الأصول) فلم يعثر عليهما بعد . انظر أعيان الشيعة 11/ مجلد 12/ 427 ،و مقدمة ديوانه ص 10.

(6) انظر مثلا ترجمته في لسان الميزان 1/ 413 ،وأعيان الشيعة 11مجلد 12 ص 366 فمابعدها .

(7) انظر ماسبق في ص 181 فما بعدها .

فقد نقل عنه قوله :ان صاحبه فخر الدولة لم يتبذل قط بين يديه الا مرة واحدة قال له فيها :" بلغني أنك تقول : المذهب مذهب الاعتزال ،والنيك نيك الرجال"(1). وقال فيه أحد الشعراء من أبيات:

تعتقد العدل ولا ترعوي   أفّ لهذا القول من كاذب(2)

وقدم عليه أحد القضاة وهو أبو جعفر الزوزني البحاث" فارتضى تصرفه في العلم، وتفننه في أنواع الفضل ،وعرض عليه القضاء على شرط انتحال مذهبه -يعني الاعتزال- فامتنع وقال : لا أبيع الدنيا بالدين . . ."(3). فلولا ما عرفه هذا القاضي من سوء تصرف المعتزلة من أصدقاء الصاحب في القضاء لما طعن فيه أمامه.

وهذا أحد خاصته ممن له عليهم الفضل الكبير وهو القاضي عبد الجبار(4) امام المعتزلة في عصره، جمع من الأموال والذخائر الشيء الكثير حتى اضطر فخر الدولة الى مصادرته بعد موت الصاحب" وصادره فيما قيل على ثلاثة آلاف ألف درهم ،وعزله عن قضاء الري ،وولى مكانه أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . . .فقيل ان عبد الجبار باع ألف طيلسان مصري في مصادرته وهو شيخ طائفتهم ،يزعم أن المسلم يخلّد في النار على ربع دينار،وجميع هذا المال من قضاء الظلمة ،بل الكفرة عنده ،وعلى مذهبه"(5) . ومع أن الصاحب صديقه وولي نعمته وشريكه في الدعوة والمذهب،فانه لم يكن يترحم عليه ،ورفض الصلاة على جثمانه كما سبق القول(6).

وهذه الأقوال كلها لا تنفي عن القوم التدين والايمان ،ولا صحة العقيدة والثبات على مبادئ الدين والاعتزال ،ولكنها تنعتهم بقلة الخشوع والرهبة ،وبالتهافت على الدنيا وعدم الزهد في لذاتها ومتعها. وهذا ما ينعاه عليهم أبو حيان ويطعن فيهم بسببه ، وفي أرباب الكلام جملة. وذلك ما يذهب اليه كافة أهل السنة والمحدثون ،فلقد شاع بينهم قول القائل :"من طلب الدين بالكلام تزندق ،ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن طلب غرائب الحديث كذب"(7). ونسب الى الامام الشافعي رحمه الله قوله :" لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه سوى الشرك خير له من الكلام ،ولقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت أن مسلما يقول ذلك"(8). وحدث أبو حيان عن شيخه

---

(1) اليتيمة 3/ 199.

(2) فرق وطبقات المعتزلة ص 124 ،وانظر الأبيات كاملة في ص 194 من هذا البحث.

(3) طبقات الشافعية 3/ 143.

(4) تقدمت ترجمته في ص 200 حاشية رقم 2 ،وانظر فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 366.

(5) معجم الأدباء 6/ 299-300.

(6) انظر ص 200 من هذا البحث.

(7) تأويل مختلف الحديث ص 61، وانظر الامتاع 1/ 142.

(8) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص 333.

أبي حامد المروروذي أنه قال له :"لا تعلق كثيرا مما تسمع مني في مجالس الجدل ،فان الكلام يجري فيها على ختل الخصم ومغالطته ،ودفعه ومغالبته ،فلسنا نتكلم فيها لوجه الله خالصا ،ولو أردنا ذلك لكان خطونا الى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام. وان كنا في كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى فانا مع ذلك نطمع في سعة رحمته"(1) .

وهذه دلائل صادقة على سوء أدب المتكلمين وقلة تحاشيهم في جدالهم ،وعلى أن رغبتهم الكبرى انصرفت الى قهر الخصوم ونصرة ما يعتقدونه بالحق وبالباطل . وهذا ما لا يقبله أبوحيان وأمثاله من المتصوفين والزهاد .

ويكفي في الدلالة على ما كان عليه سلف المعتزلة من الخشوع والتقوى ،والتمسك بفضائل الأخلاق والآداب ،ما ورد في ترجمة عمرو بن عبيد رحمه الله ،فقد قال فيه ابن خلكان : "وكان آدم مربوعا بين عينيه أثر السجود ،وسئل عنه الحسن البصري فقال : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ،وكأن الأنبياء ربته . ان قام بأمر قعد به ،وان قعد بأمر قام به ،وان أمر بشيء كان ألزم الناس له ،ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن ولا باطنا أشبه بظاهر منه "(2) .

وورد في ترجمة عمرو بن عبيد أيضا أنه دخل على الخليفة المنصور فوعظه وبالغ في وعظه ، ثم رفض جائزته(3) .

ولقد خص أبوحيان أحد رؤساء المتكلمين المعتزلة في عصره بالذكر السيء والهجوم المنيف ،لما له من علاقة قوية بالصاحب ،وهو أبوعبدالله البصري المعروف بالجعل(4) . وكان ابن عباد فيما يزعم أبوحيان ،يدعي أنه درس عليه ،وأخذ عنه أصول الاعتزال في رحلته الى بغداد سنة (347هـ) (5) . ثم جمعهما الافتتان بالمذهب والدعوة اليه ،فاتصلت المراسلة بينهما بسبب المصالح المتبادلة ،حتى ان أبا عبد الله كتب رسالة ادعى فيها أن الصاحب هو المهدي المنتظر(6) .

ولهذا كله قدح أبوحيان في دين هذا الشيخ المعتزلي ومروءته ،وطعن في قدرته على الجدال والمناظرة ،وقال فيه على لسان بعض أصدقائه :"لقد خطب البصري على الاسلام بما لا يقدر عليه الروم والترك"(7) . ووصف تلاميذه النافقين عليه بأنهم "عصابة الكفر ،ما فيهم من يرجع الى ورع وتقى ،أوالى مراقبة وحياء وهدى"(8) .

---

(1) تاريخ هلال بن المحسن 8/ 5 وانظر البصائر والذخائر 1/ 73–74 ، 302–305 ، 403–408 .
(2) وفيات الأعيان 3/ 460
(3) المصدر السابق 3/ 461
(4) انظر ما سبق في ص 216 .
(5) أخلاق الوزيرين ص 200–202 .
(6) المصدر نفسه ص 208 ،وانظر ص 200–214 منه .
(7) نفسه ص 210 .
(8) نفسه ص 202 .

وهذه كلها اتهامات تلصق بعالم كبير من علماء الكلام والفقه في القرن الرابع الهجري ،وليس من السهل اثباتها ،والبرهنة عليها أو التسليم بصحتها ،فأخبار الرجل لا تنطق الا بما يدحضها وينفيها ،فقد كان زاهدا متقشفا يعيش في ضيق واضح ،ولا شغل له الا طلب العلم والتدريس والتصنيف" وبلغ من أمره في التحرج أن الملك عضد الدولة كان قد رسم أن يحمل اليه سلبة من طعام خاصة ،فكان لا يتناول منها شيئا ،ويجري في الأكل على عادته"(1). ورفض أن يؤدي الصلوات الخمس في دار عز الدولة بختيار وقال : "ان الصلاة في الدار المغصوبة عندي لا تصح"(2). وهذا كله دليل على ظهوره بمظهر التقوى والشرف والتدين ،أما باطنه فالله أعلم بالسرائر.

وقد يقال ان أبا حيان متكلم معتزلي كما وصفه غير واحد من القدماء وكما تشهد به صلته ببعض الشيوخ المعتزلة وعلماء الكلام في عصره ،فكيف يسمح لنفسه بكل هذا الطعن في طائفة المعتزلة ،وأرباب الكلام المعاصرين له ،وعلى رأسهم الصاحب ،وأقل مافيه أنه يناقض نفسه ،ويظهر على غير حقيقته التي يعتقدها ويومن بها.

والقول الفصل في هذه المسألة يأتي على لسان الباحث المحقق الدكتور احسان عباس ، فقد سبق الى بحث هذا الجانب من ثقافة أبي حيان وفكره(3) ،وانتهى في بحثه ومناقشته الى أن أبا حيان لم يكن معتزليا ولا متكلما ،وان عاشر المعتزلة والمتكلمين جميعا ،وان وصفه القدماء بالأوصاف والعبارات الدالة على ذلك ،وأن تجربته المريرة عند ابن عباد كانت من أقوى العوامل في ترسيخ الشعور العدائي في نفسه نحو المعتزلة وعلماء الكلام ،وقرر في الأخير أن "مقطع القول فيه أنه ينطوي على خشية عميقة من الخوض في المشكلات والمسائل النظرية اذا كانت في نطاق الدين ،ويحب الاطمئنان الى التسليم والتفويض ،وهو في حملته على المتكلمين وعلم الكلام يغلب الحماسة والانفعال في كثير من المواقف على المعاكسة للرأي والمناقشة والبرهان ،لايمانه بأن البرهان في هذه الأمور ليس في طوق العقل الانساني" (4).

ومما يرتبط بثقافة الصاحب وتفكيره موقفه من الشيعة والتشيع . فلقد أثار أبو حيان هذا الجانب من شخصية الرجل فوصفه فيه أيضا بالادعاء والكذب والنفاق ،وعدم مطابقة

---

(1) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 327.

(2) تكملة تاريخ الطبري ص 193 ،وانظر الكامل في التاريخ 7/ 22.

(3) كتب في ذلك بحثا قيما بعنوان (أبو حيان وعلم الكلام) ،مجلة الأبحاث تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت ،الجزء الثاني سنة 19 حزيران 1966 ص 139-207.

(4) المرجع السابق ص 204. وانظر:

Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi

لمارك بيرجيه ص 261 حاشية رقم 3.

الافعـال للأقـوال . فقد كان كما يصفه يدعـي الولاء لآل البيـت، ويتقـرب اليهـم ويعطف عليهم "ليخـدع الديلـم بالزيدية، وزعـم أنه على مقالـة زيد بن علي[1] ورأيه ودينه ومذهبـه، وزيد يعلـم اللـه منه بريء، لفسقه وفجـوره وتهتكـه، وظلمـه ونهبـه. وغصبـه، وقتلـه النفس المحرمة، وأخذه الأموال المحظورة. أترانـا لا نعرف مذهب زيد وأن جميـع ما هو فيه مخالف للديـن والاسلام؟"[2]. ثم يحتقـر آل البيـت ويتذلهـم ويهينهـم، فقد قـال مرة لبعض حجابه وهو يريـد الركـوب: "نظـف الطريـق من هذه الخنافس والجعـلان، والحرابـي والفرسان"[3] وهو يعنـي بذلـك الوارديـن عليـه من الحجـاز من الاشـراف العلوييـن، وأهل الحجـاز معروفون بسـواد الألـوان وضؤولـة الأجسـام. وكان يقـول الشعـر الكـثير في الثنـاء على العلوييـن الأحيـاء منهـم والأموات، ويلـزم بعض أفراد حاشيتـه حفظـه والتـرنح بـه، ويلـح عليهـم في ذلـك حـتى انه ليضربهـم على عدم الحفـظ[4].

وقال يومـا : ان من أجـل نعـم اللـه عندي " أنه لم يغمسـني في مذاهـب الامامـيـة"[5]. ولكنـه كان كما يقـول أبوحيـان" اذا عمـل قصيـدة في أهل البيـت غلا وتجـاوز، وغض من الصدر الأول، وادعـى على الشيخيـن البهتـان، وعرّض وصـرّح، وهـذا من فعـلاتـه الذميمـة، وجهالاته المشـهـورة"[6].

ولقد سبق تفصيـل القـول في المسـاوئ الخلقيـة والدينيـة التـي يربطهـا أبو حيان هنـا أيضا بعلاقـة الصاحـب بالشيعـة وآل البيـت، وبموقفـه منهـم، كمـا فصـل في تصويـره لشخصيتـه الثقافيـة عمومـا . ولذلـك سنكتـفي في مناقشـة تشيـع الصاحـب بمحاولـة التعـرف على مدى صدق أبي حيـان فيمـا ينسبـه اليـه من الانتصـار لمذهـب الزيديـة واظهـار الولاء والتعصـب له، ثم مناقشتـه نفسـه في شعـره، اذ يغلـو فيـه ويفـرط، ويطعـن في الشيخيـن أبي بكـر وعمـر، كمـا يفعـل غلاة الشيعة من الامامـيـة والروافض.

وتشهـد الشواهـد الكثيرة من آثـار الصاحـب النثريـة والشعـريـة التـي كتبهـا عن الشيعـة على صحـة ما يذهـب اليـه أبوحيـان، كمـا يؤيـده أيضـا ما عرف في التاريـخ مـن شـدة تعلـق الديلـم ـ وهم عمـدة الدولـة البويهيـة في الحكـم[7] ـ بالمذهـب الزيـدي

---

(1) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالـب رضي الله عنهمـا، رئيس فرقـة الزيدية، خرج على هشام بن عبد الملـك فقتـل بالكوفـة سنة (121هـ) ولقـب بالشهيد . مروج الذهـب 3/ 217ـ221، والفهرسـت ص 267، والملل والنحل 1/ 154 فمابعدهـا .

(2) أخـلاق الوزيريـن ص 167ـ 168

(3) المصدر نفسـه ص 295.

(4) نفسـه ص 187.

(5) نفسـه ص 404.

(6) نفسـه ص 404.

(7) انظر ما سبق في المقدمـة التاريخيـة ص 4، و 23، ومروج الذهـب 4/ 373 فما بعدهـا وعمدة الطالـب في أنساب آل أبي طالـب ص 83 فما بعدهـا .

وتمسكهم به وتعصبهم له.

قال الشهرستاني ،وهو يؤرخ لهذا المذهب،ان أحد رجال الزيدية وهو ناصر الأطروش" صار الى بلاد الديلم والجبل،ولم يتحلوا بدين الاسلام بعد،فدعا الناس دعوة الى الاسلام على مذهب زيد بن علي،فدانوا بذلك ونشؤوا عليه،وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين"(1). ولهذا السبب كان البويهيون شيعة متعصبين على مذهب زيد بن علي،ولم يعد للصاحب،ولا لغيره من رجال الدولة، خيار في التعلق به أو عدمه،فهو مضطر الى نصرته،والى اظهار الولاء والحب لآل البيت، سواء كان ذلك عن يقين أم عن نفاق وتظاهر. أضف الى ذلك ما كان من شيوع الاعتزال وانتشاره في فارس في القرن الهجري الرابع كما أشرنا الى ذلك سابقا.(2)

والمذهب الزيدي من المذاهب الشيعية المعتدلة التي قامت على أساس متين من العقل والدين،فقد أراد صاحبه الأول زيد بن علي بن الحسين" أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم،فتتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء(3) الغزال الألثغ رأس المعتزلة ورئيسهم..فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلهم معتزلة،وكان من مذهبه جواز امامة المفضول مع قيام الأفضل"(4).

ويعني هذا الكلام أن زيد بن علي وأصحابه كانوا عقلاء الشيعة،لم يقعوا في كثير من الخرافات وألوان الغلو والافراط،التي وقعت فيها الفرق الأخرى كالكيسانية والغالية والاسماعيلية(5) وغيرها. ويعني أيضا أنهم يحترمون الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما،ويعترفون بصحة خلافتهما مع وجود من هو أفضل منهما وهو علي كرم الله وجهه،ولا يطعنون فيهما بأي نوع من أنواع الطعن. ولكن نبتت في أتباعه،على مر السنين،نابتة لم تتقيد بالقواعد والأصول التي وضعها،بل تجاوزتها وتعلقت بالأكاذيب والضلالات كأغلب أتباع الفرق الأخرى،فارتكبت أفظع الآثام والمنكرات(6).

الا أن أغلب مؤيديه وأنصار مذهبه ظلوا متشبثين بمبادئه وأصوله حتى استطاعوا أن يجذبوا اليهم بعض أهل السنة والمعتزلة،وفروعا من الفرق الشيعية الأخرى(7)،بل انهم صاروا أكثر ارتباطا واتحادا بالمعتزلة حتى قال الشهرستاني

---

(1) الملل والنحل 1/156.

(2) انظر ما سبق في ص 216.

(3) تقدمت ترجمته في ص 218 حاشية رقم 1.

(4) الملل والنحل 1/155.

(5) انظر الملل والنحل 1/147، 173، والفهرست ص 278 فما بعدها.

(6) انظر (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) لأبي الحسن الملطي ص 38.

(7) انظر الملل والنحل 1/160، و 165، وشرح نهج البلاغة 1/3.

انهم صاروا منذ القرن الرابع" يرون رأي المعتزلة حذو القذّة بالقذّة(1)، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت"(2).

وهذا هو السر –على ما يبدو– في تمسك الصاحب بالمعتزلة من جهة وبالشيعة الزيدية من جهة أخرى، وليس له خيار في ذلك ما دام أصحابه وأولياء نعمته ينتمون في اعتقادهم لهاتين الفرقتين. ولذلك نراه يرتبط بالعلويين ارتباطا وثيقا، فينفق عليهم الهدايا والأموال الكثيرة، ويمدحهم بالشعر والنثر، ويؤلف فيهم الكتب والرسائل، حتى قيل ان شعره فيهم بلغ نحوا من عشرة آلاف بيت(3). وجل ما يحتوي عليه ديوانه من الشعر قاله في ذكرهم، والسلام عليهم، واظهار الولاء لهم ومحبتهم. ومن مؤلفاته (كتاب الزيدية) و (كتاب الامامة...) و (كتاب الأنوار) و (رسالة في عبد العظيم الحسني) (4) وكلها في شرح مبادئ الشيعة والترجمة لرجالها. ولم يرزق من الأولاد الا بنتا واحدة صاهر بها أحد العلويين، وهو أبو الحسن علي بن الحسين الحسني الهمذاني. ولما جاءته البشارة بسبطه منها سماه عبادا باسم أبيه، وقال شعرا كثيرا في هذه المناسبة، وتبعه الشعراء من العلويين وغيرهم(5).

ولكن أغلب علماء الشيعة ومؤرخيها لم يرضوا بهذه المزاوجة في عقيدة الصاحب بين الاعتزال والتشيع، فنبذوا أشعاره وآثاره المتعلقة بالاعتزال، ولم يعترفوا الا بما ورد منها عن تشيعه. بل انهم بالغوا في المسألة فاعتبروه شيعيا اماميا اثنا عشريا لا زيديا ولا معتزليا(6). ولا نستثني منهم الا الشيخ محمد حسن آل ياسين الذي حاول التوسط وقبول اعتزال الرجل الى جانب تشيعه(7).

والذي أوقعهم في هذا الخلط والتردد والارتباك، على ما يبدو، هو التعصب من جهة، وتناقض الصاحب في أقواله وأفعاله من جهة أخرى كما يقول التوحيدي. فهو يدعي الولاء للزيدية وحدها، ويحمد الله على عدم مشاركته للامامية في خرافاتها وبدعها ويؤلف في ذلك كتابا سماه "كتاب الامامة، يذكر فيه تفضيل أمير المومنين علي بن أبي

---

(1) القذة: ريش السهم جمع قذذ. القاموس المحيط مادة (قذذ)

(2) الملل والنحل 1/ 162.

(3) انظر أعيان الشيعة 1/ 187.

(4) انظر الفهرست ص 200 ومقدمة رسالته (في الهداية والضلالة) بقلم محققها حسين علي محفوظ

(5) اليتيمة 3/ 236، و 238، و 407. وانظر خبر تزويجه لسبطه ومقدار نفقاته واحتفاله بتلك المناسبة في معجم الأدباء 6/ 240 وأخبار عقبه من ابنته في عمدة الطالب ص 80 فما بعدها.

(6) انظر لجاجا طويلا حول هذه المسألة في أعيان الشيعة 11 مجلد 12 / 363 فما بعدها وانظر الغدير 4/ 45 فما بعدها، ومقدمة نفائس المخطوطات ص 84.

(7) الصاحب ابن عباد: حياته وأدبه ص 83–86.

طالب وتثبيت امامة من تقدمه"(1) على نحو ما يدعو اليه المذهب الزيدي ،ثم يغلو ويفرط في تقربه للعلويين عامة وفي شعره فيهم ،فيأتي بما يفهم منه لدى غير الشيعة ولاءه المطلق للامامية والغالية فيقول مثلا :

لو شق عن قلبي يرى وسطه ... سطران قد خطا بلا كاتب

العدل والتوحيد في جانب ... وحب أهل البيت في جانب (2)

ثم يقول على هذا النسق نفسه مناقضا ما سبق :

لو فتشوا قلبي رأوا وسطه ... سطرين قد خطا بلا كاتب

حب علي بن أبي طالب ... وحب مولاى أبي طالب (3)

واعترف في شعره في أكثر من موضع بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بالخلافة وبتعيينه له يوم الغدير (4) فقال :

جذب النبي بضبعه يوم الغدير ... ووكد التعريف بالتمييز

ختم الرقاب بنصبه لولاية ... ختم الرقاب خلاف ختم الطين (5)

وقال أيضا مفرطا في تفضيل علي كرم الله وجهه:

حب علي بن أبي طالب ... هو الذي يهدي الى الجنة

ان كان تفضيلي له بدعة ... فلمنة الله على السنة (6)

والأمثلة كثيرة في شعره،وهي التي استند اليها القائلون بتشيعه وحده. وهذا الغلو هو الذي لاحظه أحد مترجميه فقال فيه :"ولولا أن بدعة الاعتزال وشنعة التشيع شنعت أوجه فضله، وغلوه فيهما حطّه عن علوه، لقل من يثنا فيه من الكبار والفضلاء"(7)،وقال عبد الجبار القاضي لما تقدم للصلاة عليه :"ما أدري كيف أصلي على هذا الرافضي "(8).

وكل هذه دلائل تؤيد أبا حيان فيما ذهب اليه من غلو الصاحب في تشيعه وعدم ثباته على مبادئ المذهب الزيدي وحده. وهذا يلتقي مع تناقضه وتذبذبه في سلوكه الخلقي والديني على المعلوم كما شرحنا في الصفحات السابقة. ولكن ذلك

---

(1) الفهرست ص 200،وانظر (نصرمذاهب الزيدية) بتحقيق ناجي حسن ص14–19 من مقدمة المحقق وص99 فما بعدها .

(2) ديوانه ص 184.

(3) نفسه ص 183–184.

(4) انظر خبره في وفيات الأعيان 5/ 230–231.

(5) ديوانه ص 130 .

(6) اليتيمة 3/ 273 ،وناشرديوانه حذف من البيت الأخيركلمة السنة. ديوانه ص 97.

(7) لسان الميزان 1/ 416.

(8) المصدرنفسه 1/ 416.

لا يعني أنه كافر ملحد ،أوشعوبي مستهتر ،كما قد يعني أبوحيان في بعض ما وصف به الرجل من أوصاف،بل هو صحيح العقيدة ثابت الايمان،مرتبط ارتباطا وثيقا بالعرب والمسلمين في مثلهم الأخلاقية والدينية.

ولعل أهم أوجه الخلاف والتناقض بين أبي حيان والصاحب هو اختلاف طريقتهما في الكتابة الأدبية والانتاج الفني على العموم،وما تبع ذلك من صراع حول أصول الكتابة وأهدافها وأساليبها. فقد كان كل منهما ـ كما سيتضح من خلال مناقشتنا للمآخذ التي يأخذها أبوحيان على كتابة الصاحب وشعره ـ ينتمي الى مدرسة تخالف مدرسة الآخر في كثير من المبادئ والأصول.

فأبوحيان يعترف للصاحب بكثرة محفوظه من كلام العرب والأدباء شعرا ونثرا، وبفصاحة اللسان وسرعة البديهة،وتعاطي فنون الأدب في مجالسه وأحاديثه مع الكتاب والشعراء،وبخصوبة معدنه الأدبي وغزارة عطائه،ومقدرته في الكتابة والشعر. ولذلك قال في أول حديثه عنه:"فأول ما أذكر من ذلك ما أدل به على سعة كلامه، وفصاحة لسانه،وقوة جأشه،وشدة منّته(1).."(2)،وقال فيما اختصره من أوصافه في الامتاع والمؤانسة:"ان الرجل كثير المحفوظ،حاضر الجواب،فصيح اللسان،قد نتف من كل أدب خفيف أشياء،وأخذ من كل فن أطرافا..."(3). واعتبره واحدا من كتاب عصره وأدبائه الكبار،فقارنه بهم وفضله على بعضهم(4).

ولكنه يأخذ عليه مآخذ عدة،يتعلق بعضها بمضامين كلامه ومعانيه،وبعضها الآخر بتعابيره وطريقته في الكتابة وقول الشعر. ومنها ما هو مرتبط بمساوئه الخلقية السابقة التي تبدو واضحة في انتاجه النثري والشعري كالعجب والأنانية والسفاهة والمجون.

فالصاحب في نظر التوحيدي ،برغم فصاحته وطلاقة لسانه،ثرثار متفيهق،لا يبالي بالمعاني وصحتها وعدم التكرار فيها،بل " كان يأخذ طرفا من الحديث فيمده الى الفلك بالفتاتة والبهل والهذر"(5). وينعت كتابته على لسان أحد معاصريه من الكتاب بأنها " شوهاء،فيها شيء في غاية التنقيح،وفيها شيء في غاية الركاكة، وبينهما فتور راكد ، بمذاهب المعلمين الحمقى المتعاقلين أشبه منها بمذاهب السلف

---

(1) المنّة : القوة. القاموس المحيط مادة (منن)
(2) أخلاق الوزيرين ص 94.
(3) الامتاع والمؤانسة 1/ 54،وانظر 1/ 62 منه.
(4) المصدر نفسه 1/ 61،65ـ66،وانظر أخلاق الوزيرين ص 137.
(5) أخلاق الوزيرين ص 119.

الأولين من الكتاب وأصحاب الدواوين"(1). وكان اكثاره من المناظرة والجدل مع المتكلمين وغيرهم سببا في فساد رسائله وكلامه، لأنه كان يخلط بين طريقة المتكلمين وطريقة الكتاب في الحديث والكتابة، فانطمست معالم أسلوبه الخاص(2). كما تشدد أيما تشدد في وجوب تعظيمه واكباره في مخاطبته والكتابة اليه حتى "أفسد البيان والبلاغة على الناس بهذا السبب، لأنه كان يسوم كل من كتب اليه أن يكني عن نفسه بالعبودية وعنه بالمولوية، ثم يعرض في هاتين الكنايتين، وكناية الحديث والأمر والشأن، ومن الحديث عنه، أوله، أوفيه. فربما تشاجرت كنايات، وتداعت معانيهما على الكاتب، فلا يخلص الى تحقيق مراد، واستبانة وجه. وهذا الذي أقوله يعرفه الذي دفع اليه ودهي به"(3).

ويؤكد أبوحيان أن الغالب على ابن عباد هو التكلف والاغراب وتتبع الوحشي من الكلام. ولذلك قال لأحد الشعراء "كيف تقول الشعر؟ وان قلته كيف تجيده؟ وان أجدت كيف تغزر فيه؟ وان غزرت فيه فكيف تروم غاية وأنت لا تعرف ما الزِّهلق(4)، وما الهِبْلع(5)، وما العَثْلط(6)؟..."(7). وهو لا يستجيد الا كل ما هو ظاهر الصنعة والسطحية والتكلف، فقد كتب يوما الى انسان: وأقسم أنك لوكتبت بأجنحة الملائكة المقربين على جباه الحور العين، مستمدا من أحداق الولدان المخلدين، جوازا من الصراط المستقيم، الى جنات النعيم، لما حسن هذا البخل. فأخذ يعيد هذا ويبدئه ويقول: كيف ترون؟ وكيف تسمعون؟ وهل قرأتم شبيهه؟"(8)، وأعجب بأبيات مدحه بهما أحد الشعراء، لا شيء فيهما يستحق الاعجاب الا المبالغة والافراط في الصنعة والسطحية(9).

وأهم ما أخذه عليه أبوحيان في هذا الباب هو غرامه بالسجع واكثاره منه في كل الأحوال والمناسبات، وخاصة أقواله وأحاديثه، سواء كان يتحدث الى الأدباء والمثقفين أم الى أفراد حاشيته وغيرهم من العوام وأشباههم. وأمثلة ذلك كثيرة في الكتاب. فقد قال أبوحيان وهو يشير الى تميز كتاب فارس عن غيرهم باكثارهم من السجع، وولعهم بالمحسنات اللفظية: "ان "كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 134.

(2) المصدر نفسه ص 162، والامتاع والمؤانسة 1/ 54

(3) أخلاق الوزيرين ص 288، وانظر ما سبق في ص 193، 195-196

(4) الزهلق: السريع الخفيف، والريح الشديدة، والسراج مادام في القنديل. القاموس المحيط. مادة (زهق).

(5) الهبلع: الأكول، والكلب السلوقي، وكلب بعينه. القاموس المحيط مادة (هبلع).

(6) عثلط: خاثر ثخين القاموس المحيط مادة (عثلط)

(7) أخلاق الوزيرين ص 482

(8) نفسه ص 219-220

(9) نفسه ص 248 -249.

يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد "(1). وسأل أحد خلصائه فقال:" أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذاك أنه لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل وكلفة صعبة، وتجشم أمور وركوب أهوال، لكان يخف عليه ألا يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يبالي بجميع ما وصفت من عاقبتها"(2). وقال أيضا:" ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع، ومجاوزة الحد فيه بالافراط، قوله يوما: حدثني أبوعلي ابن باشوكان من سادة الناس، حمل السين شيئا، ومر في الحديث وقال: هذه لغة. وكذب، وكان كذوبا"(3). ودون كثيرا من أقواله المسجوعة كقوله:"أنشدني صقلاب، وابن باب، وقرأت على ابن البواب، وسمعت من أبي الحباب، ورويت لأبي المرتاب الدباب كل شيء عجاب..."(4).

أما دلالة أدبه وانتاجه فيه على مساوئه الخلقية السابقة كالعجب والغرور والادعاء والفحش والفجور، فأمثلتها متوفرة في الكتاب، فقد قال يوما لأحد أعوانه من الكتاب في شيء جرى بينهما:" أمثلي يموه عليه، ويطمع فيما لديه، وأنا خلقت الكتابة والحسابة؟..."(5). وقال فيه ابن العميد أبو الفضل فيما يرويه التوحيدي: ان "سجعه يدل على الخلاعة والمجانة..."(6).

ولو التمسنا تلخيصا مركزا لمساوئ كتابة الصاحب وأدبه في رأي التوحيدي لوجدناه في كتاب(الامتاع والمؤانسة) فيما أثبته فيه أبوحيان من مقارنة بينه وبين معاصريه من الكتاب. فقد قال نقلا عن أحد أصدقائه من الأدباء:" وابن عباد يلي في هذه الصناعة بأشياء كلها عليه لا له، وخاذلته لا ناصرته، ومسلمته لا منقذته. فأول ما بلي به أنه فقد الطبع وهو العمود، والثاني العادة(7) وهي المؤاتية، والثالث الشغف بالجاسي(8) من اللفظ وهو الاختيار الرديء، والرابع تتبع الوحشي وهو الضلال المبين،

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 124.

(2) المصدر نفسه ص 124.

(3) نفسه ص 139.

(4) نفسه ص 173–174، وانظر أمثلة فاحشة من سجعه في ص 121–122، 123–124 و 140، و 173، و 260 منه. والظاهر أن الأعلام الواردة في النص أعلاه ليست حقيقية وانما الغرض منها هو السخر والاستهزاء.

(5) نفسه ص 120، و انظر قصته مع أبي طالب العلوي ومناظرته لأحد رؤساء اليهود في ص195، و 299–301 منه.

(6) نفسه ص126، وانظر ما سبق في ص 181 فما بعدها.

(7) ربما يقصد بالعادة الممارسة والدربة. وقد كررها في وصف كتابة كل من الصابي والجاحظ. الامتاع 1/ 66، 67.

(8) الجاسي: الصلب. القاموس المحيط مادة (جسا).

والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسابع استكراه المقصود من المعنى ، واللفظ على النبوة، والسابع التعاظل[1] المجهول بالاعتراض، والثامن الف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص، والتاسع قلة الاتعاظ بما كان للثقة الواقعة في النفس من الفائت، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار في سوق العز. وهذه كلها سبل الضلالة، وطرق الجهالة »[2].

فكأن أبا حيان هنا يملل فساد بلاغة الصاحب بهذه العلل العشر، وهي تمثل الأصول التي نبعت منها كل المآخذ السابقة وكانت سببا فيها. وقد ترددت بصيغ مختلفة، وبالزيادة والنقصان، في كلام أبي حيان[3]. ويدل تكراره لها على أنها تمثل في نظره أهم عناصر الرداءة في أي انتاج فني، لا تجتمع في كلام أديب الا حكمت عليه بالتخلف والسقوط، ولا تنتفي منه الا حلت محلها أضدادها التي هي علة الجودة والاحكام والنبوغ. وقد لخصها أحد الباحثين في عيوب أربعة هي : هزال الفكرة، والعناية باللفظ، والتكلف، والتقليد[4].

ولكننا اذا رجعنا الى حياة الصاحب وأدبه نجد أن مكانته الادبية في عصره وفي تاريخ الأدب العربي تختلف بعض الاختلاف عن هذه الصورة التي رسمها عنه أبو حيان، ولا تتفق معها الا في حدود ضيقة. فلا خلاف ولا جدال بين أبي حيان وغيره حول فصاحة الصاحب ووفرة محفوظه وغزارة عطائه، ومشاركته في قيام نهضة أدبية واسعة في عصره ووطنه، وكونه ثاني اثنين كانا على رأس كتاب الدولة البويهية في فارس[5]. ولكن الصاحب وأنصاره ومن تبعهم من المعجبين به من الأدباء بالغوا في تقدير هذه المزايا وما تستحقه من الاجلال والاكبار، فتحدثوا عنها مشفوعة بأوصاف العبقرية والنبوغ والتفوق المطلق.

لقد خلف الرجل تراثا أدبيا مهما يشهد له بالمقدرة الأدبية والبلاغية، وبمشاركة معاصريه من الكتاب والشعراء في اهتماماتهم الثقافية والفنية، ويتمثل ذلك في شعره ورسائله[6]، وفي بعض كتبه كالروزنامجة والسفينة[7] وأخبار أبي العيناء[8]

---

(1) تعاظل الكلام : تراكبه وتعقيده. القاموس المحيط مادة (عظل)

(2) الامتاع والمؤانسة 1/ 64-65.

(3) انظر الامتاع والمؤانسة 1/ 66، وأخلاق الوزيرين ص135-136.

(4) انظر (النقد الأدبي عند أبي حيان التوحيدي) مقال بقلم البشير المجذوب في مجلة الدراسات التونسية العدد الثاني، نوفمبر 1977 ص 56 - 61.

(5) أخلاق الوزيرين ص531.

(6) كانت رسائله ثلاثين مجلدة كما يقول أبو حيان (أخلاق الوزيرين ص492) وقال ياقوت انها عشرة مجلدات (معجم الأدباء 6/ 260) ولم يبق منها الا مختصر صغير طبع بمصر سنة (1947). أما ديوانه فقد جمع حديثا وطبع في بغداد سنة (1965).

(7) انظر ما سبق في ص 206-207، وانظر اليتيمة 3/ 389

(8) معجم الأدباء 6/ 260.

ورسالة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي[1] وغيرها. وجاء في شعره قوله يمدح نفسه بسرعة البديهة وسهولة قول الشعر عليه:

قالت: أ مبتدهـا في القول مرتجلا — فقلت: ما قلت شعرا غير مرتجل

قالت: أ تيت ابن عباد بمعجزة — فقلت: لا تعجبي فالشعر من خولي[2]

وذكر الثعالبي في ترجمته لأبي اسحاق الصابي أن الصاحب كان يقول كثيرا: "كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف[3] وأبو اسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه"[4]. وهذا شيء لاينكره أبو حيان بل يعترف به ويقبله. والدليل على ذلك أنه يقارن بين بلاغة هؤلاء الكتاب من منظوره الخاص وفهمه الشخصي للبلاغة والكتابة[5]، ولكنه يرفض هذا الحصر الضيق، وهذا الانفراد المدعى بالمجد والعبقرية[6] كما يفهم من كلام الصاحب، وكما أكده الثعالبي فيما علق به على مقارنته بين الصابي والصاحب حين قال: "وكيف جرى الأمر فهما هما، وقد وقف فلك البلاغة بعدهما"[7].

وذلك ما أشار اليه ابن النديم في ترجمته للصاحب فقال: انه "أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر"[8]، وقال الثعالبي بعد أن أورد منتخبات من رسائل الصاحب وأقواله: "ومحاسن فقر الصاحب تستغرق الدفاتر، وتستنزف في الانتخاب منها الخواطر، وليس يتسع هذا الكتاب لغيض من فيضها وقطرة من سيحها"[9].

والى مثل ذلك ذهب أكثر الباحثين المحدثين فقال الدكتور زكي مبارك: "ان الصاحب ابن عباد كان من أعاجيب دهره، وأكتب أهل زمانه"[10]. وقال الدكتور عبد الحكيم بلبع: "لقد كان الصاحب كاتبا من كتاب العربية النابهين الذين تبوؤوا في تاريخ الأدب مكانة مرموقة، وغنيت الآثار الأدبية بطائفة فريدة من كتبه ورسائله وأشعاره التي كانت مثار اعجاب المؤرخين والناقدين"[11].

---

(1) انظر ما سبق في ص 188، و 194.

(2) ديوانه ص47.

(3) تقدمت ترجمته وكذلك ترجمة الصابي في ص 64، و ص 189.

(4) اليتيمة 2/ 245، وانظر معجم الأدباء 2/ 20.

(5) الامتاع والمؤانسة 1/ 61-69.

(6) المصدر نفسه 1/ 68-69.

(7) اليتيمة 2/ 246، وانظر 3/ 288 من المصدر نفسه.

(8) الفهرست ص200.

(9) اليتيمة 3 / 252.

(10) النثر الفني 2/ 257.

(11) أدب المعتزلة ص287، وانظر رأى الدكتور شوقي ضيف في الفن ومذاهبه في النثر العربي ص216 - 217.

وكل هذه الدلائل والأقوال ـ بالرغم من المبالغة الواضحة في بعضها ـ تشهد للصاحب بالمكانة المحترمة التي فاز بها بين أدباء عصره، وفي تاريخ الأدب العربي. وهي مكانة لا يجادل فيها أبوحيان بل يقبلها ويزكيها، ويحاول أن يبين ما تقوم عليه من أصالة وزيف، ضمن موقف الحنق والغيظ والهجاء الذي وقفه من الصاحب على وجه العموم (1). ولذلك أحصى على كتابته وشعره عدة عيوب يرى أنها السبب في التهافت والفراغ اللذين يشكو منهما أدب الوزير الكبير في نظره.

وليس يهمنا هنا تفصيل القول في أدب الصاحب وانتاجه الفني عامة، وتمييز محاسنه من مساوئه، فتلك دراسة مفصلة لا يتسع لها المقام هنا، وانما المراد معرفة مدى اصابة أبي حيان فيما أسنده اليه من مطاعن ومساوئ.

وعند الرجوع الى رسائل الصاحب وأخباره لا نجد فيها أثرا للثرثرة والهذيان اللذين نعته بهما أبوحيان، ونقل كثيرا من أقواله وأحاديثه الدالة عليهما، بل ان رسائله التي وصلت الينا لا تدل الا على الرزانة والوقار والالتزام التام بالموضوعات التي تناولها فيها. وليس فيها ما يشير الى الاسهاب الفارغ والتمطيط الممل من جنس ما ينقله عنه أبوحيان، الا أن يكون ذلك في رسائله التي لم تصل الينا.

وهناك احتمالان لتفسير هذا التناقض في كلام أبي حيان، كلا هما قابل للصحة والصواب، فاما أن يكون الصاحب يلتزم الجد والتعقل في كتابة الرسائل الديوانية والاخوانية التي تشيع وتنتشر منسوبة اليه، ويعرف مسبقا أن الأدباء والنقاد سيحصون عليه سقطاته ومساوئه فيها، ولا يثرثر ويهذي الا في أحاديثه وأقواله المرتجلة مع الزوار والخواص، وهي التي روى أبوحيان الكثير منها (2) ونعتها بالثرثرة والهذيان. واما أن التوحيدي كان يضع هذه الأحاديث والأخبار ثم ينسبها الى الصاحب. وسيأتي المزيد من التفصيل حول هذا الاحتمال الأخير في الباب الثالث بحول الله.

أما الركاكة في كتابته، وتفاوتها في الجودة والرداءة، واستعماله لألفاظ المتكلمين، وتكلفه في المعاني، وولعه بالألفاظ الغريبة والسجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية، فهي عيوب يمكن اكتشافها بسهولة في بعض رسائله الديوانية، فهي متوفرة فيها، ولا تكاد بعض الصفحات تخلو منها، مجتمعة أو مفترقة. فلنقرأ قوله من رسالة يصف فيها حرب عضد الدولة مع ابن عمه بختيار في صراعهما على امرة الأمراء في بغداد (3). قال: "وتلتنا بواسط في توجه سرعان الخيل المنصورة اليها، وقد خيّم

---

(1) انظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث ص 90 فما بعدها.

(2) انظر الأمثلة السابقة في ص 228-229.

(3) انظر المقدمة التاريخية ص 6-7.

طبقات المخالفين عليها . فلما نمت اليهم أنباؤهم استفزتهم بوارق الرعب، قبل صواعق الطعن والضرب، فأطاعوا وهلهم(1)، وعاينوا أجلهم، وأجفلوا يطأ آخرهم أولهم. فصاروا ببغداد تأخذ بهم الآراء القائلة ذات اليمين وذات الشمال، وتستطير بهم الخطوب الهائلة بأجنحة الثبور والنكال. وكانت أماني الغرور تمثل لبعضهم ثباتا للمواقفة، ورجوعا للمكاشفة، فما كان الا ريث نهوض الملك السيد عن واسط حتى زلزلت المخافة أقدامهم، ونسخ الاحجام اقدامهم، وأيقنوا أن وعد الله حق فلا دفاع لما أبرمه، ولا امتناع مما شاءه وأحكمه، وصاروا شيعا لا تأتلف لهم كلمة، وفرقا لا تجمعهم حكمة..."(2)، ثم يصف انهزام بختيار ونفاد حيلته وطلبه الأمان فقال:" وكتب يسأل تغمده واخوته وولده بالصفح عن جرائمهم، واغماد الصفاح دون جماجمهم، ليتوجه الى الشام معلنا لشمار الطاعة، باذلا في الخدمة غاية الاستطاعة، فجرى مولانا على عادته في الرعاية والارعاء، والاقالة بعد القدرة والاستيلاء، فغشاه ظل بقياه، وفسح له فيما ابتغاه"(3).

وبالتأمل في هذا النص نجد أن صاحبه يعاني عسرا ومشقة في البحث عن المعاني المناسبة، ثم اذا عثر على ما هو قريب من مراده منها، يخذله اللفظ الملائم والتعبير الصحيح، فلا يزال يجد في البحث عنهما، وعن استقامة المعنى واستواء النظم، حتى يتضح تكلفه في اللفظ والمعنى، وتبرز الثغرات واضحة في صوره وتعابيره، فيحاول سترها بالصنعة اللفظية والتزام السجع، فلا يوفق التوفيق المطلوب.

فقوله " خوم طبقات المخالفين عليها " عبارة تشكو غموضا وقلقا في المبنى والمعنى، وكذلك قوله" نمت اليهم أنباؤهم ". أما قوله "استفزتهم بوارق الرعب قبل صواعق الطعن والضرب" فربما كان المعنى مقبولا والتصوير صحيحا في تشبيه الرعب في سرعة تأثيره وتمكنه في نفس الانسان بالبرق، ولكن ما علاقة الطعن بالرماح والضرب بالسيوف بالصواعق حتى يصح تشبيهها بها؟ وما هي الصفة المشتركة بين الطرفين التي تجيز الربط بينهما وتمثيل أحدهما بالآخر؟ لا وجود لأي شيء ظاهر من ذلك الا أن يكون مبالغة واسرافا وتكلفا. وهذا ما سماه أبوحيان بالاحالة في المعنى (4).

وربما كان سبب وقوع الصاحب في هذا الغموض والتكلف هو عدم وضوح الصورة

---

(1) الوهل : الفزع ،القاموس المحيط مادة (وهل) .
(2) رسائل الصاحب بن عباد ص 19.
(3) المصدر نفسه ص 19-20.
(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 62.

في ذهنه مع الحاجه في طلب السجع وتوازن الكلام. فقد افتتح الجملة وهو متمكن من بعض صورتها ومعناها فحلق معها في البداية، ثم انفلتت منه فضلّ طريقه وتراجع بسرعة. وهذا ما يعنيه أبو حيان أيضا بفقدان الطبع والمادة واستكراه المعنى، وينتج عنه تفاوت الكلام بين الجودة والرداءة. وربما كان الصابي يقصد هذا المعنى بقوله، فيما يرويه عنه أبو حيان في وصف الصاحب وكتابته: " هو مجتهد غير موفق، وفاضل غير منطّق(1) . ولو خطا كان أسرع له، كما أنه لما عدا كان أبطأ عليه. وطباع الجبلي مخالف لطباع العراقي، يثب مقاربا فيقع بعيدا، ويتطاول صاعدا فيتقاعس قعيدا "(2).

ويتضح سوء التعبير أيضا والبعد عن المراد وفساد الاستعارة في قوله: "وتستطير بهم الخطوب الهائلة بأجنحة الثبور والنكال" فكأنه ألمّ فيه بقوله تعالى "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة "(3) على الرغم من اختلاف المعنى الذي يقصده عن معنى الآية، فاستعمل كلمة (تستطير) بدل كلمة (اخفض) و (أجنحة الثبور) عوضا عن (جناح الذل)، ولكن شتان ما بين الصورتين وبين التعبيرين، وذلك ما يسميه أبو حيان بالتكلف والمبالغة والسطحية والذهاب مع اللفظ مع الاختيار الردي".

أما عنايته بالسجع والمحسنات اللفظية فالنص كله دال عليها، وكذلك استعماله لألفاظ المتكلمين. فقوله "وأيقنوا أن وعد الله حق"، وقوله "ولا امتناع مما شاءه وأحكمه"، وكلمات (الطاعة)، (الاستطاعة) و (القدرة) و (الاستيلاء)، كلها من اصطلاحات المتكلمين وتعابيرهم(4)، وهي متوفرة في رسائل الصاحب وأقواله.

ولكي يتضح معنى جزالة الكلام واستقامته واستوائه، وتطابق ما بين معناه ولفظه، وتحكم صاحبه في معانيه وصوره وتعابيره، وهي كلها مما تكلفه الصاحب في بعض رسائله فلم يتيسر له منه الا القليل كما يقول أبو حيان، نورد ما يقوله الصابي أبو اسحاق في موقف مماثل لما وصفه الصاحب. قال من رسالة عن الخليفة المطيع لله الى ركن الدولة البويهي يصف فيها هزيمة الروم في هجومهم على ديار الاسلام سنة (362هـ):

" ...ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان(5) في يوم الجمعة الذي ختم الله به

---

(1) غير منطق: غير مرتفع الشأن في البلاغة. القاموس المحيط مادة (نطق)

(2) الامتاع والمؤانسة 1/ 62.

(3) سورة الاسراء 17/ 24.

(4) ربما كان الجاحظ أول من نبه على فساد استعمال اصطلاحات علم الكلام وغيره من العلوم في البيان والبلاغة. انظر البيان والتبيين 1/ 139–141

(5) البطان: حزام القتب يحزم به رحل الدابة تحت بطنها، والعبارة كناية عن الشدة والزحام. القاموس المحيط مادة (بطن)

شهر الصيام،وهتم فيه بالظهور للاسلام،فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم،ومحاماة عن صاحبهم وعظم كفرهم،وأخذ الأولياء منهم بالمخنق،وصدقوهم القتال في المعترك الضيق. فلما استمرت الملحمة،وعلت الغمغمة،ودارت رحى الحرب،واستعر الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح،وتصافحت بيض الصفاح،تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور،وتنادى الكفار بالويل والثبور،فنكصوا على أقدامهم مجدين في الهزيمة،واعتدوا الحشاشات(1) لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة،واستلحمتهم السيوف،واحتكمت فيهم الحتوف...»(2).

فهذا كلام لا غموض فيه ولا تكلف،ولا عناء في البحث عن المعنى والتعبير المناسب، وتشبيهاته واستعاراته حسنة مقبولة وكذلك سجعه وجناسه،ولا يشكو أي قصور أو تفاوت، فقد حافظ كاتبه على استواء عباراته وتوازنها ومستواها الجمالي من بداية الرسالة الى نهايتها. ولذلك قال أبوحيان يصف الصابي وكتابته وهو معجب بها وبصاحبها: «لايشب ولا يرسب،ولا يكل ولا يكهم(3)،ولا يلتفت وهو متوجه،ولا يتوجه وهو ملتفت»(4)، وقال: «ونظمه منثوره،ومنثوره منظومه،انما هو ذهب ابريز كيفما سبك فهو واحد»(5).

ذلك شأن الصاحب في بعض رسائله الديوانية. وفيها ما هو في غاية التنقيح والجودة. أما رسائله الاخوانية فالغالب عليها التأنق والجمال،والخلو من كل ما يعيب معانيها وألفاظها(6). ولذلك كله تحير أبوحيان في تقدير كتابة الصاحب والحكم عليها حكما صحيحا فقال فيه انه «مشكل،لا يجوز أن تهضمه فتضعه في أسفل سافلين،ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه الى أعلى عليين،ثم ضمه بين هذين أين شئت،على أنه على كل حال جبلي»(7)،ولذلك أيضا طلب من الصاحب عندما كلفه نسخ رسائله أن يسمح له باختيار جيدها واستخراج أحسنها،وفي هذا اعتراف بأن فيها ما يستحق الاختيار والاستخراج(8).

وقد روى عنه غير أبي حيان أمثلة متكلفة من ولعه بالسجع واستخدام الغريب، فقد تحدث البديع الهمذاني(9) أنه لما دخل عليه وامل تقبيل الأرض بين يديه فقال

---

(1) الحشاشة: روح القلب ورمق حياة النفس. اللسان مادة (حشش).

(2) المختار من رسائل الصابي ص72-73.

(3) يكهم: يجبن ويضعف. القاموس المحيط مادة (كهم).

(4) الامتاع والمؤانسة 1/ 67.

(5) المصدر نفسه 1/ 68.

(6) انظر ما اختاره الثعالبي من رسائله الاخوانية في اليتيمة 3/ 242-252.

(7) أخلاق الوزيرين ص137.

(8) نفسه ص 492-494.

(9) ستأتي ترجمته في ص ٢٤١ حاشية رقم ١

له : "يا بني ، اقعد ، كم تسجد ، كأنك هدهد " (1). بل ان بعض الرواة بالغ - كما بالغ أبو حيان فيما نسبه الى الصاحب من نوادر السجع والولع بغريب اللغة - فرووا عنه - أو نسبوا اليه - بعض التصرفات الخرقاء التي لم يحمله عليها الا تكلفه للسجع والغريب ، فقد روى صاحب (الهفوات النادرة) أنه " كان بالري شاهد يعرف بأبي محمد الصفار ، فشكاه قوم الى الصاحب أبي القاسم شكوى أكثروا فيها ، ورفعوا اليه القصص بها ، فوقع على احداها : ان كان ذلك دأب أبي محمد الصفار ، فالري ليست له بدار . وبلغ أبا محمد خبر التوقيع ، فأقل التفكير فيه والانزعاج له ، وقال : ما أراد بي الصاحب بما وقع به ، ولا اعتقد لي سوءا فيه ، وانما طلب السجع فكتب بما كتب . وكان الأمر على ذلك " (2).

وتشهد رسائله وآثاره ببعض المساوئ التعبيرية التي أخذها عليه أبو حيان ، وطعن في كتابته بسببها ، وهي كثرة الجمل الاعتراضية ، والفصل بين المبتدأ والخبر ، والفعل ومعموله ، والشرط وجوابه (3). وكذلك التزام رسوم خاصة في مخاطبة المرسل اليه في بداية الرسالة وختامها ، يعظم فيها مخاطبه ويبالغ في تشريفه ورفع شأنه ومكانه (4).

وفي كل ما تقدم دليل على أن الصاحب ، باعتراف أبي حيان ، لا يتصنع تصنعا ممقوتا ، ولا يتكلف ما ليس في طاقته ، الا في بعض كتاباته الديوانية والسياسية ، وذلك ما يربطه في رأي التوحيدي بمدرسة ابن العميد النثرية في كثير من خصائصها كما سنرى ، أما فيما سوى ذلك فهو كاتب مطبوع متحكم في أدواته الفنية ، ولو ترك " نفسه على سجيتها ، أو لو اقتصد في صنعته لرفد الأدب بأكثر مما رفده ... " (5).

ومن ذلك أيضا يبدو مدى تهافت الرأي الذي انتهى اليه الشيخ محمد حسن آل ياسين من دراسته لبلاغة الرجل في الكتابة والانشاء ، فقد توصل من ذلك الى النتيجة التالية وهي قوله : " ان الصاحب أديب من الطراز الأول في عصره ، وكاتب من ذوي القابلية الكبرى في هذا الفن ، وأستاذ من أساتذة التصنيع المبرزين في القرن الرابع ، وان كل ما حاول أبو حيان تلفيقه ووضعه - وهو بصدد شتم الصاحب والوقيعة به - واضح البطلان ظاهر الخطأ ، مفضوح الغرض والهدف المقصود منه " (6). وهو رأي مبالغ فيه ،

---

(1) اليتيمة 3/ 193 .

(2) الهفوات النادرة ص300 .

(3) انظر رسائله ص 15 ، 16 . والأمثلة كثيرة .

(4) انظر أمثلة ذلك في رسائله ص99 - 110 .

(5) الصاحب ابن عباد لخليل مردم ص 137

(6) الصاحب ابن عباد : حياته وأدبه ص 269 .

ولا يصح اطلاقه على هذا النحو أمام الحجج والشواهد التي سبق اثباتها وشرحها .

وبعض المساوئ المعنوية والتعبيرية السابقة التي تصدق على الشعر والنثر معا تنطبق ،في نظر أبي حيان، على شعر الصاحب أيضا مثلما انطبقت على نثره وكتابته. ولذلك قال فيه :"وهل يدل ولوعه بالعروض الا على سوء الطبع وقلة التأتي ...".(1) وقال :"وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ،ويقول الشعر وليس بذاك ...".(2).

وتدل أخبار الصاحب وأشعاره التي وصلت الينا على مقدرته الشعرية وغزارة بديهته في النظم،وحسن تذوقه للشعر ونقده. فقد بقي لنا ديوان متوسط من أشعاره، يضم مختلف الموضوعات المتداولة في عصره كالمدح والفخر والهجاء والغزل والرثاء والحكمة والدعابة والوصف. ويضم كذلك قصائد مطولة في الدفاع عن مذهب الاعتزال، ونصرة الشيعة ومدح رجالها. وورد في أخباره ما حكاه أحد الشعراء ،وهو أبو الرجاء الضرير الشطرنجي الأهوازي ،قال :" قدم علينا الصاحب ابن عباد في السنة التي جاء فيها فخر الدولة(3)،ولقيه الناس ومدحه الشعراء ،فمدحته بقصيدة...،فلما انتهيت الى قولي فيها :

ويشرب الجيش هنيئا بها

فقال : يا أبا الرجاء أمسك ،فأمسكت ،فقال :

ويشرب الجيش هنيئا بها   من بعد ماء الري ماء الفرات

هكذا هو؟ قلت : نعم . قال : أحسنت . قلت : يا مولاي ، أحسنت أنت،عملت أنا هذا في ليلة ،وأنت عملته في لحظة...".(4) .

وتدل اشارات متعددة في اليتيمة وغيرها على امامته للشعراء والنقاد في عصره، فقد قال الثعالبي وهو يهم بايراد قصيدة للقاضي التنوخي(5) :" وقال من قصيدة كثيرة الميون،وكان الصاحب يفضلها على سائر شعره،ويرى أنها من أمهات قلائده...".(6). وقال عندما أراد أن يشيد بشعراء الشام:" وأخبرني جماعة من أصحاب الصاحب أبي القاسم اسماعيل بن عباد أنه كان يعجب بطريقتهم المثلى التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة،ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم،ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه

---

(1) أخلاق الوزيرين ص165، وانظر ص118، 482- 487 منه.

(2) الامتاع والموانسة 1/ 55.

(3) يقصد مجيئه لفتح بغداد سنة (379هـ) . انظر ذيل تجارب الأمم ص163 فما بعدها .

(4) معجم الأدباء 6/ 253 - 254

(5) أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم،كان من ندماء الوزير المهلبي . اليتيمة2/ 335، ووفيات الأعيان3/ 66

(6) اليتيمة 2/ 340.

من تلك البدائع واللطائف،حتى كسر دفترا ضخم الحجم عظيمها ،وكان لا يفارق مجلسه ولا يصل أحد منه عينه غيره. وصار ما جمعه منه على طرف لسانه،وفي سن قلمه، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته،وتارة يحله أو يورده كما هو في رسائله".(1).

ولا شك أن لمركز الصاحب السياسي والاجتماعي والثقافي يدا في هذه المكانة الأدبية التي اكتسبها ،ولكنه لا يلغي موهبته في الشعر،وطول باعه في نظمه وفهمه ونقده. الا أن ذلك كله لا يؤثر تأثيرا كبيرا في موقف أبي حيان من شعر الصاحب، وفيما ينسبه اليه من العناية بالزخرفة اللفظية واهمال المعنى،والتكلف والتقليد، وكثرة الادعاء والاغراب،والجرأة في التصريح بالعورات والفواحش،فهي كلها عيوب ومآخذ تتوفر في شعر الصاحب بدرجات متفاوتة في القلة والكثرة،والظهور والخفاء، وتدل عليها أخباره مع شعراء عصره ومواقفه منهم.

فمن شعره الذي تظهر فيه العيوب السابقة قوله:

الشيب ينشر عمرا ثم يطويه   والدهر يعمد همّا ثم يدنيه
وصاحب العصر لم تفرق مفارقه   من البياض وان لجّت عواديه
لي أربعون تمليت الأشدّ بها   ولي اثنتان حليف لا أواليه.(2)

وقوله:

ألف : أمير المومنين علي   باء : به ركن اليقين قوي
تاء : توى أعداءه بحسامه   ثاء : ثوى حيث السماك مضي
جيم : جرى في خير أسباب العلى   حاء : حوى العلياء وهو صبي (3)

وله قصائد مطولة كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء(4)،وتلك أعلى درجات التكلف والاغراب وحب الظهور.

وكان الصاحب معروفا بالاغارة على شعر غيره،اما بادعائه(5) أو سرقته أو تقليده، وقد قلد المتنبي وأخذ منه الكثير في شعره ونثره(6)،كما قلد غيره. قال الثعالبي بعد أن أورد نماذج من شعر الصاحب في وصف السرور والانبساط أيام الثلج والبرد " سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول عند انشاد هذه الثلجيات: كل هذه الثلجيات عيال على قول الصنوبري :

ذهب كؤوسك يا غلا   م فانه يوم مفضض (7)

---

(1) اليتيمة 1/ 13
(2) ديوانه ص143.
(3) المصدر نفسه ص160-161.
(4) انظر ديوانه ص147، 151.
(5) قارن بين بيتين وردا في البصائر والذخائر (2/ 762) وفي ديوانه ص280
(6) انظر اليتيمة 1/ 122، 3/ 275.
(7) اليتيمة 3/ 261،والصنوبري هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الحلبي الأنطاكي،من شعراء سيف الدولة،وهو مشهور بوصف الرياض والازهار،توفي سنة(334هـ) الأعلام 1/ 198-199.

والحق أن أغلب المآخذ المذكورة لا تظهر واضحة الا في قصائده المطولة وفي شعره الديني . أما مقطوعاته القصيرة فقد سلم له عدد كثير منها ،وفاز بعض أبياته بالجودة والسيرورة واعجاب الأدباء ،ولذلك قال الشيخ محمد حسن آل ياسين : ان أكثر شعره " ظاهر الصناعة والتكلف والتمحل ،وان ورد فيه بعض القطع والأبيات التي تعد في الرتبة العليا من الأدب العربي صفاء نغم ،وانتقاء لفظ ،ورقة معنى ،وروعة صياغة "(1).

واذن فان ما يعيبه التوحيدي عن شعر الصاحب لا يخلو من الصواب والحق ،ولكنه تجاوز حدود الانصاف ،وبالغ حين جرده من كل شاعرية أصيلة ،واعتبر شعره جسدا بلا روح . وقد أيده الدكتور عبد الحكيم بلبع في هذا الرأي أيضا فقال :" والذي نلاحظه بصفة عامة ،أن الصاحب فيما بين نثره ونظمه كان أقرب ما يكون الى الصنعة والتكلف ،وكانت عنايته بالتنظيمات اللفظية ونسج الصور الذهنية ،تطبع معظم كلامه بطابع الجفاف والافتعال . فأنت لا تحس بأن وراء كلامه عاطفة صادقة يصدر عنها ،أو احساسا عميقا بتجربة انسانية خصبة تحرك وجدانه ،وانما تحس بحركات ذهنية تسندها مقدرة فائقة على التصرف في وجوه القول ،والتمكن من نواصي الكلام "(2).

والحق أن شعر الصاحب ،اذا أردنا أن نصنفه ونضعه في اطاره الحقيقي ،ينبغي لنا أن نعتبره من شعر الكتاب المتخصصين في الكتابة الديوانية قبل غيرها ،وليس من شعر الشعراء المنتمين بقول الشعر والمنتحلين للقب الشاعر ،لأن الصاحب كاتب قبل أن يكون شاعرا ،والكاتب الناثر لا يلزمه " أن يجاري الشاعر في احكام صنعة الشعر لرغبة الكتاب في حلاوة الألفاظ وطيرانها ،وقلة الكلفة ،والاتيان بما يخف على النفس منها ... "(3). ولذلك يسامح الكتاب في كثير مما يحاسب عليه الشعراء . فاذا كان الصاحب قد حقق في شعره ما عرف في شعر زملائه من الرقة والحلاوة والجمال فذاك ،والا فقد اعتذر عنه وعن الكتاب كلهم صاحبه أبو الفتح ابن العميد حين قال :

فان كان مرضيا فقل شعر كاتب   وان كان مسخوطا فقل شعر كاتب(4)

تلك أهم الجوانب الفكرية والأدبية والثقافية العامة التي شارك فيها الصاحب معاصريه من العلماء والشعراء والأدباء ،ومن خلالها تظهر قيمة عقله وثقافته وأدبه . وبغض النظر عما صحب مشاركته فيها من مساوئ خلقية لا يرضاها العلم والدين ، ولا يقبلها التوحيدي من موقفه الاصلاحي والهجومي على الصاحب ،وبالرغم من أنها

---

(1) الصاحب ابن عباد : حياته وأدبه ص271
(2) أدب المعتزلة ص 342
(3) العمدة 2/ 109-110
(4) المصدر نفسه 2/ 110.

لا ترتقي به الى مصاف الشعراء الأفذاذ ،ومشاهير الشعراء والكتاب ،فانها تشهد له بالاستعداد العقلي والنفسي ،وبتوفر المقدرة القوية لبلوغ أعلى درجات العلم والمعرفة والأدب لولم تحقه مشاغله السياسية وأعماله في تنظيم شؤون الدولة وتسيير أمور الرعية. كما تشهد له بالحضور الايجابي في عصره وبين معاصريه،ومشاركتهم في همومهم المعنوية والمادية. وبذلك يمثل عصره بصورة أوبأخرى في جوانبه المهمة الكبرى ، ويمتاز عن وزراء عصره والسابقين عليه بهذه الميزة الفكرية والأدبية حتى قال فيه بعض من ترجم له انه كان " عالما بفنون من العلوم كثيرة لم يقاربه في ذلك وزير..."(1).

أما ما كان التوحيدي يرجوه له من تحقيق مثال الشخصية المثقفة والأديب العبقري الذي كان الصاحب يظن في نفسه أنه بلغه وتجاوزه،والذي كان التوحيدي ينافسه عليه ويحاربه بسببه،فأمر لم يكن ممكنا في ظل الظروف الاجتماعية التي عاصرها. وكفاه فخرا ما حققه ووصل اليه،وكفى التوحيدي أنه نبه على وجوه المرض والنقص التي عانى منها مجتمعه ومعاصروه من خلال تصويره لمظاهر الشذوذ في شخصية الوزير الكبير . وقد قال بعض من اهتم بثقافة الملوك والوزراء وأرباب السلطان: "اعلم أنه ليس المراد بالعلم في الملوك هو تصور المسائل المشكلة،والتبحر في غوامض العلوم،والاغراق في طلبها. قال معاوية: ما أقبح بالملك أن يبالغ في تحصيل علم من العلوم. وانما المراد من العلم في الملك هو ألا يكون له أنس بها الا بحيث يمكنه أن يفاوض أربابها فيها مفاوضة يندفع بها الحال الحاضر،ولا ضرورة في ذلك الى التدقيق"(2).

××

سياسة الصاحب بين الحظ الخارق والتدبير المحكم :

هذا جانب آخر من جوانب شخصية الصاحب لم يهمله أبوحيان،وانما أولاه قسطا من عنايته واهتمامه،وهو جانب السياسة والتدبير وتنظيم شؤون الدولة والأمة. ولم يبخل على صاحبه في هذا المجال أيضا بكل ما يطعن في قدرته وكفاءته في مهمته الأساسية.

فالصاحب في نظره جاهل بأصول مهنته ورسومها ،ولا قدرة له على البت في القضايا التي تعرض له ويقتضيها عمله. قال على لسان أحد أفراد حاشيتهم :" واذا أضربت عن باب الدين،ورجعت الى الكفاية التي زعم أنه بها تكفى وأنه كافي الكفاة(3)،وأنه واحد الدنيا ،هل كان يعرف من الحساب بابا؟ هل عقد جماعة ؟ هل عقدت له فتكلم

---

(1) المنتظم 7/ 180 .

(2) الفخري ص18.

(3) هو اللقب الثاني للصاحب. انظر معجم الأدباء 6/ 168 ، 173 ،و الصاحب ابن عباد : حياته وأدبه للشيخ محمد حسن آل ياسين ص 7-11 .

عليهما ؟.. هل أمكنه أن يحتج على عامل أو يناظر ناظرا ،أو يخاطب مشرفا ،أو يرسم في العمل رسما ،أو يجيب عن كتاب واحد في العمالة ؟.. وفيما يتعلق بأبواب النظر في العمارة، هل ناظر خائنا مقتطعا ،أو استدرك مالا مختلسا ؟ هل فصل حكومة بين كاتبين أو قطع خصومة بين جنديين ؟ هل رأينا ثم الا الرقاعة والتدفق والجنون والهذيان والتسايل والتمايل[1]، والبقبقة[2] والطقطقة[3] والقرقرة والبربرة[4] ؟ الا أنه غلط فيه ووثق به ،ووكل اليه الرأى ..."[5].

وترتب على هذا الجهل والغرور ضياع حقوق الناس وفساد مصالحهم، واختلال أمور الدولة، ولذلك وصف الأحوال العامة في عهده بقوله:" أعمال باثرة، وبلاد غامرة، وأموال محتجنة، وطامع مستحكم، وضعف غالب، وعدو راصد، ووقت فائت بالفرص، وخسوف مؤذن بسوء العاقبة..."[6] وأكد أن الرجل فقد عنصرين مهمين من عناصر التدبير والتسيير، وهما الرأى الصائب والشجاعة الصادقة " فهو دهره على وجل وذعر، ان صال فعلى القريب الداني، وان هم فبمضلات الأماني، فليس تتجاوز صولته عبده، ولا يخاف عدوه كيده..."[7].

واذا سئل أبو حيان عن السر في نجاح الصاحب وتفوقه وشيوع ذكره وسعة نفوذه يجيب بأنه الحظ" الذي يرفع من هو أنذل منه، ويضع من هو أرفع منه "[8]، فقد واتته الفرصة، وساعدته الظروف السياسية التي عاصرها وعاش فيها، فارتقى بسرعة عجيبة، وتخلص من أعدائه، وفاز بثقة أولياء نعمته، فصال وجال كما شاء له هواه دون منافس أو معترض، فهو " لم يذل لأحد، وذل له كل أحد، وأمر كل انسان وما نهاه انسان، وضرع اليه كل محتاج وما احتاج الى غير.. وهكذا يفسد كل من فقد المخطئ له اذا أخطأ، والموبخ له اذا أساء، والمقوم له اذا اعوج، لا يسمع الا: صدق مولانا، وأصاب مولانا، وما له في الزمان ثان، ولم يعرف فيمن تقدم له نظير"[9]. وبذلك صارت وزارته " خلافة عن عمالة "[10].

---

(1) انظر قريبا من هذا الوصف في الامتاع 1/ 59.

(2) البقبقة: ترداد كلمات وأصوات معينة، وهي في الأصل حكاية صوت الكوز في الماء، القاموس مادة (بقبق)

(3) الطقطقة: الضجيج، وهي في الأصل حكاية صوت الحجارة، القاموس مادة (طقطق)

(4) البربرة: كثرة الكلام والجلبة. القاموس المحيط مادة (بربر).

(5) أخلاق الوزيرين ص 215 — 217.

(6) المصدر نفسه ص 143.

(7) نفســــــه ص 53، وانظر معجم الأدباء 6/ 266

(8) أخلاق الوزيرين ص 122، وانظر الامتاع 1/ 69—70

(9) أخلاق الوزيرين ص 143، وانظر الامتاع 1/ 58، و

Pour un Humanisme vécu : Abu Hayyan Altawhidi لمارك بيرجيه ص 163

(10) أخلاق الوزيرين ص 117

وعندما نعود الى سيرة الصاحب وأخباره في كتب التاريخ والأدب للتأكد من حقيقة هذه الصورة التي يقدمها أبوحيان عن كفاءة الصاحب السياسية والادارية، ومعرفة مدى صحتها أو بطلانها، نجد فيها بعضنا يؤكد أقوال أبي حيان ويساندها، وبعض ما ينفيها ويكذبها ويطعن في صحتها.

فقد أورد صاحب ذيل تجارب الأمم خبرا طريفا يدل على شذوذ تفكير الصاحب في تدبير مصادر بيت المال، وعدم تقيده بالرسوم المتداولة في هذا الشأن فقال: "قيل انه رسم لكتاب البلد (1) عمل حساب بارتفاع كل كورة، فعملوه وحملوه اليه، فأمر بجمع العمال والمتصرفين وأن يخرج ارتفاع كل ناحية ويحضرهم عليهم ويزايد بينهم. فكان ينادى على النواحي بين العمال كما ينادى على الامتعة بين التجار. وهذا الحديث مستطرف في حكم النظر، وقيل انه غير مستنكر عند كتاب الري وتلك البلاد، لأن معاملتهم جارية على عقود وقوانين، فأما العراق وما والاها فلم نسمع بمثل ذلك فيها، الا ما كان من قديم الناس من المزايدة بين التجار في غلات السلطان" (2). فلولا غرابة هذا التصرف من الصاحب لما دونه المؤرخون.

وقد اشتهر في تاريخه سوء علاقته بصاحبه فخر الدولة أثناء الحملة التي جهزاها لفتح بغداد، فقد شك الأمير البويهي في صدق نية وزيره لما عرفه فيه من رغبة شديدة في حكم العراق وتولي الصدارة بها، فخاف أن يستميله أمراؤها فيغدر به (3).

ودون المؤرخون أيضا قصة مثيرة تدور حول عزم عضد الدولة القبض عليه واستصفاء أمواله لولا أن انكشف تدبيره قبل تنفيذه (4). وكل ذلك دليل على اهتزاز مكانة الصاحب لدى أولياء نعمته، وعدم استمرار فوزه بثقتهم المطلقة طيلة أيام وزارته.

على أن أكبر دليل على فساد علاقة الصاحب برؤسائه، وسوء تدبيره لشؤون الوزارة وأمور الرعية، هو ما حدث بعد وفاته: فقد صادر فخر الدولة أملاكه وذخائره، وخالف بذلك ما نصحه به قبيل وفاته من عدم القيام بأي عمل من شأنه أن يسيء الى سمعتهما. وصادر أيضا "كل من جرت مسامحة باسمه في أيامه" (5)، وقال لأبي العباس الضبي (6) خليفته في الوزارة: "ان الصاحب أضاع الأموال وأهمل الحقوق، وقد ينبغي أن يستدرك ما فاتنا منها" (7).

الا أن هذا كله لا يخلو من الأسباب المعقولة الداعية اليه، لا يتسع المجال لشرحها هنا، فضلا عن أنه لا يطعن بقوة في كفاءة الصاحب السياسية والادارية. لذلك فهو لا يهدم ما قام

---

(1) يقصد بلد الأهواز وقد ملكها الصاحب في طريقه مع فخر الدولة لفتح بغداد كما سيأتي.
(2) ذيل تجارب الأمم ص171
(3) انظر الكامل لابن الأثير 7/ 139، وذيل تجارب الأمم ص164
(4) انظر القصة مفصلة في معجم الأدباء 17/ 106 فما بعدها، وذيل تجارب الأمم ص19-20.
(5) ذيل تجارب الأمم ص264، وانظر معجم الأدباء 2/ 116-117
(6) تقدمت ترجمته في ص 187 حاشية رقم 9.
(7) ذيل تجارب الأمم ص263

عليه نجاح الرجل وشهرته وبقاؤه في الوزارة دون عزل أو مضايقة حتى آخر يوم من أيام عمره. فلولا مقدرته في السياسة والحرب والتدبير، ولولا مناعة جانبه وضخامة الثقة التي وضعها فيه رؤساؤه وأولياء نعمته لما تم له ذلك ولا قريب منه.

ولنسمع الى قصته مع الوزارة ملخصة بلسان ياقوت. قال: لما مات" ركن الدولة وولي مؤيد الدولة بلاده بالري وأصبهان وتلك النواحي، خلع على أبي الفتح ابن العميد وزير أبيه خلع الوزارة، وأجراه على ما كان في أيام أبيه الى أن قتل... واستوزر الصاحب، واستولى على أموره وحكمه في أمواله. ولم يزل على ذلك الى أن مات مؤيد الدولة. وكان فخر الدولة أخو مؤيد الدولة قد هرب من أخيه عضد الدولة، والتجأ بخراسان الى السامانية هو وقابوس ابن وشمكير(1) في أخبار يضيق كتابنا عنها، فنفذ الصاحب اليه وأحضره وملكه البلاد، فأقر الصاحب على أمره. فأراد الصاحب اختباره: هل في نفسه عليه شيء مما كان في أيام مؤيد الدولة الذي أوجب هرب فخر الدولة فاستعفاه من الخدمة والوزارة. فقال له فخر الدولة: لك في هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة، فسبيل كل واحد منا أن يحتفظ بحقه، ولم يعفه. ولم يزل على أمره معه الى أن مات الصاحب والأمور تصدر عن رأيه والملك يدبر برأيه. وكان اذا قال فخر الدولة قولا، وقال الصاحب قولا، امتثل قول الصاحب وترك قول فخر الدولة" (2).

وتتحدث كتب التاريخ عن تعظيم رؤسائه له ومبالغتهم في اكرامه وتوقيره، وشعورهم بالحاجة الدائمة الى رأيه وخبرته(3). فقد "كان لآل بويه عمادا لم تزل بيوتهم ثابتة بثباته، وثمالا(4) استقامت قبابهم بدوامه، فما من فضل الا واليه ينتمي، ولا فضيلة الا به تلتقي..."(5).

وقال ابن كثير مشيدا به: "ولم يكن في وزراء بني بويه مثله ولا قريب منه في مجموع فضائله... وفتح خمسين قلعة لمخدومه مؤيد الدولة وابنه(6) فخر الدولة بصرامته وحسن تدبيره وجودة رأيه"(7).

وبعد هذه الشواهد والدلائل على نجاح الصاحب وتفوقه، وعلى تمكنه من الأمور بفضل

---

(1) شمس المعالي قابوس بن وشمكير، ابن أخ مرداويج، تولى امارة جرجان وطبرستان سنة (366هـ)، وكان شديد السطوة والهيبة. قتل سنة (403هـ)، وهو أديب كاتب له ديوان رسائل بعنوان (كمال البلاغة) اليتيمة 4/ 59–61، ومعجم الأدباء 16/ 219–233، وتاريخ ابن خلدون 4/ 497–498.

(2) معجم الأدباء 6/ 173– 174. وانظر التفاصيل في أخلاق الوزيرين ص532–547، وتجارب الأمم 2/ 414–415، وذيل تجارب الأمم ص93–95، والكامل 7/ 117 فما بعدها.

(3) انظر ذيل تجارب الأمم ص10–11، 18

(4) الثمال: غياث القوم وربيعهم. القاموس المحيط مادة (ثمل).

(5) شرح اليميني 1/ 201

(6) هو أخوه وليس ابنه كما في النص.

(7) البداية والنهاية 11/ 315

امكانياته الذاتية قبل غيرها ،تبقى أقوال التوحيدي،في الطعن في مقدرته السياسيةوالادارية،
في حاجة ماسة الى مزيد من التبرير والتأييد يزيل الشك فيها ويناصرها. ولما كانت
حجج خصمه قوية ثابتة فلا مناص من قبولها والتسليم بصحتها وغلبتها. الا أن عذر أبي
حيان في ذلك هو اختلاف مقاييسه في الحكم على الناس وتقويم سلوكهم وأخلاقهم،
عن مقاييس غيره من الكتاب والمؤرخين،ومطالبته معاصريه من الحكام والوزراء،في قسوة
وعنف وجرأة،بتطبيق قواعد العدالة المطلقة بين البشر.

وربما كان اتفاق عضد الدولة ومؤيد الدولة على القضاء على أبي الفتح ابن العميد،
عدو الصاحب الأول ومنافسه على الوزارة كما سنرى(1)،وخلو الجو بعد ذلك لابن عباد في
الرئاسة والنفوذ،يفسر مسألة الحظ التي يعلل بها أبوحيان نجاح الرجل.

وكيفما كان الحال فان موقفه من مقدرة الصاحب السياسية والادارية ينسجم تمام
الانسجام مع موقفه من ثقافته وأخلاقه،فمساوئه الاخلاقية والدينية والفكرية تعني أنه
فقد العناصر المهمة الكبرى التي هي أساس بناء الانسان المتكامل المستقيم،والتي هي في نظر
أبي حيان "دعائم العالم،وأركان الحياة،وأمهات الفضائل"(2)،وهي الخلق والدين
والعلم،وفقد معها العقل الذي تنبني عليه هذه العناصر،وتفتقر اليه افتقارا بينا في
القيام بوظائفها وتنظيم أعمالها،وبلوغ الغاية المقصودة منها. وعلى هذا الأساس لا
تفسير لما ناله من مجد وشهرة وسعة نفوذ الا المصادفة والحظ،ولا أثر لعقله في أي شيء
من ذلك.

وفقدان الصاحب للعقل ومرضه بالجنون والغفلة والاضطراب النفسي،أشياء أكدها
أبوحيان في أكثر من مناسبة،وبنى عليها أغلب حكاياته وقصصه عن الرجل. وأمثلة
ذلك متعددة في الكتاب: فقد نقل عن أحد جلساء الصاحب قوله في وصفه:" حاله
أحوال،وشأنه شؤون،وكل ذلك جار على الجنون"(3). ونقل قول آخر:" قد والله جبت الآفاق،
ولقيت أصناف الناس في الشرق والغرب،فما رأيت رجلا في جنونه أعقل منه،ولا في عقله أجن
منه،وانه لأعجوبة ..."(4). وهو في نظره شرير بطبعه ومتفوق على ابليس في الخبث
والشر،لأن "ابليس وان كان شريرا فهو عاقل،وهذا يزيد عليه لانه شرير وهو أحمق"(5).
وكان ابن العميد أبو الفضل يضحك منه ويسترقعه،ويعجب من خفته وطيشه،وقال فيه "هو
أحمق بالطبع الا أنه طيب،وان كان له يوم تضاعف حمقه وذهب طيبه..."(6). وقال أحد

(1) انظر أخلاق الوزيرين ص 532–547 وسيأتي تفصيل القول في هذه المسألة في الفصل التالي.
(2) أخلاق الوزيرين ص27،وانظر ما سبق في ص 175
(3) أخلاق الوزيرين ص316.
(4) المصدر نفسه ص319.
(5) نفسه ص318– 319
(6) نفسه ص 126.

النافقين عليه بالزور والكذب والبهتان ورواية أقوال الشحاذين والمقامرين وحكاية أحوالهم :
" لولم تستدل على جنون هذا الرجل وقلة دينه وضعف عقله الا بنفاقي عليه لكفى ..."(1)
وكان أبوحيان يعلق على بعض قصصه وأخباره عنه بمثل قوله :" أفهل هذا الا رقاعة تحتها جنون صرف ،وسرطان في الدماغ،وعلة في العقل،وفساد في المزاج ؟" (2).

والصاحب يظن عند نفسه أن عاهته هذه وما نتج عنها من أخلاق مرذولة وسلوك مستهجن خافية عن المحيطين به والمتعاملين معه من " نقاد الأخلاق،وجهابذة الأحوال،والذين قد فرغهم الله لتتبع الأمور واستخراج ما في الصدور،واعتبار الأسباب"(3) ولكن الحقيقة أنهم " قد نقدوه وبهرجوه ،وتركوا التعامل به،وانما هو ومبهرج ،وهبوب ريح ،وخفق راية..."(4). وأبوحيان ،وهو من هؤلاء النقاد المتفرغين،بعد الدراسة المتأنية لشخصية صاحبه وعقله ونفسه، وصل الى حكم نهائي عليه،وهو" أنه ليس بجيد العقل ولا خالص الحمق، وكل كدر بالتركيب فقلما يصفو ،وكل مركب على الكدر فقلما يعتدل . الا أن الانحراف متى كان الى جانب العقل كان أصلح من أن يكون الى طرف الحمق ..." (5) .

ولم يفته أن يستفتي في أمره بعض شيوخه وأصدقائه كأبي سليمان المنطقي وأبي زكريا الصيمري ،فأفتاه أبوزكريا أن " النحس الذي لحقه في عقله حتى صار لذلك رقيعا أهوج ،سيء الأدب ،حديدا ، كثير الكذب ، شديد التلون...هو أعظم من جميع ما أعطيه من المال الكثير،والمرتبة العالية،ومن الخيل المسومة، ومن الدور والقصور...لأن العقل اذا صح فهو المنيحة التي لا يوازيها شيء،واذا اختل فهو البلوى التي لا يتلافاها شيء..."(6) ووافق أبو سليمان على هذا الكلام معللا موافقته باستحالة بلوغ الانسان الى درجة الكمال ،ما دام خاضعا في وجوده وحياته للأجرام السماوية المختلفة في عناصرها وتركيبها ،وفي صفائها وكدرها ،وما دامت حكمة الله في خلقه تقضي أن يكون " العبد أبدا في منزلة من النقص وحال من العجز يكون بهما ضارعا الى خالقه، طالبا لفائته من مالكه،وليكون بين العبد المعجون من الطين ،وبين الله مدبر الخلق،فرق"(7).

ويبدو أنه من العبث أن نبحث في سيرة الصاحب وتاريخه وأخباره،عما يسوغ الحكم

---

(1) أخلاق الوزيرين ص 184
(2) المصدر نفسه ص 299
(3) الامتاع والمؤانسة 1/ 59-60
(4) أخلاق الوزيرين ص 343
(5) الامتاع والمؤانسة 1/ 60
(6) أخلاق الوزيرين ص302-303
(7) المصدر نفسه ص 305

عليه بالجنون والمرض النفسي والعقلي ،فهو حكم لم يرد ما يشير اليه في آثاره وترجمته على كثرة مصادرها ،وعوضا عن ذلك نجد ما يصوغه عند أبي حيان نفسه،في خصوصية تفكيره، واهتمامه بالأخلاق في جانبيها النظري والتطبيقي ،وفي اتخاذه من الوزيرين نموذجا تطبيقيا لآرائه في النفس الانسانية،وفي مذهبه الخلقي والفلسفي على وجه العموم[1] .

ومهما كان سوء النية عند أبي حيان ،ومهما بلغ سكوت المصادر عن التصريح بهذه التهمة ،فلا شك أن سلوك الصاحب وتصرفاته وأقواله الخاصة قد سمحت ،بشكل ما ، لأحد كبار المفكرين الفنانين المعاصرين له ،وهو التوحيدي ،بتصويره بهذه الصورة والحكم عليه بهذا الحكم.

ولو التمسنا للصاحب عذرا فيما وصفه به أبوحيان من الحمق والجنون لوجدناه فيما كان يقوله وزير كبير متقدم من وزراء القرن الرابع،لعله كان قدوة لابن عباد في السياسة والحكم والسلوك ،هوأبوالحسن ابن الفرات[2]، فقد روي عنه أنه كان يقول : " أصل أمور السلطان مخرقة ،فاذا تمت واستحكمت صارت سياسة"[3]. وكان يقول أيضا :" تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب"[4]،وهذا معنى غريب حقا ،ولكنه يناسب تحليل أبي حيان لحياة الصاحب وسلوكه ،كما يناسب موقفه العام من عصره ومعاصريه. ولولا صدوره من وزير مقتدر واسع الذكاء والتجربة، عاش أحداثا رهيبة في عصر مضطرب[5] ،لما كان له وزن وقيمة. ولعل عصر الصاحب وأبي حيان كان أوفر اضطرابا وتوترا ،وأبعث على الحمق والجنون[6] ،وخاصة في رأي أبي حيان.

وبفراغنا من الحديث عن موقف أبي حيان من سياسة الصاحب وعقله تتم الدورة في تحليل شخصيته وأخلاقه. وهي دورة استندت الى الأركان الأربعة الكبرى التي اعتبرها أبوحيان دعائم الحياة الانسانية المتكاملة[7] .ولقد تتبع حياة الصاحب على ضوئها وهديها فانتهى الى الحكم عليه بكل ما في ديوان الشر من القبائح والرذائل. ولعل المناقشات والردود التي فصلنا القول فيها خلال عرضنا لاتهامات أبي حيان تظهر أنها اتهامات لا تخلو من أسس موضوعية واقعية سوغت انطلاقها وصدورها من رجل موتور من الصاحب مثل أبي حيان ،ولعلها تظهر أيضا أنها اتهامات تتضمن أحكاما وأوصافا مبالغا فيها بدافع الرغبة في الانتقام والتجني. وربما يكون في ذلك

---

(1) انظر تفصيل هذه الأمور في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث ص 82–83 ، 117 فما بعدها .
(2) تقدمت ترجمته في ص 10 حاشية رقم 4.
(3) تحفة الأمراء ص73.
(4) المصدر نفسه ص135.
(5) انظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص 2–4.
(6) انظر ما سبق في المقدمة التاريخية ص 21، 37–38
(7) انظر ما سبق في ص 175.

كله ما يحقق الغاية الكبرى التي توخينا ها من هذه المقارنة بين مساوئ الصاحب ومحاسنه، وهي تقريب مسافة الخلاف والتنافر بين صورة الصاحب عند أبي حيان وصورته عند غيره من الأدباء والمؤرخين ومنهم الصاحب نفسه، ومحاولة توضيح معالم صورته الحقيقية دون مبالغة أو تزوير.

واذا التمسنا في الأخير حكما نهائيا على موقف أبي حيان من صاحبه فسنجده عند التوحيدي نفسه في كتابه (أخلاق الوزيرين) ذاته، وهو قوله : ان أحسن الناس أحالا، وأسعدهم جدا، وأبلغهم يمنا، وأربحهم بضاعة، من كانت محاسنه غامرة لمساويه، ومناقبه ظاهرة على مثالبه، وما دحه أكثر من هاجيه، وعاذره أنطق من عاذله...".[1]

ولعل هذا الحكم ينطبق تمام الانطباق على الصاحب ابن عباد. ولكن أبا حيان يرفضه رفضا مطلقا، ويطالب الوزير الخطير بتحقيق نموذج الشخصية العربية المسلمة الصالحة المصلحة الذي يدعيه وينتحله زورا وكذبا في نظره. وكان مدفوعا في ذلك، فضلا عن رغبته في الثأر والانتقام، باهتمامه بالاصلاح الخلقي في عصره، وبدراسة التجارب الانسانية واستخلاص حقائقها الموضوعية، وتمييز صحيحها من زائفها، في عصر كثر فيه الزيف والنفاق، وغطت فيه الأكاذيب والأباطيل على كل حقيقة أصيلة، وضاقت الأحوال بأكثر الناس، فسموا الى أولياء أمورهم، يتملقونهم ويكذبون عليهم، رغبة فيما بأيديهم من الكسب الحلال والحرام[2]. وقد كان خالد بن برمك[3] يقول: "المجيب للسلطان كيف يحسن، ولو أساء كل الاساءة لوجد من يزكيه ويشهد بأنه محسن"[4].

ومما له معنى الدلالة في شخصية الصاحب وسلوكه وسيرته مارواه أبو محمد ابن المنجم[5]. قال: "أنشدت أبا القاسم الزعفراني[6] :

رق الزجاج ورقت الخمر ... وتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر (7)

فقال: لعن الله قائلهما فقد سرقهما من أبي نواس، فقلت :هما للصاحب. فقال :لعن الله أبا نواس فقد سرقهما من مولانا الصاحب، فقلت :كيف سرق أبو نواس من مولانا الصاحب؟ فقال: دعنا من هذا ما سرق الا منه"[8]

---

(1) أخلاق الوزيرين ص26.
(2) انظر أخلاق الوزيرين ص79—84.
(3) خالد بن برمك، جد البرامكة واول وزير منهم، وزر للسفاح والمنصور من بعده، وكان فاضلا جليلا كريما حازما. توفي سنة (163هـ). انظر مروج الذهب 3/ 377، والفخري ص156—158والوزراء والكتاب ص89
(4) الوزراء والكتاب ص178.
(5) شاعر ممن جالس الصاحب وحظي عنده هو وأخوه علي بن هارون، وقد نال منهما أبو حيان بسبب ذلك، وهما ينتميان الى أسرة عريقة في صحبة الخلفاء والوزراء ومنا شرتهم. انظر الفهرست ص 211 وأخلاق الوزيرين ص160—161، واليتيمة 3/ 114—116، 209.
(6) أبو القاسم عمر بن ابراهيم الزعفراني الشاعر البغدادي، من ندماء فخر الدولة وعضد الدولة والصاحب، أشاد أبو حيان والثعالبي بفضله وشرفه. أخلاق الوزيرين ص105، 308، واليتيمة 3/ 342 — 352.
(7) البيتان من اشهر شعر الصاحب. انظر ديوانه ص 176.
(8) محاضرات الادباء 1/ 85.